علال الخديمي

التدخل الأجنبي والمقاومة بالمغرب

1910 - 1894

حادثة الدار البيضاء واحتلال الشاوية

أفريقيا الشرق

التدخل الأجنبي
والمقاومة بالمغرب

حادثة الدار البيضاء واحتلال الشاوية

تصميم الغلاف عمر أفوس

الطبعة الثانية 1994

إفريقيا الشرق

رقم الايداع القانوني 1990/917

علال الخديمي

التدخل الأجنبي والمقاومة بالمغرب

1894 1910

حادثة الدار البيضاء واحتلال الشاوية

إفريقيا الشرق

الإهـــــداء

إلى روح والدي....

أصل هذا الكتاب بحث أكاديمي نوقش في كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط بتاريخ 27 يونيو 1985.

شكـــر وتقـديـــر

أود في مقدمة هذا البحث أن أتقدم بأخلص عبارات الشكر والامتنان للأستاذ جرمان عياش الذي قبل الاشراف على هذا البحث، والذي لم يبخل علي بجهده ووقته وتوجيهه السديد.

كما أود أن أشكر كل من مد لي يد المساعدة والتشجيع.

فإلى الجميع أقدم أخلص عبارات التقدير والاعتراف بالجميل.

الرموز المستعملة

و خ ح وثائق الخزانة الحسنية بالرباط.
م خ ح مخطوط الخزانة الحسنية بالرباط.
ك ح خ كناش الخزانة الحسنية بالرباط.
و ع س وثائق الحاج العربي بن سعيد (سلا).
م خ ع مخطوط الخزانة العامة الرباط.
ك خ ع كناش الخزانة العامة الرباط.
و – تطوان وثائق الخزانة العامة بتطوان.
م س مرجع سابق.

- A. G. V. Archives de guerre Vincennes.

ـ وثائق وزارة الحربية الفرنسية بفانسين.

- A. E. P. Affaires Etrangeres a Paris.

ـ وثائق وزارة الخارجية الفرنسية بباريز.

- A. M. V. Archives de la marine Vincennes.

ـ وثائق البحرية الفرنسية فانسين.
ـ وثائق وزارة الخارجية البريطانية.

- F. O. Foreign office.
- A. B. Archives Berberes.
  R. M. M. Revue du Monde Musulman.
- A. F. L'Afrique Francaise (Bulletin du comite de).
  R. C. Renseignements coloniaux.
- B. O. Bulletin Officielle.
- D. D. F. Aff. M. Documents diplomatiques francaises, Affaire du Maroc.
- B. Soc. Geo. A.N. Bulletin de la societe de geographie d'Alger et de l'Afrique du Nord.
- A. M. : Archives marocaines.

تقديم بقلم الأستاذ جرمان عياش

يغلب في اعتقاد الناس ، خارج المغرب وحتى داخله أن المستعمر الفرنسي مع شريكه الإسباني ، فرض طبعا وجوده فرضاً ؛ لكن استقراره كان سلمياً ، بعقد معاهدة اعترف فيها السلطان بما يسمى بالحماية.

أما الواقع التاريخي ، فإنه بعيد جداً من هذا الإعتقاد ذلك أن الإستعمار الفرنسي الإسباني ، لم يستقر في المغرب ، ولم تستتب له الأمور فيه إلا بعد غزو عسكري ، تعرض فيه لمقاومة عنيفة وكلفه خسائر باهظة. وبغض النظر عن مقاومة جبال الأطلس التي استمرت إلى 1934 ؛ اشتدت وتكررت الحرب منذ 1907 ، أي قبل الحماية بخمس سنين إلى 1926 أي بعدها بأربع عشرة سنة.

إن هذا الحق التاريخي مجهول ، لأن الكتب الأكثر رواجاً في السوق تلازم الصمت عنه أو تكاد. أما كتب المختصين التي توجه إلى أقلية من المثقفين ، فإنها لاتلم بمرحلة من مراحل هذه الحرب الطويلة إلا للتخفيف من وطأتها بالتزوير وإخفاء الكثير منها. بل تأثر بهذا الإخفاء وهذا التزوير حتى الرواة المغاربة. وهذا شأن عبد الرحمان بن زيدان الذي لم يزد على أن نسخ ما وجده منشوراً في الكتب والجرائد الفرنسية ، مع أنه مغربي ومعاصرللأحداث ، وفي ذلك عبرة للمؤرخ إزاء المصادر مهما كانت صبغتها.

ماعسى أن تكون نتيجة تحليل تاريخي على أساس هذا الجهل وهذا التزوير هي كنتيجة تحليل الدم في مخبر على أساس البول!

تتجلى إذن من هذه الحالة الحاجة الملحة إلى إخراج ، من زوايا النسيان هذه الحروب التي خاضها المغاربة ضد الإستعمار. قبل عقد الحماية وبعده. واسترجاع صورتها الصحيحة. ولهذا ينبغي أن نعترف بالجميل لعلال الخديمي الذي لم يتحرج من القيام بهذا الواجب بالنسبة إلى أولى هذه الحروب . وهي حرب الشاوية مابين 1907 و1908 بعد هجوم الفرنسيين على الدار البيضاء وأحسن القيام بهذا الواجب.

كان عليه أن يستخرج حقيقة الوقائع التي عاشتها مدينة الدار البيضاء مابين 30 يوليوز 1907 وسابع غشت.

ماهي رواية هذه الوقائع في الصحف الفرنسية انذاك ، ولدى من اعتمد عليها من المؤرخين ؟

كانت شركة فرنسية قد شرعت في عمل إحداث رصيف في ميناء الدار البيضاء ، فدهش أهل المدينة من باخرة القطار الحامل للحجر المستعمل من أجل ذلك، لأنهم رأوا فيها تجسيدا للشيطان الرجيم ، فذبحوا سائقها الفرنسي وبعض أصحابه النصارى فعم الإضطراب المدينة التي أقبل عليها أوباش القبائل المجاورة ، فنهبوا وخربوا وسلبوا وقتلوا حتى اضطرت الحكومة الفرنسية إلى إرسال أسطول لحماية رعيتها المقيمين في المدينة وغيرهم من الأوربيين. نزلت إذن نجدة من البحارة الفرنسيين التي أذن لها عامل المدينة بالدخول سلمياً قاصدة القنصلية الفرنسية. لكنها هوجمت غدراً أمام باب المرسى الذي سُدّ في وجهها فاقتحمته وتقدمت إلى القنصلية مدافعة عن نفسها فلم ير رئيس الأسطول الفرنسي بداً من أن يتدخل لانقاذ نجدته وإعادة الأمن في المدينة ، بمدفعيته الثقيلة. التي أمطرت قنابلها ليلاً ونهاراً من فجر خامس غشت إلى مغرب السابع منه.

الحاصل أن الفرنسيين لم يكن لهم إلا دور دفاعي إنساني محمود يجب للجميع أن يعترف لهم بالجميل. بما فيهم السلطان الذي عجز عامله عن ضبط الأمور في المدينة ومواجهة الفتنة.

من البديهي ، أن المؤرخ الصحيح لايقبل هذه الرواية دون المناقشة المحتومة ، لكن هذه المناقشة ليست من الأمر اليسير. ذلك أن الشهادات المغربية المكتوبة ، في شكل الوثائق الرسمية قليلة بسبب انفلات الأمور من أيدي الحكام. ومامنها في متناول الباحث هو أقل القليل. ومثله يقال عن الشهادات غير الرسمية ، لأن أغلبية المغاربة الذين عاينوا الحادثة ، هلكوا فيها ، ومن تبقى أمي لم يترك شيئا مكتوبا. فكان على الباحث أن يلتجىء إلى مابقي له من الوسائل منها شهادة غير الفرنسيين من الأوربيين الحاضرين في عين المكان ، الإنجليزيين بالخصوص بما عسى أن يكون في هذه الشهادات من الحياد. ومنها الوثائق الفرنسية الرسمية لأنها سرية ، فغالباً ماتكون فيها الأمور مذكورة كما وقعت ، كما يكشف فيها النقاب عن النوايا الحقيقية. ومنها حتى شهادة بعض الفرنسيين ، الذين اجترأوا بالصراحة. بل منها حتى أقوال الكاذبين ، لما قد يكون فيها أحيانا من التناقض في أكاذيبهم. هذا

عمل استنطاق معقد بذل فيه علال الخديمي مجهوداً ناجحاً تمكن بفضله من تصحيح الرواية الموثوق بها إلى حد الان تصحيحا عاماً.

فيما يتعلق أولا بمنطلق الحادثة ، أي مقتل العمال الأوربيين بالمرسى فإنه دحض الرواية ، التي ترجعه إلى توحش المغاربة أو رفضهم للتقدم ، أو تعصبهم ضد الأجانب بصفة عامة فأيد بمزيد من الدلائل ماكنت أثبته شخصيا في إحدى دراساتي من أن هذه الحادثة نتيجة الحمية الوطنية لما ثارت ثائرة الجمهور لرؤية جلوس مراقب فرنساوى داخل جمرك المرسى.

ثم أقام الدليل على أن الهيجان قد سكن بعد هذه الحادثة فكانت بعدها المدينة هادئة ، مما يكذب تهافت أهل القبائل للنهب والسلب فيها. ويكذب بالتالي أن التدخل الفرنسي بإنزال النجدات المقاتلة والقنبلة بالمدفعية الثقيلة لم يكن إلا لاعادة الأمن وحماية الجالية الأوربية. بل أقام الدليل على أن مقتل بعض الأوربين لم يكن في الواقع سببا جاء التدخّل الفرنسي عاقبة له ، وإنما كان الفرصة المرتقبة لتنفيذ مشروع دبز له قديما ، ولا على متن البوارج الحاضرة ، بل في الحكومة الفرنسية نفسها طبقا لغرضها للإستيلاء على البلاد بأسرها. وهذا المشروع هو تأسيس رأس جسر في الشاطىء الأطلسي ، ينطلق منه فيما بعد جيش الغزو. وفي الوقت نفسه كان المراد هو إلقاء ضربة مهولة تظهر بفضلها قوة الدولة الفرنسية وتخمد رأساً شعلة أية مقاومة حالا ومستقبلا.

على أن الغزاة أخطأوا كليا لأنه غلب في اعتقادهم أنهم يواجهون حقاً جموعاً من الأوباش ، تكفى ضربة قاسية لتشتيت شملهم ، الذي لم يجمعه إلا حرص البائسين على اختطاف أموال الغير. وهذا الغلط ناتج عن تأويل غير صحيح للحالة المضطربة التي تعم المغرب آنذاك. وكانت قبائل الشاوية مرتبكة فيها على الخصوص. كان الأوربيون لايرون في هذه الحالة إلا مظهراً من مظاهر الفوضى المزمنة أو السيبة على حد قولهم التي عاش دائما المغرب منغمسا فيها. في حين أن القبائل واعية تعلم أن انحلال مجتمعها راجع فوق كل شيء إلى تدخل الأوربيين وتضييقهم المتزايد على الناس ، وعلى الحكام بأموالهم ورشاويهم ومحمييهم ومخالطيهم ومدافع بوارجهم ، فتغلي فيها القلوب اغتياظاً على الأجانب المستأثرين وعملائهم ، وكل من انتمى إليهم ، بل على عمال المخزن لما تجلى من عجزهم عن حماية الرعية بل لما تجلى من يأسهم ونزولهم عند إرادة النصارى. هذا هو الأصل الأصيل لهذه الإنتفاضات المتتالية التي زعزعت بلاد الشاوية. منذ وفاة مولاى الحسن وخصوصا قبيل حادثة الدار البيضاء. فلعلال الخديمي فضل كبير حيث أنه أتى بالحجج المناسبة لأثبات هذه الحقيقة ، مكذبا بذلك نظرية الباحث الأمريكي بورك الذي لم يزد تجديده

لنظرية السيبة الإستعمارية القديمة إلا أن نسب إثارتها إلى أقلية من الأعيان المتمولين بفضل الحماية الأجنبية المعتزمين على صيانة امتيازاتهم ، فليست هذه نظرية جديدة وإنما هو تزوير جديد لأنه محو لروح هذه الإنتفاضة الشعبية بل روحها الوطنية.

قلت «روح وطنية» ذلك أنه من الحق أن الحالة تزداد اضطرابا في مرحلة أولى من جراء الإنتفاضة. لكن هذه الإنتفاضة ليست فوضى بشيء ، كما تجلى ذلك من المعلومات التي يأتينا بها علال الخديمي. بل هي عكس الفوضى ، لأن مقصود المتمردين هو إعادة الأمور إلى الضبط والأمن الذين فقدتهما شيئا فشيئا نتيجة للتدخل الأجنبي فعوضا من أن ينهض في هذه الأثناء الفرد على الفرد والفخذ على الفخذ ، والقبيلة على القبيلة ، كما هو شأن الفوضى ، ترى بالعكس أن الناس يتجمعون وينتظمون ، ويلتفّون حول زعماء يختارونهم من بينهم ويتعاهدون معاهدة أولى موادها أن لا تتقاتل القبائل فيما بينها.

فهذه السيبة المزعومة ، هي في الواقع ، حركة منظمة موجهة في مرحلتها الأولى ضد المحميين الأغنياء ، والعمال الذين أصبحوا أدوات مسخرة لمصالح الأجانب. ومن البديهي أن الأجانب المسخرين لتلك الأدوات ، هم المستهدفون في آخر المطاف أي أن الحركة وطنية حقا في مبدئها.

وإذا لم يقتنع المرء بهذه الدلائل ، فلينظر إلى تطور الأحداث لما تاكد الخطر الأجنبي بنزول الجيش الفرنسي في الدار البيضاء. كان هذا النزول يستهدف المدينة أولا ، فكان من حق القبائل أن تغض النظر عنه ، مادام الجيش الفرنسي لم يتقدم إليها. كان هذا هو المتوقع المنطقي ، لولا الحمية الوطنية التي أنهضتها فوراً وجميعا بما فيها القبائل القريبة إلى المدينة والبعيدة منها لمحاصرة العدو ، مع ماله من التفوق العسكري ومايكلفها ذلك من تضحيات بالأموال وبالأرواح. ولم تكن هذه المقاومة عارضة عابرة ، تفتر وتخمد بعدما أذاقها العدو نيران مدافعه ورشاشاته بل تثبت وتشتد يوما بعد يوم ، بمقدار ماتوحّد صفوفها وتنظمها ، ويمكن ثبوتها القبائل البعيدة من الإقبال على ساحة القتال.

ولابد من التركيز في هذا الصدد ، على أن تصرف قبائل الشاوية هذا دليل على أنها لاتعتبر نفسها إلا القوة الأمامية في قتال لا يهمها وحدها بل يهم الوطن المغربي قاطبة ، فواجبها هو الصمود في انتظار استنفار المجاهدين من كل أنحاء البلاد هذا مايعني اتجاهها إلى مولاي عبد الحفيظ وبيعتها له مادام المولى عبد العزيز أصبح عاجزاً عن القيام بهذه الوظيفة ، بل امتنع من القيام بها

هل ليس من المضحك أن يأبى البعض إلا أن يطلق كلمة السيبة ، في شأن قبائل الشاوية ، وهذه القبائل تقبل على سلطان ما وتعترف بذلك أن لاغنى لها عن سلطان.

وتأييداً لهذا الشعور الشعبي العميق ، فإن القبائل ما إن أمدها مولاي عبد الحفيظ بنجدة عسكرية يسيرة ، ومدفع واحد حتى تضاعفت شدة القتال بفضل هذه المساعدة وإن كانت معنوية أكثر منها مادية فعلية. فإذا بجميع القبائل من مديونة إلى المزامزة وأولاد سعيد ، ومن زناتة إلى المذاكرة والأعشاش والمزاب ، تصبح يداً واحدة لاتبرم تصيب العدو بضربات تضطره إلى إنزال أكثر فأكثر من العدد والعدة بحيث ارتفع عدد جنوده من 3000 إلى 15000 أي أن المستعمرين الفرنسيين ، خاضوا حرباً حقيقية ، في حين أنهم كانوا يتوقعون عملية تأديب فقط.

أعتقد إذن أن علال الخديمي ، أدى لنا خدمة محمودة بوصفه الدقيق للتطور المذكور. ولا أرى بداً من التنبيه هنا إلى أن هذا الوصف الدقيق بما فيه من التحليل ، صحيح ، كان مستحيلا لو لم يعمد الباحث إلى دراسة كل المعارك العديدة التي وقعت طول تلك السنة. بل لو لم تكن دراسته عسكرية تقنية.

قولي هذا موجه إلى دعاة مايسمونه بالتاريخ الإجتماعي ، أوقل منهم الذين آل بهم الأمر إلى أن يطلبوا أن تنفى الأحداث من التاريخ وخصوصا منها الحروب ؛ كأن الأحداث بصفة عامة والحروب بصفة خاصة ، لم تنشأ داخل المجتمع ولم تؤثر فيه. ها هو مثال علال الخديمي يبرهن أن رواية الأحداث ، بما فيها المعارك لاتنفي بشيء التحليل الإجتماعي بل يبرهن أن هذا التحليل مستحيل دون الاعتماد على دراسة دقيقة لكل ماوقع.

لاأستطيع في حدود هذا العرض ، أن استعرض جميع الفوائد التي يقدمها هذا العمل التاريخي. اقتصرت منها على ماهو الأهم أو أكثره طرافة وأتوكل على القراء ليستفيدوا مما لم يذكر منها.

مهما يكن فرأيي في هذا العمل واضح فأتمنى أن يقرأه لا المؤرخون فقط ، بل أكثر مايكون من القراء العاديين. ولا في المغرب فقط بل حتى في الخارج وبفرنسا خاصة. ولهذا وددت لو ترجم كله أو بعضه إلى الفرنسية. ذلك أن كثيرا من المغاربة مازالوا يتشبعون في هذا الموضوع من أمثال طيراس "Terrasse" بالفرنسية أما علال الخديمي فلن يقرأه فرنسي واحد بالعربية ، وهذا يعود ضرراً لاعليهم فقط بل حتى على المغاربة.

د.جرمان عياش

الرباط 27 يونيو 1985

مقدمـــة عامـــة :

لا شك أن الأحداث التي عرفها المغرب خلال القرن الماضي وبداية القرن الحالي، لا زالت في حاجة الى تحقيق وقائعها. والكشف عن الدوافع والعوامل التي حركتها، وتقييم النتائج والعواقب التي أسفرت عنها.

وإذا كان اهتمام البحث التاريخي في بلادنا، قد اتجه الى التعرف على المجتمع، في صيرورته وفي علاقته مع المخزن، فإن جانبا خطيرا لا زال في حاجة لمزيد من الاهتمام الذي يستحقه. ونعني به، الجانب الذي يهم تطور المجتمع المغربي ككل، وفي خصوصياته الاقليمية بعلاقته مع التدخل الأوربي خلال الفترة المذكورة.

إن دراسة أفعال التدخل الأوربي في المغرب، والتعرف على ردود الفعل المغربية. سواء على نطاق إقليمي أو عام، ضد ذلك التدخل، ضرورة منهجية لمعرفة الحقائق التي تحكمت في تطور المجتمع المغربي خلال القرن 19. علما بأن آثار هذا التدخل، كانت محسوسة جدا في مجالات عديدة على المستويين الرسمي والشعبي، منذ احتلال الجزائر، وخاصة منذ حرب تطوان 1860. يضاف الى ما سبق، أن التعرف على تأثيرات التدخل الأوربي محليا هو بداية ضرورية لمعرفة تأثيراته على البلاد كلها معرفة دقيقة.

وقد يثار الاعتراض بأن الجوانب السياسية والدبلوماسية قد درست بما فيه الكفاية، وتناولتها مؤلفات عديدة منذ عهد الحماية. فالواقع هو أن هذا الاعتراض، لا يراعي ما في اقتفاء آثار تلك المؤلفات من المحاذير، ولا ينتبه الى ما فيها من ذهول عن الحقيقة، ومن إيراد للروايات المغلوطة، التي لم تلاحظ أسبابها الحقيقية، ولم تدفع دسائسها المكشوفة، ولم ترفض أحكامها المسبقة.

وإذا كان مثال مقاومة الريف، من المواضيع التي تعرضت للتشويه تحت ركام من الروايات والأساطير الموضوعة، والتي تكفل الاستاذ جرمان عياش ببسط حقائقها التاريخية، فإن الموضوع الذي اخترناه لبحثنا هذا، وهو "حادثة الدارالبيضاء واحتلال الشاوية" مثال صارخ على ما ذهبنا اليه.

إن حادثة الدار البيضاء واحتلال الشاوية سنتي 1907-1908، من الموضوعات التي يتوهم الناس أنهم يعرفون أحداثها، لأنهم قرأوا عنها بعض الأسطر أو بعض الصفحات في المؤلفات التي اهتمت بتاريخ المغرب. وفي مقدمة من سرى عليهم هذا الوهم، أو استحبوه، أولائك الذين تعرضوا للحادثة في مؤلفاتهم. فاقتصروا على الإشارة الى حادث مقتل 9 عمال أجانب يوم 30 يوليوز 1907، بالدار البيضاء، معتقدين أنه هو حادثة الدار البيضاء، التي لم تقع الا بعد ذلك بستة أيام، أي خلال أيام 5 الى 7 غشت 1907. وكانت نتيجتها، تخريب المدينة، وتشتيت سكانها البالغ عددهم حينذاك، ثلاثين ألف نسمة.

وإذا تجاوزنا هذه الملاحظات، فهناك تحريف كبير لأسباب الوقائع، وللدوافع التي كانت تحرك المحتلين من جهة والمغاربة من جهة أخرى.

وقبل التنبيه إلى مغاليط المؤلفين والمؤرخين، قدماء ومحدثين، الذين كتبوا عن الحادثة، تجدر الإشارة الى بسط الأسباب التي دفعتنا الى اختيار هذا الموضوع زيادة على ما ذكرناه آنفا.

فمن الجدير بالذكر، أن حادثة الدار البيضاء سنة 1907، التي كانت منطلقا لاحتلال قبائل الشاوية، من الحوادث الفاصلة في التاريخ المغربي، وذلك لعدة عوامل نذكر منها

أولا لأن الحادثة كانت بداية فرض الاحتلال على المغرب بالقوة العسكرية المسلحة، كما كانت بداية النهاية لاستمرار المغرب كدولة مستقلة ذات سيادة. فمنذ فتحت فوهات مدافع الأسطول الفرنسي على أحياء الدار البيضاء، في فجر يوم 5 غشت 1907، أيقن المراقبون بأن ساعة الشروع في استخدام القوة العسكرية الأوربية ضد المغاربة قد دقت، واستعدوا لمراقبة كيفية استجابة المغاربة لهذا التحدي العسكري، بعد أن ظلوا طيلة القرن التاسع عشر، صامدين للتحدي السياسي والديبلوماسي.

ثانيا لأن هذه الحادثة كانت تتويجا لصراع طويل، بين رغبة الفرنسيين في استعمار المغرب من جهة، وبين معارضة المغاربة لتلك الرغبة من جهة أخرى.

وبالرغم من أن الدبلوماسية ظلت تجتهد في التخفيف من حدة الصراع، فإنه عرف بعض الأزمات العابرة الناتجة عن رغبة أقطاب الاستعمار في فرض سيطرتهم فرضا.

وكان حادث يوليوز، يمكن أن يكون من هذه الأزمات العابرة، لكن التطورات السياسية والاجتماعية داخل المغرب. وتطور علاقاته السياسية والدبلوماسية والاقتصادية مع أوربا، كل ذلك هيأ ظروف العمل للحكومة الفرنسية، فقررت البدء في احتلال المغرب.

ثالثا لأن الحادثة أصابت ثغرا كان يعتبر واسطة العقد بين الموانئ التي كان المغرب يعتمد على مداخيلها، وأدت الى احتلال منطقة من أغنى المناطق وأكثرها حيوية للدولة المغربية.

رابعا إن دراسة حادثة الدارالبيضاء، والتعرف على رد فعل قبائل الشاوية ضد الاحتلال الفرنسي، يمكن المرء من أن يتتبع عن كثب، جهود المقاومة الشعبية المسلحة الأولى للتدخل العسكري الفرنسي في المغرب، ويطلع على تأثيرات هذه المقاومة في إعلان البيعة الحفيظية، وما واكبها من إعلان للجهاد، واستنفار للمغاربة في مغرب ما قبل الحماية. ويستطيع الباحث كذلك، أن يقارن بين المقاومة الشعبية التي عرفتها قبائل الشاوية خلال سنتي 1907 و 1908، التي كانت منطلقا للمقاومة المغربية المسلحة، وبين حركات المقاومة التي عرفها إثر ذلك شرق المغرب وشماله.

خامسا يضاف الى هذا ، أن قبائل الشاوية التي تحملت قبل غيرها من القبائل المغربية، صدمة الحملات الاستعمارية المنظمة، لم تحظ باهتمام الباحثين، للتعريف بتطورها ونضالها في مواجهة التسرب الأجنبي، علما بأن بلاد الشاوية كانت في مقدمة المناطق المغربية، التي استهدفتها الأطماع الرأسمالية منذ بداية القرن التاسع عشر، واستهدفها الاحتلال العسكري الفرنسي، نظرا لأهميتها الإقتصادية والاستراتيجية البالغة. ذلك أن بلاد الشاوية عبارة عن سهول منبسطة وذات تربة خصبة. تتفتح على المحيط، كما تتفتح على الأقاليم المجاورة، وتتوفر على ثغر مهم للتبادل التجاري بين أوربا والمغرب. يضاف الى ذلك، موقعها المتوسط والفاصل بين شمال المغرب وجنوبه.

ولكل هذه العوامل اختيرت كنقطة ارتكاز يسهل استغلالها للتوسع جنوبا وشرقا وشمالا لاستكمال السيطرة على المغرب كله.

وعند اختيارنا لهذا الموضوع كان الإشكال المطروح علينا يتلخص في الإجابة على سؤالين

الأول ما هي العلاقة التي تربط حادث مقتل عدد من العمال الأجانب بالدار البيضاء صيف 1907 ببداية الاحتلال العسكري للمغرب؟

والسؤال الثاني إذا أدى ذلك الحادث البسيط الى تلك النتيجة الهامة، أي لاحتلال بلاد الشاوية، فما هي حقيقة الدوافع التي أدت للحادث وتسببت في الاحتلال؟ وبالتالي ما هي الوقائع المضبوطة وما كان موقف المغاربة؟ ذلك أننا نعتقد بأن أي حادث تاريخي لا يمكن تفسيره الا بتتبع دوافعه المختلفة، السياسية والاقتصادية والاجتماعية والاعتقادية. ومن هنا كان اعتقادنا جازما، بأن ذلك الحادث الذي ذهب ضحيته عدد من العمال، لا يمكن أن يكون سببه رؤية المغاربة لقاطرة صغيرة، كما ادعت الروايات الأجنبية، كما كان اعتقادنا راسخا بأن الحادث المذكور لن يكون كافيا لدفع دولة لاحتلال أراضي دولة أخرى. إن حادثا يتسبب عنه الاحتلال لهو حادث يستحق أن تعرف خفاياه.

وهكذا فبمجرد ما بدأنا نجمع المعلومات الأولى من مظانها تبين لنا أن الأمر أهم مما كنا نعتقد، وأن القضية أكبر مما كنا نتصور. لقد أصبحنا أمام قضية استعمارية تواطأت فيها الأطراف الداعية لاستعمار المغرب، في الجزائر وطنجة وباريز، وتبعها في تواطئها الذين نقلوا أخبار الحادثة وأولوا أسبابها. فكان لا بد من إعادة البحث للكشف عن ملابسات القضية، وتوضيح وقائعها الحقيقية، وإبراز وجهات نظر الأطراف المعنية بها.

وفي سبيل هذا الهدف قامت أمامنا مشكلة المصادر. فزيادة على صمت الكثير منها وخاصة المصادر الوطنية، وجدنا أن أغلب من اهتموا بالحادثة كانوا من غير المغاربة. وأمام هذا الإشكال، كان علينا في إطار الهدف الذي رسمناه، وهو التأريخ للحادثة ولاحتلال الشاوية، تأريخا يتعدى الانطباع الى التعمق في فهم الوقائع والمواقف، ويتعدى النقل، الى رسم تطور الأحداث وتحليلها، كان علينا في هذا الإطار، أن نستقصي ما قاله المغاربة عن الحادثة وعن الاحتلال وما قاله الأجانب. وكم كانت خيبة أملنا كبيرة، لما لم نجد ما يشفي الغليل عند مؤرخينا المعاصرين زمن الحادثة.

فحسب ما أطلعنا عليه من مؤلفات ابن الأعرج السليماني ومحمد بن الحسن الحجوي، ومحمد غريط وعبد الرحمان بن زيدان، وجدنا أن الأولين اكتفيا بإيراد

مقتضب لخبر حادث 30 يوليوز فابن الأعرج روى الخبر باقتضاب في "زبدة التاريخ وزهرة الشماريخ" وفي مخطوط "اللسان المغرب عن تهافت المعمرين حول المغرب" أما الحجوي فأورد الخبر في "تقاييد تاريخية" لكن المؤلفين كليهما، لم يتعديا بضعة أسطر رددا فيها ما كان شائعا في الرواية الرسمية.

أما الثالث محمد غريط، فقد نقل في "فواصل الجمان" رواية مقتضبة أيضا وشبيهة بالروايات الموجودة في المصادر الفرنسية. متهما المغاربة فيها، ومعطيا التبريرات التي أشاعها المحتلون.

أما مؤرخنا ابن زيدان فهو الوحيد الذي وضع الحادثة في إطارها الزمني. بشيء من التوسع، إذ خصص حوالي 12 صفحة، بين فيها ما جرى إثر مقتل العمال الأوربيين التسعة، وكيفية حدوث الرد الفرنسي المسلح.

لكن مؤرخنا الكبير، فاته أن ينتبه لما أشاعه المحتلون من روايات كاذبة عن الحادثة، وما أطلقوه من أوصاف متحاملة على المغاربة، وبذلك حمل مواطنيه مسئولية ما لم يتسببوا فيه.

وأمام هذا النقص في المصادر التاريخية الوطنية، فقد اتجهنا الى الرواية الشعبية، لعلنا نعثر عما يفيد في التعرف على وجهة نظر المغاربة في أسباب وعواقب الحادثة.

وهكذا استفدنا فائدة كبيرة من الرواية الشفاهية ـ كما سنوضح ذلك ـ ووقفنا على قصيدة ملحونة تغني فيها مؤلفها عبد الهادي بناني بجهاد الشاوية سماها "الدرر البهية في مدح رجال الشاوية"، وهي ضمن مجموع من القصائد الملحونة التي دعت الى الجهاد إثر الاحتلال الفرنسي لوجدة والشاوية وبني يزناسن.

أما فيما يتعلق بالمصادر الأجنبية، وجلها لمؤلفين فرنسيين فيمكن تقسيمها الى قسمين

أولهما ألّف في زمن الحادثة، وهو عبارة عن تقارير ومذكرات لمراسلين صحفيين صحبوا جيش الاحتلال، أو مذكرات لضباط عسكريين ساهموا في عمليات الاحتلال. وبالرغم مما في هذا القسم من التحيز البين، فهو يعرفنا على الحوادث إبان وقوعها. وبمقارنة رواياته، يمكن للباحث أن يتعرف على كثير من الوقائع. ومن مؤلفات هذا القسم، تجدر الإشارة الى ما كتبه جورج بوردون Georges Bourdon مراسل جريدة Figaro تحت عنوان :

الاحتلال والمقاومة ووقفنا عند بعض المعارك التي خاضها المجاهدون ضد قوات الجنرال داماد. وركزنا الحديث حول تعبئة المغاربة، وقارنا بين إمكانيات الطرفين.

أما الفصل الخامس عشر والأخير فخصصناه لدراسة مصير احتلال الشاوية بين فرنسا ومولاي عبد الحفيظ.

وفي هذا الفصل، تعرضنا لنهاية مولاي عبد العزيز بعد انهزامه في معركة بوعجيبة غشت 1908.

كما درسنا قضية تعويضات الدار البيضاء، والمفاوضات بين السلطان وبين الحكومة الفرنسية حول مسألة الجلاء.

ولقد أولينا خلال تتبعنا للأحداث والوقائع المشار اليها، في الفصول السابقة، جانب التحليل ما يستحقه من الاهتمام، حتى يمكن فهم الأسباب العميقة والحقيقية.

ولذلك لم نغفل عن تفسير كل تصرف، ولم نذهل عن إبراز حقيقة كل قول أو شهادة، وتوضيح دوافع كل فعل، وتتبع جذور تلك الدوافع. وإذا كان هاجسنا باستمرار هو الوصف التاريخي الدقيق للحوادث والوقائع، فهذا ليس معناه التهيب من التنظير، بل كنا نعتقد جازمين أن أساس التنظير الصحيح هو بسط الوقائع المحققة.

وقد أدى بنا هذا المنهج الى الاحتراز من إطلاق الأحكام الجزافية، فلم نتهم إلا عن بينة، ولم نحكم إلا بعد عرض الحجج الكافية.

وفي هذا الاطار لم نتردد في إدراج النصوص في مكانها لتعزيز الأحكام والاستنتاجات، كما عززنا البحث ببعض الجداول والخرائط والصور الضرورية.

وزيادة في فهم الأحداث قابلنا، الروايات المكتوبة بما علق في أذهان الناس من أحداث الشاوية التي مرت عليها أكثر من 7 عقود.

ومع ملاحظتنا أن معظم الروايات الشفاهية، وإن كانت صحيحة، فإن أصحابها كثيرا ما كان يحلو لهم الاستطراد، لإضفاء مزيد من المدح على زعماء قبائلهم، وإعطاء قبائلهم أو دواويرهم، النصيب الأكبر، والقسط الأوفر في جهاد الشاوية. نظرا لذلك، فقد كنا حذرين في تقبل الروايات الشفاهية الا في حدود معينة، كتصحيح أسماء أماكن المعارك، وأسماء الرجال الذين كان لهم دور في الأحداث. كما تقبلنا ما علق بالذاكرة من تصرفات جنود الاحتلال مع السكان، وكيفية تعبئة المجاهدين في القتال ودور المرأة في جهاد الشاوية.

"ما شاهدته في المغرب، أيام الدار البيضاء"
" Ce que j'ai vu au Maroc, les journees de Casablanca"

ونشره سنة 1908. وقد تحدث بوردون عن حادث 30 يوليوز، وعن قنبلة المدينة ومقاومة المغاربة للإنزال الفرنسي. لكن مذكرات "بوردون" فيها تحامل كثير على المغاربة، وإغراق كبير في الخيال، الشيء الذي يجعل ما كتبه مجرد شهادة من الشهادات التي تحتاج للمقارنة والمقابلة مع شهادات أخرى، لفرز الحقائق التاريخية الثابتة.

أما مؤلفات الضباط العسكريين فقد أفادتنا في تحديد أعداد القوات المتدخلة، وفي التعرف على المعارك التي خاضها جيش الاحتلال ضد قبائل الشاوية.

أما القسم الثاني من المصادر الأجنبية المكتوبة، فيتكون من الاستغرافيا التي ألفت في عهد الحماية ومن مؤلفات لبعض المحدثين، وبالرغم من أن بعض هذه المؤلفات يعتبر من التآليف التاريخية التي اهتمت بمواقف المغاربة تجاه التوسع الامبريالي، فإنها لم تستطع الخروج من سجن النظرة الاستعمارية، ولذلك اكتفت بإشارات مقتضبة للحادثة، واعتبرت حادث 30 يوليوز مأساة ناتجة عن غزو البدويين للمدينة، معطية أسبابا واهية وخيالية لذلك الغزو، كرؤية المغاربة للقاطرة البخارية ومرور السكة الحديدية بمقبرة إسلامية الخ...

وهذا حال ما كتبه طراس وشارل أندري جوليان، وما كتبه أندري آدم في "تاريخ الدارالبيضاء منذ القدم الى 1914"

"Histoire de Casablanca des origines a 1914". Paris 1969.

فقد خصص أندري آدم للحادثة فصلا طويلا، حاول فيه الكشف عن الأسباب والدوافع التي كانت وراء حادث 30 يوليوز، وقنبلة الدار البيضاء بعد ذلك. بيد أنه لم يستطع أن يتحلل من الأحكام المسبقة التي أطلقها أصحاب المذكرات، ولم يتمكن من التعرف على الدوافع الحقيقية التي كانت توجه ردود فعل المغاربة. وهكذا جاء بحث هذا الأكاديمي عبارة عن جرد للروايات التي قيلت عن الحادثة وإن لم يستقصها كلها. وأعطى الأسباب نفسها التي ذكرها بوردون. واتبع منهجا قاده في سبيل كانت نهايته معروفة تبرير أسباب قنبلة الدار البيضاء، وردها الى تصرفات شخصية لبعض الضباط!

يضاف الى ما سبق من ملاحظات على المصادر الفرنسية المطبوعة، أن تلك المصادر اكتفت بإيراد حادث قتل العمال الأجانب وقنبلة المدينة، ولكنها لم تهتم كثيرا، بمعرفة تطور علاقة قبائل الشاوية بالتدخل الأوربي. ولم تعتمد الوثائق المغربية للتعرف على ذلك التطور. كما أنها لم تهتم، كذلك، بمقاومة قبائل الشاوية للاحتلال الفرنسي وما نتج عن ذلك الاحتلال من تخريب وتقتيل.

وأمام هذا كله. كان علينا للوصول الى الهدف الذي توخيناه، وهو إعادة رسم صورة للوقائع الحقيقية لحادثة الدارالبيضاء واحتلال الشاوية، كان علينا أن نلجأ الى بحث متأنّيَ في الوثائق الوطنية والأجنبية، حتى نتمكن من تحقيق بعض الروايات المكتوبة، وسد الثغرات الواسعة التي خلفها سكوت المصادر.

الوثائق الوطنية

وهكذا قمنا ببحث متأني في وثائق الخزانة الحسنية، تصفحنا خلاله مات بل آلاف الوثائق وعشرات الكنانيش. وإذا تمكنا من الاستفادة من تلك الوثائق في دراسة تطور قبائل الشاوية في علاقتها مع المخزن، ومع التدخل الاوربي منذ أواخر القرن 19 وبداية القرن العشرين، فإننا لم نعثر على شيء كثير فيما يخص حادثة الدار البيضاء ومعارك الشاوية. ويرجع هذا الى أن وثائق العهدين العزيزي والحفيظي لم تكن مهيأة للباحثين بعد.

كما تمكنا من مراجعة العديد من الكنانيش، والقوائم الحسابية، التي ساعدتنا على رسم صورة للتطور الاقتصادي لمدينة الدارالبيضاء خلال الفترة المذكورة. واستفدنا كذلك، من الكنانيش المحفوظة بقسم الوثائق في الخزانة العامة بالرباط، وخاصة الكنانيش التي تضم رسائل النائب السلطاني الى أعضاء المخزن. كما بحثنا في وثائق النائب السلطاني المحفوظة بالخزانة العامة بتطوان، واستفدنا منها في معرفة جانب من المشاكل التي كانت تقع بين أهل الشاوية والتجار الأوربيين.

وترددنا على المكتبات الخاصة لبعض الأسر، حيث استفدنا من محفوظات الحاج العربي بن سعيد السلاوي، التي عرفتنا على جانب من خفايا الضغوط الدبلوماسية الأجنبية.

الوثائق الأجنبية

هذا ما يتعلق بالوثائق الوطنية. أما الوثائق الأجنبية، فقد استفدنا كثيرا من محفوظات وزارة الحربية الفرنسية بڤانسان. ووثائق وزارة الخارجية الفرنسية بباريز.

فبالنسبة لوثائق قصر ڤانسان، استفدنا من الوثائق المحفوظة في المصلحة التاريخية لجيش البر، وخاصة مراسلات الضباط وتقاريرهم الأسبوعية وبرقياتهم اليومية التي كانوا يبعثونها لوزارة الحربية عن سير العمليات العسكرية منذ الإنزال الأول بالدار البيضاء إلى نهاية معارك الشاوية. وعن علاقة قوات الاحتلال بالمغاربة، سواء في الدار البيضاء أو بالقبائل. وتحتوي هذه المراسلات على أخبار كثيرة حول الأحوال السياسية الوقتية.

كما حرصنا على البحث في محفوظات المصلحة التاريخية للبحرية الفرنسية، حيث اطلعنا على التقارير التي كتبها ضباط الأسطول البحري المسئولون عن قنبلة الدارالبيضاء، والذين شاركوا في عمليات الإنزال والمعارك الأولى داخل أحياء المدينة. وقد كانت تلك التقارير شهادات حية لأطراف ساهمت في الأحداث، تمكنا من خلالها من محاكمة روايات المؤرخين.

ولكي نطلع على المواقف السياسية لمختلف الأطراف المعنية، والملابسات والدسائس الدبلوماسية، ومواقف الرأي العام، راجعنا ما يهم أحداث الشاوية في محفوظات وزارة الخارجية الفرنسية ضمن السلسلة الجديدة NIIe Serie التي تتعلق بالمغرب، والتي تشمل مآت المجلدات.

زيادة على هذا، استفدنا من التقارير القنصلية، التي كان يبعثها القنصل البريطاني، من الدار البيضاء سنة 1907، حول الحادثة، والمحفوظة بوزارة الخارجية البريطانية.

منهج وتصميم

أما المنهج الذي اتبعناه في هذا البحث، فقد أملته طبيعة الموضوع نفسه. فلما كان الموضوع يتعلق بحادثة، تعتورها جوانب دبلوماسية، وسياسية وعسكرية بالدرجة الأولى. ولما كانت معظم الشهادات لأطراف فرنسية. فقد اقتضى الأمر حذرا شديدا، للعثور على الحقائق التاريخية، بين ركام التحامل والتجاهل، وذلك بمقارنة الروايات العديدة ببعضها، وإفساح المجال للوثائق لتصحيح الروايات وتحقيقها، وهذا ما دفعنا الى تقصي الحقائق أفقيا في فترة زمنية محدودة.

ومادام الأمر يتعلق بأحداث أصابت إقليما مغربيا، وفي الوقت نفسه تتعلق بتدخل فرنسي في المغرب.

فقد اتبعنا التصميم الآتي

أولا لتوضيح بأن الحادثة لم تكن وليدة لحظتها، ولوضع أحداث الشاوية في إطارها المغربي العام، خصصنا القسم الأول لدراسة أثر التدخل الأجنبي على الوضعية الداخلية بالمغرب. فدرس الفصل الأول التطورات السياسية والاجتماعية التي عرفها المغرب بعد وفاة الصدر الأعظم أحمد بن موسى، حيث ركزنا الحديث على العواقب الاجتماعية والمالية لأحداث الترتيب وانتفاضة بوحمارة.

وخصص الفصل الثاني، لتطور الضغوط الفرنسية على المغرب، وردود فعل المغاربة على تلك الضغوط. بحيث حاولنا تلمس الخيوط المحركة للأفعال وردود الأفعال، وفي هذا الإطار درسنا خفايا أزمة 1905، وأبرزنا كيف أفشل السلطان مولاي عبد العزيز، محاولة فرض حماية مبكرة على المغرب في تلك السنة، والوسائل التي لجأ اليها، وعلى رأسها استدعاء مجلس للأعيان.

أما الفصلان الثالث والرابع، فقد خصصناهما لدراسة مؤتمر الجزيرة، وعواقب إعلان مقرراته. وتتبعنا أحداث ما بعد الجزيرة، التي نتجت عن التهافت الفرنسي على المغرب ومقاومة المغاربة لذلك التهافت، وما أعقب ذلك من حوادث كحادث 27 ماي 1906 بطنجة الذي قتل فيه أحد الفرنسيين، وحادث 19 مارس 1907، الذي قتل فيه طبيب دبلوماسي بمراكش. وقد سلطنا الأضواء على الحادث الأخير وبينا خفاياه، وأوضحنا كيف استغلته الأوساط الاستعمارية للدعوة الى استخدام القوة المسلحة ضد المغرب فكان احتلال مدينة وجدة في 29 مارس من نفس السنة. وما أثاره ذلك الاحتلال من هياج شعبي، على مستوى البلاد كلها. وخاصة في المناطق التي أثر فيها التدخل الأوربي تأثيرا كبيرا كالشاوية.

ثانيا خصصنا الباب الثاني لدراسة التدخل الأوربي بالشاوية. فدرس الفصل الخامس الأهمية الطبيعية والبشرية للمنطقة. حيث عرف بالاقليم وبأصول الشاوية وتوزيع قبائلها خلال القرن التاسع عشر. وأدلينا ببعض الملاحظات حول نتائج العلاقة الإدارية والتسخيرية بين هذه القبائل والمخزن.

أما الفصل السادس فخصص لإبراز الأهمية الاقتصادية للشاوية ولثغر الدارالبيضاء، وحجم المساهمة الجبائية للمنطقة في بيت المال. كما درس هذا الفصل التطور التجاري لمرسى الدار البيضاء، وأثر استقرار الجالية الأجنبية بالمدينة.

وفي الفصل السابع تتبعنا أثر التدخل الأجنبي بالشاوية خلال القرن الماضي، وعواقب هذا التدخل التي برزت في تطور الحمايات الشخصية

والمخالطات، وما نتج عنهما من استغلال رأسمالي، وتفكيك لبنى المجتمع الشاوي.

وفي الفصل الثامن بسطنا القول حول انتفاضة الشاوية في العقد الأول من هذا القرن، بحيث تتبعنا جنور تلك الانتفاضة، وبينا دوافعها وأهدافها، وتعرفنا على زعمائها. وأبرزنا كيف وجدت الانتفاضة المذكورة سبيلها الطبيعي عندما تحولت الى جهاد حقيقي ضد الأطماع الاستعمارية، لما تجسمت الضغوط الفرنسية في مشاريع استغلالية بمدينة الدارالبيضاء. وبهذا وصلنا على المستوى المحلي مثلما فعلنا قبله على المستوى العام، الى نقطة تأزم العلاقات بين الشاوية والتدخل الفرنسي، وأشرفنا على علامات تنذر بالانفجار.

ثالثا وقد خصصنا الباب الثالث لهذا الانفجار أي لحادثة الدارالبيضاء.

فدرسنا في الفصل 9 حادث مقتل تسعة عمال أجانب بالمدينة يوم 30 يوليوز 1907. وناقشنا الروايات الفرنسية المختلفة حول أسباب الحادث وأثبتنا بالأدلة العديدة دوافعه وكيفية وقوعه. كما درس هذا الفصل مواقف الأطراف المعنية أي قبائل الشاوية والمخزن والحكومة الفرنسية. وأبرزنا كيف استغلت هذه الأخيرة الحادث المذكور للهجوم على السيادة المغربية.

وقد درس الفصل العاشر قنبلة الدارالبيضاء والانزال الفرنسي بها، ومقاومة المغاربة لذلك الإنزال.

أما الفصل الحادي عشر فخصصناه لنتائج الحادثة من حيث حجم التخريب الذي أصاب المدينة، وتقدير عدد الضحايا. ثم تتبعنا النتائج السياسية التي تمثلت في المحاكمات الصورية للمغاربة الذين حملهم المحتلون مسئولية الأحداث.

رابعا أما الباب الرابع فخصصناه لتتبع جهاد الشاوية ضد عمليات الاحتلال الفرنسي. وفيه أربعة فصول

درسنا في الفصل الثاني عشر، معارك الدارالبيضاء، وبينا كيف أفشل المجاهدون مهمة الجنرال درود الذي ظل محصورا في خنادقه قرب المدينة مدة 5 أشهر.

وتتبعنا في الفصل الثالث عشر تدخل مولاي عبد الحفيظ في أحداث الشاوية بعد إعلان بيعته بمراكش ودعوته للجهاد. كما تعرضنا لموقف المخزن العزيزي من تلك الأحداث.

وفي الفصل الرابع عشر درسنا معارك الشاوية، حيث تتبعنا أهم مراحل

الإحتلال والمقاومة ووقفنا عند بعض المعارك التي خاضها المجاهدون ضد قوات الجنرال داماد. وركزنا الحديث حول تعبئة قوات الإحتلال وتعبئة المغاربة وقارنا بين إمكانيات الطرفين.

أما الفصل اللخامس عشر و الأخير فخصصناه لدراسة مصير احتلال الشاوية بين فرنسا ومولاي عبد الحفيظ.

وفي هذا الفصل ، تعرضنا لنهاية مولاي عبد االعزيز بعد انهزامه في معركة بوعجيبة غشت 1908 وحللنا موقف فرنسا بين الحزبين العزيزي والحفيظي.

كما درسنا قضية تعويضات الدار البيضاء ، والمفاوضات بين السلطان وبين الحكومة الفرنسية حول مسألة الجلاء.

ولقد أولينا خلال تتبعنا للأحداث والوقائع المشار إليها في الفصول السابقة جانب التحليل مايستحقه من الإهتمام حتى يمكن فهم الأسباب العميقة والحقيقية.

ولذلك لم نغفل عن تفسير كل تصرف ، ولم نذهل عن إبراز حقيقة كل قول أو شهادة وتوضيح دوافع كل فعل وتتبع جذور تلك الدوافع. وإذا كان هاجسا باستمرار هو الوصف االتاريخي الدقيق للحوادث والوقائع فهذا ليس معناه التهيب من التنظير بل كنا نعتقد جازمين أن أساس التنظير الصحيح هو بسط الوقائع المحققة.

وقد أدى بنا هذا المنهج إلى الإحتراز من اطلاق الأحكام الجزافية ، فلم نتهم إلا عن بينة ولم نحكم إلا بعد عرض الحجج الكافية.

وفي هذا الإطار لم نتردد في إدراج االنصوص في مكانها لتعزيز الأحكام والإستنتاجات كما عززنا البحث ببعض الجداول والخرائط والصور الضرورية. وانهيناه بخاتمة

وزيادة في فهم الأحداث قابلنا الروايات االمكتوبة بما علق في أذهان الناس من أحداث الشاوية التي مرت عليها أكثر من سبعة عقود

ومع ملاحظتنا أن معظم الروايات الشفاهية وإن كانت صحيحة فإن أصحابها كثيرا ماكان يحلو لهم الإستطراد لإضفاء مزيد من المدح على زعماء قبائلهم وإعطاء قبائلهم أو دواويرهم النصيب الأكبر والقسط الأوفر في جهاد الشاوية. نظرا لذلك فقد كنا حذرين في تقبل الروايات الشفاهية إلا في حدود معينة ، كتصحيح أسماء أماكن المعارك ، وأسماء الرجال الذين كان لهم دور في الأحداث. كما تقبلنا ما علق بالذاكرة من تصرفات جنود الإحتلال مع السكان وكيفية تعبئة المجاهدين في القتال ودور المرأة في جهاد الشاوية.

الباب الأول

المغرب والتدخل الأجنبي في بداية القرن العشرين 1900-1907

الفصل الأول

الوضعية الداخلية : التطورات السياسية والاجتماعية

مدخل

يتفق أغلب المؤرخين، المغاربة (1) منهم والأجانب (2)، على أن المغرب عرف بعد وفاة الصدر أحمد بن موسى(3)، (13 ماي 1900)، حركة انتقالية أخرجته من طور الى طور مخالف. بل يؤكد بعضهم على أن تلك الحركة كانت بمثابة انقلاب فجائي(4)، أخرج البلاد من عهد تميز داخليا بالحفاظ على استمرار قوة المخزن المغربي وسطوته، كما كانت على عهد مولاي الحسن(5)، وخارجيا بالحفاظ على السيادة الوطنية وحصر التدخل الأجنبي في حدود معينة، بواسطة سياسة حكيمة وحازمة تجاه الدول الأوربية(6)، إلى عهد تميز بتبدل كل شيء تراجع قوة المخزن، وظهور الانتفاضات الإقليمية، ثم تصدر من لا يملك أهلية للحكم(7) وتبذير ثروة البلاد، والاضطرار الى الاستدانة من الأجانب، وتزايدُ التدخلات الأجنبية وتسارعها.

والجدير بالاهتمام، في هذا المجال، هو محاولة التحقق من صدق هذا التحليل؛ وبالتالي التعرف على العوامل الخفية، لما حصل من تطورات، جعلت الكتاب الأجانب يتحدثون عن "الفوضى المغربية" محاولين أن يجعلوا منها مظهرا من مظاهر التاريخ المغربي (8).

وقد رأينا من الواجب علينا، أن نبحث هذه التطورات معتمدين لا على ما كتبه هؤلاء الكتاب وأولائك فقط، لأن ما كتب يكاد يكون متكاملا ولا يعطي إلا صورة سطحية تحتاج أحكامها الى مراجعة، بل على بحث مصادر دفينة، لم تستغل بعد وفي هذا الإطار قدمت لنا الوثائق الوطنية عونا كبيرا، وعرفتنا الوثائق الأجنبية على حقائق ظلت مجهولة.

ويجب التنبيه، إلى أن تتبع ما حصل من تطورات في المغرب، منذ السنوات الأولى للقرن العشرين، التي تمثل حقبة حاسمة، نظرا لتسارع الأحداث الداخلية والتدخلات الخارجية، أمر ضروري لمعرفة حقيقة ما جرى فعلا.

إن استرجاع أحداث هذه الفترة الرئيسية، يعني تتبع خيوط التدخل الأوربي ومدى تأثيره في تطور الوضعية الداخلية.

وإذا عودتنا أدبيات عهد الحماية الفرنسية بالمغرب، سواء المكتوبة باللغة الوطنية أو اللغة الفرنسية، على أن نرى المغرب وكأنه بلد كان يعيش غارقا في الفوضى، تدبر أمره حكومة تقليدية محافظة، اهتمام أفرادها هو حماية مناصبهم وملء جيوبهم، أكثر من اهتمامهم بمصالح البلاد وسكانها. فإننا نحاول بتتبعنا للأحداث الرئيسية لهذه الحقبة، أن نتعرف على الدوافع الخفية والحقيقية لما حدث، وفي الوقت نفسه نطلع على كيفية تدرج التدخل الأجنبي في البلاد حتى أسفر عن الاحتلال.

وسيتأكد ـ نتيجة لذلك ـ أن "الفوضى المغربية" التي لم يتمكن أي أحد من الافلات من تخصيص مساحة تصغر أو تكبر لوصفها إنما كانت عبارة عن ردود فعل شعبية متعقلة ومصممة، ضد أفعال معينة ومبيتة ومدروسة.

إننا لا نهدف الى تبرير ما حدث، ولكننا لا نستطيع أن نطلق أحكاما انطلاقا من إسقاطات وتعميمات. ولذلك تبدو محاولة معايشة ردود أفعال الذين عاشوا تلك الأحداث والتقرب ولو من بعيد، من الجبهات التي كانوا يقودون منها صراعهم، محاولة ضرورية للتأكد من الواقع التاريخي ما أمكن. وهذه هي الخطوة الأولى في نظرنا.

ومهما يكن فإن ما حدث سنة 1907 بالدار البيضاء، لم يكن حدثا وليد لحظته، وهذا أمر لم ينتبه اليه الكثيرون ممن عايشوا تلك الأحداث ووصفوها، ومن الذين تبعوهم بعد ذلك(٩). ولكي تتضح حقيقة حادثة الدارالبيضاء، كان لزاما علينا تتبع سير أحداث التدخل الأوربي المتنوعة، وردود فعل المغاربة سواء على المستوى المخزني أو الشعبي منذ سنة 1900 الى 1907.

1. التطورات السياسية

خلف أحمد بن موسى تركة ثقيلة للسلطان الشاب عبد العزيز(10)، ذلك أن الصدر الأعظم، كان مستبدا بكل أمور الدولة، يساعده بعض الكتاب والمعاونين في تصريف شؤون الحكم باسم السلطان(11). وبعد وفاته أصبح مولاي عبد العزيز وجها لوجه مع أمور الحكم التي لم يهيأ لها، ونظرا لشبابه وقصر تجربته، ولطبيعة طبعتها فترة الحجر التي عاشها بعيدا عن مشاكل السلطة ودسائس المخزن سرعان ما وجد نفسه وسط دوامة من المشاكل الداخلية والخارجية.

فعلى المستوى الإداري، نشبت حوله منافسات على النفوذ بين الوزراء، وهذا يفسر قصر المدة الانتقالية، التي أعقبت مباشرة وفاة الصدر الأعظم(12). حيث سرعان ما تشكل مخزن جديد، أغلبية أعضائه كانوا كتابا ومساعدين للوزير الكبير.

وقد انقسم هذا المخزن الجديد منذ البداية، الى جناحين متنافسين على النفوذ، ليس في البلاط وحده، بل وعلى نطاق إدارة البلاد عامة(13). ويظهر أن هذه المنافسة، دفعت بأعضاء المخزن والسلطان الى بدء عهد جديد، تختفي فيه مظاهر الاستبداد والفساد. وقد أكد هذا الاتجاه الضغط الفرنسي على حدود المغرب الجنوبية الشرقية(15)، وتزايد المنافسات الدولية حول المغرب، وتهافت المغامرين الأجانب(16)، وبوادر الخلل في سياسة الحفاظ على الوضع الراهن بالمغرب.

ولموازنة هذه الضغوط، والحفاظ على سيادة البلاد، واستقلال المغاربة(17)، اتفق أعضاء الدائرة المخزنية الجديدة مع أهل الرأي من كبار موظفي الدولة، على بعث سفارات للدول الأروبية لطلب مساعدتها ونصحها، وللاتفاق معها على ربط علاقات ودية، تحفظ للبلاد سيادتها واستقلالها.

وهكذا ذهب المهدي المنبهي(18) في سفارة الى لندن وبرلين. وعبد الكريم بن سليمان في سفارة مماثلة لفرنسا وروسيا(19). وفي غيبة الوزيرين المذكورين طرأت تطورات داخل البلاط، تؤكد المنافسة الشديدة التي كانت بين أعضاء مخزن مولاي عبد العزيز. فقد اتهم المنبهي بالفساد والاستيلاء على أموال كثيرة، ونصح السلطان بإلقاء القبض عليه(20). لكن الرجل تمكن بعد عودته من استرجاع نفوذه، مبادلا متهميه التهمة نفسها.

وقد دفعت هذه التطورات السلطان الى الاتفاق مع أعضاء مخزنه الجديد على نسيان الماضي، وبدء عهد جديد يسوده العدل والاصلاح، وعدم الاستبداد بأمر من أمور الدولة، وأقسم الجميع أمام كتاب الله(21). كما اتفق أعضاء المخزن على الابتعاد عن مظاهر الفساد والارتشاء(22). لكن أهم قرار اتخذه المخزن العزيزي، بعد الاستشارات الداخلية والخارجية هو قرار القيام بإصلاح جبائي(23).

2. ترتيب 1901 وعواقبه الاجتماعية

لا نريد هنا أن ندرس كيفية فرض الترتيب، ولا تتبع طريقة جبايته في مختلف القبائل التي رتبت(24)، والموظفين الذين كلفوا بذلك. بل إن اهتمامنا سينصب بالضرورة، على آثار هذا التجديد على علاقة المخزن بالمجتمع، وبالتالي العواقب البعيدة التي نجمت عن هذا الاصلاح على مستوى مالية الدولة وعلاقتها مع الخارج.

في أواخر سنة 1901 أصدر السلطان ظهيرا يشرح مضمون الترتيب الجديد. وبعثت رسائل الى مختلف القيادات والقبائل في فترات متفاوتة تحمل المضمون نفسه(25)، مؤكدة على الدوافع والأهداف التي حدت بالسلطان الى إجراء العمل بهذا الترتيب.

فمن حيث الدوافع، أكد السلطان على أن الدافع هو حفظ مصالح الرعية وتنميتها، وعلاج أحوالها، ورفع الأذى والاعتداء عنها، وحسم خلافات السكان مع القواد ومعاونيهم من الأشياخ، والاتهامات المتبادلة بينهم.

ذلك أن العمال كثيرا ما يتهمون"العامة" بالانحراف والتقاعد عن الحقوق والواجبات، وهذا يبرر تصرفات العمال في نظر السلطان. أما الرعية فتتهم العمال والأشياخ بالحيف، واتباع "الشهوة" في استخراج أنواع الجبايات وهذا ما يبرر كف أيديهم في نظره كذلك.

كما أن الترتيب الجديد يهدف الى توفير مداخيل قارة لبيت المال بواسطة إجراءات قانونية. فقد "أسس على قواعد سياسية وقوانين بحفظ المصالح وافية. وفي رفع الضرر كافية على الوجه الذي يعود نفعه على بيت المال"

أما موضوع الترتيب، فهو "توظيف مقدار محصور يكون [...] عطاؤه سنويا

على أنواع البهائم والمواشي وعلى مزارع الحرث والبحائر، والسواني وكذلك الاشجار على اختلاف أنواعها"

وقد سوى هذا الاصلاح بين جميع الناس في التحملات الجبائية، لأنه فرض على «المشروف والشريف، والقوي والضعيف، وحتى من كان عاملا أو شيخا أو خليفة أو نحوه يكون فيه كسائر الناس».

أما الهدف المتوخى في النهاية فهو سلوك سياسة عادلة، "تخرج الحق من الظالم، وتدفع كثيرا من المظالم وتكشف الضرر عن الرعية" وذلك بمنع القواد من فرض أي شيء على السكان أو قبض أي شيء منهم مهما كان قليلا، لأن رواتبهم سيأخذونها من بيت المال. ولا يعني هذا أن يد العمال كفت عن "إجراء الأحكام"، بل إن مهمة القائد أصبحت منحصرة في "رد البال وتأمين الطرق، وإجراء الأحكام، وشد العضد على الصلاح والطاعة وحفظ النظام وإجلاس كل طائش عند حده"(26).

كيف استقبل الشعب هذا الاصلاح الجبائي ؟

إن الشائع هو أن الاصلاح الجبائي الجديد، لقي معارضة عامة، منذ البداية، لكن الواقع هو أن الشعب الذي ارتاب من الضريبة الجديدة في البداية سرعان ما عرف حقيقة الاصلاح، وتأكد أنه تخلص من عسف القواد وتجاوزاتهم في الفروض والواجبات، وهكذا أخذت الرسائل تتوارد من بعض الجهات على السلطان شاكرة صنيعه(27). لقد كانت للترتيب نتائج حميدة على السكان بحيث حصل للناس "اطمئنان وراحة قلوب، وصار الفارون يتراجعون لأوطانهم(28). كما تمولوا وملأوا مطاميرهم بالزرع، ولم يعودوا في حاجة الى النقود يدفعونها للقواد.

أما القواد والاشراف ورجال الزوايا، وكل من كانت له امتيازات في السابق فلم يرق لهم الاصلاح الجديد، لأنه أزال امتيازاتهم، وقضى على مصادر تمولهم، وخاصة القواد الذين استهدفت تجاوزاتهم ومنعوا من التدخل في أمور الجباية.

إن كل هذه الشخصيات استعملت ما لديها من نفوذ مادي أو ديني لتدخل في اعتقاد الناس أن الترتيب بدعة مخالفة للشريعة(29).

أما التجار الذين قلت مشترياتهم من السوق، ومعهم السماسرة والمخالطون فتضرروا من الاصلاح وسعوا لمقاومته(30).

وهكذا جاءت نتائج الترتيب الذي طبق بشكل "يعود نفعه على بيت المال" مخيبة للآمال، لأن القواد، الذين كفت أيديهم عن الجباية، اعتبروها مكفوفة حتى عن "إجراء الأحكام [...] وحفظ النظام"، وهذا ما شجع عناصر الفتنة والاضطراب، فانقلبت المصلحة الى مفسدة نتيجة لذلك. وأصبح الترتيب الذي طبق لفائدة السكان، ضريبة غير شعبية حوربت في كل مكان. وبين أيدينا وثائق عديدة، عبارة عن رسائل سلطانية موجهة الى عدد من القواد في جهات مختلفة، كلها تندد بالفتن والتشويش الذي يحدث بالقبائل، وتساهم فيه عصابات من السراق على مرأى ومسمع من القواد، الذين يتهمهم السلطان بالتواطؤ مع مثيري تلك الفتن.

والجدير بالملاحظة في الأمر، هو أن النصيب الأكبر من هذه الفتن، حدث في أقاليم عرفت توسعا كبيرا لنشاط الأجانب الاقتصادي، ولعلاقاتهم مع السكان عن طريق الحماية والمخالطة(31).

ويأتي في مقدمة هذه الأقاليم، الغرب، ودكالة والشاوية. وغير خاف أن تلك المناطق توجد على الساحل الأطلسي، الذي ازداد تنافس الأوربيين على ثغوره منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر(32).

فقد وجهت رسائل لقواد قبائل سفيان وبني مالك وطليق والخلط بالغرب(33)، كلها تندد بما فشا في قبائلهم من "قبح حال عامتكم - يقول السلطان - وانهماكهم في الإشتغال بالنهب في الطرقات جهارا، وتخريج السرقات ليلا ونهارا، وهجوم القوي على الضعيف وتماديهم على ذلك بمرأى ومسمع القواد"(34). ويتهم السلطان القواد مباشرة بقوله "وإن رفعت اليكم الشكاوي بذلك فبعضكم يدافع على الفعال، ويرد التهمة على أقارب الشاكي. وبعضكم يقبض عليهم حتى يأخذ ما عندهم ويسرحهم من غير مراعاة مصلحة ولا فصال أحد من الشكاة وبعضكم يعتذر للشاكي بأن يده مكفوفة عن الأحكام(35). ويبدو أن تفاحش الاضطراب بالغرب دفع السلطان الى اتخاذ إجراءات عملية، وهكذا نجده يأمر بعزل بعض القواد (36)، ويرسل وفودا مخزنية الى عين المكان ويكلفها بجمع أعيان القبائل والأشياخ وخلفاء القواد للبحث في الأمر، وإلقاء القبض على كل من ثبتت تهمته حتى ولو كان مسؤولا(37). وقد حدث نفس الشيء بنواحي مكناس، إذ اتهم القائد بنعيسى بن حم بتسليط أعوانه على نهب أمتعة السكان وأموالهم(38). لكن الاضطراب الأخطر تسببت فيه قبائل جروان، إذ تزعمت هذه القبائل لفوفا من قبائل حوز مكناس، وهاجمت سوق المدينة ونهبته(39)، كما رفضت أداء الترتيب بعد ذلك وواجهت المحلة المخزنية الموجهة لجمع الترتيب بقوة

السلاح، ولذلك نجد السلطان يأمر قبائل بني امطير وغيرها من القبائل المجاورة بالتضييق على گروان(40).

لكن بني امطير كانوا متحدين في الواقع مع گروان، منذ خربوا الخط الحديدي الذي حاول المخزن وضعه بين فاس ومكناس بالتعاون مع الانجليز (41)، ولذلك التجأ السلطان الى قبائل الحوز والشاوية(42). أما بدكالة، فقد تفاحش اضطراب الأمن، ولذلك أرسل السلطان محلة بقيادة محمد بن بوشتى بن البغدادي، وكلفها بالبحث على نوي الجرائم ومسببي الفتن وتخليص المنطقة منهم. وقد جمع القائد خلائف العمال والأشياخ والأعيان والكبراء وبحثوا في الأمر، ثم سجلوا أسماء المتهمين بإثارة الفتنة وألقوا على بعضهم القبض(43). فكتب القائد يخبر السلطان بالنتيجة، ذاكرا أن الأعيان والكبراء أشهدوا على أنفسهم بأنه لم يبق من نوي الجرائم إلا الفارين للقبائل والمخالطين لأهل الحمايات(44).

يظهر أن المتسببين في الاضطراب هم عامة الشعب، مادام الخلائف والشيوخ والأعيان هم الذين كلفوا بالبحث عن المتهمين وإلقاء القبض عليهم، لكن حقيقة الواقع هي أن مراد السلطان كان هو معرفة، مدى مسؤولية العمال ومساعديهم من الخلائف والشيوخ، "وعليه فلتعيدوا - يقول السلطان - البحث عن أحوال خلائف العمال من خارج ممن لا غرض له، ولو على وجه السر، وأما إن بقي ما كان على ما كان فلا فائدة في توجيهكم"(45). أي إذا تمكن العمال وخلائفهم وهم المسؤولون الحقيقيون، في البقاء مبرئين فلا فائدة من قبض كذا وكذا من المتهمين بالسرقة من عامة الشعب، في حين يبقى المسؤولون عن خرق القوانين في وظائفهم يتصرفون.

وإذا ثبتت تهمة العمال والخلائف، حسبما بلغ علم السلطان من أن «الفرائض وقبض الأطماع لا زال في القبيلة، خصوصا في خليفتي الكلالي والتريعي، مع الترامي والخوض في أمر السراق»، فإن مسؤولية أهل الحماية والمخالطة بينة واضحة من كتاب القائد المذكور للسلطان.

وإذا علم أن الحماية والمخالطة لم يكن يحصل عليها إلا كل متمول أو تاجر، أي الأغنياء. وأن الأوربيين لم يكونوا يمنحون حمايتهم إلا لمن يستفيدون من ماله أو خدماته، عرفنا حقيقة الواقع. إن أعمال الاضطراب، كان يحركها الأغنياء من السماسرة والمخالطين بالتواطؤ مع بعض الحكام، بهدف إظهار معارضة القبائل للترتيب الجديد وتعذير أمره، وبهدف التمول عن طريق تخريج السرقات وتصريفها(46).

وبالجملة، فإن حالات الاضطراب التي عرفتها دكالة والغرب، عقب إعلان الترتيب 1901، كانت لها صلة بالتدخل الأوربي الذي كان يهدف الى تعجيز المخزن، عن طريق إفشال كل محاولة للنهوض، وإلى الإسراع بتفكيك بُنَى المجتمع المغربي الذي طال صموده (47).

إن هذه الوضعية المضطربة سياسيا (هجوم الفرنسيين وفشل سفارات 1901)، واجتماعيا (عواقب تغيير النظام الجبائي) (48)، التي اقترنت بفورة من تهريب الأسلحة للقبائل كمظهر من مظاهر التدخل الأجنبي(49) سرعان ما أدت الى أزمة عامة بانتفاضة بوحمارة في أواخر 1902 (50). ذلك أن الجيلاني الزرهوني لم يكن متمردا يمتنع عن أداء الواجبات المخزنية، بل كان ثائرا ذا برنامج يهدف إلى إحلال مخزن جديد محل مخزن مولاي عبد العزيز الذي ظهر عجزه. ولذلك ادعى بأنه هو محمد بن الحسن الأخ الأكبر للسلطان، الذي اغتصب حقه الشرعي في ولاية العهد من جانب أحمد بن موسى.

كان الظن في البداية أن القضاء على انتفاضة بوحمارة سيكون عملا هينا، لكن المناوشات الأولى، بينت للمخزن خطورة التمرد، ثم سرعان ما تأكد للسلطان أن القضاء على الثائر أمر يستدعي حشد إمكانيات كبيرة غير متوفرة للمخزن.

التجأ السلطان للشعب، وبعث برسائل عديدة لمختلف الجهات، والقبائل يأمر قوادها بتهييء حركات "معتبرة" واللحاق بالسلطان في فاس (51).

إن استدعاء حركات القبائل يمكن أن يرى فيه المخزن عاملا من عوامل إنهاء الاضطراب ـ الذي وصفنا بعض مظاهره ـ ، وذلك بتقريب العمال إليه ومعهم معظم فرسان القبيلة وأعيانها. لكن الذي حدث، هو أن هذا الإفراغ للقبائل من سلطة القواد ترك المجال مفتوحا لتطور الاضطراب(52). وإذا كان للعمال أو بعضهم يد في السكوت عن إثارة الفتن، فإنهم بعد أن أفرغوا قصباتهم، أصبحوا هم أنفسهم هدفا للفتنة التي أوقدوها أو سكتوا عنها على الأقل.

وهكذا تجددت الاضطرابات، وتعرضت دور القواد وقصباتهم للنهب والهدم واستبدل بعضهم(53). كما أن استنفار المخزن للقواد والقبائل لم تكن له نتائج إيجابية، ذلك أن كثيرا من العمال لم يلبوا دعوة السلطان مثل معظم قواد سوس(54).

وهكذا أصبح المخزن أمام أزمة عامة، لم يدر كيف يخرج منها، يلتجئ الى السلطات المحلية، لتهيء حركات معتبرة لمساعدة الجيش الرسمي على مواجهة

اتباع بوحمارة، في الوقت الذي كانت فيه هذه السلطات بدورها في حاجة الى عون المخزن، وتأييده القوي للحفاظ على الأمن(55).

والواقع، أن المرء إذا حاول التعرف على أسباب استمرار الأزمة في التصاعد، فسيجد ذلك راجعا الى فتنة بوحمارة، وخاصة بعد انهزام الجيش أمام المتمردين في دجنبر 1902، إذ "كان هذا الانهزام عظيما على السلطان ـ كما يقول الحجوي إذ ذهب فيه أكثر أمواله وأسلحته، وإن كان الرجال لم يفقد منهم شيئا"(56). ذلك أن قواد الجيش فروا من المعركة، ورغم ذلك لم يعاقبوا" وكان هذا من الأسباب العظيمة في انحلال دولة هذا السلطان بل اضمحلالها، فمن بعد هذه الهزيمة انحلت العرى وسادت الفوضى"(57). ويتحمل مخزن مولاي عبد العزيز جانبا كبيرا من هذه المسؤولية، بسبب استمرار المنافسات بين أعضائه. وعجزهم عن توحيد جهودهم. وقد ظهر ذلك عندما اقنع منافسوا وزير الحربية السلطان بعدم الذهاب لتازة كما أشار المهدي المنبهي، الذي دخل المدينة بعد طرد بوحمارة منها. ثم ما لبث جيش السلطان أن أخرج منها. وإلى هذه الدسائس أشار محمد بن محمد البزيوي بقوله "عقب حوادث البلاط، ودسائس الايوان المدبرة بنشاط، اندفع الثائر بوحمارة في تيار ثورته الجارفة، تلك الثورة التي ضعضعت أركان السلطنة العزيزية وأودت بقوتها"(58).

لقد نتج عن هذه الحوادث فراغ خزينة الدولة إذن، لأن السلطان صرف أموالا كثيرة على حركات القبائل وفي شراء الأسلحة، ولذلك أصبح في حاجة ماسة للمال فاضطر للاقتراض من فرنسا وأنجلترا وإسبانيا، فاقترض حوالي 22.5 مليون فرنك ونصف(59). وحتى هذه القروض تبخرت بسرعة، واشتدت الأزمة التي اتخذت أبعادا اجتماعية واقتصادية وسياسية. وبدا وكأن الجيش الرسمي لن يستطيع مواجهة الاضطرابات إلا إذا زاد عدده وسلاحه. ولكن الضائقة المالية حالت دون ذلك، خاصة وأن كثيرا من القبائل، بدأت تتقاعد عن أداء الضرائب(60). وعجز المخزن عن مواجهة مسؤولياته التي كان يقوم بها في الماضي(61)، الأمر الذي كانت له انعكاسات خطيرة على علاقة السكان بالمخزن الذي نزلت هيبته إلى الدرك الأسفل.

ويمكن التأكيد على أن حركة الانتفاض أصبحت عامة منذ أواخر 1903، حيث حدثت تحركات امتدت من سوس في الجنوب(62)، إلى ضواحي طنجة وتطوان(63) في الشمال، مرورا بالحوز والسهول الوسطى(64) في الوقت الذي كان فيه المغرب الشرقي يغلي غليانا، و"كانت النتيجة "خراب العمران وهلاك الرجال، ونفاذ الأموال وارتباك الأحوال"(65).

هوامش الفصل الأول

1) ـ محمد بن الحسن الحجوي، "تقاييد تاريخية" م خ ع، ح 128.
ـ ابن الأعرج السليماني،"اللسان المعرب عن تهافت الأجنبي حول المغرب"، مطبعة الأمنية، الرباط 1971 "زبدة التاريخ وزهرة الشماريخ"، مخطوط الخزانة العامة بالرباط، د. 3657.
ـ المشرفي محمد، "الحلل البهية في تاريخ ملوك الدولة العلوية"، مخطوط خ. ع د. 1463
ـ ابن زيدان عبد الرحمان، "اتحاف إعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس" الطبعة الأولى 1929 ـ الجزء 1.

2) Henri Terrasse, "Histoire du Maroc", éd. Atlantides, Casablanca 1950, T.2, pp. 381-82.
Dr. Weisgerber, "Au seuil du Maroc Moderne", éd. La porte, Rabat, 1947, p.118.

3) انظر ترجمته في
ـ محمد غريط، "فواصل الجمان في أنباء وزراء وكتاب الزمان"، الطبعة الأولى، فاس 1346، ص. 82-89.
ـ ابن زيدان، الاتحاف، 1، ص. 372-394.

4) ـ ابن الأعرج، زبدة التاريخ 2، 355.
ـ ابن زيدان، الاتحاف، 1، 415.

5) ـ تولى مولاي الحسن بعد وفاة والده محمد بن عبد الرحمان، سنة 1873/1290 وظل في الحكم الى وفاته في سنة 1311-1894
واشتهر بجهوده الهادفة للحفاظ على تماسك الشعب المغربي أمام الضغوط الخارجية، ولذلك أكثر من التحرك في أطراف البلاد جنوبا وشرقا وشمالا.
قارن الاتحاف، الجزء الثاني.
وقد سار أحمد بن موسى في نفس الاتجاه، بل أظهر حزما زائدا في التصدي للانتفاضات التي حدثت ببعض القبائل، حيث أخمدها مستعملا كل أنواع القسوة والبطش. كما فعل مع الرحامنة سنة 1313/1895-1896، والأعشاش بالشاوية 1315/1897 -1898
راجع وثائق الخزانة الحسنية حيث توجد رسائل عديدة في الموضوع وخاصة رسائل السلطان الى عمه مولاي عرفة بفاس، 8 شعبان 24/1313 يناير 1896، وإلى عامل مكناس الجيلاني بن حم البخاري...
6) ـ عن سياسته الخارجية انظر الحجوي، تقاييد، ص. 25.
«والحق يقال فإنه في السياسة الخارجية كان وحيد دهره، فاق فيها مولاي الحسن بدرجات...».

7) ـ ابن الأعرج، "زبدة التاريخ"، II، ص. 355، "وتقدم لإدارة الأعمال من قدمته زعامته. فعمت الفوضى داخل البلاد وطغى حاضرها والباد...».

8) ـ أفرد عبد الله العروي فصلا لتحليل أسباب هذه الفوضى ومظاهرها.

Abdellah Laroui, Les Origines Sociales et Culturelles du Nationalisme Marocain, (1830-1912), F. Maspero, Paris, 1977.

9) ـ لا نستثني الكتاب المغاربة الذين أشرنا لهم في الملاحظة الأولى، بالإضافة الى كل الذين تعرضوا لتاريخ المغرب المعاصر.

10) ـ سعى أحمد بن موسى كما هو معروف في تحويل البيعة عن الابن الأكبر لمولاي الحسن مولاي محمد. وبايع الابن الأصغر عبد العزيز، الذي كان عمره حوالي 14 سنة، وظل يحكم البلاد باسم السلطان الشاب طيلة 6 سنوات أي إلى وفاته في ماي 1900.

الحجوي،تقاييد، 19-27.

المشرفي،الحلل، 330-335.

السليماني، "زبدة التاريخ"، 2، 353-354.

11) ـ الحجوي، تقاييد، ص 24-26.

12) ـ خلال فترة قصيرة تولى أحد أبنائه الحجابة وتولى ابن عمه الحاج المختار بن عبد الله الصدارة، لكن محافظة الحاج المختار لم تؤيدها شخصية قوية، لأن الرجل كان رجل أدب وعلم، ولذلك سرعان ما سحب البساط من تحت قدمه، فأقيل من منصبه وجرد من ماله، فكان ذلك بداية لمصادرة أملاك أسرة أحمد بن موسى.

13) ـ تولى الكاتب المساعد في الخارجية الوزارة نفسها وهو عبد الكريم بن سليمان. وتولى المساعد في شؤون الجيش وزارة الحربية، كما قدم فضول غرنيط وكان أكبر الأعضاء سنا للصدارة. راجع، محمد غريط، فواصل الجمان، المرجع السابق.

14) ـ من رسالة بعثها المهدي المنبهي الى خليفة عامل سلا، بمناسبة سفارته لأوربا، يظهر أن المنبهي وآل التازي، كانوا يشكلون جناحا خاصا فقد طلب المنبهي من خليفة القائد أن يؤخر ما يريده من أغراض الى رجوعه، "وإن كان مما لا يقبل التأخير فاكتب ـ يقول المنبهي ـ في شأنه لسيدنا أيده الله وذلك على يد الأمين الكبير السيد محمد الشيخ التازي فإنه هو النائب عنا في جميع الأمور ولتكن عند الظن بك فيما هو المعتقد من أمثالك. "الرسالة مؤرخة بـ 2 صفر 1319 ـ 21 ماي 1901، و ع س.

15) المشرفي، الحلل البهية، ص 117

16) C.A. Julien, "Le Maroc face aux impérialismes" 1415-1956 éd. J.A., Paris 1978, p.40.

17) استدعى أعيان البلاد وكبار موظفي المخزن لمراكش للاستشارة معهم في صيف 1901 في كيفية مواجهة الوضع الجديد الذي نتج عن احتلال توات. رسالة من ابن سليمان الى القائد عبد الله بن سعيد، الذي كان ملحقا بدار النيابة :«فبوصوله إليك يأمرك سيدنا دام علاه أن تقدم على شريف أعتابه لغرض أكيد، بحرا من ذلك الثغر الطنجي الى الثغر الجديدي»، 17 محرم 6/1319 ماي 1901، و.ع.س.

18) G. Veyre, "Dans l'intimité du Sultan M. Abdelaziz" Paris 1905, pp.29-46.

Dr. Weisgerber, "Documents", Carton 2, B.G. Rabat.

Gabriel Maura, "La question Marocaine au point de vue Espagnol, Challamel, Paris 1911, pp. 209-210.

وذكر Louis Maurice أن المنبهي وصل لبرلين في يوليوز 1901 لكن الالمان لم يهتموا به كثيرا.

Louis Maurice, "La Politique Marocaine de l'Allemagne", Plon, Paris 1916, pp. 6-7.

19) - ترجمة ابن سليمان في فواصل الجمان، م. س، ص 92-109. عن نتائج سفارته أنظر أسفله ص.

20) Maura Gabriel, Op. Cit. p. 217.

G. Veyre, Op. Cit. pp. 42-43.

21) نفسه ص 43.

22) - الحلل البهية، ص 427.

- الحجوي، «الرحلة الوجدية» مخطوط الخزانة العامة، ص 21.

- «فواصل الجمان»، ص 94.

- ابن زيدان، 1، 399.

Cf. A. Laroui, "Les origines" op. cit. P.345

23) - حسب المشرفي فإن المنبهي والانجليز هم الذين كانوا وراء هذا الاصلاح، «الحلل البهية»، ص. 428.

قارن ع العروي، الذي يذكر أن الاصلاح هو نفسه برنامج هاي الذي قدمه لمولاي الحسن، الأصول، ص 345.

أما صاحب "فواصل الجمان"، فيؤكد على أن ابن سليمان هو الذي «أشار بترتيب الجباية على نهج سوي ونمط أوروبوي.» بعد عودته من فرنسا.

ويؤيد هذا الرأي مورا Maura الذي يؤكد بدوره بأن الفرنسيين هم الذين أوحوا بالفكرة لابن سليمان وهو الذي دافع عنها، ولكن البعثة الفرنسية لما رأت التطورات التي أعقبت الترتيب لم توافق عليه، ولهذا انتشر عند الناس أن انجلترا هي صاحبة الفكرة.

Gabriel Maura, Op. Cit. page 216.

ويشير بللير M. Bellaire إلى أن البعثة الفرنسية عارضت الترتيب ولم توافق عليه إلا في 26 نوفمبر 1903.

M. Bellaire, "Les impôts Marocains", AM. 1904, vol. 1, p. 76.

ويظهر أن فكرة القيام بإصلاح جبائي فكرة راودت المسئولين المغاربة، منذ أصبحت مسألة الحمايات تؤثر على العلاقات السياسية والاجتماعية بين المخزن والرعية، وقد ردد هذه الفكرة مولاي الحسن في الظهائر التي عين بها الأمناء في الزيايدة وأولاد بوزيري بالشاوية.

أنظر أسفله، فصل "التدخل الأجنبي بالشاوية" قارن التوفيق أحمد، المجتمع المغربي في القرن التاسع عشر، إينولتان (1850-1912)، 1980، ص 246-247.

نعيمة هراج التوازاني، الامناء في عهد مولاي الحسن، مطبعة فضالة، 1979، ص 325.

) كنانيش الخزانة الحسنية 252، 253، 254، 255، 257، 259، 450، 455. عن ترتيب بعض القبائل كمسفيوة، وكندافة، وكطيوة ودكالة والخلط وطليق وأولاد جامع.
راجع التوفيق أحمد، حول تحليل وثيقة ترتيب ربع كطيوة، مكروفيلم الخزانة العامة 824. عن كناش 253، خ ح.

) ـ يلاحظ أن هذه الرسائل التي تحتوي على نفس المضمون، تختلف من حيث التاريخ. فالظهير الذي نقله غريط في "فواصل الجمان" يحمل تاريخ 10 جمادى II 1319 / 24 شتنبر 1901، ص 95-98.
والموجه الى القائد على الأخصاصي، وايالته يحمل تاريخ 12 جمادى II 1319 / 26 شتنبر 1901، و.خ.ح محفظة 9/420.
والموجه للحاج المعطي المزامزي يحمل تاريخ 28 شعبان 1319 / 10 دجنبر 1901.

A.G.P. Martin, "Quatre Siècles d'Histoire Marocaine", au Sahara (1508-1902), au Maroc (1894-1912), Paris 1923, p.393.

2) ـ اعتمدنا في االاستشهادات السابقة، الظهير الموجه للقائد على الاخصاصي، خ. ح. 9/420.

2) ـ هناك وثائق عديدة تشهد على ذلك، منها على سبيل المثال شهادة عدلية على لسان أعيان الرحامنة يشهدون على أنفسهم بأنه "لم يبق لديهم لا سارق ولا خوان ولا متهم ولا

غيرهم. "أما سيرة العمال والأشياخ فإنهم منذ تأسيس الترتيب الأسعد لم تقع عليهم مظلمة، ولا غيرها، ولم يدفع أحد منهم ولو فلسا واحدا عدا أمور العسكر والحركة."
الرسالة مذيلة بشكلين وإثبات نائب قاضي مراكش بالرحامنة، و خ ح، 9 ربيع الأول 1320 / 16 يونيو 1902.

28) ـ الغجدامي، "التسلي عن الآفات بذكر الأحوال ومافات" مخطوط، ص 132، عن أحمد التوفيق م. س. ج 2، 251.

29) ـ كما فعل المشرفي نفسه، الحلل، ص. 428وما بعدها.
لكن محمد غريط له رأي آخر "وأحبب بها من خطة لو أنتج قياسها وأثمرت غراسها فارتاب العوام بهذا الترتيب ولاذ الخواص بالتحذير والترهيب وتوصلوا بتلك الضريبة الى التضريب"! الفواصل، ص. 98.
ـ أنظر رسالة يرفض فيها السلطان ما طلبه المرابط أحمد الناصري بسوس من "إبقاء ما كان على ما كان"، 15 جمادى I 1320 / 20 غشت 1902 و. خ. ح

30) أشار Doutte إلى أن سكان الحوز استغنوا من جديد، وبدأوا يشترون الخيول والسلاح ويملأون مطاميرهم، ولم يعودوا في حاجة للنقود يدفعونها للقواد، ولذلك نقصت صادرات التجارة الأوربية وأحس التجار بالأزمة، في حين أحس سكان الحوز بالسرور وأخذوا يشكرون السلطان الذي قاوموه في البداية.

E. Doutte, "Marrakech", Pub. Comité du Maroc, Paris 1905, pp. 398-399.

31) ـ أسفله، فصل التدخل الأوربي بالشاوية.

32) ـ قارن "أثر الاستقرار الأجنبي بالدار البيضاء في القرن 19" موضوع تدخلنا في ندوة الدار البيضاء 1982.

33) ـ أكثر من 50 رسالة الى قواد الغرب العربي الحباسي، وادريس العيساوي، وعلال المنصوري، ومحمد بن عبد الله، وعبد القادر الخلخالي...، الرسائل مؤرخة من محرم الى جمادى الأولى 1320 الموافق أبريل ـ غشت 1902، و خ ح، محفظة 10/420.

34) ـ رسالة للقائدين محمد بن عبد الله وعلال المنصوري السفيانيين، مؤرخة 20 جمادى الأولى عام 1320 / 25 غشت 1902 و خ ح.

35) ـ نفسها، قارن رسالة مماثلة لقبائل الخلط وطليق وسفيان نفس التاريخ.

36) ـ رسالة من السلطان لعبد السلام الأمراني، يأمره بإعفاء علال بن عودة، والحسين ولد العوفية السفيانيين وتولية غيرهما. 4 محرم 1320 / 13 أبريل 1902.

37) ـ الرسالة المذكورة في هامش 33 "وبعد الفراغ من ذلك (إلقاء القبض على المتهمين) يبحثون عما أمرناهم به فيما يتعلق بأحوالكم وأحوال خلائفكم."

38) ـ رسائل من السلطان عبد العزيز، للقائد بنعيسى بن حم بن الجيلالي تتعلق بشكاوي عدة

أفراد مما لحقهم من أفراد آخرين ومن أصحاب القائد الذين كانوا يصادرون بهائمهم وماشيتهم، محرم 1320 أبريل 1902، و خ ح.

39) - العروي عبد الله، الأصول، ص 346.

40) - نظرا لما "صدر من فساد كروان من الجراءة والطيش والعدوان والتجاسر على المحلة الموجهة لاستيفاء ما أوجبه الله تعالى عليهم." 25 جمادى الأولى 1320 / 30 غشت 1902، و. خ. ح، 10/420

41) - A.G.P. Martin. Quatre Siècles d'Histoire Marocaine", p. 397.

42) - نفسه ص. 399.

43) - "ووقع القبض عليهم، فاجتمع في عدد المقبوضين مائة نفر وستة وتسعون نفرا"، رسالة جوابية سلطانية للقائد المذكور 16 محرم 1320 / 25 أبريل 1902.

44) - نفسها.

45) - نفس الرسالة.

46) - حكى السيد "سلماني الجيلالي (80 سنة) أن القناصل كانوا يحمون السراق الذين يتعاطون لتهريب المسروقات من دكالة للشاوية وبالعكس.
ومعلوم أن الفرنسيين كانوا معارضين للإصلاح الجديد، ولذلك يبدو أن المحميين الفرنسيين ومخالطي التجار الفرنسيين كانوا من أنشط مثيري الفتن.

47) Voir Germain Ayache, Histoire et colonisation l'exemple du Maroc, Hesp. Tamuda, 1976-7, p. 53 et suite.

48) - في تقرير أنجز في شهر شتنبر 1902 استنتج المكتب الثاني لهيأة الأركان بالجيش الفرنسي ما يلي "ومجمل القول يظهر أن المغرب يمر حاليا بأزمة خطيرة، تحت تأثير أسباب مختلفة. إن وضعية حرجة كهذه لا يمكنها أن تستمر بلا نهاية، سواء أدت إلى ثورة البلاط، أو أدت الى تدخل أكثر وضوحا من طرف إنجلترا في شؤون البلد"
A.G.V. 3h15, doss.95.

49) - نعلم ذلك من رسالة بعثها مولاي عبد العزيز لعامل الرباط أحمد السويسي "بلغ علمنا الشريف أن الذين يردون للمدن والمراسي من القبائل البعيدة كسوس ونحوه بقصد البيع والشراء في الإدام وغيره، لما يعزمون على الرجوع لبلادهم لا يقدمون شيئا على شراء العدة القرطوسية ويتوجهون لقبائلهم، وربما لا يأتون إلا لأجلها، وقد كثر توجه بقالة سوس بها لإخوانهم، مع أن أمرنا الشريف صادر من قديم بمنع بيع ذلك أصلا وعليه فنأمرك أن تتيقظ لذلك وتنصب العيون والحراس على من يشتري العدة الرومية

والقرطوس ممن ذكر وتمنعه، وأن تحذر التجار من بيع ذلك والخوض فيه 29 ربيع الثاني 1320 / 5 غشت 1902، نهليل XCIX.
- وعن تفاحش تهريب الأسلحة بطنجة للقبائل، نفسه، لوحة XCVII.

5) - عن فتنة بوحمارة وعواقبها السياسية والاجتماعية والاقتصادية، يراجع محمد بن الحسن الحجوي "الرحلة الوجدية" مخطوط خ. ع. ح، 123.

E. Aubin, Le Maroc d'aujourd'hui, A Colin, Paris 1094, chap. VII.

L. Arnaud, Au temps des Mehallas ou le Maroc de 1860 à 1912, éditions Atlantides, Casablanca, 1952, p. 153-214.

ابن الأعرج السليماني زبدة التاريخ 2/ ص 359وما بعدها.
المختار السوسي، المعسول، الجزء 20- مذكرات القائد الناجم.
عبد الوهاب بنمنصور، "أعلام المغرب العربي"، ترجمة بوحمارة.

51)- قارن مارتان أربعة قرون، ص 400.

52) - تجدر الإشارة الى أن المحميين وحتى المخالطين كانوا يمتنعون عن المساهمة في الحركة، ولذلك يمكن إرجاع أسباب تطور الفتن الى سعاياتهم.

53)- هذا ما حدث بدكالة والشاوية والحوز بصفة عامة. مارتان 400.

54) - 18 حجة 1320 / 18 مارس 1903، بعث السلطان للقائد أحمد التمنارتي مثل غيره من قواد سوس، سيتنفرهم للحاق بفاس على رأس حركاتهم المكونة من "أهل الثروة والملاء والأشياخ والأعيان والكبراء [...] من أنجاد فرسان القبيلة ورماتها الذين يعتد بهم في كل كفاح وخيل جياد صحاح، وتنهض - يقول السلطان - بها لحضرتنا الشريفة عاجلا وفي أقرب حين"

وقد ذكر المختار السوسي أن هذا القائد مثل قواد سوس لم يلبوا دعوة السلطان، المعسول، 20، ص 263-264.

55) - في الوقت الذي اشتكى فيه عامل طنجة الصديق برگاش من عدم كفاية 500 عسكري لضمان الأمن بالمدينة وضواحيها، وطلب من المخزن إمداده بـ 500 عسكري آخرين، 4 محرم 1321 / 2 أبريل 1903، أمر السلطان قواد إيالة الصديق برگاش بتنظيم محلة معتبرة وإرسالها على وجه السرعة، 21 محرم 1321 / 19 أبريل 1903، نهليل لوحة CV ولوحة CVI.

56)- محمد بن الحسن الحجوي، "الصورة الجمالية" جـ 4، ص 36.

57) - نفسه.

5)- البزيوي، "دول المغرب الأقصى"، مخطوط الخزانة الحسنية، ص 122

P. Guillen, Les emprunts Marocains, 1902-1904, Paris éd. Richelieu.

J. Caille et Charles Roux, "Missions diplomatiques Françaises à Fès, éditions Larose, Paris 1955, Page 177.

60) - "رجع السلطان لفاس وذلك في رجب 1321، وقد فرغ كل ما استدانه من أوربا من المال وذهبت أسلحة كثيرة فرقها السلطان على القبائل التي كانت تعينه مثل زمور وغيرهم مع أنهم لم تظهر منهم نصيحة، وإنما كان أخذهم للمال والسلاح نزعا لهيبة الدولة من قلوبهم، وضياع الملايين التي استقرضها من أوربا وهذا سبب تقاعد القبائل من بعد عن أداء الضرائب [ ] فعجزت المالية عن القيام بنفقات الجيش...
الحجوي، الصورة الجمالية جـ 4، 37.

61)- أشار أحمد المنصوري، الى إهمال المحلة المخزنية المرابطة بزيان بقوله
"في سنة 1321 تدهورت الأمور حوالي هذا التاريخ، ونقصت الخزينة المخزنية وأدانت وارتبكت الأحوال، وهاجت الأهوال، واشتغل السلطان بشؤونه فتنوسيت المحلة الزيانية وقطعت عنها المؤونة"
أبو القاسم أحمد المنصوري، "من كباء العنبر من عظماء زيان أطلس البربر"، ميكروفيلم الخزانة العامة، رقم 946 الجزء الأول، ص 145.

62)- أشار المختار السوسي الى هذه الانتفاضة وأورد بعض الرسائل السلطانية للقبائل يحثها على إخماد الفتن، ويتهم الأشياخ والأعيان والكبراء بالتهاون ويحملهم المسئولية.
المختار السوسي، المعسول جـ 20 ص . 264. cf. Martin, op. cit. p. 404

63)- محمد داوود، مختصر تاريخ تطوان الجزء الثاني ص 220-222.

A. Joly, Le siège de Tétouan par les tribus des Djebala 1903-1904, A.M. T.III, 1905, p. 266-300.

64)- أنظر مارتان ص 404-408. وكذلك A.F. 1903 p. 330.

65)- ابن الأعرج السليماني، زبدة التاريخ، 2 ص 367.

الفصل الثاني

سياسة التدخل الفرنسي وردود فعل المغاربة

إن هذه التطورات الداخلية، لا يمكن فصلها عما كان يحدث من تطور في العلاقات المغربية الأجنبية، وقد أشرنا لذهاب سفارات مغربية سنة 1901 لأروبا بهدف خلق توازن في العلاقات بين المغرب وأوربا، ذلك التوازن الذي فقد إثر وفاة الصدر الأعظم الذي كان يتبع خطا متصلبا في السياسة الخارجية (1)، وإثر الاحتلال الفرنسي للواحات الشرقية خاصة توات.

1. نتائج سفارتي 1901 :

ويبدو أن نتائج سفارتي المنبهي وابن سليمان، لم تكن مرضية فالمنبهي لم يستطع أن يأخذ من الانجليز أي شيء باستثناء نصيحتهم له بضرورة شروع المخزن في إصلاحات تتناول ميادين الإدارة والاقتصاد، لكي يتسنى للمغرب مواجهة التدخل الأجنبي.

في حين أسفرت سفارة ابن سليمان لفرنسا عن نتائج عكسية، إذ تمكن وزير خارجية فرنسا من إقناعه بقبول بروتوكول 20 يوليوز 1901(2)، الذي ينظم علاقات الطرفين في الحدود المغربية الجزائرية، وهو اتفاق كرس في الحقيقة، الهيمنة الفرنسية على واحات الجنوب الشرقي المغربية، وعلى مناطق شاسعة بالحدود، وأعطى صفة الشرعية لهذه الهيمنة.

وإذا أضفنا الى هذا البروتوكول، اتفاقية الجزائر الملحقة به، التي وقعت في 20 أبريل 1902(3). فسنلاحظ أن الفرنسيين حصلوا على مكاسب كبيرة لتوسعهم على حساب المغرب. فقد وضع بروتوكول 20 يوليوز مجالات واسعة من أراضي بعض القبائل المغربية تحت التبعية الفرنسية (الفصل الخامس). والأخطر من هذا أن تلك القبائل خيرت بين الخضوع للفرنسيين أو الانتقال من أراضيها لمناطق أخرى داخل المغرب إذا أرادوا الإبقاء على مغربيتهم (نفس الفصل).

في حين نظمت اتفاقية 20 أبريل التجارة عبر الحدود، ومنحت الفرنسيين امتيازات جمركية على حساب المغاربة، وفرضت على المخزن حماية تلك الامتيازات بالسهر على تنفيذ بنود الاتفاقية. كما منح هذان الاتفاقان لفرنسا ورقة رابحة في مجال السياسة الدولية والتنافس على المغرب. فبتوقيع الاتفاقين أخذت فرنسا تلوح في المحافل الدولية، "بمصلحتها الخاصة"، في المغرب عن طريق الجوار، تلك المصلحة التي اعترف لها بها المغرب نفسه، وهي فكرة تلقفها الكتاب والمسؤولون الفرنسيون وأجمعوا على ترديدها في كل مناسبة.

لكن، نظرا لخطورة الاتفاقين الذين هدفا الى الحصول على مساعدة المخزن لتسهيل المبادلات عبر الحدود، لفائدة فرنسي الجزائر، وبالتالي تسهيل التوغل الفرنسي من الشرق. فإن المخزن لم يطبق ما جاء فيهما، حتى اضطرته فرنسا لذلك عقب احتلال وجدة سنة 1907.

وهكذا يمكن للمرء أن يجد تفسيرا لردود فعل المغاربة ضد الفرنسيين الغزاة بالحدود الشرقية، وفي الوقت نفسه ضد المخزن المغربي العاجز(4). وبالتالي يكشف العلاقات المتداخلة بين ما كان يجري من انتفاضات داخلية وبين الضغوط الخارجية.

إن المحاولات الاصلاحية بتأثير الأجنبي، والسكوت عن الاحتلال الأجنبي لأراضي مغربية، ومحاولة جعل المغاربة يقبلون الأمر الواقع، يضاف لذلك الشائعات التي أضحت تتردد هنا وهناك، عن علاقة السلطان بالمسيحيين في البلاط، واستشاراته معهم في أمور المسلمين، كل ذلك أثار ضد مولاي عبد العزيز معارضة المحافظين من سكان المدن ومقاومة القبائل. وبالتالي يفسر لنا الدوافع المختلفة التي كانت تحرك الانتفاضات ضد مخزن عاجز.

وواضح أن تلك الدوافع لا يمكن حصرها ببساطة في أسباب آنية داخلية، مرتبطة بالتنظيم الاجتماعي المغربي، بل يجب ربطها بما كان يحاك ضد البلاد من

دسائس أجنبية وضغوط اقتصادية وعسكرية، في وقت أصبحت فيه حكومة البلاد عاجزة عن التصرف، بسبب ما يربطها بالأجانب من معاهدات وبسبب الضائقة المالية التي أصبحت مزمنة منذ 1902، إن لم نقل منذ الستينات من القرن الماضي(5). وهذا ما اضطر البلاد للاقتراض من الخارج وبذلك دخل المغرب في تشابكات الدبلوماسية الأوربية التي أفقدته استقلاله في النهاية.

2. الاتفاق الودي واقتراض 1904 :

شجعت اتفاقيات 1901-1902 بين المغرب وفرنسا، الدولة الأخيرة على بدء حملة دبلوماسية هادفة لتمهيد السبيل أمام السيطرة الفرنسية على المغرب. وهكذا تمكنت من الاتفاق مع إيطاليا على تبادل المصالح في كل من المغرب وليبيا (اتفاق 30 يونيو، ونقط 3 نوفمبر)(6).

وبعد مفاوضات طويلة توصلت فرنسا الى تسوية خلافاتها الاستعمارية مع ابريطانيا بالاتفاق الودي المعروف. ففي 8 أبريل 1904، وقع الاتفاق المتعلق بالمغرب ومصر، حيث حصلت فرنسا بواسطته على حرية العمل في المغرب دون معارضة ابريطانية، مقابل تخلي فرنسا عن مصر للنفوذ الانجليزي(7).

عواقب الاتفاق

لقد وضع اتفاق 8 أبريل حدا للمعارضة البريطانية للمطامع الاستعمارية الفرنسية في المغرب، وأعطى الحرية الكاملة لابريطانيا في مصر. ورغم ذلك فلم يرض لا الرأي العام البريطاني(8)، ولا الفرنسي، لأن الفرنسيين اعتبروا تنازل بلادهم عن مصر تنازلا عن حقوق مكتسبة مقابل آمال تحيط بتحقيقها كثير من العراقيل في المغرب(9).

أما بالنسبة للعلاقات المغربية الأوربية، فقد اعتبر المغاربة الاتفاقية بمثابة عقد بيع المغرب لفرنسا، وأن الانجليز والفرنسيين تصرفوا في مصير شعب لم يأخذوا رأيه مسبقا(10). فحسب المادة الثالثة من المواد السرية الملحقة بالاتفاق، تعهدت الدولتان بأن يكون شمال المغرب من نصيب إسبانيا "إذا كف السلطان عن ممارسة حقوقه" على تلك المناطق، ومعلوم أن سلطان المغرب، لن يتخلى عن ممارسة حق بلاده في السيادة والاستقلال، إلا إذا اضطر لذلك، وهذا ما تنبأ به الاتفاق. وهذا أمر يخالف ما تعهدت به فرنسا في "الفصل الثاني"، من أنها لن تعمل على "تغيير الحالة السياسية في المغرب" وفي الواقع فإن الفصول الملحقة بالاتفاق لم تترك شكا حول أهدافه الاستعمارية.

وفي 7 أكتوبر 1904، انضمت إسبانيا للاتفاق السابق ووقعت مع فرنسا تصريحا قبلت فيه ما جاء في اتفاق 8 أبريل 1904.

لقد أثار اتفاق هذه الدول الثلاث حول المغرب، ردود فعل مختلفة بين المغاربة، وقلقا كبيرا بل هيجانا خشي معه المسؤولون أن تثير "أقل محاولة من فرنسا للتدخل، ولو سلميا معارضة مسلحة من طرف القبائل"(11).

والواقع أن ريح المقاومة للأجانب بدأت تعصف منذ انتشر خبر انعقاد الصفقة الانجليزية الفرنسية، وفي هذا الإطار ينبغي وضع حادث اختطاف الثري الأمريكي Perdicaris وصهره الانجليزي بطنجة ليلة 18 ماي 1904، من طرف أصحاب الريسوني (12). وتحفز قبائل حوز طنجة وتطوان، لمقاومة الخطر الخارجي الذي يهدد بالتدخل(13).

ويبدو أن الانجليز الذين اتهموا بخيانة المغرب، أصبحوا هدفا للغضب الشعبي. ففي شتنبر 1904، اختطف المعمر الانجليزي M. Lee من الرباط من طرف السهول، ولم يطلق سراحه إلا بفدية. كما منع بنو عروس القائد Mac Lean (ماك لين)، من المرور برا الى طنجة، حيث اضطر لركوب البحر من العرائش. وتعرضت دار (فيلا) الصحفي الانجليزي Harris بطنجة للهجوم(14).

لا شك أن هذه الحوادث التي كانت موجهة ضد الانجليز، لا يمكن أن تكون محض صدفة. والأكيد أنها كانت مدبرة بوعي، وعن سابق إصرار، كرد فعل لما اعتبرته أوساط مغربية عديدة، خيانة إنجليزية(15).

أما علاقة المغاربة بالفرنسيين، فقد دخلت في مرحلة تميزت بالمواجهة. وفي هذه المواجهة، كانت فرنسا تتسلح بعدة أوراق رابحة فزيادة على اتفاق 8 أبريل، الذي أفسح لها المجال في المغرب، هناك حاجة المخزن الملحة للمال، ومحاولاته عقد اقتراض جديد منذ 1903، بعد أن صرفت القروض الثلاثة التي اقترضت من فرنسا (نوفمبر 1902)، وإنجلترا (مارس 1903)، وإسبانيا (ماي 1903). وقد وجد الفرنسيون الفرصة سانحة لإحكام السيطرة المالية على المغرب، في وقت كانت فيه خزينة البلاد أنقى من كف اليد، بسبب تلكؤ بعض العمال في جمع واجبات الترتيب(16). وهكذا تدخل الفرنسيون لدى الحكومات الأخرى ليخلو لهم الجو، وشجعوا الرأسمال الفرنسي الذي تمكن من عقد اقتراض كبير مع المغرب.

3. اقتراض 1904 ونتائجه

من المفارقات المثيرة للتساؤل، هي كيف قبل المغرب الاقتراض من فرنسا في الوقت الذي عرفت فيه أهداف الاتفاق الودي، وفي زمن عرف توترا في العلاقات المغربية الفرنسية؟

ستتضح هذه المفارقات، إذا علمنا أن المخزن كان يبحث منذ 1903، عن عقد قروض أخرى من دول أروبية. لكن حصول الاتفاق بين انجلترا وفرنسا، ضيق المجال أمام المغرب، الذي وجد نفسه وجها لوجه مع الفرنسيين وخاصة بعد أن راقبت الحكومة الانجليزية شروط اتفاقها مع فرنسا، وأفسحت المجال للرأسمال الفرنسي. ولذلك فشلت محاولات المغرب لإيجاد قروض لدى أبناك لندن(17).

ورغم أن السلطات المغربية ظلت تعارض في الاقتراض من مصدر وحيد، وخاصة من الفرنسيين فإنها لم تجد بدا من التفاوض مع المؤسسات الرأسمالية الفرنسية(18). ورغم أنها نجحت في البداية في خلق تنافس حاد بين La companic marocainc (19) ومجموعة من الأبناك يتزعمها بنك باريز والبلاد المنخفضة (20)، فإن الدعم الذي قدمه "الكي دورسي" لمجموعة الأبناك، جعل "الكمبانية المغربية" تنسحب مرغمة، لأن الخارجية الفرنسية قررت دعم مجموعة الأبناك في مفاوضاتها مع المخزن، ودفعها في نفس الوقت الى قبول بعض شروط المخزن حتى تضمن الاشراف على تنفيذ العقد.

كان الرأسماليون الفرنسيون ووراءهم وزير الخارجية (Delcasse)، يأملون أن يخضعوا المالية المغربية لمراقبتهم باستغلال الضائقة المالية التي يعيشها المغرب، لكنهم - في الواقع - جوبهوا بصمود قوي من جانب المغاربة(21). وقد حذرت تقارير الدبلوماسيين الفرنسيين، من فشل المفاوضات، ونبهت الى المدى الذي يمكن أن يذهب اليه المغاربة في مقاومتهم. فقد جاء في تقرير لنائب القنصل الفرنسي بفاس ما يلي "من التهور الاعتقاد أنه بتليين موقف المخزن بما فيه الكفاية، فلا يبقى إلا إملاء الشروط عليه. لأنه يوجد وسط الحكومة، كما يوجد وسط البلاد كلها قوة مقاومة لا يشك فيها، ويمكن للمغاربة أن يعيشوا مدة طويلة أخرى بدون أن يؤدّى أي أجر لأحد. وقد سبق للمخزن التفكير في الانتقال للرباط. وترك خليفة للسلطان بفاس، وحينما يكون المخزن بمراكش فإنه يجمع الاتاوات من سكان الحوز الأغنياء(22)".

وفعلا لقد اقترح بعض أعضاء المخزن الاعتماد على جبايات القبائل باتخاذ مواقف معادية للتدخل الفرنسي، وإعلان الجهاد ضد المطامع الأجنبية. لكن كان من بين أعضاء المخزن أيضا، من حبذ التعاون مع الفرنسيين وعمل على إنجاح عقد الاقتراض(23)، رغم المقاومة الشديدة التي أبداها السلطان عبد العزيز. مما جعل المفاوضات تتصف بكثير من الصعوبات، نظرا للشروط الفرنسية الثقيلة، والرفض المغربي لبعضها وخاصة لمسألة أحداث بنك مخزني(24).

وفي 12 يونيو 1904 تم الاتفاق على عقد اقتراض مبلغه 62.500.000 فرنك بفائدة 5٪ بضمانة عائدات الجمارك المغربية - لمدة 35 سنة - التي يقتطع منها 60٪ شهريا (25).

لقد وضع هذا الاقتراض بين أيدي الفرنسيين جمارك المغرب، في كل الموانيء المفتوحة للتجارة والتي ستفتح (26)، وأعطاهم الحق في مراقبتها (الفصل 12)، كما تم حرمان البلاد من 60٪ من مداخيل الجمارك (الفصل 17)، في الوقت الذي لم يوضع تحت تصرف المغرب إلا 10 ملايين فرنك، قسطت على أربعة أقساط فمن مجموع المبلغ الإسمي للقرض وهو 62.500.000 فرنك، أخذت الأبناك المقرضة 12.500.000 فرنك عمولة مسبقة. و 22.500.000 سددت لأصحاب ديون 1902-1903، ودفعت 15.500.000 لتسديد ديون السلطان من شركات خاصة. وأبقت الأبناك المقرضة 2.000.000 فرنك رهينة(27).

إن هذه الشروط الربوية، جعلت الأزمة المالية تزداد استفحالا، والوضع الاجتماعي يزداد خطورة. وقد عد بعض هذه الشروط، وخاصة ما يتعلق بوضع مراقبين فرنسيين بالموانئ، نقصا للسيادة الوطنية، ولذلك قوبل شرط المراقبة بالرفض الشعبي ولم يساعد المخزن على تنفيذه(28) إلا بعد أن اضطرته فرنسا لذلك في سنة 1907 مما أثار ردود فعل شعبية سنتعرف علي نتائجها(29).

4. التهافت الفرنسي بعد اتفاق 8 أبريل واقتراض 5٪ 1904:

لقد اعتبر الفرنسيون بعد اتفاق 8 أبريل 1904 واقتراض 1904، أنهم أصبحوا في بلاد مفتوحة. ولذلك نشطت ضغوط رجال الدبلوماسية والمال على المخزن. وأكثر القائمون على البعثة الفرنسية بطنجة، من ترديد التصريحات التي يفهم منها أن الفرنسيين أصبحوا أسياد المغرب. فقد صرح رئيس المفوضية، سان روني طايندي St. R. Taillandier، في 15 يوليوز 1904 بقوله : "لقد اتفق مع

المخزن على أن الحكومة الفرنسية، هي وحدها التي خصص لها أن تتفاوض وتقرر الكيفية التي تؤسس بها البنك المخزني بالمغرب"(30). وقال الكاتب الأول للمفوضية سان أولير St. Aulaire في 23 يوليوز 1904 «إن الامتيازات لن تمنح إلا لفرنسيين أما الآخرون فعليهم أن يقنعوا في أحسن الأحوال ببعض الفتات».(30 مكرر).

وقد اعتقد الرأي العام الفرنسي، نتيجة للاتفاقين المذكورين، ونتيجة لدعاية الحزب الاستعماري الذي كان طايندي وأولير المذكوران من أعضائه، أن المغرب قد فتح للتدخل الفرنسي، وأدى هذا الاعتقاد إلى توافد متزايد للفرنسيين، حيث تكاثرت الجالية الفرنسية بالموانئ، كطنجة، التي انتقل عدد الفرنسيين فيها من 130 نسمة الى 400 نسمة(31)، والدار البيضاء (32) والجديدة. وتأسست دور تجارية جديدة ومراكز ووكالات مالية فرنسية. كما نشطت الأوساط الاستعمارية بفرنسا والمغرب لخدمة النفوذ الفرنسي، فجمعت "لجنة المغرب" الأموال بباريز وأرسلت 20.000 فرنك للبعثة الفرنسية بطنجة بهدف تأسيس "جريدة السعادة" الناطقة بالعربية، وفتحت مدارس جديدة بتطوان والصويرة لنشر اللغة الفرنسية(33). كما خصصت مقادير مالية أخرى، لبعثات التعرف على البلاد المغربية وسكانها. وهكذا خصص مبلغ 50.000 فرنك لبعثة De segonzac الذي انطلق خفية من الصويرة في دجنبر 1904 نحو الأطلس. وفي هذا الوقت كان De Flotte يرسم خريطة للحوز، وكان Gentil يتعرف على سوس، في حين أنهى Lemoine رحلته بين الأطلس والصويرة وتعرف على السواحل المغربية(34). أما على المستوى الرسمي، فقد خصص البرلمان 60.000 فرنك لدعم النفوذ الفرنسي، وتمويل مصالح الاستخبار(35)، وزيادة عدد الدبلوماسيين والقناصل ودعم البعثة العلمية(36).

ونتيجة لهذا النشاط المتزايد، وتسارع الضغوط الفرنسية، توترت علاقات المغاربة بالفرنسيين، الذين ازداد سلوكهم سوءا، وبدأوا يفكرون في إخضاع السلطان بالقوة، واقترحوا البدء باحتلال الرباط وسلا. فقد جاء في أحد التقارير "يجب احتلال الرباط وسلا بالقوة. إن الرباط هي إحدى العواصم الثلاث بالفعل، ونقطة مرور بين منطقة فاس ومنطقة مراكش، وهي إحدى المدن الأكثر تعصبا والمحاطة بالقبائل الأكثر جراءة (زعير وزمور). وأخيرا فهي أحد الموانئ التي يكون فيها الإنزال غير منتظم والتي يصعب كثيرا إرسال الامدادات لها"(37).

وقد اقترح هذا التقرير الضرب بقوة وبسرعة لإرهاب المغاربة، لأن خلاف ذلك، سيثير الجهاد، أو على الأقل التهديد به. وعن احتمال مقاومة المغاربة جاء في التقرير المذكور "وإذا حدث أن نظمت مقاومة في مكان ما، فيكفي ليكون المثال كافيا بعض القنابل التي تبين بأننا نملك وسائل للعمل متفوقة على وسائلهم وعلى بنادقهم التي يقولون عنها أنها تعادل بنادقنا"(37 مكرر). ولقد حاول المسؤولون الفرنسيون دفع المخزن للتخلي عن مقاومته للتدخل الفرنسي، وقبول الهيمنة الفرنسية. وزاوجوا بين الضغط الدبلوماسي والعسكري. وهكذا بدأت الاستعدادات منذ أواخر 1904 بباريز وطنجة لتهييء سفارة هامة لبلاط فاس برئاسة المفوض الفرنسي سان روني طايندي Taillandier الهدف منها الحصول على موافقة السلطان على مشروع فرنسي لإصلاح مزعوم بالمغرب، وهو يهدف في حقيقة محتواه إلى بسط حماية فرنسية مبكرة على المغرب(38).

وبموازاة هذا الضغط الدبلوماسي تحركت الجيوش الفرنسية بالحدود الشرقية، واحتلت عين بني مطهر (برگنت) (39). وواكب هذه الضغوط دعاية إعلامية استخدمت لها الأقلام المأجورة(40) بهدف الإساءة للمغرب والضغط عليه.

5 ـ ضغط فرنسي وصمود مغربي فشل "مشروع إصلاحات 1905"

لقد اعتقد الفرنسيون بعد نجاحهم في عقد اقتراض 1904، أن الوقت ملائم لطلب تنازلات من السلطان، لصالح حماية فرنسية (41). لكن المغاربة الذين كانوا على علم بأهداف السفارة المقترحة، تحركوا لإفشال مسعاها. وهكذا نجد مولاي عبد العزيز، يتخذ قرارات هامة في دجنبر 1904، تتلخص في تجميد عمل البعثة العسكرية الفرنسية، وهو قرار أغضب رئيس المفوضية طايندي Taillandier وقرر تعيين نائب جديد لدار النيابة، وهو الأمين عبد السلام التازي مكان النائب الحاج محمد الطريس(42). كما قرر السلطان تأخير وزير الخارجية. وكلف المقري بمهمة جلب مدربين مسلمين من تركيا ومصر(43).

وقد اتخذ مولاي عبد العزيز هذه القرارات، نتيجة لموقف الرأي العام المغربي المعارض للتدخل الفرنسي، واعتقادا منه بأن ذلك التدخل يهدف الى الإساءة لبلاده. وباتخاذ هذه القرارات بدا وكأن التيار المعادي للمطامع الفرنسية، سواء بين أعضاء مجلس دار النيابة الذي تأسس منذ 1900، أو بين أعضاء المخزن وفي أوساط العلماء، قد نجح في مسعاه المتشدد إزاء التدخل الفرنسي،

ذلك أنه منذ تم تأسيس مجلس جماعي لتسيير شؤون دار النيابة تحت إشراف الحاج محمد الطريس حسب الظهير المؤرخ بـ 4 جمادى الأولى 1318 (30 غشت 1900)(43مكرر)، ظهر تياران متعارضان داخله تيار يمكن تسميته بالتيار الراديكالي المعادي للفرنسيين يتزعمه عبد الله بن سعيد السلاوي، الذي كان في الوقت نفسه عاملا على سلا، يؤيده داخل المخزن الأمين عبد السلام التازي، وينسق عمله مع عبد الحكيم المزوغي الذي كان من أنشط مستشاري السلطان المعادين لفرنسا. وتيار آخر يتزعمه بناصر غنام صديق وزير الخارجية ووزير الحربية، وكان يرى بأنه لا مفر من التعاون مع الفرنسيين(44).

وفي الواقع، لقد تراجع السلطان عن القرارات المذكورة، بعد مناورة المفوضية الفرنسية التي هددت باستخدام القوة، واستدعت الفرنسيين الموجودين بفاس الى الانسحاب مع القنصل الفرنسي في الظاهر للموانئ تمهيدا لأجلائهم عن المغرب. في حين صدرت تعليمات سرية لهم بالبقاء(45). وبالرغم من تراجع السلطان عن قراراته السابقة، فقد وطد العزم على إفشال مشروع السفارة الفرنسية. ويمكننا أن نأخذ فكرة عن صمود السلطان أمام هذا التهافت الذي كان يقوده الوزير الفرنسي بطنجة، من مراجعة رسالة وجهها الدكتور فاير Veyre الفرنسي، الذي كان يعمل بالبلاط المغربي، إلى رئيس الجمهورية الفرنسية، باسم مولاي عبد العزيز، ردا على ضغوط وتصرفات القائمين على رأس المفوضية بطنجة، ونكتفي بهذه الفقرة التي يقول فيها السلطان "أن الدبلوماسية الفرنسية ستخطئ، وستخلق بين حكومتينا خلافات مؤسفة، وصراعات خطيرة، إذا هي اعتقدت بأن المغرب في خراب، وإذا هي فكرت بأنه لم يبق الا ضمه تحت شكل مقنع لحماية شبيهة بحماية تونس أو مدغشقر"(46). إن هذه الفقرة تعبر تعبيرا دقيقا، عن حالة الرفض التي كانت تميز موقف المغاربة وعلى رأسهم السلطان تجاه المخطط الفرنسي، ولذلك لا نستغرب من طول المفاوضات بين السفير الفرنسي وبين المخزن، وفشل تلك المفاوضات في النهاية.

كيف واجه المخزن السفارة الفرنسية ؟

لقد أثار عزم الفرنسيين على طرح مشروع لإصلاحات بالمغرب بالتعاون معهم، ردود فعل المغاربة، سواء على المستوى الشعبي أو على مستوى المخزن. وإذا كانت وجهة نظر المخزن، قد تعرفنا عليها من رسالة السلطان المذكورة. فإن الواقع هو أن ذلك الموقف كان يستند الى قوة الموقف الشعبي المعارض للمطامع الفرنسية. فقد ألح العلماء على السلطان لكي يرفض مشروع السفارة الفرنسية

المنتظرة، وأكدوا له في فتوى قدموها له بأن "الأجانب هم السبب الأصلي في آلام المغاربة، وهم سبب انحطاطهم وتفرقهم وصراعاتهم وخرابهم"(47).

كما لعب تيار من "الوطنيين" المعارضين للتدخل الفرنسي، دورا هاما، في فضح أهداف مشروع السفارة الفرنسية، ونوايا الفرنسيين الحقيقية، وحذر من قبول اقتراحاتهم. وتطلعنا رسالة وجهت من طنجة للشيخ محمد بن عبد الكبير الكتاني(48)، على هذا الموقف. وقد جاء في الرسالة المذكورة "وها هو نائبه الملعون قد خرج من ثغر طنجة قاصدا حاضرة فاس، معتمدا فيها على بعض الناس وقد استفدت من عدة طرق بأن له مطالب سيطلب تنفيذها من المخزن تتناول تكليف الفرنسيين بإصلاح المراسي، وديواناتها أي مراقبة الصادرات والواردات، ووضع مستشار مع المخزن، أي مراقب مالي يكون بمثابة وزير للمالية، وتنظيم الجيش من طرف عسكريين فرنسيين، وعرض سلف آخر على المخزن، وقصد هذا العدو هو التدخل في أمور بلادنا، في المسائل المالية والادارية والعسكرية بوجه معين ومشير وصاحب، ثم بعد وضع يديه واشتداد نفوذه، واستيناس الرعية بالمصارفة معه، والنظر في وجهه، يعلن بإعلاء كلمته، ونشر حمايته وأوامره، وإذ ذاك يصعب على المسلمين مقاومته وطرده"(49). وقد نبه صاحب الرسالة إلى ضرورة تقديم السفير الفرنسي لمطالبه كتابة، وضرورة تجاهل المخزن للاتفاق الذي وقع بين فرنسا وأنجلترا من جهة، وبين فرنسا وإسبانيا من جهة أخرى(50).

استدعاء مجلس لأعيان الأمة

كل هذه المواقف دفعت السلطان عبد العزيز ووزرائه إلى الاتفاق، على استدعاء مجلس لأعيان الأمة(51)، لمساعدتهم في مناقشة المطالب الفرنسية. وبذلك اضطر الفرنسيون للخضوع للأمر الواقع، واضطر السفير الفرنسي الذي وصل الى فاس في 26 يناير 1905، الى طرح مشروعه الذي يتناول حسب زعمه إصلاحات في ميادين الجيش والإدارة والاقتصاد أمام السلطان من جهة، وأمام مجلس الوزراء، بحضور 15 عضوا يمثلون مجلس أعيان الأمة من جهة أخرى. واستمرت المفاوضات من 29 يناير الى 30 ماي 1905، وبهذه الطريقة تمكن المغاربة من دراسة المطالب الفرنسية نقطة نقطة(52).

وقد استغرقت المفاوضات مدة 5 أشهر، ثم انتهت برفض المشروع الذي تبين منه أنه يهدف الى بسط الهيمنة الفرنسية على الشعب المغربي، وتقرر استدعاء الدول الموقعة على اتفاق مدريد 1880، إلى حضور مؤتمر دولي لمناقشة قضية الإصلاحات بالمغرب(53).

وهكذا، أظهر المغاربة صمودا قويا في وجه الضغوط الفرنسية. وأفشلوا سفارة طايندي بعد أن عروا حقيقتها أمام الرأي العام الدولي(54). ولا جدال في أن هذه النتيجة قد حصلت بعد تطور موضوعي في موقف المغاربة من المطالب الفرنسية. وأن ذلك الموقف، قد اتخذ بعد تحليل دقيق للوضع السياسي والدبلوماسي الذي كان يسود المغرب آنذاك. ويعني هذا بالنسبة إلينا أنه سيكون من التسرع، ومجانبة الحقيقة التاريخية، إذا اتبعنا الرأي القائل بأن رفض الاقتراحات الفرنسية والدعوة للمؤتمر، أمور أملتها الدبلوماسية الألمانية على المخزن المغربي(55).

6. حقيقة الموقف الألماني (1904-1906)

ظلت سياسة ألمانياتجاه المغرب منذ بداية علاقتها معه (1870-1873، سياسة تعتبر المغرب ورقة للعب في مسرح سياسة التوازنات الأوربية، ولذلك فرغم جهود مولاي الحسن، الهادفة لموازاة التدخل الفرنسي بنفوذ ألماني، وخاصة فيما يتعلق بالحماية القنصلية، أيدت ألمانيا وجهة النظر الفرنسية في مؤتمر مدريد(56). لكن تطور العلاقات التجارية بين البلدين، واهتمام المغرب باستيراد الأسلحة الألمانية، وإرسال وفود من الطلبة المغاربة للتعلم والتدريب في ألمانيا، جعل هذه الأخيرة تولي اهتماما خاصا بمصالحها الاقتصادية والعسكرية فى المغرب(57).

ومع بداية عهد غليوم II، الذي أرسل المغرب سفارة لتهنئته بالعرش، يرأسها عبد السلام بن رشيد عامل أولاد حريز سنة 1888-1889 بدأت السياسة الألمانية تتخذ مسارا جديدا يدخل في إطار السياسة الألمانية الجديدة (Welt politique)، تلك السياسة التي كان الهدف منها مساواة ألمانيا بالدول الأخرى فيما يتعلق بتوزيع النفوذ والممتلكات خارج أوربا. وهكذا عين "طاطنباخ" وزيرا مفوضا بالمغرب في 1889(58). وكان من الأمور التي اهتم بها أولا، هو التوصل الى عقد معاهدة تجارية بين المغرب وألمانيا، على غرار الاتفاقيات المنعقدة بين المغرب من جهة، وكل من انجلترا (1856) وإسبانيا (1860-1861) وفرنسا (1863)(59).

وفعلا، تم عقد الاتفاقية في 1 يونيو 1890، وصودق عليها في 10 يوليوز 1891(60) وبذلك أصبحت ألمانيا من الدول المعاهدة في المغرب التي تتمتع بحق الدولة الأكثر حظوة.

وهكذا تمكنت ألمانيا من الحصول على امتيازات لتجارتها، فازدادات صادرات المغرب لألمانيا، كما تضاعفت وارداته منها(61)، وبالتالي أصبح الممثل

الألماني طاطنباخ، الدبلوماسي الصديق الذي يمثل الدولة المعارضة لأطماع كل من فرنسا واسبانيا وانجلترا، والرجل الذي يلجأ إليه المغاربة، في كل أمر يتعلق بالسياسة الخارجية، في وقت تكالبت فيه الأطماع الاستعمارية للدول المذكورة(62). لكن العلاقات الألمانية المغربية سرعان ما عرفت أزمة ناتجة عن بعض الحوادث، التي ذهب ضحيتها ألمان في الظاهر، ولكنها أزمة ناتجة في حقيقتها عن الأطماع الأمبريالية الألمانية. وبينت تلك الأزمة أن الألمان كغيرهم من الأجانب كانوا لا يولون الاعتبار إلا لتطوير مشاريعهم الاستغلالية على حساب المغاربة. كما أظهرت أن ألمانيا كغيرها من الدول الأوربية، لا تهتم إلا بمصالحها الاقتصادية والسياسية وخدمة نفوذها بالمغرب(63).

وابتداء من 1900، ونتيجة للضغط العسكري الفرنسي في الواحات الشرقية، ونظرا لتزايد الاهتمام بالمسائل المتوسطية، في نطاق سياسة التوازنات الأوربية، التي انتهت بالاتفاق الودي المذكور. ونظرا لتجاهل الموقف الألماني بالمغرب، دخلت ألمانيا مسرح السياسة المغربي وبقوة في هذه المرة. فقد كان رد الألمان على اتفاقي 8 أبريل و 7 أكتوبر - المذكورين أعلاه، ما صرح به Kuhlman المكلف بأشغال المفوضية الألمانية بطنجة، بأن بلاده «تجهل كل شيء عن الاتفاقات التي حصلت حول موضوع المغرب، ولا تعترف بأنها مرتبطة بأي كيفية بالنسبة لهذه المسألة» (64).

فما هي الدوافع التي جعلت ألمانيا تعارض الاتفاق الفرنسي الانجليزي حول المغرب، وتتخذ موقفا مؤيدا لوجهة النظر المغربية؟

في الواقع، هناك عوامل خاصة وعامة كانت تقود السياسة الألمانية في هذا الاتجاه. وتتلخص العوامل الأولى في المصالح الاقتصادية الألمانية بالمغرب، فرغم قلة عدد الألمان، فإن الجالية الألمانية كانت نموذجا في النشاط، والنجاح السريع بالمغرب، إذ سرعان ما انسحب نشاط المؤسسات التجارية الألمانية على أهم المناطق بالمغرب، تساعدها شبكة قنصلية نشيطة، ومصلحة بريدية بزت مثيلاتها الفرنسية والانجليزية والاسبانية.

وهكذا كان الألمان يحتكرون 70٪ من النشاط التجاري بمراكش والحوز. وربطوا علاقات متينة مع سكان سوس، حيث كانوا يشترون المنتجات المحلية، ويوفرون للسكان البضائع التي يحتاجونها بشروط امتيازية للمستهلكين (65). ونتيجة لهذا النشاط المتزايد تمكن الألمان من خلق زبناء هامين من المحميين والسماسرة والمخالطين(66)، ساعدوا على توسيع المعاملات الألمانية وعلى توزيع منتجات الصناعة الألمانية.

أما العوامل العامة، فترتبط بحاجات التوسع الامبراطوري، في نطاق السياسة الألمانية الجديدة، التي كانت تهدف الى منح ألمانيا مكانة تتناسب مع حجمها كدولة عظمى، وفي الوقت نفسه الحفاظ على هيبتها الوطنية(67). كما تجدر الإشارة الى موقف الرأي العام الألماني، والأوساط السياسية، ورجال الأعمال، الذين مارسوا ضغوطا مستمرة على الحكومة الألمانية، وخاصة على المستشار (Bulow) إثر نجاح الدبلوماسية الفرنسية. وهكذا يرجع الأمر كله الى الدوافع الرأسمالية لرجال المال والأعمال الألمان وإلى الرغبة في التوسع الامبريالي.

وبالرغم من كل هذه العوامل، فلا بد من إدخال الموقف المغربي في الحسبان. ففي الوقت الذي نضجت فيه الضغوط الداخلية على الحكومة الألمانية، كان المغاربة، قد قطعوا شوطا بعيدا، في صمودهم أمام الضغوط الفرنسية المتوالية. وعملوا بدورهم على جر ألمانيا لمساعدتهم ضد فرنسا. وحينئذ تمكن الألمان من تصور عملهم بوضوح في الأزمة المغربية الفرنسية، واستخلصوا نتيجة ذلك التصور، وهي مساندة الموقف المغربي بقوة ضد مطالب طايندي، والتعامل مع السلطان مباشرة فيما يخص المصالح الألمانية، ثم فرض هزيمة دبلوماسية على الفرنسيين، في وقت لا تستطيع فيه فرنسا إعلان حرب ضد ألمانيا بسبب انهزام حليفتها روسيا أمام اليابان.

كل هذه التصورات والحسابات، كانت وراء تنظيم الألمان لزيارة غليوم II الشهيرة لطنجة في 31 مارس 1905 (68).

نتائج زيارة الامبراطور الألماني لطنجة 1905

خلال نزوله بطنجة، صرح غليوم II بأنه يزور ملك المغرب، بصفته عاهلا مستقلا. وبأنه يأمل أن يظل المغرب مفتوحا للمنافسة السلمية لجميع الدول. وأنه قرر أن يحمي المصالح الألمانية بالمغرب بكل ما لديه من قوة (69). كان لزيارة امبراطور ألمانيا في تلك الظروف صدى واسعا في الأوساط المغربية والسياسية. فقد اعتبرها الكثيرون ضربة قوية وجهت للفرنسيين ولنفوذهم بالمغرب(70). ورأى فيها المغاربة تأييدا قويا لاستقلال المغرب وموقفا حازما ضد الاطماع الفرنسية. واستخلص منها السلطان والمخزن البرهان على صدق ألمانيا في معارضتها للمشاريع الفرنسية، ولذلك رفضوا مطالب السفير الفرنسي وطالبوا بضمانات دولية(71). كما عبر الرأي العام المغربي عن كراهيته للفرنسيين بل كان ذلك التعبير على مستوى أعلى، عندما عزفت موسيقى السلطان النشيد الوطني

الألماني في احتفالات العيد الكبير. «أما الامبراطور فقد لقب بغول اليوم (L'ogre du jour) أي القوي الذي يضطرب أمامه الجميع» (72). أما الفرنسيون فقد اعتبروا الزيارة عملا عدوانيا أفسد عليهم خططهم، ودفع المخزن الى معاداتهم.

وعلى كل حال، فقد رفض المغاربة المطالب الفرنسية، وأفشلوا مشروع طايندي، ولم يستطع الفرنسيون تنفيذ مخططهم بدون مساعدة المخزن، كما هددوا من قبل، لأن ذلك معناه إعلان الحرب على المغرب الذي سيجد وراءه ألمانيا، واكتفوا بمضاعفة الضغوط العسكرية عبر الحدود الشرقية لإظهار عواقب الغضب الفرنسي، ولإضعاف المخزن وإثارة المشاكل له والاسراع بتفكيك المجتمع المغربي(73).

وأمام هذه التصرفات كان رد فعل مولاي عبد العزيز واضحا وصريحا. فقد اتجه الى الشعب من جديد، ليطلعه على الحقائق كما هي مؤكدا على الجهود التي بذلها المخزن ويبذلها للحفاظ على استقلال البلاد ووحدتها، ويتهم حكام الجزائر بالتطلع الى الاستيلاء على المغرب بعد أن رفضت مطالبهم "ومن أجل ذلك يقول السلطان تحركت الأيالة الجزائرية لاقتراح أمور تضر برعيتنا الشريفة، واستمر طموحها للحوادث المخوفة، وتشوفت غاية التشوف الى مديد الترامي على المسلمين وحددت شوكتها للاستيلاء على قوة الدين" (74). كما اتهم السلطان الفرنسيين ـ صراحة ـ بإمداد بوحمارة بالمعونة المادية والمعنوية، وإغراء القبائل على اتباعه حيث تحقق له "أن الفتان إنما يروج بتروجهم وإغرائهم وأنهم هم المدون له ليحصلوا على قصدهم ورجائهم، ويتوصلوا به لتفريق كلمة الرعية، حتى يدركوا ما يريدونه من الأمنية. وصارت الأيالة الجزائرية تمد الفتان بما يتقوى به قولا وفعلا، وتصدرت لإغراء القبائل على متابعته عمدا لا جهلا، وأخذت في تحريك الأسباب التي يترتب عليها في الرعية الانحلال والاضطراب" (75).

وأوضح السلطان في رسالته كذلك، كيف ضيق الفرنسيون على الجيش المغربي المحارب لبوحمارة، في الوقت الذي أخذوا فيه يشجعون التعامل مع المدعي، قائلا "وأعلنت باذاية محلتنا السعيدة التي بوجدة والتضييق بها، وقطع مرور القوت من ترابهم إليها وتثقيف ما نوجه لها من المؤونة والقرطوس والعدة، لينتهزوا فيها الفرصة في حال الضيق والشدة، ويجعلوا ذلك وسيلة لتعميم الأذية والاستيلاء على الرعية" (76).

وهكذا، نلاحظ عمق الأزمة التي وصلت اليها العلاقات المغربية الفرنسية نتيجة لمحاولة الفرنسيين الهيمنة على المغرب سنة 1905، وفشل تلك المحاولة.

فقد غضب الفرنسيون من نجاح المغاربة في إفشال مخططهم ولجأوا الى تنفيذ تهديداتهم بالتضييق على المغرب عسكريا، ومحاولة أثارة الفوضى في البلاد ليجنوا ثمار انهيار الدولة المغربية.

لكننا نلاحظ من جهة أخرى، رد الفعل الحاسم للسلطان، الذي لم يتأخر هذه المرة عن تسمية الأشياء بأسمائها، حيث عرض على الشعب حقيقة الموقف المغربي المدافع عن استقلال المغاربة في بلادهم، والموقف الفرنسي الطامع في الاستيلاء على البلاد. ولم يفت السلطان أن يبرز غضبه على الفرنسيين بدعوته الشعب الى "التعاضد على الاتفاق"، وإلى مساعدة المخزن بالرجال والأموال لمواجهة "الخطب العظيم"

وبهذا يكون المغاربة قد فضحوا السياسة الفرنسية، وأظهروها على حقيقتها سياسة استعمارية توسعية، وليست سياسة تهدف الى إصلاح المغرب بالتعاون مع حكومته(77).

لقد حاولت فرنسا استغلال الضائقة المالية التي عرفها المغرب إثر إعلان الترتيب، وخاصة إثر فتنة بوحمارة، تلك الفتنة التي استغلتها اليد الأجنبية للإجهاز على المغرب كدولة. لكن الذي حصل هو أن المغرب استطاع أن يصمد في وجه الضغط الفرنسي بفضل جهود أبنائه أولا، وبفضل المنافسة الدولية ثانيا. إلا أن ذلك الصمود كانت تعوزه وسائل الاستمرار. ومن أنجع تلك الوسائل توفر المال الذي كان المخزن في حاجة ماسة إليه.

وتظهر لنا رسالة السلطان المذكورة مبلغ تلك الحاجة التي كان يحسها السلطان عندما يقول «ولازلنا نتحمل ما لا يطاق من وجوه المدافعة ونرتكب كل ما يرضي في المحاجة والممانعة. ولو أطلع المسلمون على ما يلحق المخزن في ذلك لتسارعوا لإعانته برقابهم وأولادهم، فضلا عن إعانته بطارفهم وتلادهم. ولخرجوا عما يملكونه رغبة في الإنقاذ من الخطب العظيم... لأن حفظ الرعية لا يدوم إلا بالقوة الإسلامية وتلك القوة لا تنضبط للمخزن إلا بالاستعداد التام الذي يصان به النظام، وتنفذ به الأحكام. ووسائل الاستعداد لا تتوفر إلا بالإعانة الجارية من الرعية والجباية.»(78).

ويظهر أن هذه الرغبة في الإستمداد بأسباب القوة، للصمود في وجه المطامع الأجنبية، وللحفاظ على "الكيان الوطني" من التصدع، لم تكن كافية لجعل بعض القواد الكبار ينقادون "للصلاح"، ويبادرون إلى «إيثار جانب المخزن بكل ما

يرضى»، ويعتصمون «بصدق الخدمة والامتثال والامداد لما يقتضيه الحال».

وكان على رأس هؤلاء القواد المدني الكلاوي(79)، الذي أعار المخزن العزيزي أذنا صماء، وتماطل في دفع واجبات الترتيب عن القبائل التي يحكمها، وساهم في تزايد الصراعات بين قواد الحوز وإثارة الفتن بين قبائله(80).

وإلى هذه الصراعات التي نتجت عنها عدة تحالفات وتحالفات مضادة، يمكن إرجاع الجذور الأولى للحركة الحفيظية. فقد أبانت تلك الخلافات العجز الواضح لمخزن مولاي عبد العزيز في القيام بمهمته التحكيمية. الأمر الذي استغل لأهداف ساسية وشجع على بروز ظاهرة القواد الكبار بالحوز، مع ما اكتنفها من أطماع إقليمية محلية، وطموحات سياسية على نطاق البلاد عامة.

خـلاصـة

إن هذه التطورات، على المستوى الخارجي والداخلي، توضح لنا جانبا من الشروط التي كان على المغرب أن يواجه فيها الضغط الفرنسي بكل مظاهره السياسية والدبلوماسية والعسكرية والمالية.

وواضح أن تلك الشروط كانت في غير صالح المغرب. ورغم ذلك، فقد اجتهد مولاي عبد العزيز ومستشاروه ومخزنه، في استغلال الظروف الدولية، التي كانت تتميز باشتداد الصراع على النفوذ بين الدول الأوربية.

وقد رأينا كيف وصلت العلاقات الفرنسية الألمانية الى حالة التأزم ولم تحل تلك الأزمة إلا بعد أن حصل الاتفاق من الجانبين على عقد مؤتمر دولي لدراسة قضية الإصلاحات بالمغرب، في 28 شتنبر 1905(81).

إن محاولات النهوض التي بادر إليها مخزن غير متجانس الأعضاء يرأسه أمير شاب، مهما قيل عن طموحه وحبه للإصلاح، فإنه كان غير قادر على فرض إرادته على الجميع. إن هذه المحاولات لم توفر لها بل كانت تنقصها جميع شروط النجاح. فالمبادرة إلى إصلاح جبائي مثل ترتيب 1901، كان ينبغي أن يواكبها إجراءات إدارية حازمة تضرب بيد من حديد المسؤولين الذين حاولوا إفشال ذلك الإصلاح. ولكن بما أن عهد الحركات الكبرى قد ولى مع السلطان الحازم مولاي الحسن، فإن كبار القواد تلكؤوا في تنفيذ أوامر المخزن، ولما تبين لهم عجزه أهمل بعضهم تطبيق الإصلاح الجديد بالمرة، وكان لذلك عواقبه المالية على خزينة البلاد.

ويبدو أن مولاي عبد العزيز حاول التحرك في نهاية 1902، لكن تحركه جاء متأخرا وغير حاسم، إذ سرعان ما اشتعلت الفتنة واتخذت أبعادا خطيرة استهدفت - هذه المرة - المخزن نفسه بما فيه السلطان.

إن انتفاضة بوحمارة، والشعارات التي حملتها، إذا بينت ذكاء قائدها ومقدرته، في استغلال الظرفية الداخلية والخارجية المحيطة بالمغرب، فإنها تعبير شديد الدلالة على الحيز المتناقص الذي أضحت هيبة المخزن تشغله بين السكان.

ولا جدال، في أن أسباب هذا العجز، لا يمكن إرجاعها ببساطة الى اختفاء السلطان مولاي الحسن، وحاجبه الصدر الأعظم بعده، أو إلى ما اتخذه المخزن العزيزي من مبادرات إصلاحية.

بل إن تلك الأسباب عميقة، وجذور العطب بعيدة، إذا لم يمكن البحث عليها فيما عرفه المغرب من تطورات منذ القرن 15 الميلادي، فعلى الأقل يمكن تتبع فعلها وتأثيرها منذ تمكن الأروبيون من تقنين العلاقات المغربية الأجنبية على حساب المغرب في النصف الثاني من القرن الماضي.

إن تتبع أحداث وكيفيات التدخل الأروبي عامة، ومحاولات التغلغل الفرنسي خاصة، منذ 1900، يوضح بجلاء حجم الخرق والتفكيك الذي تعرض له الثوب المغربي، وأن راقع ذلك الثوب - إذا سمحنا لأنفسنا باستعمال ألفاظ كتاب بنيقات المخزن - لم يعد في إمكانه إلا محاولة تضييق الخروق بوسائل وأدوات عتيقة. وعندما كان يحاول البحث عن تجديد أدواته، كان الطَّامعون يجتهدون - وهم على بصيرة من أمرهم - في عرقلة مساعيه ليستولوا على قطع الثوب المفكك.

إن اضطرار المغرب إلى الاقتراض من الخارج، بشروط ربوية، سنة 1902-1903 و 1904، كان ضربة خطيرة لحرية تصرف حكومته. ولما تمكن الفرنسيون الأقوياء من صرف أطماع دول أروبية لصالحهم، أصبح المغرب يواجه السيطرة المفروضة مقصوص الجناح.

وإذا اجتهد السلطان عبد العزيز، وحاول حصر التدخل الفرنسي في حدود معينة، يسانده تيار وطني متعاظم، وتنافس إمبريالي بين ألمانيا وفرنسا، فإن ظروف المجتمع المغربي ككل، لم تعد مع مطلع القرن العشرين ملائمة لحصر تقنيات الحضارة العصرية، بمختلف مظاهرها الدبلوماسية والاقتصادية والعسكرية.

هوامش الفصل الثاني

1) ـ عن سياسة أحمد بن موسى الخارجية وصموده في وجه المطامع الأجنبية قال الحجوي "والحق يقال فإنه في السياسة الخارجية، كان وحيد دهره فاق فيها مولاي الحسن بدرجات. وقد سلم له فيها الخاص والعام، فإنه كان قد قلل نفوذ الأجانب جدا في عمالات المغرب، وبالغ المجهود ما أمكنه في قطع الحماية فكان لا يقبل دعوى من أجنبي إلا بعد البحث التام عن أصل الحماية وسببها وهل هي موافقة للمعاهدة التي بين المغرب والدول فيقبلها أم لا وعن حجج الدعاوي ويتصفحها ويفحص عنها ما أمكن، فسبب الوقوف في ذلك والتعصب فيه قلل نفوذ الأجانب جدا"

تقاييد تاريخية، ص. 25

Cf. Henri Terrasse, Histoire du Maroc, éditions atlantides Casablanca 1950, T.2, p.381.

2) ـ النص العربي، كناش خ ح رقم 773

Cf. Rouard de Card, Documents diplomatiques pour servir à l'étude de la question marocaine, Paris 1911, pp.25-34.

3) ـ انظره في كناش خ ح 773 المذكور، وكناش 606.

4) ـ C.A. Julien, Le Maroc face aux impérialismes, 1978, p. 41.

وعن نتائج بروتوكول 20 يوليوز 1901 واتفاق 20 أبريل 1902 أنظر

R. Reynaud, En marge du livre jaune, Paris 1923, pp. 13-14.

وعن حوادث الاصطدام بين المغاربة والفرنسيين Ibid, p. 17-18

وعن معارك الحدود أنظر مارتان ص 403.

وقد كانت هذه المعارك البداية الأولى للحركة الجهادية التي ستعلن ضد الفرنسيين بالمنطقة بعد مؤتمر الجزيرة 1906، وخاصة بعد احتلال وجدة في مارس 1907

5) ـ راجع جرمان عياش، "جوانب من الأزمة المالية بالمغرب بعد الغزو الإسباني سنة 1860" مطبوعات معهد الدروس العليا المغربية، بيانات ومستندات الجزء التاسع عشر.

6) ـ C.A. Julien, 1976, op. cit. p. 55.

7) ـ Rouard de Card, op. cit. p.

عن الخطوط العريضة للاتفاق قارن

Hajoui Omar, Histoire diplomatique 1900-1912, Maison Neuve, 1937, pp. 33-36.

J. Cailloux, Agadir, Ma Politique Extérieure, A. Michel, 1919, pp. 15-18.

ـ لقد اعتبر الانجليز وخاصة نوي المصالح بالمغرب أن الاتفاق قد دق ناقوس الخطر لمشاريعهم بالبلاد

M. Aflalo, The truth About Marocco, London 1905, Voir Hugues et J.L Miège, Les européens à Casablanca au XIX, 1956, p. 33.

ـ علق السفير الفرنسي Millet على الاتفاق بقوله إن الفرنسيين استبدلوا "حقوقا أكيدة بآمال، وأشياء محسوسة بالدخان. "وتنبأ بأن تجاهل ألمانيا سيكون سببا لصعوبات خطيرة.

J. Cailloux, op. cit. p. 16.

وعن حقيقة مصالح انجلترا وفرنسا في المغرب قارن الدراسة القانونية

J. Bonjean, L'unité de l'empire chérifien, thèse, Paris 1952, pp. 28-32.

)ـ عن غضب السلطان وقراره الاحتجاج لدى الدول الأوربية

S. Aulaire, Confessions d'un vieux diplomate, Paris 1959, P. 95.

P. Guillen, Le Maroc et l'Allemagne, de 1870 à 1905 P.U.F. Paris 1967, p. 768 N° (1 3.

1)ـ عن الحادث Ibid. page 774.

1)ـ P Guillen, op. p. 768.

S.R. Taillandier, Les Origines du Maroc Français, récit d'une mission (1901-1906), (1 Paris 1909, pp. 207-208.

1:)ـ لقد سبق للمشرفي أن هاجم انجلترا واتهمها بغش المغرب وخداعه لما نسبه لرجالها من مساهمة في إدخال ترتيب 1901. الحلل، مرجع مذكور، ص. 427. وفي صيف 1905 سيكون لقاء السلطان مولاي عبد العزيز للسفير البريطاني M. Lawther فاترا في حين سيستقبل السفير الألماني Tattenbach بحفاوة بالغة.

cf. S. Aulaire, Confessions, p. 144

16)ـ أنظر أسفله.

17)ـ P. Guillen, Les emprunts Marocains op. cit. Page 118.

18) - «إن الاتفاق الفرنسي الانجليزي زاد من الأمل في الوصول بواسطة، وسائل سلمية الى ممارسة نفوذ كبير على المغرب. إن وسائل العمل هذه قوية من أجل إخضاع المخزن لنا دون اللجوء الى قوة السلاح،إن الاقتراض هو الذي سيمنحنا إياها بواسطة التسلسل العادي لنتائجه».

A.E.P. M 163, Tanger 24-4-1904.
In Guillen, op. cit. p. 117.
cf. aussi S. Aulaire, confessions page 87.

19) - تأسست في 12 أبريل 1902 تحت إسم مؤسسات Gautsch ثم أطلق عليها إسم La Compagnie Marocaine في 18 دجنبر 1903، كان يرأسها Schneider أنظر عنها

P. Guillen, La Fondation de la compagnie marocaine R.h, T. CCXXIX, 1963, pp. 417-419.

20) - عن تنافس المؤسسات المذكورة أنظر

P. Guillen, Les emprunts op. cit. p. 124-130
Ibid. pp. 132-133.

21) S. Aulaire, confessions, pp. 95-96.

22) - A.E.P. M 207, Tanger, 16, 24 - Avril 1904.

In Guillen, Les emprunts p. 116.

23) - S. Aulaire, Confessions, p. 96 et p.100.

24) - "وإحساسا منه بأخطار العملية فإن عبد العزيز قاوم الى آخر لحظة، ولم يعط موافقته النهائية إلا أمام ضغط قوي مارسته عليه أغلبية الوزراء."

Guillen, Les emprunts op. cit, p. 133-4 et p. 145-146

قارن كذلك

Yves Famchon, Le Maroc d'Algésiras à la souveraineté économique, Paris 1957, p. 367.

25) - النص العربي لهذه الاتفاقية موجود بكناش خ ح، رقم 773.
- وكذلك عبد الرحمان بن زيدان، "العلائق السياسية للدولة العلوية"، مخطوط خ ح، ص. 48وما يليها.
- وفي كناش الاتفاقيات "نسخة مصورة خاصة ص. 161-178.

- جاء في الفصل الحادي عشر "وثق جانب المخزن الشريف في مقابلة هنا السلف توثيقا خصوصيا بدون استثناء على وجه السبقية عن غيره من السلفات جميع مدخول ديواناته الشريفة وضعا ووسقا بسائر مراسي الدولة الشريفة الكائنة حالا والمكونة استقبالا. وما يتحصل من الأعشار يؤدي منه واجب الاستلزامات المحتوى على الربح، ورد الأصل، وصوائرالصرف، كما يؤدي منه قدر مبلغه خمسة وسبعون ألف فرنك في كل ستة أشهر

2) - أنظر الفصل الواحد والعشرون من الاتفاقية وخاصة الفصلين 25 و 26.

2) - جاء في تقرير لرينيو Regnault «أن النية السيئة عامة فيما يخص قضية المراقبة... وبالدار البيضاء فإن معارضة الأمناء لا يمكن قهرها».

A.E.P. M.207 Tanger Paris 27/7/1904
P. Guillen, Les emprunts, PP. 152-153.

وهذا يفند الادعاءات التي نشرتها الصحافة الفرنسية موحية بأن كل شيء مر بسلام فيما يخص إجلاس المراقبين الماليين، ورددتها نشرة "إفريقيا الفرنسية"

A.F 1904, PP 285-6

كما أن السفير الفرنسي طاياندي ذكّر المخزن سنة 1905 بعدم مساعدته على تنفيذ ما اتفق عليه مع الفرنسيين، فكان رد مجلس الأعيان إن ما عرف هو أن مهمة المراقبين الأجانب تقتصر على البحث من خارج الديوانات "ويطلعون نائب الأبناك على ما يحدث" وليس الجلوس الفعلي مع الأمناء.

أنظر ردود مجلس الأعيان على طايندي ك خ ح رقم 777، ص. 14

علال الخديمي، "مجلس الأعيان ومشروع الإصلاح الفرنسي سنة 1905" "الإصلاح والمجتمع" كلية الآداب، الرباط، 1983، ص.259-292.

29) - أسفله، فصل حادث 30 يوليوز 1907.

30) P. Guillen, L'Allemagne et le Maroc, op. cit. p. 763-4.
C.A. Julien, Le Maroc face aux impérialismes, p. 63.

30) - مكرر نفسه.

31) - تقرير سري عن وضعية النفوذ الفرنسي بالمغرب محفوظ بوثائق الحربية الفرنسية .A.G.V. 3h 15, Janvier 1905

32) - قارن Hugues G.L. Miège, Les européens à Casablanca au XIXème siècle, p.33.

33) - التقرير المذكور هامش 31.

34) - نفسه.

35) - بما فيها 40.000 فرنك لشرفاء وزان. عن علاقة هؤلاء بالفرنسيين ودورهم في خدمة النفوذ الفرنسي بالجنوب الشرقي راجع

Berradi Lhachmi, Les chorfa d'Ouezzane, le Makhzen et la France 1850-1912, thèse, Aix en Provence 1971. (FAC TL 45).

36)- التقرير السابق.

37) - نفسه ص. 13.

37) - مكرر نفسه.

38)- عن ذلك المشروع وموقف المغاربة هنه.

S. René Taillandier, Les origines du Maroc Français récit d'une mission Paris 1906.

قارن علال الخديمي "مجلس الأعيان ومشروع الإصلاح الفرنسي بالمغرب 1905، ندوة الإصلاح والمجتمع المغربي في القرن 19. "كلية الآداب بالرباط 1983، م.س.

39)- عن المنطقة واحتلالها من طرف الفرنسيين أنظر

Marcel Muller et M. Ladjimi, Berguent, Oran, 1923.

F.C. Roux et Jacques Cailles, Missions Diplomatiques op. cit. p. 141.

Lt. Gaquiere, Berguent, 1904-1906, in bulletin trimestriel de la société de géographie et d'Arch. d'Oran, Mars 1913, pp.62-74.

40) إذا كان موقف الصحافة الاستعمارية الفرنسية لا يثير الاستغراب، فإن موقف الصحافي Harris الذي كان يراسل عدة صحف بأروبا يعتبر موقف رجل مأجور لخدمة المصالح الرأسمالية. ذلك أنه تنكر لصداقة المغاربة، وبدأ يشن عليهم حملات حاقدة، يمكن التعرف عليها من مراجعة مؤلفه "المغرب البائد"، وقد تنبه المغاربة لحقيقة الرجل، فقد كتب عبد الحكيم المزوغي لعبد الله بن سعيد يقول "وذاك الكلب هاريس لا زال يشيع ويذيع في الأخبار، فتارة يقول إن السلطان أخبره بأنه راض بحلول الفرنسيين، تارة يقول إن النائب والمستخدمين قالوا له أنهم يترقبون دخول الفرنسيين في كل يوم، فهذه الأخبار كلها تضر، فلا بد أن يكتب النائب للمخزن ويطلب منه الإذن بالشكاية بهاريس وطلب خروجه من الأيالة المغربية طبق القوانين، والله يوفق أهل الحل والعقد لما فيه صلاح المسلمين، وعرفني فورا، بما يزيد وينقص لنكون على بال والسلام" 19 محرم 1322، 5 أبريل 1904، و.ع.س.

وللتأكد مما أشرنا إليه ومن حقيقة الرجل، تجدر الإشارة إلى أن W. Harris الذي ازداد بلندن في 1866 استقر بطنجة منذ 1887 كمراسل لجريدة "Times"، وكان عميلا للمفوضية البريطانية إلى 1903، حيث تحول إلى خدمة النفوذ الفرنسي فأصبح مخبرا للمفوض الفرنسي بطنجة.

وفي الواقع كان Harris شخصية مريبة ولا نعرف بعد الأدوار الحقيقية التي لعبها كغيره من العملاء الأفاقين الذين عملوا بدسائسهم على الاساءة لاستقلال المغرب.

cf. J.L. Miège, Le Maroc et l'europe, T.4, p. 357.
W. Harris, Le Maroc disparu, Paris 1929.

41) C.A. Julien, Le Maroc Face aux impérialismes, p. 64.

42) - عبد الهادي التازي، رسائل مخزنية، القسم الأول، ص 68-71

43) - P. Guillen, l'Allemagne et le Maroc, op. cit, p. 826.

cf. aussi E. Burk, prelude toprotectorate, 1976, p. 77-80.

43) - مكرر. و.ع.س عبد الله العروي، ص. 376.

44) - علال الخديمي، "جوانب من التاريخ الدبلوماسي المغربي خلال القرن 19" دراسة مخطوطة.

45) - راجع "اعترافات" سان أولير. وعن رد الفعل الفرنسي وتراجع السلطان.

H.A. Moulin, La question Marocaine d'après les documents du livre Jaune, Paris 1906, pp. 68-70.

46) - الرسالة مؤرخة بـ 28 دجنبر 1904 أنظرها في

Veyre, Dans l'intimité du Sultan My Abdelaziz, p. 257.

47) - عن موقف العلماء، والتأثيرات المختلفة التي دعت إليه ونتائج السفارة الفرنسية "مجلس الأعيان ومشروع الإصلاح الفرنسي بالمغرب 1905"، موضوع مساهمتنا في ندوة الإصلاح والمجتمع خلال القرن 19 كلية الآداب الرباط 1983.

أنظر فتوى العلماء التي قدموها للسلطان في A.M. 1905, T. III, P. 141-143.

48) - أنظر عنه محمد الباقر الكتاني، "ترجمة الشيخ محمد الكتاني الشهيد"، 1962.

عبد الحفيظ الفاسي، رياض الجنة أو المدهش المطرب، فاس 1931، جزء 1 ص. 44-48.

49) - الأصل بدون تاريخ، وقد أكد لنا الحاج العربي بن عبد الله بن سعيد أن الرسالة بعثها والده للشيخ المذكور وقد ترجح ذلك عندنا لأن عبد الله بن سعيد كان ضمن مجلس دار النيابة في هذه الأثناء وكان من أشد معارضي المطامع الفرنسية كما ذكرنا، و.ع.س.

- وقد عثرنا على رسالة مشابهة تتناول مختلف النقط التي أثارتها الرسالة الموجهة للشيخ الكتاني، مرسلة من السيد عبد الحكيم المزوغي التونسي إلى عبد الله بن سعيد فيما يبدو مؤرخة بـ 12 شوال 1322 / 20 دجنبر 1904، عند الحاج العربي المذكور، عن كل هذا راجع الموضوع المذكور في هامش (47).

(50) - لاحظ طايندي Taillandier أن جواب السلطان على خطاب السفير في أول لقاء بينهما يوم 29 يناير 1905 كان خاليا من أية إشارة الى ما حدث من جديد في السنة الماضية (1904) وعلق على ذلك " إن هذا التجاهل يعني أن هناك إرادة في المقاومة"
S.R. Taillandier, Les origines; op. cit. p. 231.

51) - رسائل مولاي عبد العزيز إلى القبائل إلى دكالة 12 شوال 1322 / دجنبر 1904 أنظرها في الحجوي، "الرحلة الوجدية"، مرجع مذكور، ص. 80.

52) - مناقشة وفد مكناس لمطالب السفير الفرنسي، ك خ ح، رقم 777.

53) - أنظر رسالة النائب محمد الطريس إلى النواب الأجانب بطنجة يدعوهم إلى عقد مؤتمر دولي بطنجة لمناقشة أمر الإصلاحات التي يرغب المغرب في إدخالها.
A.F, 1905, P.250 251.

54) - صرح مولاي عبد العزيز لمراسل جريدة الطان Le temps "يخطئ الناس عامة بالخارج، في تقدير عواطف شعبي، إنهم يقدمونه كشعب معاد كليا لكل فكرة تعني إصلاحات نافعة للبلاد، إن هذا غير صحيح بالمرة إن الإصلاحات النافعة مرغوب فيها، ليس من طرف المخزن فقط ولكن من طرف رعايانا أيضا" A.F.1905 P.81.

55) - "في البداية لم يكن لألمانيا دور في الصراع المغربي الفرنسي الذي أعلن، فإلى شهر يناير 1905، كانت ترفض الاستجابة لعروض المخزن، ولم تبدأ في تصور عملها الدبلوماسي إلا بعد أن أصبح هذا الصراع واضحا للعيان"
P. Guillen, L'Allemagne et le Maroc, op. cit. p. 827.

56) - في 1878 ذهبت سفارة مغربية لبرلين

P.L. Miège, Le Maroc et l'Europe, T. IV, pp. 19-20.

57) - Guillen, l'Allemagne et le Maroc, op. cit, pp. 72-73.

Miège, op. cit, T. III p. 225-226.

58) - عن دور طاطنباخ أنظر
J.L. Miège, op. cit, T. IV, p. 178 N° 3
Guillen, op. cit, p. 204-206.

59) - للمزيد من التعرف على تطور الصداقة المغربية الألمانية وكيفية التوصل إلى اتفاقية 1890 في البلدين ونتائج تلك الاتفاقية راجع

Germain Ayache, La première amitié Germano-Marocaine, 1885-1894, Etudes Maghrébines, Mélanges C.A. Julien Pub. de la F. des lettres et Sciences humaines de Paris T. II P.U.F. Paris 1964.

ـ النص العربي للاتفاقية، يراجع بكناش الاتفاقيات .

P. Guillen, L'Allemagne et le marché marocaine à la fin du XIXéme siècle, Hesp. (6
Tamuda, 19éme année, PP. 413 - 414.

G. Ayache, Etudes d'histoire Marocaine, Rabat 1979. - (6

63) ـ عن أزمة العلاقات الألمانية المغربية بين 1894-1897 أنظر عياش المرجع المذكور ص. 249-291.

Victor Berard, L'Affaire marocaine, A COLIN Paris 1906, P 336. - (64

Hajoui Omar, Op, cit, P. 47.

Cte. Maurice de Perigny, Au Maroc, Marrakech et les ports du Sud, PP. 119 - 123. - (65

66) - مرجع هامش 61.

P. Guilllen, Les intérêts Allemands au Maroc, 61,
à la veille de la conférence d'Algésiras, 1965 ; 18 pages.

67) ـ عقب أحد المسؤولين الألمان على الاتفاق الودي بقوله
"اننا لا نستطيع في أي حالة من الأحوال أن نقبل بأن تتملك فرنسا بالمغرب حقوقا أكبر من حقوقنا لكونها مجاورة له، وإذا اعترف بأن الجوار يعطي لفرنسا حقوقا لتملك المغرب، فإن هذا سيكون بمثابة قلب لحقوق الناس كما هي موجودة في الوقت الحاضر، وعند ذلك يمكن استخلاص عواقب مثيرة.
إن على ألمانيا أن تحتج ضد رغبة فرنسا في تملك المغرب، ليس من أجل أسباب مادية وكفى، ولكن زيادة على ذلك من أجل الحفاظ على هيبتها."

Textes Historiques; La fin du 19 ème siècle, 1871-1914. (II) Delegrave, 1917, P. 149.

S.R. Taillandier, op. cit. P. 258. - (68
Hajoui Omar, op. cit. P. 47-51.
St- Aulaire, op. cit. P. 134- 137.
Louis Maurice, op. cit. P. 1-4.

69) ـ تحليل هام لدوافع وعواقب الزيادة

Guillen, l'Allemagne,
op. cit. P. 837-850.
Hajoui. O , op. cit. P. 51.

70) ـ
S. Aulaire, Confessions, Page, 135.

71) ـ أشار طايندي إلى أن المغاربة اشترطوا إحاطة تعهد فرنسا بضمانات دولية، بحيث تتعهد فرنسا بسحب مدربيها متى تمكن المغرب من تعويضهم بمدربين مغاربة
S.R. Tail. op. p.276-277.

72) ـ جاء في تقرير سري إلى وزارة الحربية الفرنسية "لقد سهوت عن الإشارة إلى حدث ذي مغزى كبير ففي احتفالات تقديم هدايا العيد الكبير بفاس، عزفت موسيقى السلطان النشيد الوطني الألماني.

A. G. V. 3 H, 15, Farian au Ministre de la guerre, 28 Février 1905, Page 1.

73) ـ عن عواقب فشل سفارة طايندي والمواقف التي اتخذها الفرنسيون بالحدود الشرقية أنظر الحجوي، "الرحلة الوجدية"، مرجع مذكور ص. 87-88. حيث أشار إلى انقلاب السياسة الفرنسية فجأة نتيجة لغضب طايندي.
أنظر كذلك عن مساعدة الفرنسيين لبوحمارة. كناش خ. ع. ك 2720، ص. 164و 197.

74) ـ رسالة هامة لقبائل بني مالك بالمغرب مؤرخة بـ 27 ربيع II 1323 - 1 يوليوز 1905. و ع س.
قارن رسالة مماثلة لقبائل الشاوية مؤرخة بآخر جمادى الأولى 1323 آخر يوليوز 1905.

Martin, Quatre siecles, op. cit. PP. 420-423.

75) ـ نفس الرسالة الموجهة لبني مالك.

76) ـ نفسها.

77) ـ جاء في تصريح لجوريس Jaures أمام البرلمان الفرنسي في 19 يناير 1905 ما يلي

"عندما تطالب حكومة مثل فرنسا وحدها أمام السلطان هكذا، بهذه الاحتكارات المالية والبنكية والنقدية والتجارية والقيادة العسكرية، فهي في الحقيقة تطلب من سلطان المغرب أن يقوم ببساطة بالدور الذي يقوم به الباي في تونس"

cité par C. A. Julien, op cit, P. 63-4.

78)- الرسالة أعلاه لقبائل بني مالك.

79) - العباس بن ابراهيم، "الاعلام بمن حل مراكش واغمات من الإعلام"، الجزء السابع. 1977، ص. 236-246.

Paul Pascon, Le Haouz de Marrakech, T.I.P. 327-345.

80) - رسائل عديدة من مولاي عبد العزيز للمدني الكلاوي يحثه على دفع واجبات الترتيب ويعاتبه على تماطله، خاصة المؤرخة 23 ربيع II 1323 / 27 يونيو 1905، و خ ح.
ويبدو أن القائد اعتذر برفض القبائل وطلب مساعدته وكأنه أحس بعجز المخزن كذلك، فأرسلت محلة يقودها مولاي عمر أخو السلطان لكن المدني الكلاوي لم يلتحق بها بل أثار القبائل ضدها "وبسببك وقع التراخي والانحلال في أمرها (أمر المحلة المذكورة) ممن عداك من العمال" كما جاء في رسالة السلطان "فبوصوله إليك نأمرك أن تجعل أكبر همك في الحركة التي ساعدناك عليها لقبائل الدير الفوقاني هو التعجيل بقبض الواجب والشروع في استيفائه منهم"
- هناك رسائل أخرى حول شكايات ضد المدني الكلاوي الذي صادر ممتلكات العديد من الناس، شعبان 1323 / أكتوبر 1905، و خ ح
- كما رفض إرسال ما ناب قبائله من العسكر "فقد كنا أصدرنا لك أمرنا الشريف مرارا بالحث والتأكيد في توجيه ما ناب أخوانك وأيالتك، مسفيوة وفطواكة وغجدامة وزمران من فرض العسكر السعيد البالغ عدده إحدى عشرة مائة وخمسين فإذا بك توانيت وتراخيت..." 20 رمضان 1323 / 18 نوفمبر 1905 خ ح.
- كما اتهمه السلطان بالخوض في أيالة القائد الطيب الكنتافي "وتغرى الخديم محمد بن القرشي الوريكي على إفسادها عليه حتى أنه وجه خليفته لوادي نفيس لإشاعة الفساد في كدميوة وغيرهم وليس هذا من شأن العمال النصحاء أهل الجد" 10 رجب 1323 / 10 شتنبر 1905 خ ح ، 13/420.
راجع "الفترات الكبرى للقايدية" بول باسكون، تعريب زبيدة بورحيل، المجلة المغربية للاقتصاد والاجتماع عدد 5-6، ص. 86-87.

81) - أنظر تصريح 8 يوليوز 1908، بين رئيس الحكومة الفرنسية Rouvier والسفير الألماني بباريز الأمير Radolin في Rouard de Card, op. cit., pp. 79-81.
وكذلك مواد الاتفاق الذي حصل بين الطرفين المذكورين في 28 شتنبر 1905 المرجع المذكور ص. 82-83.

الفصل الثالث

مؤتمر الجزيرة 1906

وجد مولاي عبد العزيز في انعقاد مؤتمر دولي الوسيلة الناجعة، لفك طوق الحصار الذي سعت الدبلوماسية الفرنسية إلى ضربه حول المغرب. فبتلك الوسيلة سيأخذ المغرب الضمانات الكافية من جميع الدول، حتى ولو تكلفت فرنسا بالإصلاحات المزعومة المقترحة. ذلك أن هذه المقترحات ستناقش بين ممثلي جميع الدول وممثلي المغرب، وسيشدد المغاربة على نوع الاصلاحات، ويشرحون إمكانيات البلاد، ومدى استعدادها، والعواقب المحتملة لكل إصلاح. ثم في الأخير، وهذا هو الأهم، إن التعهدات ستكون جماعية، وبذلك سيحترم استقلال البلاد وتضمن سيادتها من طرف جميع الدول المعنية، وفي ذلك تدويل للمسألة المغربية، وهو الهدف المتوخى من طرف المغاربة ليبعدوا شبح السيطرة الفرنسية عليهم.

إن تحبيذ المغاربة لفكرة المؤتمر ودعوتهم لانعقاده، لم تكن نتيجة ضغط ألماني، وإنما كانت خطوة، ليست غريبة على الدبلوماسية المغربية التي سعت منذ منتصف القرن XIX، إلى خلق توازن وتنافس بين الدول ذات المصالح بالمغرب، كوسيلة للحفاظ على استقلال البلاد.

وبالمقارنة مع الضغط الفرنسي سنة 1905، ألا يعطي اللجوء لمؤتمر دولي للسلطان فسحة للتفكير. ودراسة ما أرادت فرنسا فرضه حالا، كما تبين من الحاح سان روني طايندي، على توقيع الاتفاق العسكري قبل وصول السفير الألماني طاطنباخ لفاس في ماي 1905 (1)؟

لقد قبلت فرنسا - إذن - حضور المؤتمر مرغمة، بعد أن كادت علاقتها مع ألمانيا تؤدي إلى نشوب حرب بين الدولتين، وضحى Rouvier رئيس الوزارة الفرنسية بوزير خارجيته Delcasse (2). ثم تبودلت المذكرات بين السفير الألماني بباريز Rodolin وRouvier في 8 يوليوز 1905، ووقع اتفاق بينهما في 28 شتنبر 1905 حول النقط التي ستدرس في المؤتمر(3).

انعقد المؤتمر بمدينة الجزيرة الاسبانية، في 16 يناير 1906، وانتهى بالمصادقة على ميثاق عام في 7 أبريل 1906(4). وإذا كنا لسنا بصدد تتبع أشغال المؤتمر وأحداثه وهي مفصلة في مراجع عديدة(5)، فالجدير بالملاحظة، هو أن معظم الوفود أيدت وجهة النظر الفرنسية وخاصة الدول التي تربطها بهذه الأخيرة اتفاقيات. وبذلك لم يستجب المؤتمرون لرغبات الوفد المغربي ومطالب المغاربة(6).

حقيقة قرارات مؤتمر الجزيرة

كان المغاربة يأملون منذ أعلن عن انعقاد مؤتمر دولي، أن يناقش هذا المؤتمر القضايا التي هي موضع خلاف بين المغرب والأجانب، وخاصة التي يثيرها التدخل الفرنسي. وهذا يبرز بوضوح، مدى الجهد الدبلوماسي الذي كان المغرب يبذله. ومن أهم تلك القضايا قضية الحدود بين المغرب والجزائر المحتلة(7). ذلك أن الفرنسيين، باستثنائها من المناقشة، يريدون إبقاءها مبهمة، وخاصة بين المغرب وفرنسا، ليتوصلوا إلى مزيد من إثارة أسباب التدخل واحتلال الأراضي المغربية. كما كان الوطنيون المغاربة يأملون أن يمثل المغرب بعض الشخصيات المعروفة بتشددها ومعارضتها للتدخل الأجنبي(8). لكن الوفد المغربي تكون من النائب الحاج محمد الطريس، وكان سنه لا يساعده على مواجهة دبلوماسي أروبا النشطين، والأمين الحاج محمد المقري، وهذا هو الذي مثل المغرب في الحقيقة وهو الذي تدخل في جلسات المؤتمر باسم المغرب(9). ولم يكن الاثنان من المتشددين في التعامل مع الأروبيين.

وفيما يخص قرارات المؤتمر، فإن ميثاقه النهائي لم يستجب أبدا لأماني الشعب المغربي، بل جاء مؤكدا للوصاية الدولية ومدعما للاستغلال الأجنبي للمغرب. ففي الفصل الأول، قرر المؤتمر تنظيم شرطة بالموانئ المغربية (المواد1-12) المفتوحة للتجارة، وأخضع تأطيرها للفرنسيين والإسبان وحدهم. وهذا ما كان يعارضه المغاربة ورفضوه في سنة 1905(10). وسيكون لهذه المسألة عواقب

خطيرة على سيادة البلاد وعلى إثارة الفتن ضد الأجانب، لأن الدولتين ستستغلانها للتدخل في الشؤون الداخلية للمغرب.

ونظرا لخطورة المسألة، حاول مولاي عبد العزيز تغيير بعض المواد (4-9) بحيث لا تقتصر امتيازات البوليس على فرنسا وإسبانيا وحدهما. وأن يكون المدربون أروبيين وأن لا يكونوا من المتجنسين. وأن تكون أوامر التدريب بالعربية، وأن يغادر المدربون المغرب بعد انتهاء أجل 5 أعوام(11).

كما أن تعيين مفتش عام يعتبر إساءة أخرى لسيادة السلطان. ويلخص عبد الحكيم(12) رأي المغاربة في القضية بقوله "نعم إذا اقتضى الحال تنظيم الحراسة العامة المعبر عنها بالبوليس، واحتيج إلى إعانة بعض الأجانب، فلا بد أن يكونوا تحت أمر المخزن ونهيه بدون أن يراجعوا في أعمالهم نواب الأجانب، لأن المراجعة ستستدعي المشاركة في التصرف وذلك حرام شرعا وسياسة... ونصح بتدويل المسألة بقوله "وأما مسألة البوليص (كذا) بالمراسي إذا اقتضى الحال قبول بعض الأجانب في إدارتها فالحذر من أن يكون ذلك خاص بجنس واحد لأن الفرنسيس يريد أن يختص بذلك دون غيره وفي هذا ضرر لا يكيف ولا يحد"(13). وقد بينت الأحداث صدق توقعات المغاربة في تنظيم البوليس، الذي أصبح أداة في يد الأجانب يسيئون بها لسكان البلاد(14).

ولكل ذلك فقد شغلت مسألة تنظيم البوليس الدبلوماسيين الفرنسيين زمنا طويلا ولم يقبل المخزن تنظيمه إلا عقب أحداث 1907(15).

أما مسألة منع تهريب الأسلحة التي عالجها الفصل الثاني من الميثاق المواد (13-30)، فيلاحظ أن الأجانب الذين كانوا هم المهربين للأسلحة، وبيعها للمغاربة بهدف إثارة الفتن وزعزعة سيطرة المخزن، يجتهدون الآن في التشديد على منع توصل المغاربة بأي نوع من الأسلحة، أو الذخيرة باستثناء المخزن، وحتى المخزن منعوا عليه إعادة بيعها للسكان ولهذا دوافعه

فمنذ تبين للفرنسيين خاصة، أن الأسلحة التي تشتريها القبائل بدأت توجه ضدهم، منذ توقيع الاتفاق الودي، أصروا على منع تسليح المغاربة حتى تسهل السيطرة عليهم. كما أن دفاع الفرنسيين على هذه المسألة، وحصولهم على تفويض بمنع التهريب في السواحل المغربية بالاشتراك مع الإسبان، يعتبر وسيلة أخرى للتدخل ومراقبة الشواطئ المغربية، حتى يمنعوا تزويد المغاربة بالسلاح إذا احتاجوا إليه. ولنتأمل إذن، نتيجة لذلك، كيف ستكون مقاومة المغاربة ناجحة

والأجانب يحاصرون شواطئهم ويمنعون وصول السلاح لهم منذ 1906(16).

أما قضية إنشاء بنك مخزني التي عالجتها المواد (58-81) من الميثاق والذي تقرر أن يمنح السلطان امتيازه لمدة 40 سنة، فإنه وإن كان اتخذ صفة دولية نتيجة لتخصيص أسهم فيه لجميع الدول، فإن حصة الأسد كانت من نصيب فرنسا. لكون حصة دينها على المغرب كانت هي الأكبر (92٪ تقريبا).

وفيما يخص صلاحيات البنك فقد كان مؤهلا لاتخاذ جميع الإجراءات، التي يراها ضرورية، لتحسين الوضعية النقدية بالمغرب، ولذلك أصبح من اختصاصه ضرب النقود وجمع المعادن الثمينة، واقراض الدولة المغربية وكان في إمكانه حتى تغيير أسس النظام النقدي المغربي(17).

وهكذا فالهدف من هذا الإصلاح المالي هو التحجير المالي على المخزن المغربي، ومراقبة مداخيل ومصاريف الدولة المغربية، وسيكون لهذا عواقبه. فعندما ستشتد الأزمة بين فرنسا والمخزن، لن يجد هذا الأخير ما يسيم به عوزه إلا باللجوء للدبلوماسية الفرنسية التي يمكنها أن تتدخل لدى البنك المخزني أو تمنع على المخزن الأموال، لكي تجعله تابعا لا يستبد. وهذه حالة سنجد عليها مخزن مولاي عبد العزيز أواخر 1907 وبداية 1908(18).

وفيما يخص التصريح المتعلق بتحسين مردودية الضرائب وخلق مداخيل جديدة للخزينة المغربية، المواد (59-76)، فيعتبر في نظرنا، ضربة أخرى للسيادة الوطنية، وتفويتها للأجانب.

فبدل الاستجابة لإلحاح المغاربة برفع الرسوم الجمركية على الواردات(19)، وضرورة أداء الأجانب للضرائب على ما يملكون، وإلغاء عقود الكراء 6٪ الجائرة (20)، وإبقاء حق الملكية للأجانب في حدود ما قرره مؤتمر مدريد (الفصل 11)(21)، فإن المؤتمرين قرروا أن لا يؤدي الأجانب الضرائب إلا إذا انتظم أداء المغاربة لها، وعلى أساس اتفاق يحصل بين المخزن والهيئة الدبلوماسية، في حين أعطت المادة (60)، الحق للأجانب في التملك في كل مكان بالمغرب، بعد استئذان السلطات المغربية وبدون إذن في المدن الشاطئية وضواحيها إلى حدود 10 كلمترات.

وهكذا فتح ميثاق الجزيرة باب التهافت على المضاربة العقارية وإنشاء المشاريع الاستغلالية، على مصراعيه للأجانب(22).

وستثير هذه القرارات ردود فعل شعبية غاضبة، وخاصة في الشاوية ودكالة والغرب. وعندما قبل المؤتمر فرض ضريبة على المباني، فإنه خصص

مدخولها للمصالح البلدية وجعل هذه المصالح تحت مراقبة الهيئة القنصلية، ونص على دفع هذه الضريبة بطنجة للمجلس الصحي(23).

ولما اشتكى المغاربة من تقاعد الأجانب على كراء العقارات المخزنية، وأملاك الأحباس، أحال المؤتمر الأمر إلى اتفاق بين المخزن والهيأة القنصلية (مادة 62). أي رد الحكم في القضية الى المتهمين.

كما اشترط دفع رسوم رسو السفن بالموانئ بتحسين وإصلاح تلك الموانئ (المادة 70). بمعنى أنه دعا إلى ضرورة القيام بأشغال عمومية لفائدة الأجانب وتطوير تجارتهم، وهذا ما نصت عليه (المادة 66)، وخصص لتلك الأشغال النسبة الضئيلة (2.5٪) التي تقرر فرضها على البضائع الأجنبية.

وفيما يخص مراقبة الجمارك ومنع الغش فيها، المواد (77-104)، فيلاحظ أن الهدف النهائي من القرارات المتخذة، هو إخضاع الأمناء لإرادة المراقبين الأجانب، وإخضاع الجمارك المغربية لمراقبة الهيئة القنصلية، ومنع تهريب السلاح. وهناك هدف آخر واضح، هو ضمان مدخول متزايد للجمارك يغطي دفع واجبات قرض 1904.

أما القرارات الأخيرة، المتعلقة بالمصالح العامة، والأشغال العمومية، المواد (105-120)، فهدفها ضمان المساواة الاقتصادية لجميع الدول، وإخضاع الأشغال العامة المغربية لمراقبة الهيئة الدبلوماسية بطنجة أي تفويت سيادة السلطان والمخزن، فيما يخص منح الامتيازات أو اختيار الزبناء والمؤسسات الأجنبية، التي تكلف بأشغال معينة. ذلك أن المؤتمرين اشترطوا إخضاع الأشغال العمومية بالمغرب إلى المناقصة الحرة ومنعوا السلطان من اختيار هذه الشركة أو تلك أو هذه الدولة أو تلك لمساعدته في إنجاز بعض الأشغال التي تحتاجها بلاده. كما منع السلطان حتى من اختيار الموظفين من هذه الجهة أو تلك(24).

نتائج ميثاق الجزيرة

هكذا نلاحظ، أن شروط ميثاق الجزيرة، كانت كلها في صالح الأجانب، فإذا ضمنت تدويل القضية المغربية، فإنها في الحقيقة، أخضعت المغرب للاستغلال لفائدة التجار والأفاقين الذين تهافتوا عليه من كل حدب وصوب. ونظرا لهذا التهافت فقد كثرت حوادث تعرض الأجانب للمضايقة من جانب المغاربة، وأكثر التجار وغيرهم من الأجانب من الشكايات ومن المطالب الباطلة بالتعويض. وقد

عرفت الشاوية ودكالة والغرب جانبا من حوادث ذهب ضحيتها أجانب، وطالبوا بتعويضات عنها. وأكثر ما كان التجار يتشكون من بعض القواد الذين أظهروا معارضة صارمة لتصرفات التجار، مثل القائد الرميقي في الغرب (25).

وقد منح ميثاق الجزيرة مزيدا من السلطة للهيئة الدبلوماسية والقناصل للتدخل في شؤون البلاد الداخلية، وفوت في الواقع، جانبا من سيادة سلطان المغرب للمفوضين الأجانب وممثليهم بالموانئ. ذلك أن الميثاق منحهم سلطات تفوق سلطات الدولة المغربية، فيما يخص المسائل الحضرية والبلدية، والجمارك ومراقبة الشواطئ المغربية. كما قرر الميثاق القيام بإصلاحات في الموانئ لفائدة الأجانب. وتطوير تجارتهم في المغرب. وقرر الصرف عليها من المداخيل الهزيلة التي سمح بأخذها من التجار.

إن الهدف الذي رمى إليه الدبلوماسيون الأوربيون بالجزيرة، يتلخص في تطوير المصالح الأجنبية بالمغرب وتعزيز النفوذ الأوربي به، دون الاهتمام بمصير المغرب كدولة مستقلة. ويبدو أن المغاربة قد تأكدوا من ذلك في حينه، كما توضحه هذه العبارة المنسوبة لوزير خارجية المغرب "انكم تطورون بالساحل مصالح أروبية سنكون عاجزين عن حمايتها، ولا نستطيع أن نحميها بعناصر البوليس التي تتوقعونها. إن الاضطرابات ستزداد وسيدخل المغرب في فوضى تكون مقدمة للسيطرة الأجنبية" (26).

لقد خاب أمل المغاربة من نتائج المؤتمر، فبدل أن يضمن استقلال البلاد وسيادتها، ويثبت سلطة السلطان والمخزن، بإخضاع الأجانب لأداء الضرائب واتباع شروط المعاهدات في معاملاتهم مع المغاربة. فإن المؤتمرين اتفقوا على مطالبة السلطان بالقيام بإصلاحات لفائدة الأجانب، وعلى حساب سيادة البلاد. ويتعاون مع أعدائه الطامعين في بلاده، الفرنسيين والاسبان، وفي الواقع لقد كان هؤلاء من وراء ما تقرر حتى لا يتحرر المغرب من مراقبتهم (27).

إن مؤتمر الجزيرة الذي دعا إليه المغاربة ليحتكموا إليه، والذي نتج عن الأزمة الألمانية الفرنسية، لم يفعل شيئا لحل "المسألة المغربية"، وإنما زاد في تعقيدها، أي اهتم بحل الأزمة التي نشأت عن الخلاف الألماني الفرنسي، الذي نشب بعد الاتفاق الودي، وعقد الأزمة المغربية، التي نشأت عن الصراع المغربي الفرنسي (28).

وربما شعر الألمان بخيبة أمل المغاربة من نتيجة المؤتمر "وهم يرون أوربا تصادق على البرنامج الفرنسي للإصلاحات الذي عاهدتهم ألمانيا على حمايتهم

منه"(29)، ولذلك علقوا موافقتهم على تنفيذ قرارات الجزيرة على موافقة المغرب(30). وانتظروا حتى تمكن عميد السلك الدبلوماسي بطنجة من أخذ موافقة السلطان في 28 يونيو 1906(31).

لقد رفض المغاربة ما قرره ميثاق الجزيرة، وانعكس ذلك على علاقتهم بالأجانب عامة والفرنسيين خاصة، تلك العلاقة التي انقلبت الى عداء متزايد. وقد أشار E. Doutte (32) الذي قام بعدة زيارات للحوز، الى تزايد عداء الرأي العام المغربي لا في المدن الساحلية فحسب، بل حتى في المناطق الداخلية، وتساءل عن الأسباب التي جعلت المغاربة يقابلون الأجانب بالكراهية والسخرية فذكر لذلك سببين هما

- مؤتمر الجزيرة.
- والدعاية الألمانية المضادة للفرنسيين(33).

اتضح للمغاربة منذ البداية، أن عقد الجزيرة يعتبر مقدمة لاحتلال المغرب، ولذلك أصروا على مقاومة الطامعين، وفي نفس الوقت تحركوا ضد عجز الحاكمين. وفي الواقع لم يكن الشعب المغربي وحده الذي فضح قرارات الجزيرة في حينها، بل كتب الكثيرون في نفس الوقت عن أخطاء الجزيرة ومنهم الفرنسيون أنفسهم، وهكذا هاجم Sabatier (34)، السياسة التي رسمها المؤتمر بالمغرب، وحمل الذين سعوا في تدبير الاتفاق الودي مسؤولية ما وقع في الجزيرة، منددا بالسياسة التي جعلت من فرنسا في المغرب مجرد دركي ممقوت، وشرطي يحمي جشع الرأسماليين.

وأعطى أمثلة من تزايد عداء الشعب المغربي ضد الفرنسيين ومقاطعته لهم، فذكر أن سكان تافيلالت كانوا يبيعون ويشترون من الفرنسيين لما كانوا بعيدين منهم. لكن سياسة التدخل السلمي التي أدت إلى مد الخط الحديدي إلى بشار، وقرارات الجزيرة أدت إلى مقاطعة شاملة(35). ولذلك أدان العمل الدبلوماسي لأروبا مبرزا النتائج العكسية التي تمخض عنها في الجزيرة قائلا إن العمل الدبلوماسي لأروبا يقوّم بنتائجه كان عليه أن يثبت النظام (في المغرب) فلم يخلق إلا الارتباك والبلبلة، وكان عليه أن يؤسس السلام نهائيا فأطلق الحرب. وفي زمن سابق كان الأوربيون يتمتعون في الموانئ المغربية بأمن تام، ومنذ الاتفاق الانجليزي الفرنسي هبت عليهم ريح من الكراهية، ومنذ ميثاق الجزيرة بدأوا يتعرضون للقتل. وكل واحد يشعر بأنه ليس الغضب المؤقت للروح المغربية أبدا، بل انها كراهية مصممة ومتعقلة ومبررة، وهي تعني الفرنسيين بصفة خاصة من بين الأروبيين"(36).

والجدير بالملاحظة، أن ميثاق الجزيرة، الذي لم يقدم حلولا مقبولة لا على المستوى الداخلي بالمغرب، ولا على المستوى الخارجي قد فتح المجال لمزيد من الأحداث الدموية، التي هددت الأروبيين، كما كانت لها نتائج خطيرة على مصير المغاربة، وكادت أن تشعل نار الحرب بين الدول الاستعمارية.

وقد أشار E.M. Bellaire (37)، بمناسبة بيعة فاس لعبد الحفيظ، والشروط التي وضعها المبايعون(38)، إلى موقف الرأي العام المغربي من قرارات الجزيرة، فذكّر بمعارضة المغاربة لسفارة طايندي، وتجاهل دبلوماسي أروبا لتلك المعارضة، التي كان عليهم أن يأخذوها بعين الاعتبار، ويعلموا أن ما قرروه في الجزيرة إما سيبقى حبرا على ورق أو يهيئوا له وسائل التطبيق الضرورية، أو تكون النتيجة، هي إثارة ثورة عامة وإغلاق البلاد التي حاولوا فتحها نهائيا(39).

هوامش الفصل الثالث

1) - S. René Taillandier, Op. cit, P 293-294.

2)- عن رفض دلكاسي مسألة المؤتمر ثم قبوله مضطرا واقالته

Pierre Allin, le coup d'Agadir, Paris 1912.

وكتب عبد الحميد المزوغي من باريز بالخبر لأحد أصدقائه بطنجة "ونعرفكم بأن الفرنسيس قد طوعه الألمان، ورضي بالحضور بالمؤتمر الذي طلب مولانا تشكيله قهرا وجبرا، وقد كاد أن يؤول الأمر بينهما إلى حرب ولكن عام السبعين لا زال بين أعين هذا الجيل. وقد ظهرت الألطاف والحمد لله وانتصر إلينا من سخره الله لنا ونحن نيام بين أضغاث وأحلام فرج الله على المسلمين."
الرسالة غير مؤرخة، و.ع.س.

3) - Rouard de Card, Documents, pour servir à l'étude de la question marocaine, paris, I9II, PP. 79-83.

4) - حاول المغرب تسانده ألمانيا عقد المؤتمر بطنجة، لكن فرنسا عارضت ذلك وطالبت بعقده خارج المغرب، وكان الفرنسيون يهدفون من وراء ذلك إلى التأكيد على أن المغرب خاضع للفوضى وانعدام الأمن وأن ذلك ما تريد فرنسا إصلاحه بالتعاون المزعوم مع السلطان.
Cf. S. Aulaire. Confessions, P. 162.

5) - عن أشغال المؤتمر والنتائج التي انتهى إليها

A. Tardieu, La conférence d'Algésiras, 16 janvier - 7 Avril 1906, Paris; 1909.

DD. F, Aff. du maroc, T II. 1906, Protocoles et comptes rendus de la Conférence d'Algésiras.

R. F. RC, 1906.

الترجمة العربية لعقد الجزيرة في
مجلة تاريخ المغرب، عدد 2، 1982، ص. 119-145.

6) - "أما الألمان فيظهر من سياسته أنها تغيرت عما كانت عليه، لأن غالب أقواله توافق أغراض الفرنسيين" رسالة مؤرخة 27 قعدة 1323 / 23 يناير 1906، بعثها أحد الحاضرين بمؤتمر الجزيرة إلى أحد موظفي النيابة بطنجة، تطوان، 88-175.

7)- العماري أحمد. "مشكلة الحدود الشرقية بين المغرب والجزائر...

رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا كلية الآداب بالرباط 1981.

8) ـ ألح عبد الحكيم المزوغي وهو أحد المستشارين المقربين لمولاي عبد العزيز، في رسالة لعبد الله بن سعيد مؤرخة بـ 22 جمادى الأولى 1323 / 25 يوليوز 1905. على ضرورة إدخال نقطة الحدود وعدم تسليم الأمور المالية والعسكرية ليد الأجانب لأن الفرنسيين يريدون أن يتوصلوا من ورائها إلى أهدافهم، "ونطلب من الله ـ يقول المرسل ـ أن يكون الأمين السيد عبد السلام التازي واحد ممن يكلفهم مولانا بالنيابة عنه في هذا المؤتمر القابل الذي فيه الخير ومنه يخرج لا سمح الله الشر وقد أكدت التأكيد التام على أن لا يوافق سيدنا بأي وجه من تسليم الأمور المالية، وتنظيم الجيوش ليد النصارى أبدا لأن النصارى إذا استولوا على المال استولوا على الرجال ثم على البلاد" و.ع.س.

9) ـ اتهمه فاريو قائد البعثة العسكرية الفرنسية بأنه من المؤيدين للنفوذ الألماني وتعرض لنشاطه سنة 1904-1905.

10) ـ كناش الخزانة الحسنية، 777 A. G. V,3 H 15, Doss, 100, 28 février 1906.

11) A. Tardieu, Op. cit, PP 425 - 426.

12) ـ الرسالة المذكورة في ملاحظة 8

13) ـ نفسها.

14) ـ و خ ح، وثائق العهد الحفيظي، (1910/1328).

15) ـ عن مسألة تنظيم البوليس بالموانئ المغربية يمكن مراجعة

AF, 2907, P. 315, PP. 326-337. et A. F. 1908, P: 29.

ـ تقرير قدم من طرف وزير الخارجية الفرنسية إلى وزير الحربية بتاريخ 5 يناير 1907 تحت عنوان

"Réglement sur les corps de police institués dans les 8 ports de la côte marocaine d'après l'acte d'Algésiras".
A. G. V. , 3H 71, Doss 87-3.
Cf H. Combon; le Maroc; 1952. PP; 164-170.
J. C. Allain, Agadir, 1911, PP 207-209.

16) ـ منذ 1906 خصصت فرنسا قطعا من أسطولها لتقوم بدوريات منتظمة ومستمرة لمراقبة الشواطئ المغربية، كإجراء يعبر عن الحضور الفرنسي الدائم. وكان على قواد تلك السفن أن يبعثوا بتقارير شهرية إلى وزارة البحرية عن التطورات السياسية والعسكرية والإجتماعية بالمغرب...

وكان الهدف من هذا الوجود بالنسبة للمفوضية الفرنسية بطنجة التجسس والتخويف. وانتظار الفرصة المناسبة للتدخل في المغرب، وسيتضح لنا كل هذا من بعد. راجع كذلك "اعترافات" سان أولير.

A. M. V. BB4 2502, BB4 2602.

- Yves Famchon, op cit P. 368 - 9.

- أسفله ص. 382-384.

- عن مطالب الوفد المغربي انظر

D. D. AFF. M 1906, PP39-40 et 59.

J. Griguer , Notes sur le domaine Makhzen, in, Bull-trim, Soc. géo. Arch. D'Oran, . 1913, 481-498.

كانت عقود 6٪ تهم العقارات التي يبنيها المخزن فوق أرض مخزنية، كالأهرية أو الدور للأجانب وحتى للمغاربة المحميين والتجار. ويؤدي المنتفع في المقابل كراء قدره 6٪ من قيمة ما صرف على البناء، والأمناء هم الذين يتكلفون بالبناء وكذلك أمين المستفاد. وكان أمر السلطان للأمناء كالآتي

"خدامنا الأرضين أمناء مرسى... المحروسة بالله وفقكم الله وسلام عليكم ورحمة الله وبعد، فقد طلب من جانبنا العالي بالله التاجر... بناء هري له هناك بستة في المائة، وعليه فنأمركم أن تبنوه له بالحساب المذكور بمحل يناسب بناؤه له بعد عقد كنطردة بنائه معه على الشروط التي تعقد مع أمثاله والسلام بتاريخ..."، المرجع أعلاه.

كان واجب الكراء يؤدى شهريا وهذا ما يفهم من التقييد الآتي

"أدى ما سكه الشريف سيدي الفاطمي الرفاعي نائبا عن ورثة السيد "محمد غنام الرباطي كراء الأهري الذي بيده لجانب المخزن أعزه الله بستة في المائة عن شهر صفر الخير وقدره ستة ريال وخمسة عشر بليونا كما رقمت بالغباري أعلاه(15-6) والسلام في 3 ربيع الأول عام 1316" أنظر كناش مقبوض مستفاد الدارالبيضاء، 1313-1317" رقم 820. ص. 53-54. (جذاذتان منفصلتان).

عن عواقب تقاعد الأجانب عن أداء كراء أملاك المخزن، والاستيلاء على هذه الأملاك راجع:

علال الخديمي أثر الاستقرار الأجنبي بالدارالبيضاء خلال ق 19

أعمال ندوة الدارالبيضاء 1982، منشورات كلية الآداب بالدارالبيضاء 1983.

2) - على الأقل نظريا وتشريعيا أما في الواقع فقد كان تملك الأجانب سواء في السواحل أو حتى في مناطق داخلية كالحوز قد وصل إلى مستويات بعيدة وذلك عن طريق التحايل باستخدام الجزائريين والمحميين.

Cf. P. Pascon, Le Haouz de Marrakech, Rabat, 1977, PP, 415-433.

22) - ذكر Le Coz أنه بعد مؤتمر الجزيرة عرف الغرب موجة من الأجانب الذين جاءوا باحثين عن الثروة، عن طريق التجارة والمخالطة أو تملك الأرض بواسطة المحميين والمخالطين وبواسطة الجزائريين، كما أشار إلى أن الأغلبية كانت من الفرنسيين الذين جاءوا من الجزائر وتونس، ومنهم من كان يعرف اللغة العربية ويتجول في البلاد والأسواق ويعملون على كسب الأشياخ عن طريق تقديم الهدايا أو القيام ببعض الخدمات البسيطة.

Le Coz, le Charb, Fellahs et Colons T. I, P 361.

23) - محمد الأمين البزاز، "المجلس الصحي الدولي بالمغرب 1792-1927"، رسالة في دبلوم الدراسات العليا كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط. 1980 (هـ 1).

24) - يظهر ذلك من الخلاف الذي نشأ حول استخدام مولاي عبد العزيز لضابطين المانيين سنة 1907، أنظر رسالة أحد هاذين الضابطين، يشرح فيها مهمته ويؤكد على حرية السلطان في اختيار من يساعده. D.D.F. A. M.t. III, 1907, p. 179-180

25) - نفهم ذلك من الرسالة الآتية التي بعثها محمد الطريس إلى السلطان في الموضوع
"إن الخديم الرميقي قد جرى في إهمال القضايا التي تتعلق به من قبل الأجانب إلى غير غاية. وكلما أكدنا عليه في قضية من تلك القضايا، يقابل تأكيدنا بضده ونواب الأجانب يوالون الكتابة لنا والكلام في قضاياهم الموقوفة فلا يحصلون على طائل وقد نهيناه عما يرتكبه من الاستخفاف بما يجب الاهتمام به غير مرة فلم يرفع لذلك رأسا ولا عبأ به، حتى وقفت حركة ما يتعلق به على شفا ورطات يتحمل أعباءها كاهل المخزن. وقد أنهينا الواقع لكريم العلم حين أعيانا أمره وتكاثرت شكاوي الأجانب منه" 17 جمادى الأولى 1324 / 23 يونيو 1906. ك.خ.ع. 2720.
وهناك أمثلة كثيرة - يراجع فيها كناش مكاتب الطابع الشريف، مخطوط خ.ع.د، 1695

26) - Dr. F. Weisgerber, Au seuil du Maroc Moderne op, cit P. 151.
S. Aulaire; Confessions, P. 173.

27) - نفس المرجع والصفحة.

28) - "في الحقيقة أدى مؤتمر الجزيرة إلى وضعية بدون مخرج. فقد اهتم المندوبون بحل المشكل الفرنسي الألماني أكثر من اهتمامهم بحل الأزمة الداخلية المغربية، وحرضت قراراتهم انفجار كراهية الأجنبي"

29) - J. Célérier, Le Maroc, paris 1948, P. 71.
A. Tardieu, Op. cit. PP 421-422.

30) - لم يبق للألمان إلا هذه المناورة البسيطة لإرضاء كبرياء المغاربة
"فيومه ورد علينا لدار النيابة السعيدة باشدور الألمان وشافهنا بأن دولة اسبانيا طلبت من دولته أن يكون الأعمال (العمل) بما وقع عليه الاتفاق بالمؤتمر من يوم إيقاع إمضاء

نواب الدول عليه بالجزيرة فأجابتها بعدم المساعدة على ذلك وأنه لا يتمشى العمل به حتى يقبل لدى الحضرة الشريفة أعزها الله ويقع الإمضاء عليه من قبل جانبها الشريف...
رسالة من الطريس إلى ابن سليمان مؤرخة 22 ربيع الأول 1324 / 16 ماي 1906.
كناش 2720 خ ع ص 113.

31) - كان الوزير الإيطالي "مالموزي Malmusi" هو عميد السلك الدبلوماسي الذي كلف بالذهاب لفاس للحصول على موافقة السلطان على الميثاق ومصادقته عليه دون مفاوضة

32) E, Doutte "La situation politique du Haouz au 1er janvier 1907, AF. RC. 1907, P. 247.

Au pays de M. HAFID. Rev. de Paris; 1er octobre, 1907, pp. 483-484.

33)- "بصفة عامة فإن الصفة المميزة للرأي العام المغربي عند نهاية 1906 كانت هي ازدياد العداء ضد المسيحيين (في الحقيقة ضد الغزاة الفرنسيين)... ففي الشياظمة حيث كان السكان يستقبلون الأروبي في السابق بكل لطف أصبحوا أكثر احتقارا ويصعب عليه المرور بينهم... وبين القبائل العربية (عبدة دكالة وقبائل حوز مراكش) فإن الأمر أسوء، فلا يمكن التخييم (بينها) دون تلقي علامات الاحتقار بشكل متزايد. وقد أصبح من العادي هذه السنة (1906) أن يُستهزأ بك عندما تمر بالدواوير التي لم تكن في السنوات السابقة تقابلك بأي سوء"
E. Doutte, La situation politique, op, Cit. PP, 247-248.

34) -
Camille sabatier, l'Erreur d'Algésiras, R. Pol. parl. 10 Novembre, 1907, 248-275.

35) - "إن هذه المقاطعة الفورية هي رد بسيط على سياستنا العامة بالمغرب، والنتيجة الأولى لنجاحنا المزعوم بالجزيرة"، المرجع المذكور، ص 264.

36) - نفس المرجع ص. 248.

37) -
Micheaux bellaire, "Une tentative de réstauration idrisside à Fes " R. M. M. Vol, V. n° 7, 1908, pp 393-423.

38) - أنظر أسفله الباب الرابع.

39) - ميشو بلير، ص. 394-395.

الفصل الرابع

ما بعد الجزيرة
مقاومة التغلغل الفرنسي

اضطرت فرنسا ـ كما رأينا ـ أن تقبل حضور مؤتمر حول المغرب، بعد أن ظنت أن قضية المغرب لا تهم إلا فرنسا والمغرب. ورغم أن مؤتمر الجزيرة، دول المسألة المغربية، وأخضع البلاد لنوع من الوصاية الجماعية فإنه أعطى لفرنسا وسائط عمل كان على دبلوماسييها أن يستغلوها بمهارة. وقد سهل عملهم مخزن عاجز، بدون مال ولا رجال في مستوى الظرف، نظرا للجهل الذي كان يخيم على الجميع. ونقصد بالجهل هنا، عدم مسايرة التطورات التي حدثت بأروبا، وعدم الاستفادة منها. على جميع المستويات.

أما الفرنسيون، وخاصة أقطاب سياسة التغلغل النشيط، فقد صمموا على سلوك سياسة جديدة ذات وجهين

وجه للمغرب، يجب أن يكون متجهما، تشع الصرامة من قسماته، يعتمد التهديد والوعيد، واستغلال أبسط حادث، لتضخيمه والتهويل منه، في سبيل مضاعفة الضغط على المخزن وإكراه المغاربة على احترام الهيبة الفرنسية. وقد قررت هذه السياسة اعتمادا على نتائج ما كتبه بعض دعاة المعرفة الاجتماعية، الذين تجولوا في المغرب بعض الوقت وأصبح في إمكانهم تقديم وصفات للتنظيم الاجتماعي المغربي(1).

كان على هذه السياسة إذن أن تركز على إبراز المغرب وكأنه يعيش في فوضى، وحكومته وكأنها تحتضر، والأجانب الموجودين بالبلاد وكأنهم مهددون باستمرار، والفرنسيين وكأنهم المنقذون والمتكلمون باسم أروبا المتحضرة، في أوساط شعب متوحش، لا يمكن إقناعه بالتعقل إلا باستخدام القوة. فالمغرب ينقسم إلى بلاد محكومة "بلاد المخزن"، وبلاد مستقلة "بلاد السيبة"، والعلاقة بينهما علاقة صراع و"تقديس للقوة"(2).

أما وجه أروبا في السياسة الفرنسية لما بعد الجزيرة، فلا بأس من استخدام المساحيق لتجميله، وهذه المساحيق يتكفل أساطين السياسة الاستعمارية وممثلوهم بشمال إفريقيا بتوفيرها، كالتأكيد على ضرورة إدخال إصلاحات في الموانئ، وتنفيذ ما قرره ميثاق الجزيرة، ونشر الحضارة الأروبية ومساعدة السكان وتحريرهم من إدارة مستبدة. حتى إذا رفض السكان هذه المساعدة وقاوموها فالمسألة تتعلق بأخذ الثأر، ومساعدة المخزن على حفظ الأمن، وتنظيم البوليس تمشيا مع ميثاق الجزيرة، وبالتعاون مع المخزن - بعد أن تؤخذ موافقة المخزن تحت التهديد - وقبوله. وبالجملة فوجه أروبا يجب أن يكون مرنا وحذرا وخاصة تجاه ألمانيا.

ولإنجاح هذه السياسة، فقد أسند تطبيقها لرينيو Regnault الذي عين وزيرا مفوضا بطنجة في يوليوز 1906(3)، وبتعاون مع حاكم الجزائر العام Jonnart (4).

وما ينبغي ملاحظته في هذا الإطار، أن هذه السياسة بدأت تنعكس حتى على سيرة الفرنسيين كأفراد في علاقتهم مع المغاربة تلك السيرة التي تميزت بسوء التصرف والعجرفة المتزايدة، والاستهانة إلى حد التحدي لعواطف المغاربة وحساسياتهم الوطنية، سواء على المستوى الشعبي أو على مستوى المسؤولين المحليين.

كان الفرنسيون يهدفون من سلوك هذه السياسة إلى تخويف المغاربة وإرهابهم، حتى يقبلوا مرغمين ما يملي عليهم. وإذا كان بعض المسؤولين السياسيين المغاربة قد اقتنع بسلوك سياسة الاسترضاء والتخفيف من التوتر بالاستجابة لكل مطلب، فإن الشعب المغربي لم يعترف أبدا بالخضوع للأجنبي دون مقاومة، ولم يسمح أبدا بتسليم نفسه للجز دون صياح !

لقد قابل الشعب التحدي بتحد مثله، وكان على الفرنسيين أن يؤدوا ثمن سياستهم. ولذلك كثرت حوادث القتل الدالة على الرفض الشعبي للتدخل الفرنسي، ولكن الفرنسيين تمكنوا من استغلالها لصالحهم، معتمدين على ضعف المغرب.

حادث شربوني، 27 ماي 1906 :

في 3 ربيع الثاني 1324 / 27 ماي 1906، كتب الطريس للمخزن يخبره بالإجراءات التي اتخذها عقب مقتل أحد الفرنسيين بشاطئ طنجة (شربوني)، وكان موظفا عاديا بأحد الأبناك بالمدينة(5).

لكن الفرنسيين، وفي إطار سياسة ممارسة الضغط على المخزن، بهدف الحصول على أكثر ما يمكن من الامتيازات لفائدة التغلغل الفرنسي، قرروا استغلال الحادث إلى أبعد الحدود. فكتب Regnault إلى الطريس في المسألة وقدم بنفسه لدار النيابة "مظهرا الأسف في النازلة" ومتوعدا بالويل والثبور.

ورغم تأكيد النائب المغربي بأن "المخزن مستعمل المتعين في القضية وباذل المجهود في إعمال الوسائل التي تنتج الظفر بالفعال، وبأن القتيل هو الذي ألقى نفسه للتهلكة بوصوله منفردا إلى المحل المذكور في الوقت الذي لا يصل فيه أمثاله" (6). فإن الوزير الفرنسي باتفاق مع الخارجية الفرنسية أراد تضخيم المسألة وتهديد المخزن، فاستُقْدِم أسطول حربي لميناء طنجة في مظاهرة ظاهرة العداء، وتقدم Regnault مع وفد عسكري برئاسة أميرال الأسطول Touchard ليجتمعوا مع النائب محمد الطريس، ويقدموا له مطالب الحكومة الفرنسية طالبين تنفيذها ومهددين باستعمال القوة(7). ولزيادة التهديد قال الاميرال "إن دولته أمرته بالقدوم لطنجة وأن يكون عند إشارة الباشدور (السفير) وإنه إذا احتاج لزيادة مراكب آخر فيأذن لها بالقدوم عليه"(8).

كانت مطالب الفرنسيين عقب هذا الحادث البسيط الذي كان يقع مثله في عواصم أروبا المتحضرة هي

1. يتعهد المخزن بالبحث عن القاتل ومن معه، ليقتل ويسجن المشاركون.
2. دفع تعويض قدره 100 ألف فرنك.
3. تقديم الموظفين المغاربة بطنجة الاعتذار للسفير الفرنسي.
4. تخصيص موضع لبناء تذكار للقتيل في عين المكان.
5. فصل جميع الدعاوي الفرنسية وإنجاز ما اتفق على فصله سابقا.

6. إطلاق سراح الطيب ولد بوعمامة، وتسليمه سالما للفرنسيين بطنجة(9).

لقد أظهر المخزن اهتماما كبيرا بالمسألة، فعلا، وأصدر السلطان أوامره للريسوني، وقائد الأنجرة (الدواس)، وللنائب بالاجتهاد في إلقاء القبض على المسؤول عن الحادث. وأرسل القائد أحمد ولد اب محمد الشرقي "للوقوف على تنفيذ الأمر" كما أمر النائب بالتفاوض مع السفيرالفرنسي لحل المسألة بشكل مرض للطرفين. لكن النائب خضع كليا لضغوط الوزير الفرنسي واستجاب لكل المطالب وكتب للسلطان يبرر قبوله وختم بقوله "وحيث لم يبق وجه لمزيد المراجعة ساعدناه على ذلك" (10). ونفهم كل ما فعله الطريس وكتب به للسلطان في رسالة غاضبة ندد فيها مولاي عبد العزيز بتصرف نائبه وتعديه حدود تعليمات السلطان. لكن هذا الأخير، لم يتعد التوبيخ(11). جاء في كتاب السلطان "فقد سلكت في القضية مسلكا مخالفا لما أمرناك به في عدة أمور، منها أن الذي صدر لك في شأن الفعال هو أن المخزن جاد في البحث عنهم وعند الظفر بهم، تقع المفاوضة، فيما يقتضيه الحال من قتل القاتل ومعاقبة المشتركين أو أداء المعاوضة بحيث لا يلزم المخزن بالأمرين معا إذ لا وجه لاجتماعهما، فجعلت الحجة على المخزن بالتزام القتل مع أداء المعاوضة. ومنها أن الصادر لك في شأن المحل المطلوب لجعل أثر التذكرة به هو الجواب بكون ذلك متعذرا وفيه ما لا يخفي من الضرر على المخزن والرعية بما ينشأ عن المساعدة عليه خصوصا في الحال الحاضر، فتنكبت ما أمرت به وساعدت عليه وأسلمت بقعة لها بال فيه(12). على أنك لست بجاهل ما يترتب في ذلك وما هو لازم له، من طلب صيانته وعدم مديد الجوار إليه حالا واستقبالا، وصيرورة الحكم بمثل ذلك لازم (كذا) لجانب المخزن في جميع ما يحدث من مثل هذه الحادثة في المستقبل مع أن الوفاء بهذا متعذر (...) على أنه لم تجر به عادة قديما ولا حادثا (...).

ومنها أن الصادر لك في شأن تقديم الاعتذار المطلوب هو أن توجه ولدك وعامل المدينة فقط على وجه غير رسمي للجواب بما أشير لك به (...) فنبذت ذلك ووجهت المذكورين وغيرهما بوجه رسمي على كيفية لا مزيد عليها وزدت الخطبة الرسمية المتضمنة لاعتراف المخزن بحقانية ما كان وما لم يكن والتزامه بعدم حدوث مثل هذه الحادثة في المستقبل. ولا يخفي ما وقع فيه جانب المخزن بهذا الالتزام، حيث أنه لا يمكن لأحد في المعمور أن يلتزم بعدم حدوث مثله، لأنه لازال يحدث في جميع العواصم العظام المنظمة [...] والحاصل قد استغربنا وقوع هذا

منك إذ مثل هذا لا يصدر إلا ممن لم تتقدم له معرفة سياسة الأجانب" (13).

إن هذا مثال واضح على سياسة الابتزاز التي أشرنا إليها. فكيف لا يؤثر هذا الابتزاز والتهديد في حكومة ضعيفة وفقيرة، وكيف لا نعجب من صمود هذه الحكومة بالرغم من مآت الأمثلة المتشابهة(14)، الشيء الذي سيجعل الفرنسيين يلتجئون للسلاح.

لكن إذا عرفنا أن الشعب المغربي، كان مستعدا للدفاع عن نفسه، ومعارضا لهذه السياسة، فهمنا لماذا كان الاستعماريون يخشون ردود الفعل الشعبية، ويسلكون سياسة التدرج والضغط واقتطاع أطراف البلاد شيئا فشيئا ويعملون على ضرب المغاربة ببعضهم ليتغلغلوا سلميا(15).

وفي إطار سياسة الضغوط المتوالية هذه، وإثارة الفوضى بهدف استغلالها، نلاحظ أن الفرنسيين بدأوا يتصرفون تصرفات تسيء للبلاد، وتظهرها وكأنها تعيش في فوضى، الأمر الذي يستدعي تدخلا أجنبيا. وقد سخرت الصحافة الاستعمارية في حملة تشويه الحقائق، وكان على رأسها(16) صحف البعثة الفرنسية بطنجة، كجريدة السعادة وLa depêche Marocaine. فقد وصل الأمر بمدير هذه الأخيرة إلى جمع الغوغاء في ضواحي طنجة "بصدد الهجوم على بعض الأبناك داخل طنجة ووقع لهم تشويش عظيم من ذلك. وقد كتبنا - يقول النائب - لنائب الفرنصيص في القضية"(17).

وقد اتخذت هذه الصحف من علاقة الريسوني بالأجانب في المدينة وضواحيها موضوعا دائما، لترديد الاتهامات والتدليل على الفوضى والفساد، والدعوة للتدخل لحماية أمن الأروبيين بطنجة.

وما ينبغي تأكيده هو أن هذا التصعيد في التوتر، جاء بعد رفض سكان فحص طنجة تسليم الأرض التي قبل الطريس أن يقيم فيها الفرنسيون نصبا تذكاريا للقتيل الفرنسي المذكور. وقد اتهم الفرنسيون أصحاب الريسوني بنزع أعمدة القطعة الأرضية المعينة ومعارضة بناء التذكار، كما تعددت الشكايات بتصرفاته وتحكمه في ضواحي المدينة، وكان هذا كافيا ليخطط القائمون على المفوضية الفرنسية لإنزال جيش احتلال بطنجة(18).

محاولة إنزال فرنسية إسبانية

ففي أواخر سنة 1906، حاولت فرنسا وإسبانيا احتلال مدينة طنجة، بدعوى حماية أمن الأجانب من تصرفات الريسوني وخوفا من هجوم تقوم به

القبائل(١٥) وفي الواقع كان القائمون على المفوضية الفرنسية والأوساط الاستعمارية، يبحثون عن وسيلة لإرغام المخزن على تنظيم البوليس بالمدينة تحت إشراف مدربين فرنسيين وإسبان، أو احتلال المدينة بقوات فرنسية ولذلك سعوا للاتفاق مع إسبانيا، تمشيا مع ميثاق الجزيرة (١٥) وللتقليل من المعارضة الألمانية وقد وصل الأسطول الفرنسي لمرسى طنجة يوم دجنبر ولكنه لم يعمد إلى إنزال قواته، لأن أي مبرر لم يكن موجودا، ولأن المخزن الذي أطلع على المشروع في الوقت المناسب، وكان على بينة من أهدافه البعيدة، عمل بكل سرعة على إفشال هذه المحاولة، حيث حرك محلة من الجيش قوامها راجل و (١١)؛ فارس، يقودها وزير الحربية محمد الجباص بنفسه، وقد عمل الجباص على إبعاد الريسوني بعد أن خرب مقره بالزينات، وظل مخيما بضواحي طنجة، حيث عمد إلى تنظيم قوة البوليس بها بالاشتراك مع الفرنسيين وهكذا نلاحظ أنّ الفرنسيين - ولو فشل مشروع احتلالهم لطنجة - توصلوا إلى بعض أهدافهم فقد نجح ضغطهم على المخزن ليتكفل بنفسه من دفاع القبائل التي كانت تعارض التغلغل الأجنبي عامة والفرنسي خاصة، ووفر الحماية لتصرفات الفرنسيين بالمنطقة، كما مكنهم من التعاون مع وزير الحربية الذي كان من المؤيدين لتعاون فرنسي مغربي لتنظيم قوة عسكرية يشرف عليها الفرنسيون بالمدينة، وفي نفس الوقت تمكن الفرنسيون من أشغال جزء كبير مما تبقى من قوات المخزن، لحفظ أمن الأجانب بالمنطقة، الأمر الذي كلف المخزن مزيدا من الأموال، وزاد في ضائقته المالية وبالتالي في تبعيته للفرنسيين المشرفين على البنك المخزني وقد حدث هذا في الوقت الذي كان فيه المخزن يحاول دون جدوى، القضاء على بوحمارة بسلوان، وبالتالي إبعاد التغلغل الأجنبي بالمغرب الشرقي(٢٠). وإذا فشلت هذه المحاولة الفرنسية في احتلال مدينة لم تكن في الواقع ذات أهمية كبيرة بالنسبة للسيطرة على المغرب، خاصة وأنها تقع في منطقة النفوذ الاسباني حسب اتفاقات

فإن الفرنسيين عقدوا العزم على انتهاز أول فرصة مناسبة للقيام بضغوط أشد وأخطر لدفع المخزن الى تسهيل تغلغلهم بقبول اقتراحاتهم. وقد وفرت حادثة قتل طبيب فرنسي بمراكش هذه الفرصة المنتظرة.

دوافع ونتائج قتل موشان Mauchamp

لقد قيل الكثير حول أسباب مقتل الطبيب الفرنسي موشان في مارس بمدينة مراكش. وذهبت خيالات الكتاب في تفسيرها كل مذهب. عن ذلك تضارب في الروايات وتشويه للحقيقة، لا لشيء إلا لتبرير الإجراءات

الفرنسية. فهناك من رد الأسباب الى دعاية ألمانية خبيثة، وإلى تعصب مغربي أعمى، وخوف سحري من التلغراف اللاسلكي (24).

وهناك من أشار صراحة إلى توحش المغاربة وحبهم للرقص على الدماء(25)! وإذا كان القنصل الفرنسي بالصويرة والفرنسيين بالحوز، قد حاولوا إلصاق التهمة بباشا مراكش الحاج عبد السلام الورزازي(26)، فإن Deverdun اتهم خطأ كذلك مولاي احفيظ(27).

أما الرواية الرسمية المغربية فتتهم الطبيب بتعليق راية فوق منزله(28)؛ في حين أشار السليماني إلى أن العامة هاجمت الطبيب لما كان منهمكا في نصب علامات بالأزقة ورسم خرائط(29).

وهناك تأويلات معاصرة، حاولت إرجاع الدوافع الحقيقية إلى منافسات اقتصادية، وإلى معارضات مصلحية مادية لبعض التجار والصناع كما أنها لم ترفض أن تأخذ بعين الاعتبار ردود أفعال من "نوع وطني" ! وحتى مواقف تتعلق بالسحر والدين !! (30).

ودون أن نكلف أنفسنا الرد على كل هذه التسطيرات على حدة، ونبين مجانبتها للحقيقة التاريخية، فإن وضع الحادث في إطاره الزمني وظرفه التاريخي، الذي تحدثنا عنه، كاف لإظهار حقيقة الأمر. ومع ذلك فبتلخيص الوقائع سنكون قد صححنا الأحكام السالفة ونبهنا إلى الدوافع التي أدت إلى الحادث.

في أواخر 1905 قررت الحكومة الفرنسية - خدمة للنفوذ الفرنسي بالمغرب - فتح مستوصفات، اعتقادا بأن ذلك من أنجع وسائل التدخل السلمي ونشر النفوذ الفرنسي بين المغاربة(31). وهكذا فتحت مراكز طبية وأسندت إدارتها لأطباء دبلوماسيين تابعين لوزارة الخارجية في كل من الدار البيضاء (Dr. Merl) والجديدة (Dr. Guichard)، والصويرة (Dr. Blanc) ، وكذلك بالرباط والعرائش وآسفي. كما تقرر فتح مراكز مماثلة بمدن داخلية مثل فاس ومراكش وأسندت مهمة إدارة المركز الأخير "لموشان" الذي سبق له أن احتك بالبلدان الإسلامية في مصر وفلسطين والبلاد العربية(32).

إلتحق موشان بعمله في 28 أكتوبر 1905. ويبدو أن نشاط الرجل وطموحه لخدمة التغلغل الفرنسي هو الذي أقنع المسؤولين بوزارة الخارجية بتعيينه في

مدينة داخلية ذات ساكنة كثيرة ويكاد النفوذ الفرنسي يكون منعدما فيها حتى ذلك الحين. لقد كانت مهمة موشان إذن سياسية بالدرجة الأولى ولذلك استطاع كسب ثقة شخصيات معينة بين القواد والتجار والمحميين، كالمدني الكلاوي وشريف تمصلوحت.

وساعدته ظروف 1906 التي عرف فيها الحوز مجاعات وأوبئة ليزيد من اتصالاته ويقوم "بكثير من الطب وقليل من السياسة"، كما جاء في إحدى رسائله(33). لكن عواقب نشاطه بينت عكس ما ادعاه إذ كان منذ يوم وصوله لمراكش يقوم في الحقيقة بكثير من السياسة وقليل من الطب، وهذا أحد أسباب اصطدامه بالسكان.

فقد أشيع عنه أنه ليس "بطبيب ولكنه مبعوث سري للحكومة الفرنسية جاء لإنجاز مخططات وللتعرف على الأرض والتجسس بهدف غزو فرنسي قادم" (34).

كما دلت سيرة موشان، واستهانته بالعواطف الوطنية للمغاربة، على خطأ في الحكم، ونزق في التصرف، وعجرفة لا مبرر لها وليست ذات فائدة. فقد جاء في رسالة لأبيه في 4 مارس 1906 ما يلي "ومن جهتي أنا، فإنني أدافع عن مصلحتنا كلما استطعت، وأحسُّ أنه حاليا ومنذ الآن أستطيع المحافظة بواسطة هيبتي الخاصة على هيبة بلادي. إن الكل يحترمني على الأقل ظاهريا، والذين لا يفعلون ذلك احتراما يفعلونه خوفا. وسأفعل ما في وسعي ليكون ذلك عن طريق الاحترام ولكنني لن أتسامح أبدا مع أقل مخالفة" (35).

يضاف إلى ما سبق كراهية الرجل لكل معارض للتدخل الفرنسي، وهذا ما أدى إلى اصطدامه مع رجال ماء العينين خلال مرورهم بمراكش خريف 1906، وسعايته ضد باشا المدينة لدى عبد الحفيظ خليفة السلطان بها واعتقاده أنه كسب عبد الحفيظ للنفوذ الفرنسي الأمر الذي جعله يوسع نشاطه.

ففي نهاية 1906 ذهب لباريز ليتزود بمزيد من وسائل العمل، ويطلب توسيع عمل المستوصف وجلب الهدايا الكثيرة للذين أراد كسبهم للجانب الفرنسي(36). وبعد أن حصل على التأييد والمعونة اللازمة، عاد لمراكش في 12 مارس 1907 ليقتل في 19 منه !

من جملة الأدوات التي حملها موشان معه صندوق طوله 4 أمتار، قيل أنه كان يحتوي على زربية هدية لمولاي احفيظ، ولكن المغاربة اعتبروا ما بداخله أدوات للتلغراف اللاسلكي. وما دامت أوامر المخزن للسلطات المحلية تقضي بمنع

الأجانب من تركيب أي تلغراف، لأن المخزن لم يقبل ذلك رسميا، فإن الدكتور موشان بتعمده تركيب أداة، يمكن اعتبارها وسيلة للتلغراف اللاسلكي، إن لم تكن أداة له فعلا، فإنه قد بحث عن حتفه بظلفه كما يقال (37).

إن مقتل موشان، يوم 19 مارس، يرجع للأسباب التي تتعلق بسيرته والتي أشرنا إليها. كما يرجع لردود فعل المغاربة ضد أفعال التغلغل الفرنسي السافرة. ولقد جاء في تقرير L. Gentil صديق الدكتور موشان، الذي جاء معه لمراكش، ليقوم هو الآخر بمهمة لخدمة بلاده، ما يؤكد هذه المعارضة عندما أشار إلى تغير الرأي العام، عكس ما كان معروفا في السابق، بالحوز "أحسست منذ اليوم الأول بأن شيئا ما تغير، ففي اليوم الأول الذي وصلنا فيه، سمعت الناس يقولون عند مرورنا "ها هم الفرنسيون الذين جاءوا ليأخذوا المغرب، وكانت النتيجة المباشرة لذلك أنني لم أتمكن من إيجاد دار للكراء" (38).

وحول اتهام المغاربة بالتوحش، نسمح لأنفسنا بالإشارة إلى أنه في الوقت الذي قتل فيه موشان، كان وفد فرنسي يتجول بقبائل الحوز دون أذى، يرأسه الجيولوجي Brives، وقد نفى هذا الأخير، الاتهامات الباطلة ضد أحد العملاء الألمان (39). كما أكد Houel (40) نفس النتيجة، فبعد تحرياته بين السكان وجد أن "الكل يتفق على إرجاع الأسباب إلى نزعة غريبة لطبع موشان، في الاستخفاف بحساسيات الجمهور وتجاهلها"

احتلال وجدة 29 مارس 1907 :

مهما يكن فإن مقتل موشان كان بمثابة القشة التي قصمت ظهر البعير، وهكذا فحالما علمت الأوساط الاستعمارية بالحادث، انطلقت حملة دعائية مسعورة مضادة للمغرب، متهمة المخزن بالمسؤولية وداعية للعقاب وأخذ الثأر. ولذلك فبمجرد وصول الخبر لباريز في 23 مارس قرر اجتماع للحكومة الفرنسية في 25 منه احتلال مدينة وجدة مؤقتا. وأخبرت الدول الأخرى بهذا القرار تمشيا مع سياسة العنف تجاه المغاربة والليونة تجاه الرأي العام الأروبي. وفي 29 مارس تدخلت القوات الفرنسية المرابطة بالحدود واحتلت المدينة (41).

كانت مدينة وجدة في بداية القرن العشرين، لا تزال مدينة صغيرة لا يتعدى سكانها عشرة آلاف نسمة (42). ولكنها بوجودها في الحدود الجزائرية المغربية وبصمودها في وجه محاولات التغلغل الفرنسي، كانت تعتبر باستمرار، رمزا

للسيادة المغربية والاستقلال الوطني. وكان حكام المدينة يجسمون الروح الوطنية للسكان، وآخر عامل عكس الموقف المغربي الرافض للضغوط الفرنسية هو أحمد بن كروم البخاري، الذي لم تستطع سعايات Jonnart ولا Regnault ولا السلطات العسكرية بالحدود أن تنال من إرادته وصموده.

وقد أشار Paul Azan إلى صمود وجدة، ومعارضة سكانها لكل تدخل أجنبي بقوله «إن وجدة مدينة يُكره فيها المسيحي، أما العامل سي أحمد بن كروم فرغم مظاهره التصالحية فهو معادي للأروبيين، وتحكي المراسلات بين "القبطان" Mougin قائد البعثة الحدودية والحكومة العامة للجزائر والمفوضية بطنجة ألف حادث، يؤكد سوء نية وعداوة هذا الموظف المخزني»(43). كما كانت وجدة، تمثل في نظر الشعب ثغرا من الثغور المواجهة للعدو، ولذلك أثار احتلالها، ردود فعل السكان في كل جهات البلاد، وأجج روح الجهاد، والدعوة لمقاومة المحتلين. وحز في النفوس حصول الاحتلال دون مقاومة. وقد عكس السعداني (44) هذه الحالة عندما حث على الجهاد، وتغنى ببطولة الشاوية في قصيدته الوجدية الملحونة التي ردد في حربتها

يا لِيسْلامْ بْكيوْ علْى دْخُولْ وَجْدَا دُونْ حَرْبْ غْنَمْهَا لَعْدُو نَالْ لَمْرَادْ

وقد اجتهد مولاي عبد العزيز، في الحصول على جلاء الفرنسيين مهما كلفه الأمر، ومنذ سمع بالاحتلال، حاول تنظيم حركة صغيرة كلف إدريس بن يعيش بقيادتها، كما كلف معه محمد بن الحسن الحجوي، لمباشرة المفاوضات مع الفرنسيين(45). لكن هذه المحاولة لم تخرج لحيز التنفيذ، لأن الفرنسيين قدموا مطالب تعجيزية كثمن للجلاء عن المدينة، ومن هذه المطالب(46) :

- عزل باشا مراكش الحاج عبد السلام الورزازي، وإرساله لطنجة ليسجن هناك حتى ينتهي البحث في قضية موشان.
- إجراء بحث في عين المكان يقوم به قنصل فرنسا بالصويرة.
- عقاب المسؤولين عن حادث موشان، وشربوني ولاصلاص Lassalas و Gironcourt (47).
- أداء تعويض يحدده الفرنسيون.
- تنظيم البوليس حالا بالموانئ حسب ميثاق الجزيرة.
- تنفيذ اتفاقيات 1901-1902.
- حل جميع الدعاوي الفرنسية المعلقة.
- التبرؤ من مولاي إدريس، واستدعائه حالا حتى لا يستمر في إثارة المقاومة

ضد الفرنسيين بأدرار وشنقيط.

- إيقاف إرسال الأسلحة لماء العينين والقبائل الصحراوية، وحجز الأسلحة الموجهة لهم.

وفي جواب المخزن على هذه المطالب، حاول وزير الخارجية عبد الكريم بن سليمان أن يخفف منها، بحيث أكد على حزن السلطان لما حدث بوجدة، وإن المخزن لم يكن يظن أن تعمد الحكومة الفرنسية لمثل ذلك التصرف(48). لكن إصرار الفرنسيين على قبول جميع مطالبهم، وتهديدهم باستخدام القوة، وأملا في جلائهم عن مدينة وجدة، كل ذلك، جعل المخزن يقبل جميع المطالب المذكورة، باستثناء تحفظ حول إرسال الحاج عبد السلام الورزازي لطنجة لكونه مريضا.

إن قبول هذه المطالب القاسية، مثّل إهانة كبيرة للمخزن في نظر الشعب، الأمر الذي حث ردود فعل السكان بالحوز خاصة، حيث انتشر القلق والاضطراب بمراكش والصويرة. وعبر سكان مراكش وخاصة قبائل الرحامنة عن رفضهم لعزل باشا المدينة، وصمموا على منع الباشا الجديد قدور بن الغازي البخاري من الالتحاق بمراكش، فاضطر للبقاء بآسفي حتى عاد منها لطنجة(49).

ويبدو أن مولاي عبد العزيز كان مصمما على إخراج الفرنسيين من وجدة مهما كانت التنازلات، ولكنه، في الوقت نفسه، كان عاجزا عن تنفيذ جميع المطالب الفرنسية بسبب المعارضة الشعبية. وقد ضاعف الفرنسيون من ضغوطهم لاستغلال ذلك العجز وتعميقه. وخوفا من استغلال الفرنسيين لردود فعل السكان، نجد السلطان يكتب رسائل لقبائل الحوز ومدنه(50)، يشرح فيها الحالة التي تمر بها البلاد، وأسباب احتلال وجدة. فأكد على أن الاحتلال حدث بسبب قتل سكان مراكش الطبيب الفرنسي، الذي أقدم على تعليق راية بلاده فوق منزله. ورغم أن «الشروط تمنعه من فعل ذلك» - يقول السلطان - فقد كان على السكان، أن يرفعوا الأمر للمخزن، ولا يتسببوا فيما حدث، دون أن ينظروا إلى ما يكابده السلطان من "حسن المهادنة وسياسة الدفاع"(51). وأشار السلطان إلى أن فرنسا قد طالبت بمطالب وتعويضات، نتيجة للحوادث التي تعرض لها الفرنسيون، وأن المخزن جاد في فصال القضية، وإخراج جيش الفرنسيين من وجدة. وفي الأخير، أمر السلطات المحلية والسكان بعدم التشوش وعدم مد اليد في الأجانب "خشية التورط" في مثل ما حدث، "لأننا - يقول السلطان - لا نألوا جهدا في صيانتكم والدفاع عنكم بأموالنا ورجالنا بحول الله، حالا واستقبالا"(52).

وهكذا يسارع السلطان إلى تهدئة النفوس، حتى لا يجد المحتلون ذريعة أخرى لتنفيذ ما يبيتونه ضد استقلال وسيادة المغرب.

ولكن الشعب أخذ يتحفز للجهاد لأنه يعرف العجز الذي أصبح فيه المخزن، وحجم تغلغل الفرنسيين، والأطماع التي أسفر عنها تصرفهم في البلاد، وتهديد أساطيلهم لسواحلها.

وقد أشار "بريف" Brives، الذي كان في هذه الأثناء بالحوز، يقوم بأبحاث جيولوجية، إلى موقف الرأي العام بالحوز وعدائه للفرنسيين بسبب احتلال وجدة. كما أشار لرسائل السلطان للسكان وخاصة بالصويرة فقال "إن الشعور الوطني قد استيقظ نتيجة لرسالة السلطان، فاختفت الصراعات الداخلية وكل الحزازات اتجهت ضد الفرنسيين"(53).

ومما بين غضب السكان، أن قبائل الرحامنة أنذرت مولاي احفيظ بإبعاد الأروبيين من مراكش، وفعلا غادر الأجانب المدينة نحو الساحل حيث وصلوا آسفي في منتصف ماي باستثناء الجالية الألمانية(54). وردا على هذه التطورات، جاء الأسطول الفرنسي للسواحل المغربية وشرع في مراقبة الساحل المغربي من طنجة إلى الصويرة(55). وفي الوقت نفسه سخنت الصحافة الاستعمارية طبولها، ووحدت ضغطها على المغرب. وقد علق الدكتور "روزن" Rozen، المفوض الألماني بطنجة على هذه الحملة بقوله

ان قتل الطبيب والعميل السياسي الفرنسي موشان، قد استغل بكيفية تشرف موهبة الإخراج الدرامي لجيراننا، لقد اغتيل موشان يوم 19 مارس، وإلى اليوم (25 ماي 1907) لا يمكن للمرء أن يقرأ عددا من جريدة La depêche marocaine أو صحيفة من نفس النوع دون أن يلتقي بمسألة الجنازة المتجددة للدكتور موشان"(56).

ولا جدال في أن هذه الحملة المضادة للمغرب كانت تهدف إلى تحقيق غايتين

الأولى تبرير الاعتداء الفرنسي على المغرب أمام الرأي العام الدولي لإبقاء الاحتلال بوجدة. ولذلك كان الفرنسيون يرددون باستمرار بأن الاحتلال مؤقت ومشروط بتنفيذ المطالب الفرنسية.

الثانية الابقاء على استنفار الرأي العام الفرنسي داخل فرنسا وفي المغرب، وتهييئه لتقبل مزيد من الاعتداءات على استقلال المغرب، وفي الوقت نفسه ممارسة مزيد من الابتزاز ضد المخزن والسلطان.

هوامش الفصل الرابع

1) ـ بهذا الصدد تراجع المؤلفات الآتية

Gabriel Maura, La question marocaine au point de vue Espagnol, Paris, 1911.

E. Aubin, " Le maroc d'Aujourd'hui", Paris. 1904.

Wesgerbe (Dr) 'Trois Mois de compagne au Maroc", Paris; 1904.

S. Aulaire, "Confessions d'un vieux diplomate",

E. Doutte, "Marrakech", op. Cit.

وكذلك ما كتب في نشرة لجنة إفريقيا الفرنسية عن المجتمع المغربي.

2) ـ زيادة على المصادر السابقة يقارن ما جاء في:

H. Guillemin, Biographie du Dr E. Mauchamps" E. Bertrand, 1910.

وللتعرف على المزيد من الأحكام الخاطئة في حق المجتمع المغربي تراجع الدراسات التاريخة لجرمان عياش في

G. Ayache, "Etudes d'histoire marocaine", SMER, Rabat 1979.

3) ـ عين وزيرا مفوضا خلفا لسان روني طايندي في يوليوز 1906، كان أحد المساعدين لبول كامبون منذ الأيام الأولى للحماية الفرنسية بتونس. كان على اتصال بالشؤون المغربية منذ عين سنة 1904 مندوبا لحاملي أسهم اقتراض 5٪ 1904.
شارك ضمن الوفد الفرسي في الجزيرة، يعتبر رينيو من دعاة ممارسة مزيد من الضغط على المغرب، ويدخل تعيينه في إطار سياسة الضغط المتوالى على المخزن حتى يرغم على قبول الهيمنة الفرنسية. فقد صرح في الأيام الأولى لتعينيه "إنني لا أظن أننا سنكسب شيئا في هذه الظروف، بواسطة صبر يستمر مدة طويلة"

D.D.F. Aff. M.T. III Tanger Paris 28-8 1906.

4) ـ تولى C. Jonnart (1857-1927) حكم الجزائر ثلاث مرات : (1900-1901) و (1903-1911) و(1918-1919). كان من أقطاب سياسة التغلغل النشيط وأنصار استخدام القوة ضد المغرب. وقد شجع عناصر الفتنة بالحدود كسبيل لإضعاف المخزن، حيث منح تأييده للطيب ولد بوعمامة، وشجع التعامل مع بوحمارة، وأعطى الحرية الكاملة لتحركات الجيش الفرنسي بالحدود مما أدى إلى توتر العلاقات المغربيةالفرنسية، وقد تعرض للهجوم عندما حاول زيارة منطقة فكيك.

5) ـ الطريس لابن سليمان، خ.ع.ك. 2720 ص 122.

6) ـ الطريس لابن سليمان 5 ربيع II 1324 / 29 ماي 1906 خ.ع.ك. 2720 ص 123.

7) ـ "وعززته بالمرانطي ومن معه للوقوف في فصل هذه القضية عاجلا، وأنه يشير بأن يسهل جانب المخزن ذلك بالتعجيل به حتى لا تلجأ الدولة الى ارتكاب ما يكدر الخواطر"
الطريس لابن سليمان 16 ربيع II 9 يونيو 1906، ك. 2720 ص 127.

8) ـ نفس الرسالة.

9) ـ نفسها.

10) ـ الطريس للسلطان 12 جمادى الأولى 1324 / 4 يوليوز 1906.
Cf. Henri Cambon, Histoire du Maroc, 1952, p. 176.
وكتب الطريس في نفس التاريخ لوزير الخارجية ابن سليمان يشرح له كيف اضطر لقبول مطالب السفير الفرنسي. ك.ح.ع. ك. 2720، ص. 139-140

11) ـ يظهر أن سياسة مولاي عبد العزيز وردود فعله تجاه كبار موظفيه، والتي تميزت باللين والتسامح كانت لها عواقب سلبية على فعالية المخزن وعدم حسمه في أمور عديدة، بينت مدى التواكل والعجز.
عن تصرف عبد العزيز مع موظفيه أنظر ؛ الحجوي، "الرحلة الوجدية"

12) ـ مساحة البقعة التي سلمها النائب للسفير الفرنسي =(16م x 16م)= 256م 2.

13) ـ السلطان للطريس 24 جمادى الأولى 1326 / 16 يوليوز 1906.

Voir Allouche, Documents relatifs à Raisouni, Hesperis; 1951-doc, N° 11.

14) ـ قارن على سبيل المثال ما جرى بسبب تعرض أحد عملاء "الكمبانية المغربية" بالحوز المسمى لاصلاص Lassalas لجرح بسيط، خلال محاولته توسيع مشاريع شركته على حساب السكان. ودون أن يأبه بالسلطات المحلية عندما حاول التعامل مع بعض المشبوهين بقبيلة تكنة.
فنتيجة لجرح بسيط، طالب Regnault بتعويض قدره 25.000 فرنك وعزل قائد القبيلة، وكذلك عزل باشا مراكش عبد السلام الورزازي الذي اشتهر بمعارضة الفرنسيين.
راجع كناش خ.ع.د. 1695 مخطوط، رسالة السلطان لخليفته عبد الحفيظ، 20 قعدة 1324 / 5 يناير 1907، ص 73 و 115
E. Doutte "En tribu", Geuthmer, Paris, 1914, PP 338-339.
Brives A., "Voyages au Maroc 1901-1908", Alger, 1909, P. 378.

وعن نشاط لاصلاص Lassalas أنظر P. Pascon, "le Haouz", T2 p. 425 et suite عن

فصال القضية أنظر و.خ.ح.، محفظة 431/ 1 وكناش خ.ح. 568
"دعوى المسيو لاصلاص الفرنسوي واجبها 25.000 فرنك مع عزل قائد تكنة، والسيد عبد السلام الورزازي وسجن الهاجمين ورد أموال المحجوب. المخزن أجاب عن القضية بأنه قد كلف نائبه الحاج محمد الطريس بمباشرة الكلام معنا في القضية.
تفاصلت بطنجة بخمسة وعشرين ألف من الفرنك مع عزل القائد ورد مانهب لصاحبه المحجوب"
وقد ذكر Brives أن مولاي احفيظ أكل القبيلة نتيجة للحادث، حتى أن السكان بدأوا يتندرون ويقولون "إن الأرويي أصبح شيئا سهل الكسر وغاليا، فيكون من الأفيد الابتعاد منه خوفا من كسره بدون الانتباه إليه"!

15) -

Brives, op, cit., P. 370
Lyautey, Vers le maroc; Lettres du sud Oranais,
paris, 1937.

16) - الطريس لابن سليمان "فقد كنا أعلمناكم بأننا كتبنا للفرنصيص بما تكتبه جريدتا الدبيش والسعادة من الأخبار الكاذبة المضرة، وطلبنامنه كفهما عن ذلك. والآن قد أجاب بما توافيكم نسخة منه لتكونون منه على بال وتطلعوا به شريف العلم أسماه الله"
14 رمضان 1324 / 1 نوفمبر 1906، خ.ع.ك. 2720، ص 204.

17) - الطريس لابن سليمان 10 رمضان 1324 / 28 أكتوبر 1906، نفس المرجع ص 199

18) - عن علاقة الريسوني بالأجانب في هذا الوقت تراجع المراسلات الموجودة في
A.E.P., Maroc, NS. T. 186.
كما تراجع الوثائق المشار إليها أعلاه هامش 13

Cf aussi - A. Tardieu, "La conférence d'Algésiras" P. 431-435.
G. Ayache, "Les origines de la guerre du Rif", SMER, Rabat, 981-PP.257-258.

19) - في الواقع لم يكن الأجانب بطنجة معرضين لأي تهديد فعلي، لكن الأمر يتعلق فقط في كون الريسوني كان يطبق عدالته على المغاربة والأجانب. وكان خليفته بطنجة بنمنصور، يلقي القبض على كل متهم، سواء كان مغربيا أو أجنبيا أو محميا. كما كان يعارض في تنفيذ ما يطالب به ويأمر به المفوض الفرنسي، على عكس السلطات المخزنية بالمدينة. وقد قلق الفرنسيون من ذلك وتخوفوا من انحطاط هيبتهم، لذلك أكثروا من التهديد والوعيد، ليجبروا المخزن على التصرف أو على انتدابهم. ولإظهار عجز المخزن كذلك.
ويمكن التعرف على واقع الحالة في طنجة في هذه الأثناء بالذات في تقرير سري محفوظ بوثائق الحربية الفرنسية كتب في دجنبر 1906 أي خلال الفترة المتحدث عنها.

"Coup d'oeil d'ensemble sur la situation à Tanger au 1er Décembre 1906 - 1906", 18 Pages, A.M.V. BB4 2505.

نسخة خاصة مصورة عن النسخة الخطية الأصلية.
ـ أنظر رسائل الطريس يحذر فيها الأجانب من إثارة الاضطراب والفوضى ورفض الهيئة الدبلوماسية لهذا التحذير. ثلاث رسائل 25-26-29 محرم 1325 / 10-11-14 مارس 1907 و 207-210 .DDF. Affaires du Maroc, T.III, 1907, p.

20) ـ الطريس لابن سليمان "فليكن في علمك أنه ورد ليلته تلغراف رسمي على جماعة النواب هنا من مدريد بأن الميرانطي (الاميرال) طوشار الفرنساوي اجتمع مع كبراء الدولة بإسبانيا وعملوا سكلارا لجميع الدول بأن فرنسا وإسبانيا توافقتا على النزول بطنجة." 21 شوال 1324 / 8 دجنبر 1906، خ.ع.ك. 2720، ص.

\. Tardieu. op Cit. p. 434.
\f. 1907, RC. P 312.

21) ـ رسالة السلطان للريسوني

\llouche, op, Cit, documents. N° 22.
\F. 1906, N° 11 1907 N 1 3.

وكذلك تقارير الأميرال طوشار Touchard عن أحداث طنجة والريسوني ومحلة الجباص من 7 نونبر 1906 إلى 14 فبراير 1907 في وثائق البحرية الفرنسية A.M.V BB.4 2602

22) ـ قام الجباص بتخريب كثير من القرى والمداشر وصادر أموال السكان ببني مصور وبني يدر... .AF. 1907 pp. 62-63.

23) ـ عن محاولات المخزن لمقاومة بوحمارة والتدخل الأجنبي بالمغرب الشرقي، يراجع ك.خ.ع. رقم 2720 و ك. 2721.

24) ـ هذه هي أطروحة البعثة الفرنسية بطنجة، التي رددتها نشرة لجنة إفريقيا ومراسلات Regnault مع وزارة الخارجية، ورددها سان أولير في اعترافاته، ص 122.
أنظر كذلك

Maurice de perigny, "Au Maroc, Marrakech et les ports du sud " Paris s.d. PP, 37-39.

25) ـ هذا ما نجده في الرواية التي نشرتها حكومة الجزائر العامة، ورددها صاحب ترجمة حياة موشان.

- (26 Guillemin (H); op, Cit, PP, 97 - 98.
A. E. P. M. NS. T 42 - P. 26.

- (27 DEVERDU, Marrakech des origi nes Rabat, 1959. P. 546.

28) - رسائل السلطان إلى بعض القبائل والمدن، أنظر رسالة لعبد الرحمان بركاش باشا الصويرة، نهليل، "رسائل شريفة"، لوحة CXIV.

- رسالة لبني مسكين نسخة خاصة.

29) - زبدة التاريخ وزهرة الشماريخ، الجزء الثاني، ص 368-369.

- (30 Paul Pascon, le Haouz de Marrakech, T II, P 441.

(31 A. G. V., 3H. 3H 15, "Confidentiel, A.S. de la situation de l'influence Française au Maroc, Janvier 1905".

- (32 Henri Cambon, 1952, P, 180-181.
René Gruchet, "La Conquête pacifique du maroc", 2éd. 1930. P. 59.

عن دور الأطباء الدبلوماسيين وخلفية أحكامهم على المغاربة تراجع مقدمة مؤلف الدكتور Mauran الذي عمل بالرباط مدة

Dr. Mauran, Le Maroc d'Aujourd'hui et de demain", paris, 1906-P.VIII - IX.

Guillemin, Biographie, op Cit p, 79.

Ibid. pp. 52-53 - (33

Ibid. p. 62 - (34

ولا حاجة للتذكير بأن موشان كان يعتمد في تخويفه وتصرفه على سياسة المفوضية الفرنسية بطنجة التي أشرنا إليها أعلاه. ونظرة واحدة على رسائله لأبيه وأصدقائه تكفي للتعرف على مبالغته في الاعتماد على التخويف مما خلق له كثيرا من الأعداء وليس الأصدقاء "إن علي - يقول موشان - أن أواجه بوسائلي الخاصة العداوة المدبرة بذكاء من طرف الأهالي والمخزن" ثم إنه يصف البربر والعرب بالتوحش أنظر ص 70.

35) - ذكر A. Julien أن موشان كان يساند دعايته في أوساط الأعيان بمنح الهدايا الكثيرة وكان يكتب عليها "من لدن اللجنة الفرنسية لأصدقاء المغرب"

36) -"Le Maroc face aux imperialismes", p. 97
R. Cruchet; op. cit. p. 56-57.

37) - كان إذن تعليق هذه الأداة هو الذي بين حقيقة تحدي موشان للمغاربة الذين أمروه بإزالتها ثم هاجمه الأطفال بالحجارة وقتل بعد ذلك.

38) -
AF, 1907, P, 130 et suite.
D. D. F. A.M. T III 1907, PP. 229-237.

39) - Brives, "Voyages", op, cit., P 414.

40) - C. Houel, "Mes aventures marocaines" P, 57-58.

41) - أنظر تقرير عن وضعية وجدة السياسية والاقتصادية بعد الاحتلال بعثه Trouin نائب وهران في ماي 1907 إلى وزارة الخارجية الفرنسية.

42) -
A. E. P. NS, M, T 42, P 67 - et suite.
D. D. F. TIII 1907, PP 193-194.

43) - Paul Azan, "La frontière Algéro-Marocaine au Début de 1907", Paris 1907 P 5.

أنظر عن وجدة وناحيتها

Bulletin trimestrielle de la societé de géo. arch. Oran, Sept, 1911, PP. 238-290.

44) - هاشم السعداني، قصيدة وجدية أرجوزة مطبوعة على الحجر ضمن مجموع، فاس 1328.

45) - الحجوي، الرحلة الوجدية، م خ ع ح 123، ص 104.

16) - D.D.F. A.M. .....T. III 1907, p.199.

17) - تعرض الفرنسي Gironcourt للشتم بفاس في 8 مارس 1907، من طرف الجمهور

48) - أنظر رد ابن سليمان 18 صفر 1325 / 2 أبريل 1907

D.D.F. A.M. T. III, 1907, pp. 212-214

49) كان قدور بن الغازي باشا على طنجة، وقبلها كان متوليا باشوية تطوان من 1319-1324هـ.

أنظر عنه محمد داوود تاريخ تطوان جـ 7 الفصل الأول.

مختصر تاريخ تطوان، جـ 2 ص 220.

عن معارضة الرحامنة أنظر

A. F. 1907 P 228-229.
A. E. P. M. NS. T 42, P. 46. tanger Paris, 24 Mai, 1907.

إن هذه الروح الجهادية التي انتشرت بالحوز كله، لا يمكن فصلها عما حدث في 1906 كنتيجة لقرارات الجزيرة.

50) - رسالة إلى عبد الرحمان بركاش وسكان الصويرة، 18 صفر 1325 / 2 أبريل 1907 نهليل لوحة CXIV.

وأخرى لبني مسكين 19 صفر 1325 / 3 أبريل 1907 و خ ح

51) - نفسها.

52) - نفس الرسالة.

53) - Brive. Voyages op. p. 413.

54) - إن هذا الحادث بليغ في دلالته على العداوة الشعبية للتدخل الفرنسي.
A.F. 1907, p.229.

55) - راجع تهديد رينيو للطريس، ورسالة وزير خارجية فرنسا إلى رينيو حول استعداد الأسطول بالمياه الإقليمية المغربية.

D. D. Aff. M, 1907. T 3 P 194.

56)
Cite par, Djamal Guenane, "Les relations Franco-Allemandes et les affaire. marocaines, de 1901 à 1911" Alger, 1975. P 201.

الباب الثاني

قبائل الشاوية والتدخل الأروبي

1907 - 1873

الفصل الخامس

البيئة والسكان

سيكون أمرا معادا، تفصيل الحديث عن طبيعة الشاوية، من حيث تضاريسها ومناخها، ومورفولوجيتها ومسالكها، لأن هذه المواضيع مفصلة في الدراسات الجغرافية وفي بعض المنوغرافيات التي اهتمت بالمنطقة(1).

لكن من الضروري للباحث في المجتمع الشاوي، أن لا ينسى الإشارة إلى تحديد موقع الإقليم وإلى أهمية هذا الموقع، وبعض مميزاته الطبيعية التي كان لها انعكاس على نشاط السكان، وعلى علاقاتهم بالحكم المركزي وبالقوى الخارجية منذ قرون موغلة في القدم.

أولا حدود إقليم الشاوية وأهمية موقعه

أ. تامسنا كانت منطقة الشاوية اليوم تسمى تامسنا، وقد ذكر ابن الخطيب أن تامسنا كلمة بربرية، من لهجة زناتة، تعنى البسيط الخالي(2).

وحاول De Chenier أن يجد لهذه الكلمة اشتقاقا من الكلمة العربية "تمام سنة" أو "تام - سنة" (Tem Sena) التي تعني عنده - أنه يكفي المستقر بالإقليم سنة واحدة ليشعر بالارتياح، نظرا لسلامة مناخه وغنى تربته(3).

وواضح أن هذا الاستنتاج "الطبونيمي" لا يعول عليه كثيرا، لأن اسم تامسنا كان موجودا قبل مجيء القبائل العربية إليه.

أما حدود إقليم تامسنا، فهي حسب "شينيي" Chenier كانت "تمتد من وادي الشراط إلى أم الربيع، ويحده شرقا تادلا والشاوية "Chavoya"، وإقليم بني حسن في الشمال، والبحر المحيط في الغرب، وإقليم دكالة في الجنوب، وهو إقليم غني وغزير الإنتاج، ومنتجاته مغذية جدا وذات مذاق جيد(4).

إن هذا التحديد، الذي أورده شينيي، الذي زار المنطقة، وتلقى معلوماته من سكانها(5)، يظهر أكثر دقة، من التحديد الذي ذكره الحسن الوزان قبله، فقد عرّف هذا الأخير، حدود تامسنا بقوله " تامسنا إقليم تابع لمملكة فاس، يبتدئ غربا من نهر أم الربيع، وينتهي شرقا إلى أبي رقراق، وجنوبا إلى الأطلس، وشمالا إلى شواطئ البحر المحيط"(6).

ويعطي ابن خلدون تحديدا عاما للإقليم بقوله

" تامسنا البسيط الأفيح، ما بين سلا ومراكش أوسط بلاد المغرب الأقصى وأبعدها عن الثنايا المفضية إلى القفار"(7).

ويظهر من كل هذه التحديدات لموقع تامسنا، أن إقليم تامسنا كان يشمل البلدان الممتدة من وادي أبي رقراق في الشمال الشرقي إلى وادي أم الربيع في الجنوب الغربي ومن المحيط الأطلسي إلى بلاد تادلا.

ويبدو أن هذا التحديد ظل جاريا به العمل من الناحية الإدارية إلى عهد سيدي محمد بن عبد الله على الأقل، (8) وإلى نهاية القرن الثامن عشر على الأكثر(9). وبعد ذلك أصبحت تامسنا تعني إقليم الشاوية اليوم، المحدود بين قبائل زعير في الشمال الشرقي وإقليم تادلا في الجنوب الشرقي والرحامنة ودكالة في الجنوب الغربي، ثم المحيط الأطلسي في الشمال الغربي.

يتميز إقليم الشاوية بالطابع السهلي المنبسط. لكن أراضيه تبدأ في الارتفاع كلما توغل المسافر من البحر نحو الداخل في الاتجاه الجنوبي الشرقي والشمال الشرقي. وفي هذا الاتجاه، تحل الهضاب المتقطعة، محل السهول الممتدة، وتكثر المنحدرات والأودية التي تكسوها الغابات، كغابة الزيايدة في الشمال وغابة المذاكرة والأعشاش في الشرق. وقد وفرت هذه المناطق المنحدرة ذات الأودية المتعمقة، على الدوام، ملاجئ آمنة كان سكان تامسنا والشاوية يعيدون فيها تنظيم أنفسهم، لمقاومة أعدائهم والصمود في وجه الغزاة! كما حدث ذلك عندما تمكنت برغواطة، من الصمود في وجه كل من الأدارسة، ومغراوة، وبني يفرن، والمرابطين. وعندما تمكنت قبائل الشاوية، وخاصة المذاكرة وأولاد امحمد،

من الصمود في وجه جيش الاحتلال الفرنسي، كما سنفصل ذلك عند التعرض لجهاد الشاوية ضد الاحتلال الفرنسي.

ب **أهمية الموقع** أما أهمية موقع الشاوية، فتنبع من انتمائه للسهول الساحلية الوسطى، ولتفتحه على المحيط الأطلسي، وسهولة الاتصال النسبية بشواطئه، حيث نظمت هذا الاتصال فرض طبيعية منذ أقدم العصور إلى الآن كأنفا وفضالة.

يتوسط إقليم الشاوية إقليمين هامين، هما الحوز والغرب، ويقع بين عاصمتين تقليديتين للمغرب، هما مراكش وفاس. لكل ذلك ونظرا لخصوبة سهول الشاوية، وسهولة مسالكها، فإنها مثلت على الدوام، مسلكا طبيعيا، لتنقلات المخزن بين شمال البلاد وجنوبها. وإذا أظيفت إلى هذه الأهمية الطبيعية، أهمية البلاد الاقتصادية والبشرية، فإن بلاد الشاوية تعتبر بحق، إقليما مثاليا، مثل منذ بداية الدولة المغربية ركيزة هامة في أسس بناء تلك الدولة. وقد كانت هذه الحقيقة غير غائبة - بالتأكيد - عن أنظار موجهي الاستعمار الفرنسي بشمال إفريقيا في بداية القرن العشرين، عندما ركزوا أطماعهم في هذا الإقليم الخصب من المغرب.

ثانيا : أصول قبائل الشاوية وتقسيماتها

1. الأصول

أ. برغواطة لقد اشتهرت قبائل برغواطة (10) المصمودية الأصل، بتعميرها لتامسنا. وقد تمكنت هذه القبائل من تأسيس كيان مستقل بها في صدر الإسلام. وظل هذا الكيان قائما رغم تعدد صراع برغواطة مع جيرانها، إلى أن حطمها المرابطون(11)، وقضى عليها الموحدون نهائيا(12).

ويظهر أن موقع تامسنا وطبيعة أرضها، سهلت لبرغواطة أن تتبوأ مكانة القوة والصدارة بين القوى السياسية والمذهبية إبان الثورة الخارجية على ولاة الأمويين(13). فقد عرف عن البرغواطيين، أنهم اتخذوا مذهبا دينيا جديدا يبتعد عن المذهب السني ويقترب من المذهب الخارجي، بل يتهم المؤرخون أحد زعماء برغواطة بالتنبؤ وهو صالح بن طريف(14). ولا شك أن هذا الأساس الروحي، الذي انضاف إلى إمكانيات الإقليم الإقتصادية كان من بين عوامل قوة برغواطة، التي استطاعت الصمود في الصراع الذي نشب بينها وبين الأدارسة ومغراوة وبني يفرن والأمويين(15).

لكن المرابطين ألحوا على إخضاع البرغواطيين، وتمكنوا من تحطيم قوتهم، فتفرقوا وتشتتوا. ومنذ تم لعبد المومن الموحدي سحق ما تبقى من البرغواطيين في 1118/542(16)، لم يعد هناك ذكر للبرغواطيين ببلاد تامسنا، التي أصبحت فارغة من سكانها، ولم تبق فيها إلا أطلال دارسة لمدن وحصون كان لها ازدهار ومجد غابران.

وقد تعرضت بلاد تامسنا بعد ذلك لهجرات وافدة، وعمليات تهجير لسكانها، بحيث تختلف الآراء حول أصول سكان الشاوية اليوم، وتتضارب الأقوال.

وإذا كنا لسنا بصدد التوسع في مناقشة تلك الأصول، فمن الجدير بالذكر، أن بلاد الشاوية، كانت ضمن المجال الذي تعمره قبائل مصمودية مستقرة. يشهد على ذلك ما ذكره الحسن الوزان من أن تامسنا كانت تضم أكثر من 40 مدينة و300 حصن(17). وما أكده ابن خلدون من أن مواقع المصامدة كانت تمتد على طول الساحل الأطلسي إلى حدود سبتة(18).

ب. القبائل العربية

في 1188/580، جلب يعقوب المنصور الموحدي عدة قبائل عربية من جشم وبني هلال، يقول ابن خلدون بهذا الصدد "ثم كانت فتنة ابن غانية فأجلبوا فيها وانحرفوا عن الموحدين، وراجعوا الطاعة لعهد المنصور، فنقل جمهور هؤلاء القبائل إلى المغرب، ممن له كثرة وشوكة وضواعن ناجعة، فنقل العاصم ومقدم من بطون الأثبج [...] ونقل جشم هؤلاء الذين غلب اسمهم على من معهم من الأحياء وأنزلهم تامسنا"(19).

ويحدّد الناصري اعتمادا على ابن خلدون، أصل هذه القبائل، في قبيلة مضر العربية، ويقول "وأما بنو جشم أصحاب تامسنا فإن المنصور لما نقلهم إليها نقل معهم قبائل أخرى كانوا قد قاتلوه معهم ولم يكونوا من نسبهم، ولكنهم كانوا مندرجين فيهم، فكان يطلق على الجميع جشم، وهؤلاء القبائل، هم المقدم والعاصم من بني هلال بن عامر، ثم من أثبج منهم وقرة من بني هلال أيضا، والخلط من بني عقيل بن كعب بن ربيعة"(20).

وعن الخلط يقول "وأما الخلط فقد كانوا ببسيط تامسنا أولي عدد وقوة..."(21).

جـ زناتة وهوارة

لكن هذه القبائل العربية لم تستقر نهائيا بدورها في تامسنا، بل نجد بعضها يتحول نحو الشرق لتادلا (كبني جابر)، وبعضها الآخر نحو الشمال لسهول الغرب (الخلط وسفيان)، ويشتّت بعضها الآخر لتحل محله قبائل زناتية منذ عهد يعقوب بن عبد الحق المريني (1258-1286م). ويؤكد الحسن الوزان، أن المرينيين طردوا القبائل العربية من إقليم تامسنا، "وأعطوه لقبائل زناتة وهوارة جزاء لما لقوه منهم من مناصرة، لأنهم كانوا جميعا يؤازرونهم ضد ملوك مراكش الموحدين. وهكذا أصبح الزناتيون والهواريون يتصرفون في هذا الإقليم وتكاثروا فيه" (22).

د. معنى الشاوية

أما إسم الشاوية، فيظهر أنه كان يطلق على بعض الفرق التي كانت تتعاطى رعي ماشية السلطان. فقد أشار الناصري نقلا عن ابن خلدون، إلى أن "الشاوية من ولد حسان بن أبي سعيد الصبيحي، نسبة إلى صبيح بالتصغير، بطن من بطون سويد، وسويد إحدى قبائل بني مالك بن زغبة الهلاليين. وكان دخول حسان وأخيه موسى بن أبي سعيد إلى المغرب الأقصى أيام السلطان يعقوب بن عبد الحق" وإنهم - أي الشاوية - كانوا "يتصرفون في الدولة على ما كان لسلفهم من ولاية الشاوية، والنظر في رواحل السلطان والظهر الذي يحمل من الإبل" (23).

وإذا كان هذا النص يحدد أصل الشاوية هنا في العنصر العربي، فإنه يوضح لنا أمرا آخر، وهو أن يعقوب بن عبد الحق المريني، لم ينقل لتامسنا قبائل زناتية وهوارية فقط، بل نقل معها، قبائل عربية أخرى، زيادة على ما كان بها من قبائل نقلت من المغرب الأدنى (تونس) زمن يعقوب المنصور الموحدي.

ويوضح ابن الأعرج هذه الحقيقة بقوله "وفي سنة ست وسبعين وستمائة، أيام يعقوب بن عبد الحق المريني أنزل بها قبيلة الشاوية، قدموا من المغرب الأوسط، أما عربهم، فمن سويد الهلاليين، وأما زناتة، فمن مغراوة ومزاب وكتامة الأباضيين، وانضاف إليهم من الوطنيين والبربر خلق كثير، وأطلق على الجميع إسم الشاوية لقيامهم على رعاية شاة السلطان وإبله" (24).

ومن الجدير بالملاحظة في هذا الباب، أن "شينيي" ذكر في تحديده لموقع تامسنا - كما أشرنا سابقا - أنها تحد شرقا بإقليم سماه - Chavoya - أي الشاوية.

وإذا صح هذا، فإن الفرق القبلية التي كان يطلق عليها الشاوية، لم تكن مستقرة في البداية في سهول الشاوية اليوم، وإنما كانت توجد بالهضاب والسهوب الداخلية في اتجاه تادلا.

ويغلب على الظن، أن إسم الشاوية تعمم، في عهود لاحقة لاستقرار القبائل العربية والزناتية، في سهول تامسنا وسهوب تادلا، على سكان سهول الشاوية اليوم، عندما زحف الرحل الباحثون عن المرعى، نحو السهول الساحلية الرطبة غربا واختلطوا مع سكان السهول فغلب على الجميع إسم الشاوية(25).

وبالجملة، فإن أحدا لا يستطيع اليوم، أن يجزم بمعرفة الأصول الحقيقية لاتحادية الشاوية. لأن تلك القبائل، اختلطت أصولها العربية بالأصول البربرية، كما هو شأن معظم قبائل المغرب، وامتزجت عناصرها لتكون في النهاية قبيلة كبيرة، زادها الموقع الجغرافي تماسكا وتجانسا واضحين، منذ عهود زمنية قديمة. وصهرتها عوامل تاريخية، وإقتصادية، وعسكرية وسياسية. وقد عبر أحمد بن خالد الناصري عن هذه الحقيقة، عندما قال في أواخر القرن الماضي "واعلم أن الشاوية اليوم (القرن 19)، يطلقون على سكان تامسنا من قبائل شتى، بعضها عرب وبعضها زناتة وبربر، غير أن لسان الجميع عربي. وكان أصل جمهورهم من هؤلاء الذين ذكر ابن خلدون، ثم انضافت إليهم قبائل أخرى، واختلطوا بهم، فأطلق على الجميع شاوية تغليبا. وهكذا وقع في سائر عرب المغرب الأقصى الموطنين بتلوله، فإنهم وقع فيهم اختلاط كبير حتى نسوا أنسابهم وأصولهم الأولى إلا في النادر، وذلك بسبب تعاقب الأعصار، وتناسخ الأجيال، وتوالى المجاعات والإنتجاعات، ووقعات الملوك بهم في كثير من الأحيان، وتفريق بعضهم من بعض ونقل بعضهم إلى بلاد بعض"(26).

2. تقسيمات قبائل الشاوية خلال القرن 19

يبدو أن تكوين اتحادية الشاوية لم يطرأ عليه أي تغيير يذكر منذ القرن الثامن عشر، وإن كان توزيعها قد خضع للتحوير تبعا لعوامل إدارية وجبائية.

تشير بعض المصادر إلى أن الشاوية كانت تتوزع إلى ثلاث مجموعات كبرى هي

أ. أولاد بورْزَك وتضم قبائل المزامرة، وگدانة، وأولاد سعيد، وأولاد بوزيري، وأولاد سيدي بنداوود ثم زناتة.

ب أولاد بوعطية وتضم المزاب والمذاكرة وأولاد حريز.

جـ الشّهاونة وتشمل مديونة وأولاد زيان والزيايدة.

وتضيف هذه المصادر، أن الشاوية كانت موزعة إلى 100 دوار، موزعة بدورها على المجموعات الثلاث كالآتي

1. أولاد بورزك، يمثلون النصف أي 50 دوارا.
2. أولاد بوعطية يمثلون الربع 25 دوارا.
3. الشهاونة يمثلون الربع كذلك أي 25 دوارا (27).

ويظهر أن هذه المجموعات كانت، في الواقع، تمثل التنظيم الأعلى للحياة الاجتماعية والإقتصادية للقبيلة، وكان أساس هذا التنظيم الإجتماعي هو الخيمة يليها الدوار ثم القبيلة.

ويبدو أن هذا التنظيم كان ضروريا لمعرفة كيفية توزيع الجبايات خاصة الزكاة والعشور وكلف المخزن الأخرى.

والملاحظ كذلك، أن التوزيع المذكور للمجموعات غير متساو من حيث عدد الدواوير، ولذلك يظهر أن التوزيع الحقيقي الأولى المنطقي هو تقسيم الشاوية إلى قسمين متساويين من حيث عدد الدواوير، ومن حيث التحمل بأداء الواجبات المخزنية. أو على الأقل، من حيث سهولة فرض هذه الواجبات على العمال والقواد.

وقد عثرنا على تسويد في "كناش مراحل رحلات السلطان مولاي الحسن" (28) ورد فيه ما يؤيد الملاحظة السابقة.

فحسب ما سجله صاحب الكناش المذكور كانت الشاوية تتكون من (100) مائة دوار، وتنقسم إلى قسمين أحدهما أولاد بوعطية، والآخر أولاد بورزك. (28 مكرر).

وهكذا يكون التقسيم الأولي الحقيقي للشاوية هو التقسيم الثنائي، وتحت هذا التقسيم تقسيمات أخرى، تتدرج حتى تصل إلى الخيمة، التي كانت أساس التوزيع وفرض الجبايات. وهذا نفهمه من مراسلات العمال مع المخزن، ويوضحه ما جاء في هذه الرسالة، التي بعثها قائد المزامزة الحاج المعطي بن عبد الكبير (29)، إلى السلطان مولاي الحسن، يوضح فيها حقيقة الواجب عليه، في سخرة بعض كتاب المخزن. يقول القائد

"فوصلني كتاب سيدنا الشريف وعلمت منه ما أمرني به مولانا أعزه الله من

توجيه ثمانية ريال ونصف الباقية من سخرة كتاب الواجب على إيالتي أولاد بوزيري المنفذة لكتاب حضرة مولانا الشريفة من غير تراخ ولا مراجعة، فإني عند السمع والطاعة [...] وها هي تصل [...] وفق أمره الشريف. غير أن الواجب عن أولاد بوزيري، في الأربعة أخماس، وخمس عشرة خيمة التي إلى نظري هو العدد الذي وجهته".(30)

إن التقسيم الثنائي المشار إليه كان جاريا به العمل حوالي سنة / 1307 1889 / 1890 (31). وفي هذا التاريخ كانت الشاوية موزعة إلى القيادات والقبائل الآتية

أولاد بوعطية أي النصف الأول من الشاوية كان يشمل أربع قيادات كبرى وحوالي ثمانية قبائل كما يوضحه الجدول الآتي. (31 مكرر).

جدول (1) أولاد بوعطية (نصف الشاوية)

القيادة	القبائـــل	عدد الدواوير
ابن رشيد	أولاد حريز المذاكرة أولاد علي	12.5
أحمد بن العربي المديوني	مديونة أولاد زيان	18
محمد بن أحمد المزابي	مزاب الأعشاش	12.5
الزيايدة	الزيايدة وبني ودى	7

إذن النصف الأول من الشاوية أي أولاد بوعطية كان يتوزع إلى 50 دوارا، تتوزع حسب أهمية القبائل، من حيث عدد سكانها ومن حيث أهميتها الإقتصادية كذلك.

ثانيا أما النصف الثاني أي أولاد بورزك فيتوزع كالآتي

جدول (2) أولاد بورزك (نصف الشاوية)

القيادة	القبائـــل	عدد الدواوير
الحاج المعطي المزامزي	المزامزة كدانة	13
أولاد سعيد أولاد بوزيري أولاد سيدي بنداود	أولاد سعيد أولاد بوزيري أولاد سيدي بنداود	13 13 .3/4 02 .1/4
زناتة	زناتة	08

وهكذا فأولاد بورزك ينقسمون بدورهم إلى 50 دوارا، حسب أهمية كل قبيلة. والملاحظ أن كل قبيلة فيه مستقلة بقيادتها. كما يلاحظ أن بعض القبائل كأولاد سعيد وأولاد بوزيري، كانت تتوزع أحيانا على أكثر من قائد واحد، ولذلك سُجلت القبائل كوحدات قارة.

نفهم إذن من الجدولين أعلاه، أن الشاوية كانت موزعة على الأقل نظريا أو في جداول توزيع الضرائب، إلى 100 دوار. وهذه الدواوير موزعة على القبائل حسب أهميتها من حيث عدد السكان.

والجدير بالذكر أن الدوار كان يتكون من 100 خيمة ونفهم هذا من العبارة الآتية

«امزاب جملة ثمن الشاوية وقدرهم اثنى عشر دوار ونصف 12,5. والدوار فيه مائة خيمة فرّادية»(32).

وعلى هذا الأساس، فالشاوية كلها كانت تضم 100 دوار x 100 خيمة = 10.000 خيمة. وهذه النتيجة تقدم لنا فائدة إحصائية هامة جدا، على أساسها يمكن أن نقدر عدد سكان الشاوية خلال القرن التاسع عشر، وكيفية توزيع الجباية. لكن هذا احتمال غير صحيح باستمرار. بل لا يعبر في الواقع إلا على واقع تجاوزته التطورات، ولم يبق ثابتا إلا في جداول فرض الجبايات وقوائم الحسابات عند الأمناء. ويبدو أن أصحاب "مدن وقبائل المغرب"، لم ينتبهوا إلى هذه

الحالة، عندما ذكروا أن الشاوية كانت تتوزع إلى ثلاث مجموعات، وإن هذه المجموعات كانت تتوزع الضرائب على أساس الثلث لكل مجموعة (33). ذلك أن المجموعات الثلاث المذكورة غير متساوية الدواوير، والدوار يخضع لعدد الخيام، والخيمة هي الأساس النظري لفرض الجباية، كما رأينا.

ويتضح ذلك أيضا من خلال ما كانت تؤديه الشاوية من واجبات الزكاة والعشور في القرن التاسع عشر وربما قبله، وهو 150.000 ريال(34). فقد كان نصيب أولاد حريز والمذاكرة وأولاد علي وعدد دواويرهم 12 دوار ونصف، أي ربع مجموع أولاد بوعطية، وثمن مجموع الشاوية، هو 18.750 ريال (35)، أي أن نصف مجموعة أولاد بوعطية وعدد دواويرها 25 كانت تؤدي 37.500 ريال. وواضح أن هذا القدر ليس هو ثلث مجموع الواجبات المفروضة أي 150.000 ريال. بل هو ربعها فقط. وعلى ذلك فمجموعة أولاد بورزك كانت تؤدي نصف الواجبات بما أنها تضم 50 دوارا وليس الثلث.

ويمكننا أن نثير ملاحظة أخرى، وهي أن التقسيم المذكور، الذي بمقتضاه كانت الشاوية تتوزع إلى دواوير موزعة حسب القبائل، والذي ظل جاريا به العمل نظريا إلى نهاية القرن الماضي، ربما كان هو منبع المشاكل والمصاعب الجبائية التي كان يتخبط فيها سكان الشاوية خاصة وسكان المغرب عامة(36).

ذلك أن القبائل كانت تطرأ عليها طوارئ، فيتعرض سكانها للزيادة أو النقصان، تبعا لحالة الاستقرار أو الاضطراب، وتبعا لتعرضها لآفات الجفاف والأوبئة، وجوائح الجراد، فيموت بعض السكان، ويهاجر بعضهم الآخر، ويرحل قسم ثالث. لكن أساس فرض واجبات المخزن يبقى هو هو، أي على أساس "الديوان" الذي يخضع له القواد(37). وهكذا كان قواد القبائل يضطرون إلى فرض الواجبات، أما على قليل من الخيام والسكان، وفي هذه الحالة، يشتد الاحتجاج ويزداد التذمر والمعارضة. ويحدث أن تهرب بعض الخيام إلى قيادات أخرى، أو يهاجر أصحابها إلى المدينة المجاورة، فيكون ذلك سببا لمشاحنات بين العمال بعضهم ضد بعض. وقد عرفت الشاوية كغيرها من القبائل كثيرا من هذه المنازعات بين قوادها. مثلما توضحه رسالة بعثها القائد محمد بن محمد بن خمليش المراحي المزابي يشتكي فيها إلى السلطان مولاي عبد العزيز، من ترامي القائد العربي ابن الشرقي الامزابي، على بعض خيام إخوانه أولاد امراح، جاء في تلك الرسالة

«وبعد، فبلغني الكتاب الشريف أعزه الله بأن القائد العربي بن الشرقي الامزابي، لما صدر له الأمر الشريف بما تشكينا به عن الجناب العالي بالله من تعرضه لدوار إخواننا الجريمطات النازل بايالته أولاد شبانة وتعصبه عليه، وإجرائه الكلفة عليه في جملة إخوانه. فأجاب، بأنهم خيام ثلاثة، واشتروا البلادات، وغرسوا الأجنات وصاروا لهم مالهم، وعليهم ما عليهم، ولم يبق من يعرفهم هنا أصلا، ومن ولاية أبيه وهم يكلفون معهم.

فليُنه لشريف علم سيدنا أسماه الله أنهم خمسون خيمة كبيرة في ديوان إخوانهم، بني سنجاش. ومنذ ترامى عليهم، وأنا نؤدي كلفتهم، من عسكر وراتبه وخرص وماشية. والموجود منهم الآن المقيدون طرته (12شخص). زيادة على كل من فر من إخوانهم هنا ينزل معهم.

وغير خاف عن عمال مزاب أنسابهم، ولا أداء ما عليهم وسط إخوانهم من ولاية لمعاريف، لأننا قبيلة واحدة، ولا يخفى بيننا شيء ما لاسيما هذه القضية. وصار يجاوب بما سولت له نفسه، لعدم جريان الصدق على لسانه. وليأمر سيدنا أمناءه. يطالعون قوائم خرص إيالتنا وإيالته عام الثالث عشر والرابع عشر، فإنها بخط عدلين وحضور فلاحين من الدار البيضاء، توجهوا بالإذن الشريف لذلك فينظرونهم في أي قائمة، ويوجه من يثق به للبحث عنهم ويظهر الصدق معنا أو معه(38).

إن هذه الرسالة تعطينا مثالا واضحا على الفرق بين ما هو مسجل في قوائم الأمناء، من الخيام المحسوبة على دوار معين وقائد معين، والواقع الذي يعيشه القائد والسكان عندما ينتقل، أو يفر بعضهم إلى دوار آخر أو قبيلة أخرى. فيكون في هذه الحالة، جمع الواجبات المفروضة على قيادة ما، مصحوبا بكثير من العسف مما يؤدي لمزيد من التذمر ومزيد من الفرار، قد يتحول إلى رفض وانتفاض في كثير من الأحيان. (انظر أسفله الفصل 8). إن إيرادنا للرسالة المذكورة، لا يقصد به إلا البرهنة على أن توزيع قبائل الشاوية إلى مائة دوار، وتوزيع تلك الدواوير على القيادات، لم يكن إلا أمرا نظريا لا يعبر عن الواقع المتطور للسكان في تزايدهم أو نقصهم(39). مما كان يؤدي إلى مشاكل بين القواد مثل ما يوضحه المثال السابق، حيث كانت الشكايات تتوارد على السلطان متهمة هذا القائد بتعرضه على إخوان ذلك القائد، وطالبة منه أن يأمر هذا العامل أو ذاك بإرغام الفارين على أن يكونوا سواء مع إخوانهم في أداء الواجبات(40).

وقد يتحول الأمر إلى ما يشبه الكارثة، إذا كانت القبيلة مجاورة لثغر ساحلي، ذي نشاط تجاري، حيث تكثر هجرة السكان للمدينة، وتصغر القبيلة إلى

درجة الثلث من عددها المدون في لوائح حسابات المخزن. ويضل هذا الأخير، يطالب الثلث الباقي، بأداء الواجبات المفروضة على كل القبيلة، بصرف النظر عما بقي فيها من سكان وما هاجر منها. أي بصرف النظر عن زيادتها أو نقصها. إن هذه الحالة توضحها حالة قبيلة مديونة المجاورة للدار البيضاء، التي هاجر معظم سكانها للمدينة التي تقع في أرض القبيلة، وبقي أقلهم يحملون على كاهلهم نصيب القبيلة من الجبايات والكلف المخزنية (السخاري، الحركة، العسكر، الهدية، صيانة بهائم المخزن... الخ) وتصبح هذه الحالة مأساوية، إذا كان العدد القليل من السكان الذي بقي في القبيلة يتكون في معظمه من الفقراء، وبعضه من أهل الحماية والمخالطة، مثلما توضحه شكوى سكان قبيلة مديونة المذكورة للسلطان مولاي الحسن التي جاء فيها "وكيف سيدي ما يزيد على ستمائة كانون ساكنة فيها (الدار البيضاء)، وفي البادية أقل من ذلك، وفيهم الفقراء وزيادة أهل المخالطة وحماية الأجناس. واجتمعت المصائب والأمر لله [...]. ومولانا عليم بما يلزمنا في الديوان من واجب الزكاة والحركة والخيل والبغال وغرم الجمال والعسكر وغير ذلك وبسبب هذا (كذا) الأمور فلا يجد عاملنا راحة ولا يتوفر شيء بيده" (41).

أما في الحالة الثانية، أي في حالة ازدياد عدد سكان قبيلة وتكاثر خيامها، تزايدا طبيعيا أو نتيجة لهجرة بعض الخيام وانضمامها لتلك القبيلة، فإن نصيبها من الجباية والكلف يكون من السهل جمعه دون عسف أو احتجاج. ويبدو أن ذلك كان يدفع بعض القواد إلى تشجيع بعض الخيام إلى الانتقال إلى أيالاتهم، ورفض أداء الواجبات المخزنية لقائدهم السابق. وتطلعنا الوثائق المخزنية على أمثلة عديدة، من خلافات القواد فيما بينهم حول هذه المسألة التي اكتست صبغة الخطورة في عهد أحمد بن موسى، الذي ضغط على قواد الشاوية ليجمعوا له الواجبات. ووزع الشاوية إلى قيادات كثيرة. وقد نتج عن كل ذلك تذمر بين السكان ستظهر عواقبه مباشرة بعد وفاة الوزير المذكور، في شكل انتفاضات محلية ضد سلطة القواد.

3. عدد قبائل الشاوية عند نهاية القرن 19

لقد رأينا في الجدولين السابقين، أن الشاوية كانت تتوزع سنة 1307 / 1889-1890 إلى 9 قيادات كبرى، وإن عدد القبائل لم يكن مطابقا لعدد القيادات. والواقع أن "دوفوكو" De Foucault (42) ، أشار في سنة (1883-1884)، إلى وجود حوالي 14 قبيلة بالشاوية وإلى حوالي 17 قيادة.

في حين عدد "كيدانفيلدت" Quedenfeldt (43) حوالي 16 قبيلة. والحقيقة أن عدد قبائل الشاوية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، كان لا يتعدى اثنتي عشرة قبيلة كبيرة وهي زناتة، مديونة، أولاد زيان، أولاد حريز، المذاكرة، الزيايدة، امزاب، الاعشاش، المزامزة، أولاد سعيد، أولاد بوزيري، أولاد سيدي بنداوود.

(أنظر الخريطة رقم 1).

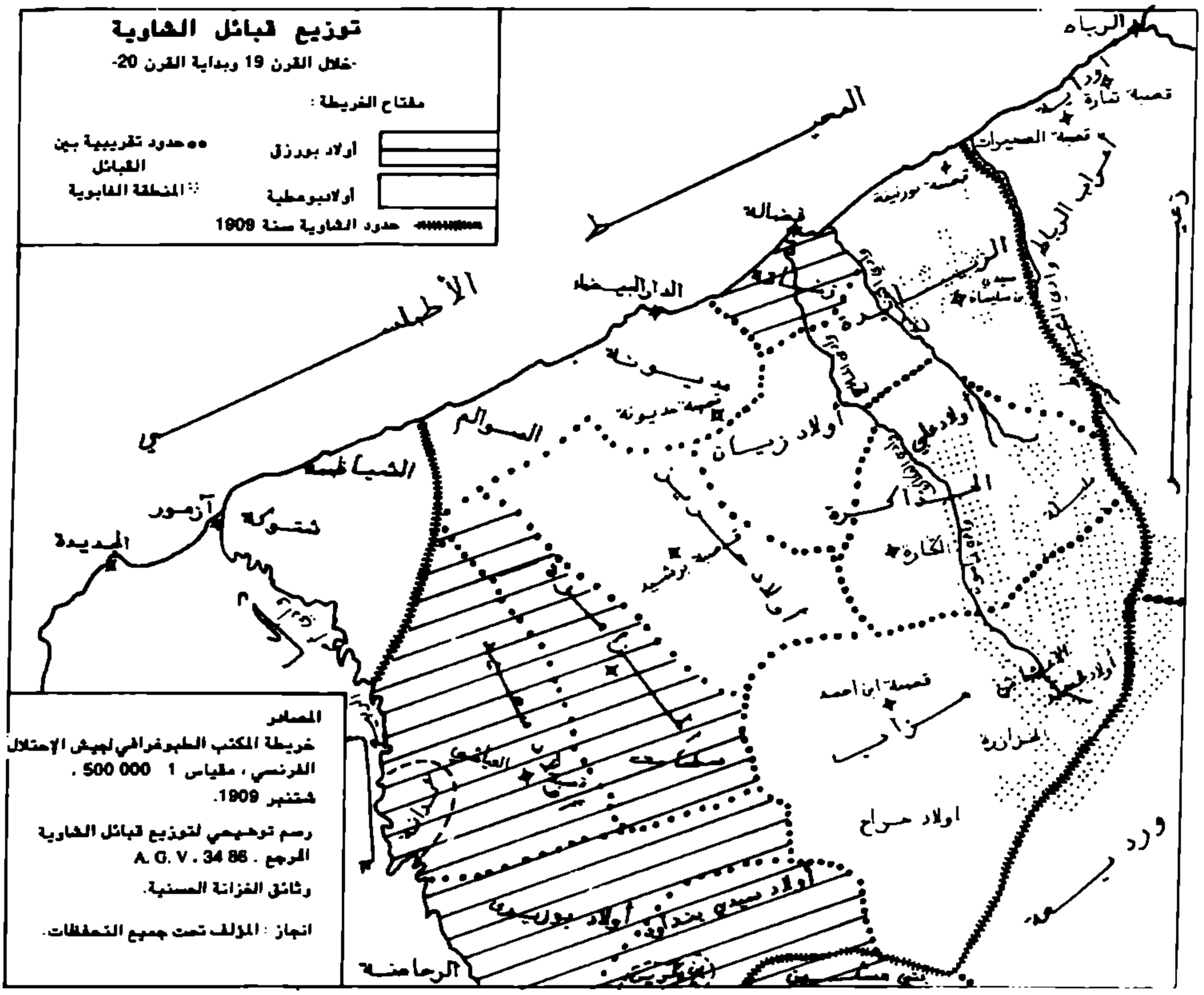

وكانت بعض هذه القبائل تدمج في قيادات كبرى، مثل أولاد حريز والمذاكرة الذين كانوا يخضعون لقيادة عبد السلام ابن رشيد.

ومثل امزاب والاعشاش الذين كانوا يخضعون لنفوذ القائد محمد بن أحمد المزابي، وخلفه القائد العربي بن الشرقي.

لكن مجموعة امزاب والاعشاش، تعرضت للتوزيع إلى عدة قيادات في عهد مولاي الحسن بلغت حوالي 5 قيادات بالاعشاش وقائد لمزاب(44).

وزاد أحمد بن موسى في هذا التقسيم. حيث وزعت امزاب والاعشاش إلى 14 قيادة(45)، ويظهران ذلك التوزيع كانت له علاقة بالأحداث التي جرت بمزاب والاعشاش والتي أدت إلى حركة أحمد بن موسى الشهيرة إلى المنطقة وسحقه للأعشاش(46) سنة 1897/1315. وهكذا نجد أن الشاوية سنة 1897/1315 - 1898 كانت موزعة إلى 28 قيادة، بينها 7 قيادات كبرى لا غير، والباقي (انظر لائحة قواد الشاوية سنة 1897/1315-1898) وعدده 21 قيادة موزع على مزاب الأعشاش(47) (14 قايدا) الزيايدة (48) (4 قواد) أولاد بوزيري (3 قواد). إن هذا التفتيت الإداري، إذا قرب سلطة المخزن من فرق القبائل، فإنه خلق المشاحنات بين القواد، وبذر بذور الانتفاض ضدهم، كما سنرى في فصول قادمة.

جدول 3 التوزيع الإداري للشاوية حوالي 1315/1897-1898.

القبيلة	الفرقة	عدد القواد	أسماؤهم
أولاد سعيد	؟	1	العياشي السعيدى
المزامزة	المزامزة + كدانة	1	المعطي بن عبد الكبير المزامزي
زناتة	زناتة	1	بوشعيب الزناتي
أولاد سيدي بنداود	أولاد سيدي بنداود	1	الجيلالي بن الرغاي الداودي
أولاد بوزيري	؟ ؟ ؟	3	أحمد بن صالح الزيراوي البهلول بن سلام الزيراوي مسعود بن محمد الزيراوى ؟
أولاد حريز أ. علي المذاكرة	أولاد حريز أولاد علي المذاكرة	1	عبد السلام بن رشيد الحريزي
مديونة	مديونة + سوالم	1	أحمد بن العربي المديوني
أولاد زيان	أولاد زيان	1	لحسن بن العايدي الزياني
الزيايدة	موالين الوطى موالين الغابة ؟ بني أورى	1 1 1 1	عبد الله الزيادي الوطاوي محمد بن أحمد الزيادي ابن المعطي الصلحاوي الشرقي الوراوي
مزاب	بني إبراهيم أولاد شبانة الأحلاف حمداوة أولاد مراح	1 1 1 1 2	العباس الإبراهيمي الجيلاني المسيعدي الشباني عبد القادر الحلفي بوزيان الحمداوي ابن خمليش المراحي أحمد بن البهلول المراحي
الأعشاش	أولاد فارس أولاد عريف الخزازرة الأولاد أولاد محمد معاريف	1 1 1 2 2 1	أحمد بن التومي الفارسي أحمد بن حجاج العريفي ابن العربي الخزاري بنداود الولدي إبراهيم الولدي الجيلاني زريول المحمدي عبد السلام المحمدي عمر المعروفي

هوامش الفصل الخامس

1) ـ يمكن مراجعة الكتب والدراسات الآتية

Celerier J., "Les Conditions, géographiques du developpement de Casablanca", R. G. M., Numero Spécial consacré à casablanca, 1939.

Seconds (L), "La Chaouia et sa pacification", 1909 Paris, Premier chapitre.

Tarriot, A "Monographie de casablanca de 1907 à 1914" Casablanca, 1924.

Weisgerber, F, "Casablanca et les chaouia en 1900", casablanca 1935.

"Les chaouia", publication du Comité du Maroc, Paris 1907.

Le det A., "Eléments de climat de Casablanca", RGM, Notes marocaines, N° 384 Rabat, 1903.

Noin. D. "Etude de géographie physique et géographie économique de la ville de Casablanca," Rabat, 1965.

2) ـ ابن الخطيب لسان الدين، "أعمال الأعلام فيمن تولى من الملوك قبل الاحتلام،" تحقيق الدكتور أحمد مختار العبادي، الدارالبيضاء، 1964، جزء 3 ص 181.

3) - De Chenier (L) "Recherches historiques sur les Maûres et l'histoire de l'Empire du Maroc, 3 Tomes Paris, T. 3 PP. 10-11.

4) - Ibid, op, cit.

5) ـ كان شينيي Chenier قنصلا لفرنسا بالرباط من 1767 إلى 1787، ولذلك كان بإمكانه أن ينقل أخبارا بالغة الأهمية عن المغرب، وخاصة عن المدن المغربية الساحلية خلال القرن الثامن عشر في مؤلفه المذكور. وقد أشار إلى أنه تقيد بذكر أسماء الأقاليم حسب ما ينطقها به السكان الذين يعرفون بلادهم أكثر من غيرهم. وهو بهذا يريد تصحيح بعض الأسماء التي وردت عند ليون الإفريقي (الحسن الوزان) ونقلها عنه مارمول.
Recherches, T. 3, p.6.

6) ـ الحسن الوزان (ليون الإفريقي)، وصف إفريقيا، تعريب د. محمد حجي ومحمد الأخضر. الطبعة الأولى، الرباط جـ 1، ص 153.

7) ابن خلدون عبد الرحمان، "كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر.. طبعة دار الكتاب اللبناني، بيروت 1959، جـ 6، ص 58-59.

8) - في 1080/1766-1767 عزل سيدي محمد بن عبد الله قائد تامسنا المدعو ولد المجاطية وولى عليها القائد محمد بن حدو الدكالي وأضاف إليه تادلا.

أحمد الناصري، "كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى"، تحقيق وتعليق ولدى المؤلف، جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدارالبيضاء 1956، جـ 8، ص 30.

9) - ظلت كلمة تامسنا هي الغالبة في اللوائح الرسمية، ولم تبدأ كلمة الشاوية تتردد كثيرا إلا في القرن التاسع عشر.

10) - للمزيد من الاطلاع على الدور الذي قام به البرغواطيون تراجع المؤلفات الآتية البكري عبد الله بن عبد العزيز (البكري) المتوفى سنة 460 هـ. "المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب"، طبعة الجزائر 1857.
ابن خلدون، المرجع السابق، 6، 428-435.
دائرة المعارف الإسلامية، مادة برغواطة، الجزء الثاني.
محمود إسماعيل، دراسات جديدة، مغربيات، فاس 1977

Slouch Nahum, L'Empire des Berghouata et les origines des bled essiba R. M. M. TIO N° 3, 1910.

Galand Lionel, Baquates et Bargawata, Hesp. 1-2 trim, 1948, PP, 204-206.

11) - ابن أبي زرع (علي)، "الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس" الرباط، طبعة 1973، ص 130-133.

ابن عذارى (محمد)، "البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب"، ص 56-57 الناصري، الاستقصا، 2، 14-18.

12) - المرجع المذكور، جـ 2، ص 108 وص 113-114.

13) - محمود إسماعيل، "الخوارج في بلاد المغرب"، دار الثقافة، 1976.

14) - البكري، م س، 135-136، الناصري م.س 2، ص 15.

15) - الناصري، 2، 17-18.

16) - نفسه، ص 114.

17) - وصف إفريقيا، 1، ص 154-155.

18) - ابن خلدون، 5، 428.

19) - نفسه، 6، 58.

20) الناصري، 2، 170.

21) - نفسه، ص. 174.

22) - وصف إفريقيا، 1، 155.

23) - الناصري، 5، 66.

24) - ابن الأعرج السليماني، "اللسان المعرب عن تهافت المعمرين حول المغرب" مخطوط الخزانة الحسنية، جـ 1، 90.

25) - هناك وثائق عديدة، تبين أهمية الشاوية في صيانة وتعويض ماشية المخزن وروامه خلال القرن التاسع عشر، أنظر وثائق مولاي الحسن، و خ ح

26) - الناصري، 4، 66-67.

للمزيد من التعرف على أصول قبائل الشاوية يمكن مراجعة

- ابن خلدون عبد الرحمان، المرجع المذكور.

- الحسن الوزان، م المذكور

Villes et tribus du Maroc, Casablanca et les chaouia, T2 - Paris 1915.

- التقي العلوي، "أصول المغاربة" البحث العلمي، عدد 33، ص 117-124.

27) - Villes et tribus du Maroc, casablanca et les chaouia, T2, PP. 4-5.

28) - كناش رحلات مولاي الحسن، مخطوط خ ح، رقم 2639.

28 مكرر) - قارن الناصري، 8، 45.

29) - أنظر أسفله ص 176 هامش (43).

30) - من الحاج المعطي بن عبد الكبير المزامزي إلى السلطان مولاي الحسن، 16 شوال 1310 / 3 ماي 1893، و خ ح، 602.

31) - الكناش المذكور، هامش 28.

31مكرر) - نفس الكناش.

32) - نفسه، كلمة "مزاب جملة" تعني مزاب والأعشاش.

33) - مرجع الملاحظة (27)، نفس الصفحات و ص 108.

34) - كناش خ ح، رقم 635، ص 256، قارن كذلك إشارة الأستاذ عياش في جوانب من الأزمة المالية، مرجع مذكور، ص 13-14.

35) - نفس الكناش المذكور.

36) - نفس الواجب وهو 150.000 ريال كان مفروضا على دكالة، كناش خ ح 635، ص 255.

37) - ترد كلمة "الديوان" كثيرا في المراسلات بين قواد الشاوية والمخزن، ويظهر أنها تعني السجل الذي دونت فيه قوائم الواجبات، على أساس التوزيع النظري المنوه به أعلاه.
فقد جاء في رسالة كتبها الحاج المعطي المزامزي للسلطان مولاي الحسن في 20 ربيع الثاني 1310 الموافق 11 نوفمبر 1892 مايلي :
"فوصلني كتاب سيدنا دام علاه أمرني فيه، بقبول ما يدفعه إليّ خديم سيدنا القائد محمد بن العربي الزيادي، من الدفع نحوزه منه على حساب مانابني في الديوان وسط خدام سيدنا قواد الشاوية كافة"، و خ ح.

38) - الرسالة مؤرخة 18 ربيع الثاني 1317 الموافق 21 غشت 1899، و خ ح.

39) - من الدلائل الواضحة على هذا التطور، إن الفرنسيين قدروا عدد خيام المزاب والأعشاش سنة 1916 بحوالي 13.700 خيمة، عندما تم لهم تنظيم المنطقة إداريا. أنظر

E. MEGE, Notes sur les Mzab et les Achachc, in A.B, vol : 3
Fasco, 2-3, 1918, pp. 205 - 202.

40) - هناك أمثلة كثيرة من هذه المشاكل التي كانت تقع بالشاوية والحوز (قارن رسالة القائد محمد بن خمليش المذكورة). وفي 9 شعبان 1311 / 15-2-1894 أجاب القائد الجيلالي بن علي الدمناتي السلطان، على ما تشكى به القائد العسولي الزمراني، من أن بعض إخوان الزمراني يفرون عند القائد الجيلالي ويمنعه منهم. وقد أنكر الجيلالي في جوابه أن يكون عنده أحد من إخوان العسولي. واتهم بدوره العسولي بالإعتداء، إذ تقاعد على بعض إخوان الجيلالي، مضيفا أن العسولي يوفر الملجأ لكل من يفر إليه. و خ ح.

41) - الرسالة مؤرخة بـ 13 ربيع الثاني 1310 - 4 نوفمبر 1891 و خ ح.

(42 - De Foucault, "Reconnaissance au maroc, (1883 1884)" Paris, 1888, PP. 263-264.

(43 Quedenfeldt, "Division et repartition de la population berbère - au Maroc," trad. H. Simon, Alger, 1904. pp 39-40.

44) - مرجع الملاحظة (42).

45) - لائحة لعمال الشاوية مؤرخة في 23 رجب 1315 موافق 18 دجنبر 1897، و خ ح.

46) - راجع كناش خ ح، رقم 234، عن الحركة المذكورة.

47) - المرجع المذكور في هامش 39.

الفصل السادس

أهمية الشاوية الاقتصادية خلال القرن التاسع عشر

مقدمة

لا نهدف من التعرض لهذا الجانب من نشاط قبائل الشاوية، إلى دراسة النشاط الإقتصادي وتحليل حركياته، أو إلى تتبع علاقات السكان فيما بينهم، وتفاعلهم مع البيئة التي يعيشون فيها، وبالتالي التعرف على النصيب المبذول من الكد والجهد، والحصيلة النهائية للمجهود المبذول من طرف فئات المجتمع الشاوي.

ولكننا سنحاول هنا ـ في إطار النهج الذي اتبعناه ـ أن نبرز الأهمية التي كانت تمثلها قبائل الشاوية داخل المجتمع المغربي، من حيث مساهمتها الإقتصادية ومدها للمخزن بعناصر القوة والاستمرار.

ولا جدال، أن الجباية المنتظمة، والمساهمة الدائمة في تحمل أعباء الطوارئ، كانت من المقومات التي يعتمد عليها المخزن لاستمراره في القيام بواجباته مثل أي حكومة مسئولة. وإذا علمنا أن بلاد الشاوية، كانت تتوفر على ثغر كان يعتبر واسطة العقد بين الموانئ المغربية، التي عرفت تطورا تجاريا مستمرا خلال القرن الماضي، إذا علمنا هذا تأكدت لنا أهمية مساهمة بلاد الشاوية في مداخيل بيت المال، بزكاة مواشيها، وعشور أراضيها، ومداخيل جمارك ثغرها.

ومن نافلة القول، الإشارة إلى أن حرمان البلاد من هذه المساهمة الجبائية والتسخيرية، لقبائل ظلت على الدوام، تعتبر من قبائل "الطاعة" و"الصلاح"، في نظر المخزن، لا شك أن ذلك الحرمان سيحس بقوة، ويستشعر بمرارة، وسيمثل ضربة خطيرة لاستمرار الدولة المغربية المستقلة.

ولكن، قبل أن تحتل الشاوية بالقوة المسلحة، عرفت نهبا منظما ومستمرا لإمكانياتها الإقتصادية، واستغلالا لأبنائها من لدن الرأسمال الأجنبي، على يد حفنة من التجار، الذين زاحموا السكان في قوتهم اليومي، وشاركوهم فيما يملكون. والذين زاحموا الحكام بالشاوية، وشاركوهم في النفوذ، بواسطة نظام الحماية القنصلية والمخالطة. وسيكون علينا الآن، أن نفصل القول، في هذا الفصل والفصل الذي يليه في أهم النقط التي أثرناها. وبعد ذلك، نتعرف على ردود فعل المجتمع الشاوي تجاه التسرب الأجنبي الاستغلالي.

1. خصوبة أرض الشاوية ووفرة إنتاجها

اشتهرت منطقة الشاوية، بخصوبتها ووفرة إنتاجها وجودته. وقد انتبه إلى هذه الأهمية كل الذين تعرفوا على المنطقة منذ قرون. فقد أشار الحسن الوزان، في القرن السادس عشر الميلادي، إلى خصوبة تامسنا وغناها (1). ووصف Chenier "دي شينيي" الإقليم بأنه "إقليم غني، وغزير الإنتاج ومنتوجاته مغذية جدا"(2). ونبهت كتب الرحلات الاستطلاعية الأروبية خلال القرن الماضي، إلى أهمية إنتاج الشاوية من الحبوب والأصواف والمواشي(3). ومعلوم أن هذه المواد قد لعبت دورا حيويا في العلاقات التجارية بين المغرب والبلدان الأروبية في ذلك القرن، وكانت الدارالبيضاء هي نقطة الاتصال التي تنظم هذه العلاقات.

ويمكننا التعرف على الأهمية الإقتصادية لقبائل الشاوية، بالنسبة للمخزن خلال القرن التاسع عشر، باستعراض بعض المعطيات التي تظهر حجم مساهمة هذه القبائل، في بيت المال. كما تبرز دورها في إمداد المخزن ببعض حاجياته عند الطوارئ. فمن حيث مساهمة الشاوية في الجبايات، كان مفروضا على قبائلها أن تدفع 50.000 ريال حسني، وهو مقدار زكاة مواشيها، و 100.000 ريال واجبات العشور عن إنتاج أرضها(4). وفي الواقع لم يكن هذا المقدار وحده هو مساهمة الشاوية في خزينة البلاد فقد كانت أسواقها تساهم بمستفاداتها شهريا في مداخيل بيت المال، وكانت هذه المستفادات تبعث لأمناء الدار البيضاء، وتحسب ضمن مداخيل مستفادات مرسى المدينة(5).

ومن الواجبات القارة التي كانت تعد ضمن كلف المخزن، كان على قبائل الشاوية أن تساهم في تجهيز الحركات السلطانية. وتطلعنا رسالة، كتبها أمناء وأشياخ قبيلة زناتة المجاورة للدارالبيضاء للسلطان مولاي الحسن، على القدر الذي فرض على القبيلة، بمناسبة حركة تافيلالت الشهيرة بدون شك(6). والقدر المذكور هو 1/6 1224 ريال(7). وإذا تذكرنا أن قبيلة زناتة تمثل داخل "ديوان" الشاوية 8 دواوير فإننا نحصل بعملية حسابية على 15.550 ريال كمساهمة كلية لقبائل الشاوية في كل حركة. وعلى هذا الأساس يكون واجب الدوار 155,5 ريال ونصيب الخيمة 1,5 ريال.

يضاف إلي واجبات الحركة، هدايا الأعياد، والملاحظ من خلال وثائق المخزن أن واجب الهدية كان ثابتا بالنسبة لكل قائد. فمثلا قائد أولاد حريز والمذاكرة وأولاد علي، كان يدفع 200 ريال هدية عيد الأضحى ومثلها هدية عيد الفطر. وكان قائد المزامزة يفعل الشيء نفسه ويدفع المقدار عينه، أي 200 ريال في كل عيد. وإذا علمنا أن عدد دواوير القيادتين هو 12,5 دوار بالنسبة للأولى و 13 دوارا. بالنسبة للثانية فإن واجب الهدية بالنسبة لكل دوار هو 200 ÷ 13 = 15,4 أي 154 درهم تقريبا، ويكون واجب الخيمة هو 1,5 درهم تقريبا(8).

وهذا مقدار ضئيل إذا أخذنا بعين الإعتبار أن الخيمة لا تعني إلا وحدة نظرية للحساب، ربما كانت تمثل في الواقع بين 2 إلى 3 كوانين. لكن المرء يجب أن يدخل في اعتباره ما كان يحتجنه القواد لأنفسهم، الأمر الذي يجعلهم يعممون الواجب على كل خيمة خيمة. وحتى لو فرض ذلك الواجب على كل خيمة، فإنه ضئيل في نظر القائد أحمد بن العربي المديوني، الذي جاء في إحدى رسائله للسلطان المذكور قوله إن قبيلة الزيايدة معتبرة ولو فرض عليها ريالا واحدا للخيمة لاجتمع منها مال له بال، ولا تضرها ولا تلتفت إليه"(9).

ومن المساهمات الطارئة ما كانت قبائل الشاوية تمد به السلطان كمؤنة للمحلة السلطانية عندما تمر بها. ويطلعنا تقييد بتاريخ 5 رمضان 1315 / 28 يناير 1897، على مقدار هذه "المونة" التي تدفعها القبيلة وهو

- جمال الشعير 2000.
- أكباش 1000.
- أرطال السمن 5000.
- خناشي الدقيق 2000 (10) (أنظر الجدول 4).

هذا هو المقدار الإجمالي الذي كان مفروضا على القبائل إن تجمعه للمخزن والجدول أسفله يوضح واجبات كل قبيلة وفرقة. (جدول 4).

جدول 4 : مساهمة قبيلة الشاوية في مؤنة المحلة السلطانية سنة 1315

المساهمون		نوع المونة				
القواد	القبيلة / الفرقة	جمال الشعير	أكباش	أرطال السمن	خناشي الدقيق
العياشي السعيدي	أولاد سعيد	260	130	650	260
المعطي المزامزي	المزامزة + كدانة	280	140	700	280
بوشعيب الزناتي	زناتة	140	070	350	140
الجيلالي الداودي	أولاد سيدي بنداوود	045	022.5	112.5	045
أحمد بن صالح الزيراوي	أولاد بوزيري	091.5	45.75	228.75	91.5
البهلول بن سلام الزيراوي	أولاد بوزيري	82.5	41.25	206.25	82.5
مسعود بن محمد الزيراوي	أولاد بوزيري	101	50.5	252.5	101
عبد السلام بن رشيد الحريزي	أولاد حريز المذاكرة أولاد علي	250	125	625	250
العباس الإبراهيمي	بني إبراهيم	036	018	090	036
الجيلاني المسيعدي الشباني	أولاد شبانة	012	006	030	012
عبد القادر الحلفي	الأحلاف	016.5	8.25	41.25	16.5
بوزيان الحمدوي	حمداوة	31.5	15.75	78.75	31.5
ابن خمليش المراحي	أولاد امراح	60.5	30.25	151.25	60.5
أحمد بن البهلول المراحي	أولاد أمراح	19.5	9.75	48.75	19.5
أحمد بن التومي الفارسي	أولاد فارس	9.5	4.75	23.75	9.5
7 قواد	الأعشاش كافة	77	38.5	192.5	77
عبد الله الزيادي	الزيايدة	33.75	16.5	82.5	33.25
محمد بن أحمد الزيادي	الزيايدة	33.75	16.5	82.5	33.25
ابن المعطي الطلحاوي	الزيايدة	16.75	8.5	42.5	16.75
أحمد بن العربي المديوني	مديونة + سوالم	166.75	83.5	417.5	166.75
الحسن بن العايدي الزياني	أولاد زيان	212.5	106.25	531.25	212.5
الشرقي الوراوي	بني أورى	25	12.5	62.5	25
المجموع		2000	1000	5000	2000

المصدر وثائق الخزانة الحسنية بالرباط

كما كانت الشاوية تستقبل أمناء المخزن لإكتيال مزيد من الحبوب وإرسالها للجهات المتضررة عند الطوارئ(11). زيادةعلى ما كانت تتوفر عليه من أمراس مخزنية لحفظ الحبوب إلى وقت الحاجة إليها، مثلها في ذلك مثل بعض القبائل الكبرى، كما أشار ابن زيدان بقوله وكما للجلالة السلطانية أمراسا بالمدن كذلك لها أمراس بكل قبيلة من القبائل المغربية العظيمة كالشاوية لخزن الزرع الاحتياطي لما يطرأ على الرعية من الأزمات..."(12).

ولا تكتمل هذه المعطيات، إلا بالإشارة إلى أن قبائل الشاوية كانت من بين أهم القبائل، بل تأتي على رأس القبائل التي كانت تحافظ على قسم كبير من ماشية المخزن وإبله وخيله وروامه (بغاله). فمثلا وعلى سبيل المقارنة، كان بقبيلة الشاوية سنة 1315/1896-1897 حوالي 268 جمل، وعند دكالة المجاورة 212 وعند عبدة 77. أما عدد البغال، وكانت الوسيلة الرئيسية في النقل فبلغ 887 بغل(13). إن إيراد هذه الأعداد لا يقصد به مجرد ذكر أرقام فقط، بل كان على سكان الشاوية، أن يمونوا هذه الأعداد من البهائم، ويخلفوا الضائع منها ويجددوا العاجز "الران"، ويؤدوا سخرة الحمّارة المكلفين بتسلمها من القبائل أو تسليمها إليها. وليس من المبالغة إذا قلنا إن تكاليف صيانة قطعان المخزن بالشاوية، كانت تثقل ـ ضمن تكاليف المخزن ـ كاهل السكان. وهي تبرز بالتالي ضخامة المجهود التسخيري الذي كان مفروضا على سكان قبائل الشاوية. بقدر ما تبرز الخلل الذي كان يصاحب البنية المخزنية في علاقاتها التسخيرية مع المجتمع، وهو خلل استغله التسرب الأجنبي أيما استغلال(14).

ويعزز أهمية الشاوية، موقعها المتوسط المتفتح على البحر فهي تحتل موقعا استراتيجيا، يمكن استغلاله للتدخل في القبائل المجاورة لها غربا وجنوبا وشرقا. في حين يمثل مرسى المدينة وسيلة هامة تستغل في الإمداد السهل من البحر، وستظهر هذه المزايا خلال التدخل الفرنسي المسلح سنة 1907.

والواقع أن الساحل الأطلسي، وخاصة المنطقة الوسطى منه، والتي تعتبر الشاوية مركزها(15)، أصبح يلعب في أواخر القرن 19 دورا بارزا في تطور العلاقات المغربية الأروبية. فزيادة على توفره على نقط توفّر للسفن الكبرى مراسي آمنة، فإنه متصل بأقاليم منبسطة وغنية، منها يمكن الانتقال بسهولة إلى كل جهات المغرب، وجلب المواد الخام التي تحتاجها التجارة. وقد مثلت الدار البيضاء نقطة المركز التي كانت تتجه إليها القوافل محملة بالمواد والمنتجات التي ازداد إقبال الخارج عليها كالحبوب والأصواف وغيرها. وتعود حاملة حزم

البضائع المستوردة من أوربا. لقد كان هذا النشاط هو منطلق الالتقاء بين المجتمع الشاوي والتجار الأوربيين، فكيف تطورت علاقات الطرفين ؟ إن معرفة التطور الاقتصادي للدارالبيضاء خلال القرن 19 تكشف بجلاء بدايات هذا الالتقاء وعواقبه.

2. التطور الاقتصادي للدار البيضاء خلال القرن 19 :

كانت الدارالبيضاء تسمى أنفا في القديم(16). وكانت أنفا إحدى مراكز برغواطة الساحلية(17)، التي لعبت دورا هاما في العلاقات المغربية الأيبرية. منذ فتح الأندلس والجهاد ضد الإسبان والبرتغاليين(18).

وقد عرفت أنفا ازدهارا كبيرا إلى حدود القرن 15م. فقد وصف ابن الخطيب نشاطها التجاري في النصف الثاني من القرن الرابع عشر الميلادي فقال: "جون الحط والإقلاع، ومجلب السلاع، تهدى إليها السفن شارعة وتبتدرها مسارعة. تصارف برها الذهبي بالذهب الإبريز، وتراوح برها وتغاديه بالتبريز. وخارجها يفضل كل خارج وقانصها يجمع بين طائر ودارج. وفواكهها طيبة، وأمطار عصيرها صيبة، وكيلها وافر. وسعرها - عن وجه الرخاء - سافر، وميرتها لا ينقطع لها خف ولا حافر" (18 مكرر). كما قال عنها الحسن الوزان إنها كانت في "غاية الحضارة والازدهار لأن أرضها خصبة تصلح لجميع أنواع الحبوب".(19).

ويبدو أن موقع أنفا، ومساهمتها في الجهاد في العهد المريني(20) وأهميتها التجارية، يبدو أن ذلك كله جر على المدينة الأطماع منذ وقت مبكر. فقد هاجمها أسطول برتغالي كبير وخربها سنة 1468 م بعد أن وجد سكانها انسحبوا نحو الرباط(21).

وقد ظلت أنفا على حالتها المخربة، التي وصفها الحسن الوزان وحمّل مسئوليتها لملوك فاس العاجزين(22)، إلى عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله (1757-1790)، الذي جدّد بناءها (23)، وأحيا مرساها، في إطار توجه جديد يهدف إلى ربط علاقات واسعة مع الدول الأروبية للاستفادة من تطورها الاقتصادي(24). ومنذ هذا العهد، اشتهرت المدينة بإسم الدارالبيضاء(25).

وقد عرف مرسى المدينة نشاطا كبيرا في هذا العهد، كان أساسه إقبال الأوربيين على شراء الحبوب. فقد منح السلطان للإسبانيين وحدهم امتياز شراء الحبوب من الدار البيضاء وفضالة، نظرا لشرائهم كميات كبيرة. وتكلفت بذلك شركتان ؛ إحداهما من مدريد، والأخرى من قادس(26). وقد استقر وكلاء الشركتين

بالدار البيضاء وفضالة وكانوا يكتالون الزرع يوميا بكميات كبيرة. لأن القوافل الحاملة للحبوب من المناطق الداخلية كانت لا تنقطع عن المدينة، حتى أن الضعيف الرباطي شبهها بالسحاب في قوله "وكانت الإبل تأتي إليها كأنها السحاب ليلا ونهارا".(27). وقد أدت كثرة الحبوب، التي كان الفلاحون يرغبون في بيعها، بالتجار النصارى إلى فرض شروطهم، حتى أن الفلاحين كانوا "يأتون - يقول الضعيف بالدجاج والسمن والغنم للنصارى هدية لأجل أن يكيلوا منهم الزرع"(28).

.وفي عهد (مولاي سليمان) (1792-1822) عرفت الدارالبيضاء بعض الأحداث التي أثرت على مصيرها ذلك أن السلطان، ولى عليها ابن عمه عبد الملك بن إدريس عاملا على قبائل الشاوية. وأخذ هذا الأخير يتألف أعيان الشاوية بمنحهم الأموال من مداخيل مرسى المدينة. ويبدو أن ثروة المدينة، أغرت العامل المذكور وأعيان الشاوية على التمرد، لكن محاولة التمرد هذه كانت فاشلة، إذ قضي عليها في المهد، إلا أنها كانت كافية لدفع السلطان إلى إتخاذ قرار هام بالنسبة لمصير المدينة ؛ يتلخص في إغلاق الميناء، ونقل التجار الأجانب للرباط(29).

أ. تطور تجارة الدارالبيضاء والاستقرار الأوربي بها خلال القرن 19 :

بقي ميناء الدارالبيضاء ممنوعا على التجار الأجانب إلى عهد السلطان مولاي عبد الرحمان (1822-1859)، الذي فتحه للتجارة الأوربية منذ العقد الثالث من القرن التاسع عشر(30). فقد سمح السلطان لمؤسسات تجارية بتأسيس مراكز لها بالمدينة. وقد تزايد عدد تلك المؤسسات بتزايد نشاط الميناء، وتطور العلاقات المغربية الأروبية خلال القرن الماضي.

وستعرف الدارالبيضاء هذه المرة، تطورا تجاريا متصاعدا لا توقف بعده.
والجدير بالملاحظة، أن هذا التطور ارتبط بالظروف المستجدة في عالم القرن التاسع عشر. ومعلوم أن هذا القرن، عرف الثورة الصناعية باختراعاتها المتعددة، الأمر الذي أدى إلى نقلة هائلة، في أنماط الإنتاج والمبادلات في إطار اقتصاد جديد، ذي نمط رأسمالي صناعي(31). وقد دفعت هذه الثورة الإقتصادية أوربا الناهضة للعالم الخارجي، وكان المغرب خاصة، وشمال إفريقيا عامة، على أبوابها الجنوبية. وفي هذا الاتجاه احتلت الجزائر سنة 1830، وأدى احتلالها إلى ازدياد تنافس دول أوربا واهتمامها بقضايا البحر المتوسط.

وإذا أضفنا إلى ما سبق من عوامل، دخول أوربا منذ 1848 في ظرفية اقتصادية واجتماعية غير ملائمة، من مؤشراتها، ازدياد الطلب على الحبوب وارتفاع أسعارها(32). كما أدت المكننة المتزايدة للصناعات النسيجية، إلى طلب المزيد من المواد الخام وخاصة الأصواف(33)، والبحث عن المنافذ للإنتاج المتراكم. كل هذه الظروف التي ذكرنا، دفعت برجال الأعمال الأوربيين إلى الاهتمام بالمغرب. لأنه كان يعتبر سوقا مغريا ذا مزايا متعددة ، يأتي على رأسها

أ. قربه من أوربا، وخاصة من جبل طارق، الذي توجد به ابريطانيا ومجاورته للجزائر التي احتلتها فرنسا.

ب توفره على المواد الخام المطلوبة كالأصواف الجيدة الرخيصة الثمن والحبوب.

جـ كان المغرب يمثل سوقا مفتوحا لتصريف البضائع المصنعة، التي أصبحت مهددة بسلاح الحماية الجمركية في كل الدول الأروبية المتقدمة.

د وجود المغرب على بوابة إفريقيا، حيث كان في الإمكان استخدامه لتصريف بضائع أوربا بواسطة القوافل العائدة إلى وسط القارة، ذلك أنه إلى حدود العهد المتحدث عنه، كانت تجارة القوافل لا زالت تربط المغرب بالدول الإفريقية، وتلعب دورا حيويا في التجارة المغربية الداخلية ومع أوربا(34).

إن هذه العوامل مجتمعة، وعوامل أخرى تتعلق بتوازن القوى الجديد، الذي مال لصالح أوربا منذ انهزام المغرب في معركة إيسلي 1844، وتتعلق بالمنافسات السياسية والقومية والعسكرية بين الأوربيين(35)، دفعت رجال الأعمال الفرنسيين والإنجليز إلى المغرب وجعلتهم يولونه اهتماما خاصا.

وإذا أضفنا إلى كل ما سبق، الاحتياجات المالية لمخزن مولاي عبد الرحمان، ورغبة السلطان في فتح عهد جديد من التعاون السلمي مع الدول الأروبية المتقدمة، تأكدنا من أن الظرف كان مناسبا لانطلاق علاقات تجارية جديدة بين المغرب وأوربا.

وهكذا بدأ ممثلوا المؤسسات الصناعية والتجارية الأوربية يستقرون بالموانئ المغربية التي فتحت للتجارة وخاصة لتصدير الحبوب كالعرائش والجديدة والدارالبيضاء. كما حصل أولائك الممثلون على تساريح لتصدير كميات كبيرة من الأصواف من الموانئ المذكورة.

وبالنسبة للدار البيضاء، فإن المؤسسات الفرنسية، كانت هي السباقة، في الاستقرار بها. لكن المبادرة جاءت من أحد رجال الأعمال المستقرين بطنجة، وهو التاجر J.B. Rey (36). الذي أناب عنه بالدار البيضاء أسرة فرنسية اشتهرت بالمدينة وهي أسرة "فريو" P. Ferricu (37).

وقد أدى نجاح عمليات "فريو" P. Ferricu بشركات أخرى إلى بعث وكلائها للمدينة، وهذا ما فعلته مؤسسة البارون سيلبير Scillicre الباريزية سنة 1847، والشركة الفرنسية للوديفيا "Compagnie Française de Lodeve" سنة 1852. وقد كان اهتمام هذه المؤسسات منصبا بالدرجة الأولى على تجارة الصوف لإمداد مصانعها بفرنسا(38). وكانت أصواف الدارالبيضاء توجه لمرسيليا ولندن ومدن أوربية أخرى. وقد تضاعف نشاط الميناء، عن طريق وسق الحبوب بكثرة، وبخاصة القمح الذي كانت أسعاره زهيدة بالشاوية، حيث كانت السفن تتوارد للمرسى يوميا وبإعداد كثيرة.

ومما يبرز الأهمية التجارية المتصاعدة لدار البيضاء، وتوافد الأجانب عليها، استقرار أول نائب قنصل إنجليزي بالمدينة سنة 1857، وهو نائب القنصل البريطاني العام. ويبدو أن ذلك الاستقرار له علاقة بالتطور الذي حصل في العلاقات المغربية البريطانية، إثر عقد معاهدة الصداقة والتجارة بين البلدين في 1856. تلك المعاهدة التي كانت أول خطوة هامة خطتها أوربا في سبيل تدخلها بالمغرب(39). ذلك أن المعاهدة البريطانية المغربية المذكورة، فتحت - في الواقع ولأول مرة أبواب المغرب للتجارة الأروبية. وأعطت للتدخل الأروبي أسسا قانونية. وحطمت مراقبة المخزن للمبادلات مع الخارج، تلك المراقبة التي كانت سلاحه الوحيد، لحصر التسرب الأجنبي في نقط معينة. وحماية المجتمع المغربي التقليدي من غزو البضائع المصنعة والرأسمال الأجنبي. وبعقد هذه المعاهدة، نجح الإنجليز في توجيه المبادلات المغربية نحو المحيط الأطلسي، وتغلبت بذلك تيارات المبادلات البحرية على تيارات التجارة البرية، التي كان فرنسيو الجزائر يرغبون في تشجيعها لصالحهم.

لقد منحت معاهدة 1856 للإنجليز عدة امتيازات منها حرية التجارة في الموانئ المغربية، وأداء ضريبة جمركية محددة على الواردات، حددت بـ 10٪ من قيمة السلعة المستوردة. كما حددت رسوم الصادرات حسب كل مادة.

وإذا أضفنا لهذه الامتيازات التجارية، الامتيازات القضائية، التي حصل عليها البريطانيون، حيث منحهم الشرط الثامن من المعاهدة العامة، حق التقاضي أمام القنصل الإنجليزي فقط، في حين أقر الشرط التاسع مبدأ "المدعي يتبع المدعى عليه لمحكمة بلاده"، تتبين لنا مدى خطورة تلك الامتيازات.

والجدير بالملاحظة في هذا الصدد، أن الإمتيازات المذكورة، لم تقتصر على البريطانيين فقط، بل استفاد منها الأوربيون جميعا، خاصة بعد حرب تطوان، وانعقاد المعاهدة المغربية الإسبانية لسنة 1860-1861.

لقد زادت معاهدة الصداقة والتجارة التي عقدتها إسبانيا مع المغرب سنة 1861، في تسريح تصدير كثير من المواد والبضائع المغربية، وحددت بدورها الرسوم الجمركية على الصادرات والواردات مثل المعاهدة السابقة مع ابريطانيا. لكنها منحت مزيدا من امتيازات الحماية للأجانب(40).

أما اتفاقية 1863، التي انعقدت بين فرنسا والمغرب حول الحماية القنصلية، فإنها مثلت أساسا متينا للتسرب الأروبي وسط المجتمع المغربي. ذلك أن هذه الاتفاقية منحت للتجار امتيازات حماية مغاربة في كل مدينة يكون لهم نشاط تجاري بها(41). وأصبح من السهل على كل تاجر أن يستخدم مغاربة بصفتهم سماسرة محميين - للتدخل في الأسواق الداخلية للبلاد، ومنافسة المغاربة في شراء المواد الخام كالحبوب والأصواف والجلود وغيرها. وفي الواقع كانت الغلبة باستمرار، للسمسار الذي يستند إلى رأسمال أجنبي متفوق، والذي أصبح بإمكانه امتلاك الأرض وقطعان الماشية لفائدة صاحبه التاجر الأجنبي عن طريق المخالطات مع الفلاحين(42).

إن الامتيازات التي حصل عليها الرعايا الأجانب كنتيجة للمعاهدات والاتفاقيات السابقة، شجعت توافد الأجانب على المدن المغربية، وعلى رأسها الدارالبيضاء لما تتوفر عليه من إمكانيات اقتصادية، ومزايا مفيدة للتجارة الأروبية.

ب المبادلات التجارية بالدارالبيضاء

في دراسته لأصول تطور الدارالبيضاء، أكد ميج Micge (43) على الدور الفعال للخارج، وللتجارة الأروبية في الدفع بالمدينة إلى الأمام، ذاكرا أن أصل ثروتها يرجع لأحداث سوق للأصواف وصعود البرجوازية، ودخول الملاحة التجارية ميدان النقل. وقد اتخذ أندري آدم A. Adam (44) هذه النتيجة كمسلمة لا زائد عليها، مؤكدا بدوره على أن الدفع جاء من الخارج وبالضبط من المبادرة الأوربية.

وقبل أن نوضح مبالغة هذه الأحكام، تجدر الإشارة إلى وجود ملاحظات وتقارير سابقة لما ذكر، تتفق على منح الفضل في تطور الدارالبيضاء للأجنبي. "فبدون الأجنبي كانت الدارالبيضاء ستبقى بدون شك، قرية صغيرة، وسوقا هاما على الأكثر"(45) حسب بعضهم. في حين أشار نائب القنصل الفرنسي سنة 1875، إلى أن المدينة هي الميناء المغربي الذي عرف تطورا سريعا، و"هذه النتيجة ترجع الى الدفع الفعال للجالية الفرنسية للمبادلات التجارية." حسب زعمه(46).

واضح أن هذه الأحكام تتناسى العوامل الطبيعية والاقتصادية التي أشرنا إلى بعضها سابقا، والتي كان لها الأثر الفعال في جذب التجار الأوربيين للدار البيضاء.

ويمكننا أن نضيف إلى مزايا الدارالبيضاء توفرها على مرسى يستطيع استقبال السفن الكبرى، التي لم تعد الموانئ النهرية قادرة على استقبالها، كميناء العدوتين. وتوسطها بين الحوز والغرب فمن الدارالبيضاء يمكن جلب المواد الخام من الجديدة والقبائل المجاورة لها ومن الرباط وسلا(47).

ثم هناك عامل استراتيجي، يتلخص في تحكم الدارالبيضاء في الطريق الرابطة بين فاس ومراكش، وفي كون المدينة تقع على ساحل أصبحت له أهمية استراتيجية في زمن التوسع الإمبريالي، والتنافس على المغرب، "إنه على الساحل، سواء الأطلسي أو المتوسطي - يقول كاسطوني Castonnet des fosses - تتصارع المصالح الأوربية حاليا بالمغرب"(48). ومهما يكن فإن انخفاض أسعار المواد الخام بالمغرب ووفرتها وجودتها، وبحث البرجوازية الصناعية عن المنافذ والأسواق الجديدة لتصريف سلعها، وموقع الدارالبيضاء القريب من هذه المواد والصالح لاستقبال السفن الضخمة، كلها عوامل مغرية في حسابات الرأسمالية. وهذا مايفسر استمرار تطور الدارالبيضاء بالقياس لموانئ مغربية أخرى.

ولقد تضاعفت قيمة المبادلات بالمدينة بين 1848-1855 بثلاث مرات وأصبحت نتيجة لذلك تحتكر 1/5 نشاط الموانئ المغربية التي كانت مفتوحة آنذاك للتجارة الأوربية، وهي تطوان، طنجة، العرائش، الرباط - سلا، الدارالبيضاء، الجديدة، آسفي والصويرة(49).

وقد وصلت قيمة تجارة الدارالبيضاء سنة 1867 إلى 6 ملايين فرنك ذهبي ونصف، وتجاوزت سنة 1875، 13 مليون فرنك ونصف(50). وقد ارتبط هذا التطور بإقبال التجار على شراء البضائع المغربية، وتزايد استيراد السلع الأروبية.

وأهم البضائع التي كانت توسق من مرسى الدار البيضاء هي الحبوب، كالقمح والشعير والذرة، والأصواف والجلود، ثم الحمص والفول والحلبة والقزبور والعظام والشمع الطبيعي (51).

أما البضائع المستوردة فيأتي على رأسها الصابون والسكر والكتان والمنتوجات القطنية والتوابل والأصباغ والشاي والكاز والزجاج والكاغد (الورق)(52). ونظرا لأن الدار البيضاء أخذت تتحول شيئا فشيئا إلى مركز لتوزيع البضائع المستوردة من أوربا في المغرب، فقد عرفت توافد تجار من فاس والرباط للاستقرار بها. إن هذا التحول يبرز الأهمية التي أصبحت المدينة تحتلها في التجارة الداخلية للبلاد(53). لقد أصبحت الدار البيضاء، ثغرا تجاريا، يلعب دورا حيويا، في إقتصاد المغرب، ويعتمد عليه بيت المال بشكل كبير.

ويشهد على هذا الدور، أن جمارك المدينة عرفت انتظاما في تعيين الأمناء منذ 1874(54). ومما يبرز المكانة التي أصبحت تحتلها المدينة أن السلطان مولاي الحسن 1873-1894، أمر بتنظيم جباياتها سنة 1875، حيث كلف الأمين محمد التازي الرباطي، بتنظيم مستفادات المدينة، وعين لذلك أمينا خاصا. في حين قصر مهمة أمناء المرسى على نشاط المرسى الخاص بالوسق والوضع. يفهم ذلك من رسالة وجهها السلطان لأمناء الدارالبيضاء جاء فيها "وبعد فقد اقتضى نظرنا [...] ترتيب أمر مستفادات الأبواب والمنافع هناك على ما هو مرتب بفاس ومكناس، وقد وجهنا خديمنا الأرضى الأمين الطالب محمد التازي الرباطي، الذي كان متوليا ذلك بفاس ليرتبه على أحسن ترتيب، على ما يقتضيه الحزم (من) الضبط في أمرها. وصحبته الأمين الذي عيناه بقصد البقاء لمقابلة ذلك هناك، فنأمركم أن تشدوا عضده على ترتيب ذلك كما ينبغي، وتشدوا عضد الأمين الذي يتركه هناك، وأن تمكنوه من جميع المدخولات، من مستفاد المنافع، وكراء الأملاك، ومستفاد الكبريت والمواريث، وغير ذلك ليرتبها ويحوز مستفادها، ويدفع لكم ما تحصل كل يوم، وتقتصروا أنتم على مستفاد المرسى وسقا ووضعا لا غير والسلام"(55).

وفي السنة الموالية زار السلطان المدينة، وتفقد نشاط المرسى، ومحلات وضع السلع. ويبدو أن التجار اشتكوا له من التعطل الذي يحصل في وضع السلع من السفن ووسقها فيها، ومن تراكم البضائع "بالديوانة"، فوعدهم بإصلاح "مُونْ" المرسى حتى يسهل على البحرية إنزال السلع ووسقها في أسرع وقت ممكن(56).

وبالرغم من الأزمة التي أصابت التجارة في أواخر السبعينات من القرن التاسع عشر، والتي نتجت ليس فقط، عن القحط والمجاعة والوباء، الذي أصاب المغرب في خريف 1878، مما أدى إلى تعطل التجارة وتضرر الكثير من التجار الذين حدثت بينهم وفيات كثيرة بالدار البيضاء(57). بل صادفت هذه الأزمة بالمغرب ظرفية غير ملائمة بأوربا، تميزت بانخفاض الأسعار، نظرا للحماية الجمركية، المرتبطة بحركة التصنيع والتنافس الإمبريالي(58). بالرغم من هذه الأزمة التي تضررت منها تجارة الدارالبيضاء، فقد عرف نشاط الميناء ازدهارا كبيرا منذ 1884 وخاصة ابتداء من 1886، حيث أصبح ميناء الدارالبيضاء مركز تجميع للمنتجات الداخلية الموجهة للتصدير، والبضائع المستوردة الموجهة للتوزيع في داخل البلاد(59). ذلك أن مجال المدينة التجاري اتسع بشكل أخذ يشمل، ليس الشاوية والأقاليم المجاورة، كورديغة وبني مسكين، بل امتد حتى تادلا ودمنات، وأخذت تؤثر كذلك على تجارة الصويرة، إذ بدأت منتوجات الرحامنة وقبائل حوزية كثيرة تتجه صوب ميناء الدارالبيضاء(60).

والواقع أن نشاط مرسى الدارالبيضاء، ازداد كثيرا، وعرف ازدهارا متعاظما، مكنه من القيام بدور الوسيط في توزيع ما يستورده التجار إلى المغرب، وفي تصدير منتجات أقاليم مغربية متعددة. وهكذا شمل تأثير مرسى المدينة مدنا داخلية كفاس ومكناس ومراكش. أما ميناء العدوتين، فلم يعد يمثل الا ميناء ملحقا بميناء الدارالبيضاء. وبهذا النشاط المتعاظم، احتلت الدارالبيضاء الرتبة الأولى بين 1888-1892، ثم 1895. أما منذ 1906 فقد احتلت الصدارة من بين الموانئ المغربية(61). وقد أشارت التقارير، إلى كثافة المبادلات بين المدينة والأقاليم الداخلية، وذكرت أن قوافل الجمال التي كانت تتردد على المدينة يوميا، كان عدد جمالها يبلغ ما بين 2000 و3000 جمل. وأن الأزقة القريبة من دار الجمارك، كانت ممتلئة "بخناشي" القمح والذرة والحمص والشعير، وآلات تنقية هذه الحبوب لإعدادها للوسق(62).

جـ ما هي انعكاسات هذا النشاط التجاري على الوضع المالي بالمغرب ؟

إن الهدف من هذا التساؤل، هو القيام بمحاولة أولية لإبراز الأهمية التي كانت تلعبها الدار البيضاء، ليس على المدى البعيد الذي رأيناه، بل على مستوى التوازن المالي اليومي لبيت المال وعلى سير دواليب المخزن. وفي هذا الإطار، سنتعرف بإيجاز ـ حسب ما تسمح به المصادر التي تم التعرف عليها ـ على حجم

المداخيل المالية لمرسى المدينة ومستفاداتها، وأوجه صرف هذه المداخيل. ونظرا للثغرات الموجودة بالمصادر ولقلة المعطيات موضوع التحليل، فسنقتصر على إعطاء بعض الأمثلة التي تساعدنا على الخروج ببعض الاستنتاجات التي لن تكون نهائية.

أهمية مستفادات الدار البيضاء

في 1875/1292 كان للمخزن أملاك بالدارالبيضاء ومنافع تجبى منها مداخيل هامة. وإذا كان عدد تلك الأملاك غير معروف بالضبط، فإنها كانت تشمل عددا من الدور والأهرية المكتراة للتجار الأجانب والمغاربة يبلغ عددها حوالي 30 بين دار وهري(63)، يضاف لها بعض الحوانيت الصغيرة. كما كانت أملاك المخزن بفضالة (المحمدية)، وكانت تشمل 5 حوانيت، وطاحونة وفرن ودار فخارة ودار للصابون ، تابعة لأملاك الدارالبيضاء(64).

أما المنافع فكانت متعددة وكان مرتبا لكل منفعة أمين لجبايتها وأهم هذه المنافع

1. الباب 2. الجوطية 3. قلة الزيت 4. سوق الفاخر والرماد 5. سوق العود الحطب 6. المجزرة 7. سوق البقر والغنم 8. رحبة الزرع 9. طابع الفضة 10. الكبريت.

وهناك منافع كانت تباع بعد سمسرتها بالمزاد العلني وهي

1. الصاكة 2. سوق الجلد النيء 3. مهراس القهوة 4. "دولة الجمال والبقر والبهائم".

وقد بيعت هذه المنافع في السنة المذكورة (1292) كالآتي

الصاكة	8000 مثقال
الجلد النيء	4200 مثقال
مهراس القهوة	0480 مثقال
دولة الجمال والبقر والبهائم	1152 مثقال
المجموع	13.832 مثقال (65).

ومن المصادر الأخرى التي كانت تدخل في مستفادات الدارالبيضاء حوالي سنة 1875 مستفاد القوارب المستخدمة بالمرسى، ثم الجزية "وأبي المواريث" والزكاة(67).

أما في سنوات 1891/1308، فإن المستفادات التي كانت تجبى بالمدينة كانت موزعة على المرافق الآتية

1. المنافع التي تجبى يوميا

- سوق البقر والغنم
- المجزرة.
- الجوطية.
- سوق الخشب.

كان مردود هذه المنافع في شهر رمضان 1891/1308 هو 1100 مثقال. وكان متوسط مردود العام كله حوالي 8000 مثقال، لأن متوسط مردود الشهور الأخرى لم يكن يتعدى 600 مثقال (68).

2. أما المنافع التي كانت تجبى شهريا فكانت كثيرة، تشمل مستفادات الدور والعقارات المكتراة والمشتركة مع الخواص والأملاك المكتراة للأجانب والتجار بـ 6٪، وكذلك مستفادات الأسواق بالمدينة والقبائل المجاورة، ومستفاد القوارب، وطابع الفضة، وكان مدخول هذه المنافع خلال شهر رمضان المذكور حوالي 19.623 مثقال بإضافة المردود اليومي المذكور أعلاه لشهر رمضان(69).

إن المقدار المذكور، كانت تؤخذ منه بعض صوائر أمين المستفادات التي بلغت في الشهر المذكور 796 مثقال، فيكون إذن صافي مدخول شهر رمضان لسنة 1308 هو 18.827 مثقال.

وفي سنتي 1309-1310، نلاحظ أن مجموع المداخيل الصافية، بعد طرح أجرة أمين المستفادات ومساعديه، بلغت سنة 1892/1309 = 257.590 مثقال.

وبلغت سنة 1893/1310 = 234.907 مثقال (70)

وقد كانت هذه المداخيل تدفع لأمناء المرسى لتحفظ مع مداخيل مرسى المدينة الناتجة عن النشاط التجاري.

أما مداخيل المرسى فكانت هي الأهم. وإذا أخذنا سنة 1892 كمثال، فسنلاحظ أن مدخول شهر شوال 1309 الموافق لأبريل ماي 1892 هو (18666.6.91)، ثمانية عشر ألف مثقال وستمائة وستة وستون مثقالا وستة أواقٍ وواحد وتسعين سنتيما(71). هذا عن الواردات.

فيكون إذن مجموع مدخول المرسى لمدة 12 شهرا هو حوالي 223.993 مثقال. لكن إذا حاولنا التعرف على مداخيل المرسى وسقا ووضعا، فسنجد أن مداخيل شهر رمضان 1309 أفريل 1892 بلغت 27.771 ريال، وهذا مدخول مهم جدا، بحيث يكون مدخول المرسى لمدة سنة حوالي 27.771 x 12 = 333.252 ريال (حوالي 3.999.024 مثقال).

إن المداخيل المذكورة لم تكن قارة ولا يمكن اتخاذها علامة على مدخول مرسى المدينة في السنوات الموالية، فمن مراجعة كنانيش مستفادات مرسى الدارالبيضاء نلاحظ زيادة هامة متوالية.

وهكذا فمداخيل شهر جمادى الثانية عام 1319 الموافق 15 شتنبر 13 أكتوبر 1901 بلغت 57152,18 ريال عن الموسوقات و 15414.05 ريال عن الموضوع (الواردات). أي حوالي 72.567 ريال.

وإذا أضيف لهذه المداخيل ما كان أمناء المرسى يأخذونه من أمين المستفادات، فيتحصل «في الشهر المذكور موضوعا (واردات) وموسوقا (صادرات) وما أضيف لهما مما قبض من مخاطيف البابورات والمراكب، وما قبض من أمين المستفادات، ستة وسبعون ألف ريال(...) ومائة ريال بالأفراد وأربعة وستون ريال وتسعة عشر بليونا وأربعة وثلاثون سنتيما»(72)، (76164.19.34 ريال). وعلى هذا الأساس يكون مدخول السنة كالآتي 76.164 ريال x 12 = 913.968 ريال. لكن مدخول شهر رجب من السنة المذكورة أعلاه لم يتعد 57.041 ريال. أي مجموع سنوي قدره 57.041 x 12 = 684.492 ريال.

وإذا أخذنا متوسط مدخول الشهرين المذكورين وهو 66.602,5 ريال فيكون المدخول السنوي تقريبا هو 66.602,5 x 12 = 799.230 ريال، وهذا مقدار هام، إذا علمنا أن مداخيل قبيلة الشاوية كلها، من زكاة وعشور هو 150.000 ريال. على الرغم من أن هذا المقدار الأخير لم يكن هو ما يجبى من القبائل فقط، بل كانت لها مساهمات كثيرة ومتنوعة كما أشرنا لذلك سابقا.

ومعنى كل هذا أن مدينة الدارالبيضاء كانت تلعب دورا حيويا ليس في اقتصاد البلاد فقط بل وفي المداخيل التي كان يعتمد عليها بيت المال لمواجهة مصاريف المخزن المتعددة.

وتسمح لنا هذه المعطيات القليلة باستنتاج هام، هو أن أهمية الدار البيضاء الإقتصادية والجبائية كانت على الأقل تعادل ضعفي الجبايات التي كانت تساهم بها قبائل الشاوية كلها. ومن هنا تأتي أهمية الثغر البيضاوي بالنسبة للمخزن الذي أصبح يعيش أزمة مالية مزمنة منذ 1900.

لقد كانت جبايات الدارالبيضاء وخاصة مداخيل المرسى تساهم في تسديد ديون المخزن ومشترياته. ونتعرف على نسبة هذه المساهمة بالنسبة لمساهمة الموانئ الأخرى من الرسالة التالية، التي بعثها مولاي الحسن للنائب محمد الطريس حول دفع قسمتين من ثمن مركب حربي اقتني من إيطاليا. يقول السلطان "وبعد فقد أصدرنا أمرنا الشريف لأمناء المراسي المبينة بطرته بأن يوجهوا لك سبعة وسبعين ألف ريال 77.142 ومائة ريال واثنين وأربعين ريالا، على التقسيط المبين بمنته. فنأمرك أن تقبلها منهم، وتدفعها لباشدور الطليان من قبل القسمتين الحالتين من ثمن المركب الحربي المتقدم لك الأعلام به وتحوز منه خطه بتوصله بها والسلام" والتقسيط المشار إليه هو

«فمن وفر أمناء الدار البيضاء الأقدمين 15.000 ريال.

ومن وفر أمنائها الجدد 25.000 ريال.

ومن وفر أمناء الجديدة 20.000 ريال.

ومن وفر أمناء آسفي 10.000 ريال.

ومن وفر أمناء طنجة 07.142 ريال.

وهكذا تكون نسبة مساهمة الدار البيضاء أكثر من النصف بالنسبة لمجموع مساهمة الموانئ المذكورة(73). ونستطيع أن نعمم هذا المثال الجزئي، إذا علمنا أن مدخول الدار البيضاء كان يفوق مدخول كل ميناء على حدة من الموانئ المذكورة، وتتأكد من ذلك بالإشارة إلى أن مجموع مداخيل الموانئ المغربية الثمانية تطوان طنجة العرائش، الرباط سلا، الدار البيضاء الجديدة آسفي الصويرة، في المدة المتراوحة بين 1900-1903 هو 48.946.670 بسيطة وأن مدخول الدارالبيضاء وحدها خلال تلك المدة المذكورة هو 13.287.285 بسيطة أما مدخول طنجة وكانت أهم ميناء من حيث قربها من أوربا ونشاط مرساها فهو 7.764.660 بسيطة فقط (74).

الدار البيضاء والأطماع الفرنسية

لا جدال أن هذه الأهمية التي كانت تمتاز بها الدارالبيضاء، لم تكن خافية على المؤسسات الأجنبية وخاصة على موجهي السياسة الاستعمارية الفرنسية.

والواقع أن الرأسمال الفرنسي بدأ منذ 1903 على الأقل يولي السوق المغربية أهمية خاصة، ويظهر هذا الاهتمام للاحتكارات الرأسمالية الفرنسية، في حرصها ونجاحها سنة 1904 في الاسحواذ على السوق المالية بالمغرب عن طريق عقد اتفاقية اقتراض 1904(75).

والجدير بالانتباه في هذا الصدد، أن الفرنسيين بدأوا منذ سنة 1903 في القيام بدراسات عن نشاط الثغور المغربية الأطلسية وعلى رأسها الدارالبيضاء. وهكذا قام "أوكستان برنار" A. Bernard بمهمة في المدينة بتكليف من الحاكم العام للجزائر سنة 1903 وكتب يقول عن نشاط المدينة «إن النشاط التجاري بالميناء كثيف جدا وليس من النادر أن ترى فيه 8 أو 10 بواخر تجارية بالمرسى» تنتظر الشحن والإفراغ(76).

وفي سنة 1904 قام "لومواني" M.P. Lemoinc ببعثة مماثلة وكتب يقول عن أهمية المدينة "إن الدارالبيضاء مدينة هامة للغاية، وهي ربما أهم مدينة مغربية من وجهة نظر تجارية. فهي تقع وسط سهول الشاوية الساحلية الجيدة الخصوبة، وهي نقطة التقاء القوافل الآتية من الداخل. وهي ميناء نشيط جدا. وتجارة القمح والشعير بها ضخمة ولا يمكن إلا أن تزداد"(77).

بالإضافة إلى هذا الإهتمام الإقتصادي، كان هناك اهتمام مماثل من الناحية الحربية. فالفرنسيون لم يتمكنوا من التأثير بعيدا في المجتمع المغربي، بشكل يجعله يقبل تدخلهم دون مقاومة، ولم يتمكنوا من إخضاع المخزن نهائيا، بحيث يقبل شروطهم دون معارضة، وهذا بالرغم من مضاعفة عمليات التسرب عبر الحدود الشرقية، وقضم هذه الحدود المرة تلو الأخرى.

أمام هذا الواقع، بدأ إهتمام الفرنسيين بالسواحل الغربية. وأنصب الإهتمام على الثغور الموجودة بها وخاصة الدار البيضاء التي اعتبرتها التقارير العسكرية أهم نقطة يمكن الإنطلاق منها في أي عمل عسكري ضد المغرب.

وقد جاء في تقرير للجنرال فاريو Fariau، قائد البعثة العسكرية الفرنسية بالمغرب ما يوضح هذا الإهتمام إذ قال

"إن الدارالبيضاء هي النقطة الوحيدة بالساحل التي يمكن فيها الإنزال في كل وقت تقريبا. وهي منفذ للمنطقة الغنية بالحبوب. ونقطة إنزال ذات مزايا لطابور يكون من مهامه مراقبة قبائل الوسط والجنوب. بحيث يمنع نقل مساندتها في حالة القيام بحملة إلى فاس. وعند اللزوم يمكن أن تصبح الدارالبيضاء قاعدة للزحف على مراكش"(78).

وإذا أضفنا لهذه العوامل الخاصة، عوامل أخرى عامة تتعلق بالسياسة الاستعمارية، والتنافس التجاري حول المغرب، وتوازن القوى بأوربا، ورغبة الفرنسيين في إنهاء المسألة المغربية لصالحهم في أقصر وقت وبأقل جهد تأكد لنا أنه كان لابد للفرنسيين من فتح ثغرة في قلب المغرب أو على الأقل الحصول على موطئ قدم في الساحل الأطلسي، ليكون بمثابة الفك الثاني للكماشة الفرنسية التي يمكن حينئذ إحكام ضغطها من الشرق عبر الحدود ومن الغرب.

ومما ينبغي ذكره في هذا الباب، أن الجهود الفرنسية في ميدان التجارة كللت بالنجاح سنة 1906، حيث احتلت فرنسا الرتبة الأولى من حيث مجموع الصادرات والواردات، بنسبة 36.99٪ أمام ابريطانيا 34.01٪ وألمانيا، التي قطعت شوطا كبيرا بدورها لتحتل الرتبة الثالثة بنسبة 14.72٪ بالرغم من أنها جاءت متأخرة واستطاعت أن تتفوق على باقي البلدان الأخرى مجتمعة، كإسبانيا والبرتغال وبلجيكا... إلخ التي كانت نسبة تجارتها مع المدينة لا تتعدى 14.28٪ (79). وفي هذه السنة 1906، نجح الفرنسيون كذلك في الحصول على امتياز إصلاح مرسى الدار البيضاء (80).

ولقد نتج عن تطور مبادلات الدارالبيضاء مع أوربا، وتطور نشاط مينائها توافد أعداد متزايدة من الأجانب. وازداد هذا التوافد في سنة 1906 والسنة الموالية 1907، خاصة مع بدأ أشغال الميناء.

هـ تطور سكان الدارالبيضاء

أ. الجالية الأجنبية

إن النشاط الكبير الذي ميز الدارالبيضاء، والاهتمام الأجنبي بها، كانت لهما نتائج هامة في جلب عدد متزايد من الأجانب للاستقرار بالمدينة.

وقد اقتصر الإستقرار الأجنبي في البداية، على عدد من التجار الممثلين لبعض المؤسسات التجارية. وإذا كانت سنة 1839 قد عرفت بداية استقرار الأوربيين بالدار البيضاء، فإن عدد الجالية الأروبية لم يتعد 77 نسمة في سنة 1856 (81).

لكن انفتاح السوق المغربية للتجارة الأروبية، بعد اتفاقيات 1856-1863 المذكورة، أدى إلى توافد العديد من التجار والمغامرين، بحيث وصل عدد الجالية الأجنبية بين 60 و 100 نسمة حوالي سنة 1866-1867. ثم تضاعف سريعا ليصل إلى 215 نسمة في 1878 (82).

ويعزى هذا التزايد إلى التطور الذي حصل في ميدان منح الحمايات، واتساع المبادلات بين المغاربة والأوربيين بالمنطقة بصفة خاصة، وإثر تطور *العلاقات الأوربية المغربية على وجه العموم*.

وعلى الرغم من الركود الذي أصاب عدد الجالية الأروبية إثر أزمة 1878، حيث ضرب وباء الكوليرا سكان المدينة، واقترن بالجفاف، الأمر الذي أدى إلى رحيل بعض التجار بعد أن خسروا قطعان الماشية التي كانوا يملكونها بالمشاركة مع المغاربة(83). فنقص عدد الأوربيين إلى 160 نسمة في 1884. وعلى الرغم من هذا الركود، فإن السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر عرفت استقرار عدد متكاثر من الأجانب بالدار البيضاء. وهكذا وصل عددهم 450 نسمة في 1895، ثم انتقل إلى 570 نسمة في 1905. وفي 1907 بلغ عدد الأجانب بالدارالبيضاء، حوالي 1000 نسمة(84). وابتداء من هذا التاريخ بدأ سيل من المهاجرين الأجانب وخاصة الفرنسيين يصل للمدينة.

ب مجموع سكان الدارالبيضاء

ولقد صاحب تطور عدد الجالية الأجنبية، تطور مماثل في عدد سكان المدينة بصفة عامة. فقد كان مجموع عدد سكان الدارالبيضاء سنة 1857 حوالي 1200 نسمة وبعد عشر سنوات قدر عددهم بين 7000 و 8000 نسمة(85)، ثم تضاعف ليصل إلى 13.000 نسمة سنة 1885، و 21000 نسمة في 1890. أما في 1907 فقد وصل عدد سكان الدارالبيضاء إلى 30000 نسمة(86).

كانت أغلبية السكان المغاربة تتكون من عناصر بدوية معظمها من قبائل الشاوية، خاصة قبائل زناتة ومديونة. وقد هاجر هؤلاء البدويون للمدينة تبعا للتطور التجاري، وتوافد التجار، إذ كان التجار يحتاجون لمساعدين كما كان نشاط المرسى يتطلب العديد من العمال. وبقدر ما كان عدد سكان المدينة يتزايد كان لابد من توافد العديد من الحرفيين، إذ كان الطلب يزداد باستمرار على بناء المساكن وغيره من الحرف. وهكذا كانت أغلبية سكان الدار البيضاء تتكون من "بروليتاريا" عريضة، تشمل صغار الحرفين، وأصحاب الحوانيت، والحمالين، والبحارة والمستخدمين عند التجار.

وبجانب هذه الفئة الفقيرة، يمكن إضافة فئة من الأغنياء الذين كانوا في الواقع من أعيان القبائل القاطنين بالمدينة أو الذين كانوا يملكون مساكن بالبادية وبالمدينة في الوقت نفسه.

وبجانب هؤلاء كانت تقطن الدارالبيضاء فئة من التجار الحضريين الذين وفدوا من الرباط وفاس.

وإذا كان معظم اليهود المغاربة يعدون ضمن الفئة الأولى، فإن عددا غير قليل من كبار التجار اليهود، قد استغنوا عن طريق التجارة والمضاربة الفلاحية، وكانوا في الغالب من المحميين أو المتجنسين بجنسيات مختلفة فكانوا بهذه الصفة يلحقون بالجالية الأجنبية. وإذا كان التجار الأجانب وأغنياء المدينة من المغاربة يقطنون في دور جميلة ذات شرفات، فإن الغالب على سكنى الفئة الفقيرة كان هو الأكواخ المبنية بالقصب والطين وكانت هذه الأكواخ تميز الحي الشعبي الذي كان يعرف بحي "الطناكر"

جـ عناصر إدارة الدارالبيضاء سنة 1907 :

كان يؤطر هؤلاء السكان، إدارة محلية متكاملة ومنظمة تنظيما محكما فالعامل هو المكلف بأمن المدينة والمسؤول أمام المخزن، ويساعده خليفة وعدد من العسكر. ثم مقدمي الأحياء، وأصحاب "الدور"، الذين يقومون بالحراسة الليلية. وشيخ اليهود المكلف بالملاح. وكانت الأحكام الشرعية بيد قاضي المدينة يساعده عدلان. أما مراقبة الأسواق فكانت من مهمة المحتسب. والجبايات بالمدينة كان مكلفا بها أمين المستفادات. كما كان ناظر الأحباس يدير أملاك الأحباس، وأبو المواريث يدير أملاك من لا وارث له. أما أمين الرباع، فكان مكلفا بأملاك المخزن. في حين كان أمناء الديوانة، أي أمناء المرسى مكلفين بالجمارك. وكان قائد المرسى أو كبير البحرية، هو الوسيط بين الإدارة والبحرية والحمالين في كل ما يهم شؤون المذكورين.

بجانب هذه السلطات المغربية، كان قناصل الدول الأجنبية، كثيرا ما يتدخلون لدى العامل، لحثه على اتخاذ بعض الإجراءات، التي تكون في صالح الأجانب من الناحية الأمنية. ويتدخلون لدى أمين المستفادات، للقيام ببعض الخدمات لصالح الجالية الأجنبية، لأنه كان يراقب تنظيف المدينة وبناء الدور والأهرية، كما كانوا يتدخلون في شؤون المحتسب عن طريق حمايتهم لبعض أصحاب الحناطي كحنطة الجزارة مثلا(87).

والقناصل الأروبيون الذين كانوا موجودين إبان حادثة 1907 هم

1 قنصل إنجلترا - Madden

2. قنصل فرنسا Malpertuy

3. قنصل إسبانيا - Ruiz

4. قنصل إيطاليا - Garassino
5. نائب قنصل السويد - Fernau
6. نائب قنصل الدنمرك - Buttler
7. نائب قنصل البرتغال - Defretas
8. القنصل الألماني - Luderiz
9. القنصل الأمريكي ?

هوامش الفصل السادس

1) ـ الحسن الوزان، م س، ص 154-155.

2) -
G. Robert ricard, Instructions nautiques portuguaises, Hesp; 1927, p 240.

3) -
J. G. Jackson, An Account of the Empire of Morocco, London 1968, p, 40-43.
Brives A., Voyages au maroc 1901-1908, A. Jourdan, Alger 1909, p4-5.

4) ـ ك خ ح 635، ص 256

5) ـ ك خ ح 400، "مستفادات الدار البيضاء" 1309-1308 / 1892-1891.

6) ـ عن هذه الحركة راجع ابن زيدان عبد الرحمان، اتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس، طبع 1930 ج 2، ص 264-277.

ـ المشرفي محمد، الحلل البهية في أخبار ملوك الدولة العلوية، مخطوط خ ع.

7) ـ الرسالة مؤرخة 27 رمضان 1310 موافق 14 أبريل 1893، و خ ح 603.

8) ـ و خ ح، رسائل عديدة من قواد الشاوية للسلطان، عن سنة 1312/1894-1895.

9) ـ أحمد بن العربي المديوني لمولاي الحسن، 9 رجب 1307 موافق 1 مارس 1890، وخ ح 738.

10) ـ و خ ح

11) ـ في 1302/1885 أمر أمناء الدار البيضاء بشراء القمح من الشاوية لفائدة المنطقة الشمالية وإرساله لأمناء تطوان، و م ح، ح 906 كناش خ ح 364، ص 227.

12) ـ عبد الرحمان ابن زيدان، العز والصولة، الجزء المخطوط خ ح، ص 76

13) ـ عن أهمية المحافظة على بهائم المخزن بالشاوية، تنظر الوثائق المخزنية العديدة خ ح. وخاصة كناش خ ح 234.

14) - في 3 ربيع النبوي 1312 - 4 شتنبر 1894 اشتكى قائد مديونة من إرسال المخزن 370 بغل له وحده، و خ ح، ح 420.

15) - أنظر تقرير عن وضعية النفوذ الفرنسي بالمغرب في

A.G.V. 3 h 15 Janvier 1905

16) - عن أصول آنفا أنظر الفصل الهام الذي خصصه أندري آدام "لتأسيس المدينة" حيث استبعد الأصل الروماني والقرطاجي، ورجح بناءها من طرف البربر.

A. Adam, Histoire de casablanca des origines à 1914, F. des lettres d'AIX, 1968.

والجدير بالملاحظة في هذا الباب أن أبا القاسم الزياني، أشار إلى أنه لما "استقرت قبائل البربر بالمغرب ونزل زناتة تامسنا وتادلة ونزل صنهاجة دكالة، بنى أمراء زناتة مدينة آنفا بتامسنا ومدينة داي بتادلا"

- أبو القاسم الزياني، الترجمانة الكبرى، تحقيق عبد الكريم الفلالي، الطبعة الأولى 1967، ص 78

17) - "وفي شمال هذا النهر (أم الربيع) على بعد 50 ميلا (توجد) من (بين) فرض تامسنا المشهورة بالقمح آنفا ومعظم سكانها برغواطة "ابن سعيد المغربي، المتوفى سنة 673هـ. "بسط الأرض في الطول والعرض"، تحقيق خوان خنيس، تطوان 1958، ص 71-72.

18) - الناصري الاستقصا، 3 ، 51-52 و 240-241.

18 مكرر) - لسان الدين ابن الخطيب، "معيار الإختيار في ذكر المعاهد والديار" تحقيق د. محمد كمال شبانة، مطبعة فضالة دون تاريخ، ص 156.

19) - الوزان، وصف إفريقيا جـ 1 ص 155-156.

20) - ذكر "طاريو" أن آنفا تحولت بعد تدهور المرينيين إلى شبه جمهورية مستقلة كونت أسطولا جهاديا أقلق مضاجع ملوك أيبريا وخاصة البرتغاليين.

Tarriot A, Monographie de Casablanca, 1907-1914, p. 5.

21) - الحسن الوزان، م س، 1 ص 156. مدن وقبائل المغرب، الدار البيضاء والشاوية، جـ 1 ص 26.

22) - وصف إفريقيا 1، 156.

23) - الناصري، الاستقصا 8، ص 69 : بنى مدينة آنفا ومسجدها ومدرستها وحمامها وصقائلها وأبراجها"

- ابن زيدان عبد الرحمان، الاتحاف 3، 179.

2)- عن سياسته الخارجية

H. Terrasse, Histoire du maroc, ed. A., casablanca, 1953.

ابن زيدان عبد الرحمان، اتحاف أعلام الناس، 3، ص 267.

- (2

CF, Barthelmy sans, Légende marocaine au sujet de Dar El BAIDA, non arabe de Casablanca. In S. trim. Soc, géo. Arch. D'Oran, Sept. - Decembre 1925, Oran, P 306.

Casablanca et les chaouia, T I P. 32.
A. Adam, op. cit P, 73.

- الضعيف محمد بن عبد السلام، تاريخ الضعيف، مخطوط الرباط د. 660 ص 213.

27) - محمد بن عبد السلام الضعيف، تاريخ الضعيف، مخطوط م تطوان رقم د. 1706، ص. 73.

28) - نفس المرجع ص 74.

29) - أبو القاسم الزياني، الترجمان المعرب عن دول المشرق والمغرب، مخطوط خ ع رقم 658، ص 425.

- الناصري، استقصا 8. 89-99.

"الروضة السليمانية في ملوك الدولة الاسماعيلية ومن تقدمها من الدول الإسلامية" م خ ع، د 1275، ص 190.

30) - الناصري 8، 99.

- (31

J. L. Miege op, cit. T2, PP, 44-45,
Duroselle (J.B) Histoire Contemporain 1848-1914, Coll. Monnier, paris 1974, P. 54 et suite.

Cf. Lenine, L'impérialisme stade suprême du capitalisme, ed, progrès, Moscou, 1982.

- (32

J.L Miege. op, cit, T2, P 42 et suite.

ibid , p. 54-56. - (33

J. Brignon et autres, Histoire du Maroc, 1967, P. 287. - (34

- (35
Pierre Renouvin, Histoire des Relations intenationales, le XIX siècle, 2 vol, Paris-Press universitaires.

- (36
J. L Miche, les origines du développement de casablanca au 19° Siecle, Hesp, 1953, p.8.

J. L. Miège, Le maroc et l'Europe, T2, P 182, N 3. - (37

- (38

J. L. Miège, les origines, op, cit p, 204-205.
J. L. Miège, le Commerce marocain des laines au 19 eme S. B. E. S. M.

39) - مجلة الوثائق، 2 ص 153-200.

J. L. Miège, op. cit, T. 2, PP. 261-346.

Ibid. T. 2, PP 369 et suite. - (40

41) - كناش المعاهدات، مخطوط و Ibid. T2 pp. 395-409.

42) - أنظر أسفله الفصل السابع.

J. L. Miège, les origines. op, cit P. 199. - (43

A. Adam, Histoire, op, Cit, PP 85 - 86. - (44

- (45

Fernand Joly, Casablanca, élément pour une étude de géographie urbaine, cahiers d'outre mer, Avril-Juin 1948, p. 119.
(16

E. Hugues, et J. Miege, les européens à Casablanca au 19 siecle (1848, P. 1906) paris 1954; P 22.

47) - علال الخديمي، أثر الإستقرار الأجنبي بالدارالبيضاء خلال القرن 19، أعمال ندوة الدارالبيضاء 1982. ص 30-34. منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالدارالبيضاء، 1983.

(18

Castonnet F. Revue de l'Afrique N° 24, Avril 1887, P. 142. Voir Miege, les origines, op. cit P. 223.
A. G. V. 3H 15, Janvier 1905.

ـ أنظر كذلك

jacques Caille, la petite histoire du Maroc, deuxième partie

A. Adam, Histoire, op. cit. P. 90. -(50

51)ـ كناش خ ح 405.

52)ـ نفس الكناش

G. Wolfrom, le maroc, ce qu'il faut en connaitre, Paris, 1906. P.

53)ـ منذ 1868 أشارت بعض التقارير القنصلية إلى "أن معظم تجار الرباط وبعض تجار فاس الذين لهم اطلاع بالأحوال قد نقلوا مراكزهم في هذه الأيام الأخيرة إلى الدار البيضاء، التي تتجه لتصبح أكثر فأكثر مكانا هاما للتجارة"

J. L. Miege, Les origines, op, cit, P 213.
CF. Ludvic. Campou, Un Empire qui croule, le Maroc contemporain Paris, 1886 PP 241-242.

54) ـ نعيمة هراج التوازني، الأمناء بالمغرب في عهد السلطان مولاي الحسن، مطبعة فضالة 1979، ص 57.

55) ـ الرسالة مؤرخة بـ 10 شوال 1875/1292، الوثائق 3، 444.

56) ـ عن علاقة السلطان بتجار المدينة من الأجانب والمغاربة خلال هذه الزيارة، راجع الناصري، 9، 150-151.

57) - E. Hugues et Miege, les Européens, op. cit. PP 24-25.

58) - J. L Miege, op. cit. T 4 - P 377.

59) - J. L Miege, Le maroc et l'Europe, T 2. P. 55.

60)ـ للتعرف على تفصيلات المواد التي تصدُر من ميناء الدارالبيضاء وتستورد إليه تراجع كنانيش الخزانة الحسنية، الخاصة بمستفادات الدارالبيضاء حيث توجد لوائح شهرية لداخيل المرسى عن الموضوعات (المستوردات) والموسوقات (الصادرات). قارن كناش 405، ص 17-21-32. وكناش 710 عن سنة 1900.

61) -
CF. Miege, op, cit T. 4, PP. 387 - 396.
Campou, of, cit, p, 241.

62) ـ ميج 4، ص 7-3.

63)ـ نفس المرجع والصفحة هامش 6.

64)ـ كناش "أملاك المخزن وما يستفاد من أكريتها" خ ح، رقم 82.

65) ـ الكناش عينه.

66) ـ الكناش عينه.

67) ـ الكناش عينه.

68) ـ كناش مستفادات الدارالبيضاء 1308-1310، خ ح رقم، 400.

69) ـ نفس الكناش.

70) ـ عينه، ص. 57.

71) ـ كناش "مستفادات مرسى الدارالبيضاء" رقم 405 ص 32.

72) ـ مستفادات مرسى الدارالبيضاء سنة 1319 رقم 258.

73) ـ مولاي الحسن للنائب محمد الطريس، 6 ذي القعدة 1308 / 13 يونيو 1891، و.خ.ح

74) ـ النص العربي للإتفاقية في كناش، خ ح 773.

75) ـ أنظر أعلاه ص 49

(76 ـ

A. Bernard, Mission au maroc, rapport à M. le gouverneur général de l'Algérie, Paris 1904, P. 104.

(77 ـ M. P. Lemoine; Mission dans le Maroc occidental, A. F. / RC, 1905, P, 67.

(78 ـ A. G. V. 3H 16, Farian à guerre; 10 Mars 1906.

(79 ـ René leclerc, Situation économique et commerciale du Maroc en 1907, Paris 1909. P 31- 32.

(80 ـ أنظر أسفله ص 215

(81 A. Adam, Essais sur la transformation de la société marocaine au contact de occident, paris 1968, PI, P 23.

(82 ـ Hugues et J. L. Miege, op, cit, pp. 19-22.

(83 ـ Ibid, p 25.

(84 ـ Tarriot, Monographie, op cit, p 7.

J. L. Miege, les origines, op, cit. P 216.

(85 ـ Ibid.

(86 ـ CF. Notice économique sur casablanca et la region des chaouia casa; 1915.

87) ـ علال الخديمي، "أثر إستقرار الأجانب بالدار البيضاء خلال القرن 19" مرجع مذكور ص 48-49.

الفصل السابع

أثر التدخل الأروبي بالشاوية

مما سبق يظهر، أن علاقة الشاوية بالأوربيين، ظلت محدودة، منذ عصور قديمة وإلى القرن 19 في تواجد بعض التجار بمدينة الدارالبيضاء لشراء المنتوجات التي اشتهرت بها المنطقة. وبقدر ما توسعت العلاقات التجارية بين المغرب وأوربا، ونمت مصالح الأجانب بالمدينة ازداد اتصال الأوربيين بسكان الشاوية، كغيرهم من سكان السواحل الأطلسية، مثل الغرب، ودكالة وعبدة، وخاصة بعد انتشار وتوسع نظام الحمايات القنصلية والمخالطات(1).

الحماية

ظهرت الحماية في الأصل، كامتياز منحه ملوك المغرب لبعض الدول الأجنبية، بمقتضاه يحق لها أن تحمي رعايا دولة أخرى أجنبية وليست لها علاقات مع المغرب. حيث يتمتع أولائك الرعايا "بنفس الحقوق التي يتمتع بها رعايا الدولة التي قبلت حمايتهم"(2).

وكان المغرب قد اعترف لفرنسا منذ 1767 ببعض الإمتيازات، فيما يخص رعاية القناصل للخدم والكتاب والمترجمين العاملين معهم. ثم توسعت تلك الإمتيازات مع ضعف الدولة المغربية، للدول الأخرى عن طريق شرط الدولة الأكثر حظوة(3).

ويظهر أن أول لبنة وضعت في أساس الإمتيازات الأجنبية بالمغرب، هي قبوله لقاعدة "المدعي يتبع المدعى عليه إلى محكمته"، في المعاهدة التي ابرمت بين المولى سليمان وإسبانيا سنة 1797(4).

وقد سجل امتياز الحماية، بالفعل في معاهدة 1856، التي اضطر السلطان مولاي عبد الرحمان إلى قبولها مع إنجلترا، ووسع في معاهدتي 1860-1861 مع إسبانيا، واتخذ بُعْدا جديدا وخطيرا، مع حصول التجار الأجانب على حق حماية عملائهم في التجارة، الذين سموا سماسرة في اتفاقية 1863 مع فرنسا(5).

وبعد أن تبين للمسؤولين المغاربة، خطورة مسألة الحمايات، وتطورها بشكل مخالف لروح الاتفاقيات، حاولوا حصرها في حدود معينة، لكن الأوربيين تمكنوا من إعطاء الحماية صبغة قانونية في إتفاق مدريد 1880(6).

وهكذا خرج اختصاص تحديد وضعية الأجانب القانونية بالمغرب، من يد "المشرع" المغربي، وانتقل إلى نطاق المعاهدات(7). وكان لذلك أثره على تطور العلاقات المغربية الأوربية، ونتائجه السلبية على المجتمع المغربي.

ومع توسع العلاقات التجارية بين المغرب وأوربا، وتوافد الأجانب للموانئ المغربية وخاصة الدار البيضاء، توسع القناصل في منح الحمايات، بهدف تكثير الزبناء، وضمان توزيع منتجات بلادهم الموردة للمغرب. وبهدف توسيع نفوذ الدولة الحامية بين المغاربة، وخلق الوسائط المتعددة للتدخل في شؤون المخزن.

وهكذا فزيادة على الخدم، والتراجمة، والحراس والسماسرة، منحت الحماية للعديد من السكان البدويين. وقد لجأ بعض التجار والموظفين بالقنصليات بالدار البيضاء إلى بيع أوراق الحماية، وتزوير الوثائق لمنحها. كما تحول بعض المغاربة الذين عاشوا بالمنطقة، إلى عملاء نشيطين على حساب بلادهم. بل تنكروا لها بالمرة، وتجنسوا بالجنسيات الأجنبية، مساهمين بذلك في تسهيل التدخل الأجنبي بالشاوية(8).

المخالطات

ولما كان يمنع على الأجانب الدخول للأسواق الداخلية بالقبائل، لشراء المنتجات والإتجار، عوض الأجانب ذلك بالسماسرة الذين كانوا يعملون لحساب التجار. ولما كان المخزن يمنع التملك خارج المدن على الأجانب(9)، فقد عوضوا ذلك بتطوير نظام المخالطات. والمخالطة تعني مشاركة التاجر الأجنبي للفلاح المغربي

في ملكية قطيع من البهائم، قد يدفع التاجر ثمنه أو يشتريه للفلاح، ولكن كثيرا ما كانت المخالطة، تنشأ نتيجة لرغبة الفلاح في حماية التاجر الأجنبي، ومقابل ذلك يصبح شريكه في قطيع من الغنم أو البقر(10). وقد أصبحت المخالطة قاعدة ثابتة للتدخل الأروبي بالشاوية خاصة (11)والسواحل الأطلسية بصفة عامة(12).

ولقد تكاثرت الحمايات والمخالطات بالإقليم، نتيجة للتعسفات التي كان يمارسها أحيانا القواد والشيوخ على الفلاحين، بمناسبة جمع الواجبات والكلف المخزنية. ويبدو أن عددا مهما من سكان الشاوية كانوا يلجؤون للمخالطة، للحصول على النقود ليؤدوا بها الفروض المتعددة التي يطالبهم بها القواد. وكان الأمر يؤدي إلى تكثير عدد المحميين والمخالطين باستمرار، مما أدى إلى مضاعفات خطيرة على سيادة البلاد(13).

كان التجار يستغلون حاجة الفلاحين للقروض اللازمة لأداء ديونهم أو للقيام بأعمالهم الفلاحية، فيقدمون لهم ديونا بالربا على المحاصيل(14). وأحيانا يحوزون لهم رسوم أملاكهم كضمانات، حتى إذا عجزوا عن رد ما يطالبهم به المرابي، فوتوا أملاكهم، أو حليهم، أو ماشيتهم إليه، وأصبحوا مجرد مخالطين أو رعاة. والواقع، ان مولاي الحسن، بذل جهودا متوالية، وأكثر من تحذير وإنذار عماله وقضاته، من تفويت الأراضي المغربية للأجانب، ونبههم إلى منع عدول البادية، من شهادة البيوع والمعاملات والمخالطات التي يكون أحد أطرافها أجنبيا أو محميا، وتوضح لنا هذه الرسالة السلطانية الأمر بجلاء. كتب السلطان لعامل الدار البيضاء عبد الله حصار(15) يقول

"فقد بلغنا أن بلاد السواحل الحوزية كلها أو جلها ملكها، أهلها للنصارى، واليهود الذين في حمايتهم، بالبيع أو الرهن، بأن يذهبوا إليهم برسومها ويطلبون منهم دينا، أو بيع قوت أو شبه ذلك، فيعطونهم ما طلبوه، ويحوزون الرسوم ولا يبقى لأهلها فيها إلا الاستغلال، من تحت أهل الحمايات، وهذا أمر إن لم يتدارك بالقرب، اتسع الخرق فيه على الرّاقع، ولا يكون هذا إلا مع تجار المراسي الحوزية لقربهم منهم. وعليه فاستفهم تجار بلدك عما دفعوه لأرباب هذه البلاد"(16).

ويبدو أن عواقب هذه الظاهرة، الناتجة عن التوغل الأجنبي، هي التي دفعت السلطان مولاي الحسن، إلى القيام بإصلاحه الجبائي المعروف لسنة 1884-1885 (17). فقد جاء في ظهير تعيين أمناء وأشياخ الزيايدة، تحديد للمهام الخاصة والعامة، التي كلفوا بها في القبيلة، ومن أهم المهام الخاصة، "المبالغة في البحث عمن طمحت نفسه لتحمل الدين، ويخبرون به قبل أن يقع في مهواة الهلاك والحين،

وأن يمنعوهم من تحمله، ومن المخالطة الناشئة من أجله، الفاسدة شرعا، ولا سيما إن كان صادف عن المعهود طبعا، وإلقاء البال لمن يروم الدخول للحماية الخارجة عن القانون والشروط بين الأجناس المؤدية إلى الخرق والفساد، والوقوع في شرك الألباس، فإن ذلك من أسباب الهلاك العاجل والخزي الآجل. والإعلام بذلك قبل أن يقتنص في شرك هاتيك الغواية ويغرق في بحر الندامة بتلك الجناية"(18).

ويظهر أن محاربة المخزن لظاهرة الإستدانة من الأجانب، ودعايته المضادة لها في القبائل، كانت لها أصداء واسعة، حتى أصبح الإمتناع، عن الدخول في الحماية، أو اللجوء لأخذ الديون من الأجانب، من علامات المواطنة الحقة ومن علامات الصلاح. نفهم ذلك من رسالة بعثها سكان قبيلة الزيايدة وبني ورى، يطلبون من السلطان فيها، إطلاق سراح قائد القبيلة محمد بن العربي الزيادي، لأن إيالته "لا تقبل أحدا سواه [...] ولأن الإيالة المذكورة صلاحها متوقف على وجوده وحجتهم في ذلك عدم دخولهم في حماية الكفار لما رأوه فيه من حسن تدبير أمرهم"(19). ذلك أن المخالطة مع الأجانب، وتحمل الديون منهم لم يكن ينتج عنهما، تفويت أملاك المسلمين إلى الأجانب فقط، بل كان المحميون والمخالطون يمتنعون عن أداء الضرائب والكلف المخزنية ويتسببون في الانتفاضات.

والواقع أن المخالطات بين التجار الأجانب وسكان الشاوية، لم تقتصر على المناطق الساحلية لمدينة الدارالبيضاء، بل تعدتها إلى القبائل الداخلية كأولاد بوزيري(20)، والمزاب والأعشاش(21)، والمزامزة(22). وأدت هذه المعاملات الواسعة، في الميدان التجاري والفلاحي، إلى تعاظم التدخل الأروبي والأجنبي بالشاوية، وتفاحش الإستغلال الرأسمالي للمنطقة.

عواقب الحماية والمخالطة :

لقد نتج عن التدخل الأجنبي بالشاوية وانتشار الحماية والمخالطة آثار سيئة، وعواقب وخيمة اجتماعيا واقتصاديا وسياسيا

فمن الناحية الإجتماعية ازداد فقر غالبية السكان، وتلاشى تماسك القبائل، وساءت معيشة الكثيرين، خاصة إذا قرن الإستغلال الأجنبي، بمصائب الآفات الطبيعية كالجفاف والجراد، الذي كان يجتاح المغرب مرارا خلال القرن الماضي، ويؤدي إلى أضرار بالغة في المناطق التي تعتمد على الزراعة أكثر مثل بلاد الشاوية(23). يضاف إلى ذلك كلف المخزن وثقل الجباية، مما كان يؤدي

بالسكان إلى الفرار أحيانا من دواويرهم، حتى لا يطالبون بدفع كلف المخزن أو ديون التجار التي لا يستطيعون ردها مثل ما حدث بأولاد بوزيري سنة 1310 / 1893، الذين وقع فيهم الفرار "لما ثقل عليهم وحصل لهم الدهش، لإستغراق ذممهم بمال التجار، ولقلة القطر وورود الجراد، وفشا فيهم الفرار" (24).

ويبدو أن القبائل التي تضررت أكثر، هي القبائل القريبة من الدارالبيضاء، كقبيلة مديونة، التي تقع المدينة في أرضها، والتي انتشرت فيها ظاهرة الحماية والمخالطة بشكل كثيف، وكذلك قبيلة زناتة المجاورة للمدينة وقبيلة أولاد حريز المجاورة لمديونة. لقد أسرعت الحماية والمخالطة، وقرب مديونة من الدارالبيضاء، بإفقار القبيلة المذكورة، ونتج عن ذلك هجرة واسعة من القبيلة إلى المدينة. وترتب على ذلك توتر في العلاقات بين السلطات المحلية في كل من القبيلة والمدينة. الأمر الذي كان يهيء السبيل لتدخل القناصل الأجانب.

وتوضح لنا تلك التطورات بالقبيلة المذكورة، رسالة على جانب كبير من الأهمية، بعثها سكان قبيلة مديونة، أعيانهم وأمناؤهم وأشياخهم وعامتهم، يشتكون للسلطان مولاي الحسن، من سوء الحالة التي أصبحت عليها القبيلة ويعددون له أسباب الأزمة. ويحسن بنا إيراد فقرات منها، لكي يستدل بها على عمق الأزمة، وخطورة النتائج. جاء في الرسالة المذكورة "إن قبيلتنا مديونة تلاشت، وضعفت وضاق بالضعفاء والمساكين الحال من وجوه اجتمعت عليها أحدها عام أول كان الجراد، وما ترك لها شيء، وكانت عليها ديون للتجار. والثانية بلدنا بالساحل ولا نتيجة فيها. والثالثة أعظم منها باثنين، مجاورة الدارالبيضاء، وهي أرضنا وبلادنا ونحن أهلها وجل سكانها سلفا عن خلف (كذا) ولا فرق بين قديمها وحديثها لكوننا يد واحدة سواء بالحاضرة أو بالبادية في الكلفة المخزنية" (25).

ويشير أصحاب الرسالة إلى ممانعة عامل المدينة في السماح لقائد القبيلة بأخذ الكلف من الذين يوجدون بالمدينة من أهل مديونة، خاصة وأن "ما يزيد على ستمائة كانون ساكنة فيها، وفي البادية تقول الرسالة أقل من ذلك وفيهم الفقراء وزيادة أهل المخالطة وحماية الأجناس" (26). وإذا جمعت كل العوامل التي ذكرت بالرسالة يمكن تفهم قول المتظلمين في الرسالة المذكورة "واجتمعت المصائب والأمر لله" (27). ونتيجة للمخالطات كذلك، تضرر الكثير من السكان، لأن قطعان المخالطين للتجار الأجانب كانت تعيث فسادا في أراضي غير المخالطين، ولأن رعاة المخالطين والتجار القاطنين بجوار المدينة، كانوا لا يحترمون غيرهم ويتطاولون عليهم.

وقد تضرر من هذه الأفعال، نقيب الاشراف بالدار البيضاء نفسه فأحرى غيره من السكان. فقد كتب النقيب المذكور وهو محمد بن الطاهر الأمراني، لمولاي الحسن، يشتكي من "الشدائد" التي يعانيها مع أصحاب التجار ومواشيهم وخاصة الخنزير، "وهو أكثر المواشي إذاية"(28). ويقول بأنه كان قد طلب من السلطان أن يمنح له أرضا قريبة من المدينة بدل أخرى بعيدة عنها فوقع "فيما هو أشد من البعد وهو سرح بهائم الروم في زرعي يقول النقيب - وجسارة رعاتهم" ولذلك طلب من السلطان أن يرجع له البلاد البعيدة ويريحه من البلاد القريبة من الدارالبيضاء "لمجاورة الروم"(29).

ومن الناحية الإقتصادية تمكن التجار الأروبيون والأجانب عامة من السيطرة على جانب كبير من إنتاج المنطقة، وحتى على قسم من مصادر هذا الإنتاج. فقد أصبح بعضهم ملاكين لقطعان الماشية الكثيرة، إذ كان 6 تجار فرنسيين يملكون منذ 1867، 16.000 رأس من الأغنام بالمخالطة مع 81 فلاحا من قبيلة أولاد حريز(30). وفي 1870 كان التجار الإنجليز يمتلكون بالمخالطة كذلك حوالي 30.000 رأس من الأغنام(31).

كما تملك التجار الأجانب الأراضي الفلاحية. فقد تعددت عقود شراء الأملاك حول الدارالبيضاء، وفوتت كثير من العقارات للتجار. كما أشارت له رسالة السلطان السابقة لعامل الدارالبيضاء(32). وأصبح كثير من التجار الإنجليز والألمان يملكون استغلاليات قروية(33).

كما كان التجار الأجانب والمتعلقون بهم، يتمولون على حساب السكان. وأحيانا كان بعض الناس الذين لهم علاقة مع التجار، يتعرضون لتواطؤ هؤلاء التجار مع القواد على سلب أولائك الناس من أموالهم. فقد أخبر محتسب الدارالبيضاء، السلطان بأن القائد عبد السلام بن رشيد(33 مكرر)، أرسل خليفته الحاج حمو بن أحمد بن الجيلالي، "للدارالبيضاء خفية"، عند التاجر "اللام" الإنجليزي، فامتنع التاجر من لقائه إلا بشروط، من جملتها تسريح بعض المسجونين، ولما "خرج للقائه وجده أتاه بجميع حليهم المثمون وذلك كثير جدا. وأمّنه عنده، وطلب منه أن يعطيه عددا من الدراهيم. فحاز النصراني جميع الحلي وأدخله في كروصته مغطى"(34).

وقد هيأت الحماية والمخالطة، الذرائع والوسائل لبعض القواد والشيوخ للإستيلاء على أراضي الآخرين، وضمها لتكوين ملكيات كبيرة. ذلك أن المعاملات مع التجار منحت السماسرة كما منحت بعض القواد والشيوخ الوسائل المالية

لشراء الأراضي. يضاف لذلك أن غزو الرأسمال الأجنبي لأسواق الشاوية، وحاجة الفلاحين للنقود، كانت تدفع بهؤلاء الفلاحين، إلى تفويت أملاكهم والتحول إلى مجرد خماسين عند أصحاب الأملاك، من القواد والمحميين والمخالطين. أو الهجرة للمدينة للعمل كمأجورين عند التجار أو بالمرسى.

وبالجملة فقد تمكن الأجانب ومخالطوهم، من الإستيلاء على أجود الأراضي، وملّكوا قطعان الماشية الكثيرة، وبذلك استولوا على قسط كبير من إنتاج الأرض من الحبوب، ومن إنتاج الماشية من الأصواف والجلود. وإذا أضفنا لذلك تهربهم من أداء الواجبات، كالعشور والزكاة وكلف المخزن، تبين لنا مدى النفوذ الواسع الذي أصبح يتمتع به الأجانب ببلاد الشاوية.

النتائج السياسية للحماية والمخالطة

أما من الناحية السياسية، فقد فككت الحماية والمخالطة روابط الإدارة المحلية مع السكان، وخلخلت سلطة المخزن على قبائل الشاوية خاصة، وقبائل السواحل الحوزية عامة. إذ كان القناصل والتجار يشجعون الناس على الدخول في الحماية، وعقد المخالطات الحقيقية والخيالية بهدف التهرب من أداء الواجبات المخزنية بالنسبة للسكان، وبهدف نشر نفوذ الدول الأجنبية بالنسبة للتجار.

وقد كتب مولاي الحسن، رسالة غاضبة لنائبه محمد الطريس، يتهم فيها التجار بالخروج عن القوانين في منح الحمايات واتخاذ السماسرة "وحتى من لا تجارة له أصلاً صار يتخذهم (السماسرة) ويتعيش فيهم ولا يتحرى في أخذهم خدام المخزن كالأشياخ ونحوهم [...] وكل سمسار تنحاش لخيمته العشرون خيمة من إخوانه فأكثر فيتعرض عليها للعامل إذا طالبها بأداء الواجب والملازم الترتيبية"(35). أما المخالطات فقد صار التجار وحتى المحميون، يتخذ كل واحد منهم "الخمسين والستين مخالطا. وكل مخالط ينحاش إليه العدد الكثير من خيام إخوانه فيتعرض عليهم للعامل ويغريهم على عدم إعطاء الواجب والقيام بالكلف وعلى عدم إعطاء حقوق الناس المترتبة عليهم"(36).

ونتيجة لإنتشار هذه الحمايات والمخالطات، تعرضت سلطات العمال للضرر "وانحلت عُرى أحكامهم وحصل الضرر لقبائلهم من عدم قيامهم معهم بذلك، ولسائر الناس بعدم توصلهم منهم بحقوقهم، وصاروا فوضى بتعصب التجار وتعرضهم لعمالهم عليهم ومن مد اليد منهم فيهم يدعون عليه بالباطل."(37).

إن هذه الحالة التي وصفتها رسالة السلطان تنطبق أكثر على قبيلة مديونة المجاورة للدارالبيضاء. "فقد كادت أن تكون كلها سماسرة ومخالطين" فعدد السماسرة بها بلغ 62 سمسارا وعدد المخالطين 202 مخالطا أما عدد الخيام المنحاشة لأولائك السماسرة والمخالطين فعددها "إحدى عشرة مائة خيمة وست وستون خيمة منحاشة كلها"(38).

ويظهر أن تدخل السلطان لم تكن له أية نتيجة في وقوف التجار والقناصل بالدار البيضاء عند حدود المعاهدات. ازداد نتيجة لذلك حال قبيلة مديونة وغيرها سوءا من جراء تدخل السماسرة والمخالطين. ولهذا كتب قائد القبيلة أحمد بن العربي المديوني يتشكى للسلطان مما صدر من أهل الحماية والمخالطة، "من السعي في إيقاد نار الفتنة" بالقبيلة. فأمره السلطان، "ببيان أسماء المخالطين وأنسابهم"، ومن يحمونهم(39).

ويبدو أن القائد تدخل لدى القناصل فلم يسمعوا له قولا، فأرسل التقييد للسلطان. وهكذا لم يستطع قائد مديونة أن يقوم بأي رد فعل تجاه تصرفات المحميين والمخالطين والتجار الذين يقفون وراءهم غير الشكاية للسلطان(40).

ومع هذه الشروط الصعبة التي كانت تعيشها قبيلة مديونة خاصة، وقبائل الشاوية المجاورة عامة، لم يخفف أحمد بن موسى من مطالبته للقواد بأداء الواجبات المترتبة عليهم، "بدون مراجعة ولا تراخ" وها هو قائد مديونة نفسه، يكتب للوزير الصدر المذكور، شارحا له حال القبيلة، وحاله مع المحميين والمخالطين قائلا:

"فقد ورد علينا ـ كتابك مبينا فيه ما بقي علينا من راتب العسكر والضيافة والواجب، وفهمنا ذلك كله. وعليه فليكن في كريم علمك أسعدك الله، أن عدم توجيه العدد المذكور، ليس منا تراخ ولا إهمال، [...] لكن إعلم أن قبيلة مديونة كنا قدّمنا الإعلام لحضرة مولانا العالية بالله بحالها وما هي عليه من الضعف وكثرة فرارهم للأجانب ومخالطتهم إياهم وسكناهم بثغر الدارالبيضاء. والمحميون لا يخفى عليك حال تعرضهم على غيرهم، ومهما وصلنا أحدا من القبيلة أو طلبنا منه متاع المخزن، إلا ويتعرض عليه محمي أو مخالط، وادعى كونه صاحبه، أو نازلا معه، ويدعى بالباطل الكثير، ونحن نتلطف، ونساعف خشية وقوع أمر مع بعض الأجناس، وهذا سبب عدم توجيه ما ذكر.."(41).

ولم يقف التأثير السياسي للحماية والمخالطات بالشاوية عند الحدود التي ذكرناها، بل كان التجار والقناصل كثيرا ما يشجعون الأشياخ على الدخول في الحماية والتنكر لواجباتهم، الأمر الذي ساهم في تزايد الإضطراب وانتشار الفساد بين القبائل، وبالتالي شيوع الفتن وحوادث الإجرام والإعتداء على حقوق الغير. وغير خاف أن هذه الحالات هي التي يطلق عليها كلمة سيبة. وهي حالات عرفتها قبائل الشاوية بكثرة. سواء القبائل القريبة من الدارالبيضاء أو البعيدة عنها كالمزامزة(42).

عواقب التدخل الأجنبي بالمزامزة

إن دراسة عواقب الحماية والمخالطة بقبيلة المزامزة المجاورة لمدينة سطات، وهي قبيلة بعيدة عن مدينة الدارالبيضاء، يساعد على توضيح المستويات التي بلغها التدخل الأروبي بالشاوية خلال القرن 19

وسننطلق من تحليل مجموعة من الوثائق، هي عبارة عن مراسلات تمت بين قائد المزامزة الحاج المعطي بن عبد الكبير المزامزي(43)، والنائب السلطاني بطنجة الحاج محمد الطريس. وسنعطي أمثلة من بعض الحوادث التي جرت بين 1884 / 1302و 1318/1900. ويلاحظ أن الوثائق المعنية تتعرض لحوادث يمكن حصر موضوعها في النقط التالية

أولا التواطؤ للإستيلاء على مال الغير بواسطة الحماية والمخالطة. أو اتخاذ القناصل والتجار الحماية والمخالطة وسيلة للتمول.

ثانيا مساعدة المستخدمين لدى المخزن على التنكر لواجباتهم وعلى الفساد.

ثالثا إثارة الفتن عن طريق حماية كل متهم، وتشجيع حوادث الإجرام والإعتداء على الناس.

أولا اتخاذ التجار والقناصل الحماية والمخالطة وسيلة للتمول

كتب الحاج المعطي بن عبد الكبير رسالة للنائب الطريس، يفهم منها أن رجلين كانت لهما معاملة ومخالطة مع القائد في الحرث والبهائم، وعليهما دين مشهود بالعدول، دخلا في حماية قنصل أمريكا بالدارالبيضاء بدعوى أنهما أصبحا سمسارين لتاجر أمريكي، وأنه لما علم بذلك رفض تسليم حمايتهما وتساءل

"كيف تتأتى سمسارتهم قبل براءة ذمتهما مما ذكر" خاصة وأن أحدهما عسكري. وطلب القائد في الأخير من النائب أن يتدخل لدى سفير أمريكا ليجبر القنصل على التخلي عن الرجلين(44).

وفي رسالة أخرى، تشكى القائد من تصرفات الرجلين المذكورين الذين مدا اليد في الزرع "المحروث معهما مع المازوزية في هذه السنة وفي بهائمنا ـ يقول القائد ـ التي تحت أيديهما"، ولهذا جدد الكتابة للنائب طالبا منه أن يخبره بمآل تدخله لدى السفير الأمريكي بطنجة(45).

ويبدو أن عجز القائد أمام تصرفات الرجلين، وخوفه من الإدّعاءات "الباطلة" ضده، جعله يبعث برسالة ثالثة (46) للنائب يوضح له، بأن أحدهما المسمى الحاج محمد "صار يبيع البهائم وباع الزرع والحمص والذرة، ودفع نحو الألف ريال لمن توسط له في الحماية" وبالرغم من هذا التصرف، ومن الحجج والرسوم التي يتوفر عليها القائد فإنه لم يستطع إلقاء القبض على الرجلين حتى يعرف مصير تدخل النائب. ونفهم من الرسالة كذلك، أن القائد دفع تعويضات كثيرة للمحميين والمخالطين، وخاصة لمحميي ومخالطي دولة واحدة وهي أمريكا. ولهذا كله يطلب من النائب أن يتدخل ويخفف عنه من مشاكل المحميين والمخالطين الذين كثرت شكاياتهم ومطالبهم بالتعويض(47).

ويظهر أن قضية الرجلين المذكورين انتهت لصالح القائد، عندما تمكن النائب من اقناع سفير أمريكا بعدم جواز حمايتهما، لما بذمتهما من مال القائد. وهكذا كتب القائد المعطي للسلطان يطلب منه أن يأمر عامل الدارالبيضاء وقائدي مديونة وأولاد حريز، بالقبض على الرجلين.

وبالفعل ألقى قائد مديونة القبض على أحد الرجلين المذكورين وأرسله للسلطان الذي أودعه سجن مراكش. وعند هذا الحد اتخذت القضية شكلاآخر، فقد تدخل أحد المحميين، وكتب ـ يقول القائد ـ "براءة على وجه الزور "حول تبرئة القائد للمسجون. لأن المحمي المذكور يريد إبقاء المال الذي أخفاه عنده المسجون بيده. ولذلك كله نبه القائد النائب ليكون على بال من تلاعب المحمي "بن عبرود ومن البراية التي عملها على وجه الزور"(48).

هذا مثال يوضح التواطؤ بين بعض القناصل والتجار، وبعض الوصوليين للإستحواذ على مال الغير، حتى ولو كان هو المسئول المحلي عن السلطة أي قائد المزامرة نفسه. وفي هذا الإطار تجدر الإشارة إلى أن القائد المذكور كتب عدة

رسائل، يتهم فيها بعض التجار بالتدخل في أمور لا تعني التجارة، "وإفساد الإيالة بالترامي والمخالطات الكاذبة"، وإغراء الناس على الدخول في الحماية، حتى "اضروا بالقبيلة غاية الضرر" وشجعوا أصحاب القائد على أخذ ماله والذهاب به عند التجار. ومنهم من ترك زرع القائد "للضياع بدون حصاد ولا مقابلة" (49).

ثانيا مساعدة الشيوخ على التنكر لواجباتهم وعلى الفساد

يتضح ذلك من رسالة بعثها القائد المزامزي للنائب، يفهم منها، أنه لما سجن أحد الشيوخ الذي دخل في الحماية وأراد التقاعد على مال المخزن، تدخل قنصل أمريكا لصالحه. كما عمد أحد التجار الأمريكان إلى بهائم الشيخ ووضع عليها علامات (50).

وفي قضية مماثلة، اتهم القائد أحد التجار الألمان (كراندمان) بتدخله لصالح شيخ آخر، اتهمه القائد بأنه باع ما باع من بهائم القائد وزرعه وتوجه به للتاجر المذكور. والجديد في القضية أن الشيخ المذكور، لما لم يعاقب، عمد إلى شيخين آخرين "من إخوانه [...] وتوجه بهم لولد طرجمان المركان التاجر يعقوب بن سعيد" ليخالطهم معه. ولهذا طلب القائد من النائب أن يتدخل في الأمر حتى يصدر السفير الألماني أمره للقنصل الألماني بالدارالبيضاء، ليأمر بدوره التاجر (كراندمان) أن يكف عن تدخله في قضية الشيخ المعني، "حتى يؤدي ما بذمته لجانب المخزن" (51).

وفي رسالة أخرى، نلتقي بحالة مماثلة، إلا أن صاحبها لم يكتف بالتنكر لواجباته بالرغم من أنه "شيخ من أشياخ المخزن"، بل أخذ يشتغل "بالخوض ومنع السبيل والنهب والفساد"، بعد موت السلطان مولاي الحسن. ثم فر "لدى البعض من أهل الحماية [...] فدعوه لتعمير الذمة"، ولذلك أصبح مخالطا لولد ترجمان القنصلية الأمريكية بالدارالبيضاء (52).

ثالثا إثارة الفتن والإضطراب.

ويظهر من بعض رسائل القائد المزامزي، أن الحماية والمخالطة أصبحت من أهم الوسائل التي لجأ إليها الأجانب لإثارة الفتن وتشجيع التمرد، فقد كتب للنائب يخبره، بأن الشيخ بوشعيب بن التهامي وولده "من أكابر الفساد، وبذمتهما لجانب المخزن عدد من المال. ومشيخته يعرفها الخاص والعام والجوار وكذا

فسادهما" وبين له بأن الرجلين شاركا في قتل شريفين عدوانا ولذلك لا تحق حمايتهما(53). كما كتب القائد للنائب رسالة يتهم فيها أحد الشيوخ بتحريض شيخ آخر، والتوسط إليه عند بعض التجار الإيطاليين بهدف إيجاد من يشاركه في "الترويغ عن أداء الكلف" وطلب من النائب أن يتدخل لدى قنصل ألمانيا ليتخلى عن "حماية الشيخ المذكور لتستقم أحواله وتؤخذ منه الحقوق"(54).

وفي جوابه على تساؤل النائب حول ظروف إلقاء القبض على صاحب التاجر "موسى الكحيل" الفرنسي أكد الحاج المعطي المزامزي بأن "الرجل المذكور من شياطين الإنس المرَدَة"، ومن أكابر الفساد والغصب لأموال الناس ليلا ونهارا وقطع الطريق. وبسبب ذلك ألقي عليه القبض. كما أكد القائد في رسالته، أن التاجر الفرنسي المذكور لا خلطة له بالرجل، وإنما تدخله لصالحه هو "ترامي لا غير، إذ الرجل الذي لا يملك شيئا ولا حرفة له عدى القطعة والسرقة فكيف يخالط. نعم نظائر هذه قد كثرت الآن - يقول القائد - فكل من أراد ارتكاب الجرائم، وأكل أموال الناس، يتعلق بمن يد له عن بعض تجار الأجناس يطلب منهم تعمير ذمته بالكذب لا غير، ليتوصل لأغراضه الفاسدة. كما قد أطلعنا - يضيف القائد - سيادتكم بذلك. وعرفناكم ما عليه تجار الأجناس فهذا وجه التحقيق"(55).

يتضح من الرسالة إذن، أن القائد، أصبح عاجزا عن تنفيذ أوامره، وإذا تمكن مرة من تنفيذها، يتعرض للعقاب في شكل دفع تعويضات لأصحاب التجار.

وقد يحدث أن يرتكب بعض الناس جرائم قتل، فلا يجد أهل القتيل ولا القائد المكلف بالأمن، حيلة إلا الشكوى للنائب وسفراء الدول الأجنبية بطنجة. وهذا ما حدث فعلا بقيادة الحاج المعطي المزامزي، الذي لم يستطع الانتصاف من قتلة رجلين، لفرارهم إلى الدارالبيضاء، واختفائهم لدى أصحابهم من "الإسبان والبرازيل" ولم يبق للقائد نتيجة لذلك إلا التوصية بأولياء القتيلين، الذاهبين لطنجة وبيدهم الحجج المثبتة للجريمة ليضعوها بين يدي النائب، ليقف معهم حتى ينتصفوا من المتهمين(56).

كما جاء في رسالة أخرى للقائد حول القضية المذكورة، أنه كان قد اشتكى سابقا، من تدخل قنصل البرازيل وادعائه أن أحد القتلة مخالط لبعض تجار البرازيل، مع أن المتهم "كثر ضرره بالناس - يقول القائد - من الطيش والسرقة، وجمع الشفّارة عليه، وإطلاقهم على سرقة أموال الناس ليلا والبيع والشراء في ذلك. والتعرض على من نزل معه وعدم الإنقياد لمقابلة دعوى أو أخذ حقّ ترتّب عليه بموجب شرعي"(57).

استنتاج عام

هكذا نلاحظ أن الحماية والمخالطة بالشاوية، قد اتخذت أبعادا خطيرة على السكان والإدارة المحلية خاصة. ولم تقتصر على القبائل المجاورة للدارالبيضاء فقط، كمديونة وأولاد حريز وزناتة، بل انتشرت إلى قبائل داخلية كالمزامزة. ويبدو أن القائد المعطي بن عبد الكبير المزامزي، الذي يعتبر من بين العمال الكبار، الذين كان المخزن يستعين بهم ويعتمد عليهم للقيام بمهمات في الداخل والخارج كان على إطلاع بشروط التعامل مع الأجانب، ولذلك نراه يظهر مزيدا من التشدد في علاقته مع التجار الأجانب ومع من يدّعون الحماية والمخالطة التي تخالف شروط الاتفاقيات المبرمة. ومن الرسائل العديدة التي كتبها القائد للنائب، والتي تعرفنا على بعضها، يتبين أن كل من شارك في النّصب والإعتداء، كان يجد النّصير من الأجانب، بادعاء المخالطة الكاذبة والدخول في الحماية. وكان الأمر دائما يسفر عن تواطؤ بين التاجر الأجنبي والمتعلق به الذي يدفع ثمنا مرتفعا، ولا يهم أن يكون مصدر ذلك الثمن سرقة أو ترامیا على مال الغير.

والمثير في الموضوع، أن الأمر تعدى الأشخاص العاديين إلى أشياخ المخزن. فكل من تجبر منهم وارتكب مزيدا من الفساد والإجرام وأراد التقاعد على ما اغتصبه، كان يفر من القصاص لحماية الأجنبي، الذي وجد في تشجيع هذه الظاهرة وسيلة نافذة للتدخل في شؤون القبائل وعمالها. لكن قائد المزامزة أظهر معارضته لإدّعاءات التجار والقناصل، وحاجُهم، وأكثر من التدخل لدى النائب ليقف معه في استخراج حقوقه وحقوق المخزن وحقوق الناس، ممن اتهمهم بالفساد والترامي والسرقة، وقطع الطرق والتقاعد على أموال المخزن. كما عمد إلى سجن بعضهم وطالبهم بأموال ادعى أنهم تقاعدوا عليها.

ونظرا لتوفرنا على حجج القائد، كما رأيناها في الرسائل المدروسة ردا على اتهامات التجار والقناصل، فإننا لا نستطيع التأكيد على صحة خطابه دون تحفظ. وقد يثير هذا التحفظ الإعتراض الآتي

ألا يعني ذلك أن تدخلات القائد يمكن أن تكون معتمدة على تجاوزات كثيرة، ضد أشخاص كانوا يقفون أمام هذه التجاوزات، مما كان يعرضهم للاصطدام بالقائد، ولا يجدون مفرا من اللجوء للأجانب للحفاظ على أملاكهم وأموالهم من تعسفاته؟ إن هذا الاحتمال يصبح مستبعدا بعد التعرف على الاتهامات الموجهة للقائد، التي لا تتعدى اتهامه بسجن بعض الناس الذين ادعوا المخالطة، ومطالبته لبعضهم الآخر بأداء ما بذمتهم من متاع الناس ومن واجبات المخزن وكلفه. ويعني

هذا، أن تعسف المحميين والمخالطين للتجار الأجانب، فاق تعسف القواد وأن ادعاء الأجانب حماية الناس نتيجة لتعسفات حكامهم أمر بعيد عن الواقع.

ومما يؤكد ما ذهبنا إليه، أن معظم المتواطئين مع التجار، كانوا إما نوي مصالح، وإما نوي سوابق في دواويرهم، وأن تصرفاتهم كانت منافية لمصلحة القبيلة. كما يتأكد ذلك من الشطط الذي سلكه القناصل في الإكثار من المحميين والمخالطين بالشاوية. ونفهم هذا أيضا من رسالة بعثها القائد المذكور للنائب يقول فيها

إن "بعض القناصل هنا بالثغر البيضاوي المحروس بالله المعدين لمباشرة أحكام المخزن قد أكثروا من الترامي في تعاطي المخالطة والسماسرة من إيالتنا لنفوسهم." (58)

لقد حاولنا أن نوضح من خلال الدراسة الجزئية لهذه الوثائق، أمرا واحدا هو عواقب التدخل الأجنبي في منطقة الشاوية، على السكان وعلى علاقة القواد مع السكان. ومن إكثارنا للأمثلة أردنا التأكيد على نماذج ممن يدعون الحماية والمخالطة. وإبراز مساهمة معظم التجار وقناصل الدول الممثلة بالمغرب في التواطؤ ضد المغاربة. وهكذا يمكن بعد ذلك، أن يتعرف الباحث على المتغيرات في البنى الإجتماعية والإقتصادية للقبائل، ومستوى ذلك التغير وعواقبه السياسية. ويعرف كذلك الإطار الذي كانت تدور فيه منافسات "النخبة"، إن كانت هناك نخبة. ومدى تجذر هذه الفئة من الناس أو سطحيتها. بمعنى، هل كان هناك اتصال عضوي بين حفنة من الوصوليين مع غالبية الناس؟ أو أن جماهير الناس بالقبائل كانت تعيش بمعزل عن فئة طموحة وصولية، انتهزت ظروف التدخل الأجنبي فاستغنت، وحاولت إيجاد سند مهما كان أجنبيا، فاختارت العمالة للتجار الأجانب مقابل حماية تصرفاتها المضادة لمصالح عامة السكان، الأمر الذي أدى إلى اصطدامها عاجلا بالفئة الحاكمة وآجلا بالأغلبية (59)

أما عواقب التدخل الأجنبي بالشاوية على علاقة المخزن بالرعية فيظهر من الوثائق المدروسة أن المحميين والمخالطين لم يعودوا يأبهون بأوامر القواد. وأن أمور المخزن أصبحت تتعرض للعرقلة، وأن روابط المخزن بالقبائل بدأت تنحل وتتلاشى.

ومن رسالة هامة، وجهها السلطان مولاي الحسن، للنائب محمد الطريس، نتعرف على نماذج ممن يدعون المخالطة والحماية، وتواطئهم مع الأجانب ضد

مصلحة البلاد. جاء في رسالة السلطان "لكن لا يخالطهم من هذه الرعية إلا من مراده عدم القيام بذلك [واجبات المخزن] أو متبوع بدعوى. ولا يكاد يوجد أحد من المخالطين لهم بريء الذمة من التّبعية بحقوق المخزن أو غيره" (60)

والواقع أن السلطان مولاي الحسن، كان على بيّنة مما يحاك لبلاده، وكان يعلم مقدار ضعف المغرب أمام التهافت الأجنبي، ولذلك لم يكن في مقدوره، شيء آخر، غير التحرك بين أقاليم البلاد للإبقاء على تماسكها، والإتجاه إلى القبائل، التي كانت تعتبر من أعمدة المخزن، والتي أثر فيها التدخل الأجنبي تأثيرا بالغا كالشاوية، ليحثها على التماسك، ويحث قوادها على الإجتهاد، في تحسين الأحوال، والحفاظ على الروابط بين السكان والاستعداد للطوارئ مع السلطان كما كان مغاربة الأمس. نفهم ذلك من رسالة جوابية بعثها القائد عبد السلام بن رشيد الحريزي للسلطان، الذي كان قد حث القائد المذكور على "المنافسة لتحسين الهيئة والحال والمباهاة بالخزائن [...] وتكثير المال، وانتخاب العدة وتكثير سواد المسلمين بصناديد الرجال" (61). لأن هذه هي عادة القبائل التي كانت فيما مضى "كالرّوضة الغنّاء والحدائق المزهرة العابقة الأرجاء. معتدّ بهم إذا (حلت) أفراح أو عرض نزال أو حم كفاح. فخلعت عليهم هيبة الاستعداد جمالها وجدّدت الشهامة [...] على مُناويهم نصالها. فلم يطف بساحتهم معاند ولم يطمع فيهم مكابر.." (62)

كما يفهم من الرسالة أن السلطان أمر القبيلة بالتخلي عن التوافه من الأمور، وبانتخاب الخيل الجياد "والأسلحة المهيأة للطعن ونشر أعلام الرحيل وإن لم يكن ثم رحيل" والزيادة فيما هو موجود من الخيل والسلاح وإلزام "كل من لم يكن له فرس وكان قادرا، على اشترائه بسلاحه" (63)

لا شك أن السلطان وجه هذه الرسالة إلى كل قبائل الشاوية على الأقل، وإلى قبائل أخرى، بدون شك، يحثها على التماسك، في وقت كانت فيه عوامل التفكيك قد فعلت فعلها، وأثرت بعمق على البنية الإجتماعية والإقتصادية والسياسية للقبائل. والملاحظ أن السلطان يتجه إلى قبائل قد أنهكها التدخل الأجنبي، مع ماجره من استغلال إقتصادي، وتأثير سياسي، ليطالبها بمزيد من الجهد. ومعنى ذلك - بالنسبة إلينا - أن سكان الشاوية في ظروف التدخل الأروبي أواخر القرن الماضي، قد أصبحوا مُطالبينِ ببذل جهود مضاعفة

أولا لمواجهة التأثيرات الأجنبية والمحافظة على البنى التقليدية للمجتمع المغربي.

ثانيا للقيام بواجبات المخزن وتكاليفه، التي ازدادت عما كانت عليه في السابق. لأن المخزن نفسه، أصبح يواجه مسلسلا من الضغوط باهظ التكاليف تعويضات الضغط العسكري الأروبي(64)، وتعويضات الحوادث الطارئة للأجانب، حتى ولو تسببوا فيها بأيديهم، وكثيرا ما كانوا يفعلون(65). يضاف إلى ذلك مصاريف النهوض ومحاولات الإصلاح، كشراء الأسلحة وبناء بعض التحصينات بالموانئ، وأداء أجور الملحقين العسكريين الأجانب بالرغم من أنهم كانوا يقومون بكثير من التجسس وقليل من التدريب.

إن السلطان وهو يطالب الشاوية، التي اشتهرت قبائلها بالغنى والاستعداد دائما مع المخزن كان عليه أن يتساءل هل في إمكان قبائل آخر القرن التاسع عشر، أن تصبح "كالروضة الغناء"؟ علما بأنها تتعرض للحلب باستمرار من طرف الأجانب، وما تبقى يعصره المخزن وممثلوه.

لا جدال إذن، أن ينتج عن هذه العوامل مجتمعة، إستجابات شعبية، في شكل انتفاضات، تظهر للدارس كأنها فورات عفوية. لكنها، في واقع الأمر، علامات على الغضب الشعبي. وردود فعل سكان يحسون بأنهم ظلموا، أو على الأقل، ردود فعل سكان يرفضون واقعا يعرضهم للاستكانة، في زمن كانت فيه القيم الأخلاقية، كالرجولة والشهامة والدفاع عن الحمى، تلعب دورا كبيرا في حياة النَاس، وكانت الحاجة تدفع الى التمرد.

هوامش الفصل السابع

1) - R.M.M. 1908, N.7 P.398.

2) - محمد أحمد بن عبود، "مركز الأجانب في مراكش"، الطبعة الثانية تطوان 1980، ص. 71.

3) - عن نشأة امتيازات الأجانب قارن ما جاء في

Durodier; (Roger), de l'évolution de la répression des fraudes dans l'empire chérifien, 1940, pp. 48-49.

4) - ابن عبود، نفس المرجع، ص. 37.

5) - عن هذه الاتفاقيات راجع نورية "الوثائق" التي تصدرها المديرية الملكية للوثائق. العددان الثاني والثالث. وكذلك

J.L. Miege, le Maroc et l'Europe, T.2

6) - عبد الرحمان بن زيدان، "اتحاف أعلام الناس"، الجزء الثاني.

7) - ابن عبود، م س، ص 11.

8) - راجع وثائق دار النيابة بتطوان، محفظة 30.

وعن الحمايات وظاهرة التجنس بالجنسيات الأجنبية والعودة للمغرب يراجع

Kenbib., les protections étrangères au Maroc aux 19éme Siècle debut 20 siecle. Thèse paris 1980,

9) - ضمن الأوربيون حق التملك في مؤتمر مدريد (الشرط 11). لكن بشرط خضوع ذلك الحق لموافقة المخزن المسبقة. وإجراء العقود حسب شريعة البلاد. وكان هذا أهم عائق لتطور الملكية الأجنبية بالمغرب لأن المخزن ظل يعارض باستمرار.

وبالرغم من حصول الأجانب على حق التملك دون إذن المخزن، حول المدن إلى مسافة 10 كلمترات (الفصل 60 من ميثاق مؤتمر الجزيرة 1906)، فإن الملكيات الأجنبية بالشاوية ظلت محدودة بالنظر إلى المضاربات العقارية وغلاء الأرض في ضواحي الدارالبيضاء التي كان ثمن الهكتار فيها يتعدى 8000 فرنك. وبالنظر كذلك لرفض المغاربة بالبادية تفويت أراضيهم للأجانب.

وهكذا اقتصرت الملكيات الأجنبية على ضواحي مدينة الدارالبيضاء إلى سنة 1907. ويؤكد هذا الأمر أن مقاومة السكان للتوغل الأوربي كانت على كل المستويات، ولم يكن

الأمر يقتصر فقط على السماح أو عدم السماح بشراء الأملاك.

Cf. Montalembret, la protection et les associations agricoles au Maroc, AF:Rc, 1906, PP, 205-9.

10)- عن نظام المخالطة الزراعية وتربية الماشية راجع

E. Vaffier, L'Agriculture et l'élèvage au Maroc, A.F/RC, 1906, PP. 205-9.
Les associations agricoles au Maroc, AF/RC/1906. PP. 234-239, et 263-265.

11)- "بفضل الحماية والمشاركة الزراعية، توطدت علاقات أكثر اتساعا بين التجار الأروبيين بالساحل وسكان الشاوية، وكان ذلك بداية التدخل الأروبي قبل الغزو الفرنسي..

12)-
Villes et tribus du Maroc, Casablanca et les chaouia, T. I P 173.

Le Coz, le Gharb, Fellahs et colons, rabat 1964, T. I. PP 360-362.

13)- لقد أشارت الآنسة "ماكنب" التي زارت المغرب سنة 1901، إلى أمثلة من هذه الديون الربوية، كعلامة على العراقيل التي كان الأجانب يضعونها أمام تطور المغرب.
عبد المجيد بن جلون، "جولات في مغرب أمس، 1901" مطبعة النجاح، الدارالبيضاء، ص. 121.

14)- كانت الفائدة تصل أحيانا إلى 500٪
Weisgerber, "Au seuil du Maroc Moderne" ed. La Porte, Rabat 1947, P. 32.

15)- تولى عبد الله حصار قيادة الدارالبيضاء في 1876/1293 ، خلال زيارة مولاي الحسن للمدينة في تلك السنة. انظر رسالة السلطان لسكان المدينة حول موضوع التولية: 2 ربيع الثاني 1293 / 27 أبريل 1876، مكروفيلم خ ع 23، ص 58. الناصري 9، 150.

16)- الرسالة بدون تاريخ مكروفيلم خ ع، 23.

17)-نعيمة هراج التوازني، "الأمناء في عهد مولاي الحسن"، مرجع سابق.

18)- مكروفيلم خ ع، 23، ص 115- 116، الظهير مؤرخ بـ 22 قعدة الحرام 1301 / 13 شتنبر 1884.

19)- سكان الزيايدة لمولاي عبد العزيز، 17 رمضان 1312 / 14 مارس 1895، و خ ح.

(20 ـ كتب قنصل ألمانيا لأمناء الدارالبيضاء

"فقد وصلنا كتابكم أخبرتم فيه، أنه ورد لكم الأمر الشريف، يأمركم بالتكلم معنا لنبين لكم عدد الأناس المخالطين لتجار جنسنا من إيالة القائد السيد المعطي بن المحجوب الزيراوي، ونطالعكم على رسوم المخالطة، وعليه فليكن في علمكم، أننا لما تلاقينا معكم أطلعناكم على الرسوم وصفحتموها (كذا). وكما يوافيكم طيه زمامنا وفق ما طلبتم وفي ذلك كفاية وبه الأعلام وعلى المحبة والسلام في 10 أكتوبر 1891 موافق 6 ربيع الأول 1309"
قنصل الألمان بالدارالبيضاء. و خ ح مح 906.

وقد جاء في تقييد مسجل بكناش خ ح، رقم 630، ص 2 ما يلي

"ما بإيالة القائد المعطي بن المحجوب الزراوي من المخالطين" حيث ذكرت 8 دواوير وقيد فيها حوالي 97 مخالطا. دون ذكر من كانوا مخالطين له ومتى. ويظهر أن التقييد كان بتاريخ 1309 لأنه ورد ضمن رسائل مؤرخة بالتاريخ نفسه. ولعله ـ بذلك ـ هو المعني في رسالة القنصل أعلاه.

21) ـ رسالة من القائد أحمد بن حجاج العريفي للسلطان، حول خلاف على الأرض، أساسه مخالطة ودين دفع للتجار من طرف القائد السابق على بن حجاج العريفي. ويريد أصحاب الأرض أخذها من أخيه القائد أحمد، دون إرجاع ما أخذوه من أخيه ودفعوه للتجار، 3 رمضان 1312 / 28 فبراير 1895، و خ ح.

22) ـ أنظر عواقب المخالطات بالمزامزة أسفله.

23) ـ أشار "نوتي" لهذه الظاهرة خلال مروره بالشاوية سنة 1901 وأثار انتباهه نشاط السكان والقواد في مكافحته بطرق متقدمة عما شاهده في الجزائر.
أنظر ما ذكره الناصري عن جراد 1867/1283 "الاستقصا"، 9، 119.

24) ـ المعطي بن عبد الكبير المزامزي للسلطان مولاي الحسن، 18 رمضان 1310 / 28 مارس 1893 و خ ح.

25) ـ الرسالة مؤرخة 13 ربيع الثاني 1310 / 4 نونبر 1892 و خ ح

26) ـ نفسها.

27) ـ نفسها.

28) ـ الرسالة مؤرخة 12 صفر 1311.

29) ـ نفسها.

30) ـ جرمان عياش، "جوانب من الأزمة المالية" م س، ص 11.

31) ـ J.L. Miege, le Maroc et l'Europe. T2. p. 495.
قارن كذلك، علال الخديمي، "أثر الإستقرار الأجنبي بالدارالبيضاء خلال القرن 19"، أعمال ندوة الدارالبيضاء، 1982 ص 43-51.

3) ـ أعلاه، ص 144.

3) ـ لقد اشترى الإخوة ما نسمان Mannesmann، كثيرا من الهكتارات بالشاوية وأصبح التاجر طوني Heinrich Tonni سنة 1905 أول معمر أوربي من حيث عدد الهكتارات التي كان يملكها والتي وصلت إلى 1300 هكتار

Guillen. P, "Les intérets allemands au maroc, à la veille de la conférence d'Algésiras", 1965, P 7

J. L. miege, op. Cit. T, 4, PP 342 343.

33 مكرر) ـ قائد أولاد حريز والمذاكرة وأولاد علي من 1870 1903

34) ـ محمد بن أحمد الصنهاجي لمولاي الحسن، 11 شعبان 1311 / 17 فبراير 1893 و.خ. ح.

35) ـ مولاي الحسن للطريس، 24 شوال 1311 / 30 أبريل 1894، تطوان 26/20.

36) ـ الرسالة عينها.

37) ـ الرسالة عينها.

38) ـ الرسالة عينها.

39) ـ أحمد بن العربي المديوني لمولاي عبد العزيز، 9 قعدة 1312 / 4 ماي 1895 و خ ح.

40) ـ نفس الرسالة.

41) ـ أحمد بن العربي المديوني لأحمد بن موسى، 14 قعدة عام 1316 / 6 أبريل 1897، و. خ .ح.

42) ـ أنظر أعلاه ص 180.

43) ـ ازداد الحاج المعطي بن عبد الكبير بن المدني سنة 1835/1251، تولى القيادة بعد أبيه سنة 1873 كان قائدا على سطات وقبيلة المزامزة وكان نفوذه يشمل أحيانا أولاد بوزيري. كان الحاج المعطي ذا نفوذ كبير. نظرا لقيامه بالواجبات المخزنية بانتظام. ونظرا لثقة السلطان فيه ولحسن سياسته كلفه ليقوم بسفارة لفرنسا سنة 1889/1306

Cf. Marthe et Gouvion, Kitab Aayane El Maghrib el Aqça P. 559.

M. Simon, Settat ses caids, ses origines, bull, Soc; geo. Alger. Afr. Noru. 1912, 3e trimestre 349-355.

ـ الكرنودي أحمد بن محمد، "التحفة السنية للحضرة الحسنية"، الرباط 1963، ص 12، وص 97-98.

44) ـ الرسالة مؤرخة 21 رمضان 1302 / 4 يوليوز 1885، تطوان 5/30.

45) - 14 محرم 1303 / 23 أكتوبر 1885، تطوان 6/30.

46) - مؤرخة بـ 23 محرم 1303 / 1 نوفمبر 1885، تطوان 7/30.

47) - عينها.

48) - القائد المعطي للنائب محمد الطريس، 24 صفر 1304 / 23 نونبر 1886 تـ 9/30.

49) - 8 شعبان 1302 / 23 ماي 1885، تطوان 4/30.

50) - 4 جمادى الثانية 1309 / 5 يناير 1891، تطوان 12/30.

51) - 15 جمادى الثانية 1310 / 24 مارس 1893، تطوان 15/30.

52) - القائد للنائب الطريس، 10 شعبان 1314 / 14 يناير 1897، تطوان 20/30.

53) - 13 رمضان 1314 / 15 فبراير 1897، تطوان 22/30.

54) - 10 شعبان 1314 / 14 يناير 1897، تطوان 20/30.

55) - 4 رجب 1315 / 29 نونبر 1897، تطوان 28/30.

56) - 10 شعبان 1316 / 24 دجنبر 1898، تطوان 36/30.

57) - 8 جمادى الأولى 1316 / 24 شتنبر 1898، تطوان 32/30.

58) - 1 محرم 1318 / 12 ماي 1899، تطوان 39/30.

59) - أنظر أسفله انتفاض الشاوية.

60) - 19 صفر 1306 / 25 أكتوبر 1888، تطوان 9/30.

61) - الرسالة مؤرخة بـ 9 جمادى الثانية 1305 / 15 يناير 1888، حيث أخبر القائد السلطان بأنه قرأ الكتاب على أعيان القبيلة وعامتها "فأجابوا بالسمع والطاعة والقيام على ساق الجد في شراء الخيل والعدة" كما أخبره بأن "الخيل موجودة بالقبيلة غير أن العامة كلها حرثت على خيلها كما هي عادتهم" و خ ح.

62) - نفسها.

63) - نفسها.

64) - مثال صارخ من هذه الضغوط وتعويضاتها، نجده في المحاولة الإسبانية الفاشلة لتوسيع حدود مليلية بالقوة المسلحة سنة 1893.

ابن الأعرج السليماني "اللسان المعرب عن تهافت الأجنبي حول المغرب" الرباط، 1971، ص 140-139.

Germain Ayache, " les orgines de la guerre de Rif" SMER, rabat 1981. P 126..

65)- كان المخزن مضطرا لدفع تعويضات لا تنتهي، للأجانب الذين يدعون تعرضهم النهب والسرقة. أو يطالبون برد ديون عجز أصحابها عن ردها. ونعثر على أمثلة كثيرة من هذه التعويضات، في كناش خ ح رقم 568. حيث نجد ما يقرب من 150 تعويض للفرنسيين وحدهم.

الفصل الثامن

انتفاضة الشاوية 1894-1907

لقد أثار هذا التدخل الواسع في شؤون الشاوية، ردود فعل تجاه الأجانب. ولما كان كل حادث مهما كان بسيطا، تنتج عنه مطالب بالتعويضات المرتفعة، الأمر الذي كان يزيد من استغلال التجار للمحميين والمخالطين، ويزيد هؤلاء جسارة على القواد، وبالتالي يؤدي إلى إضعاف سلطة المخزن فإن سكان الشاوية، أخذوا يقومون بتحركات تنم عن نوع من التحرر من سلطة القواد، وبدأت الحسابات تصفى دون اللجوء إليهم. ثم تطورت هذه الحالة إلى انتفاضة عامة، ضد القواد أنفسهم وضد الأجانب في الوقت نفسه. وحدث هذا التطور خلال الظرفية السياسية والإجتماعية التي عرفها المغرب مع انتفاضة بوحمارة، وتزايد الضغط الأوربي والتحرشات الفرنسية.

أولا الوضع السياسي والإجتماعي بالشاوية 1894-1903

من الملاحظ أن الشاوية عرفت منذ 1893، خلافات محلية بين القبائل، اتخذت في بعض الأحيان صبغة خطيرة. فقد حدثت فتنة بين المزاب من جهة، وبين قبائل المذاكرة وأولاد حريز والأعشاش من جهة أخرى (1). وقد وقع هذا الصراع في الوقت الذي كان فيه السلطان مولاي الحسن مشغولا بحركة تافيلالت. فأرسل محلة يقودها ابنه مولاي بلغيث، الذي نزل بقصبة امزاب عند القائد محمد بن أحمد المزابي، وأمر قواد القبائل المتهمة، بإرجاع ما نهب للمزاب من زرع وأثاث وماشية.

كما فرض السلطان ذعائر ثقيلة على القبائل المذكورة، واضطر قوادها أن يدفعوا ما أمرهم به السلطان(2).

لكن يظهر أن هذه القضية كانت لها مضاعفات خطيرة، فقد اتهم القواد الآخرون قائد المزاب بالكذب والإدعاء الباطل، وطالبوا بإجراء بحث دقيق في الأمر. وقد بين التحقيق وجود تجاوزات من طرف قائد امزاب، الذي استهدف لعداوة جيرانه(3). وربما كان ذلك سبب تعرض قصبته للنهب من جديد في 3 محرم 1314 / 14 نونبر 1896(4).

ونتيجة لهذه الأحداث، وربما نتيجة كذلك، للتطورات السياسية التي أعقبت وفاة مولاي الحسن (ماي 1894). حيث بويع الإبن الأصغر مولاي عبد العزيز بمدينة سطات (بالشاوية)، في الوقت الذي كان أخوه مولاي بلغيث خليفة عن أبيه بالمنطقة. ولما سمع بما حدث تخلى عن مهامه الرسمية. ولا شك أن ذلك أثر في كثير من أعيان الشاوية، وفي عامة الناس، ولا شك في أنهم تحدثوا بما جرى في مجالسهم.

وقد اقترنت هذه التطورات السياسية الداخلية، بتزايد التدخل الأروبي بالشاوية، حيث أخذ الأجانب يتدخلون في الشؤون الداخلية للقبائل ويثيرون المتاعب للقواد ـ كما رأينا وفي هذه الأثناء (1894) قتل تاجر ألماني(5) (F. Newmann)، قتله ثلاثة من سكان الشاوية. لكن التدخل العنيف للسفير الألماني طاطنباخ(6)، جعل المخزن يأمر قائد مديونة بإعدام أحد المتهمين بالقتل(7). ويمكن للباحث أن يبدأ من هذا الحادث، إذا أراد التأريخ لردود فعل سكان الشاوية تجاه تجاوزات الأجانب بالمنطقة.

فقد أثار إعدام أحد السكان، بجريرة قتل تاجر أجنبي سيء السيرة، حنق القبائل. فجاءت وفود منها لتطالب عامل مدينة الدارالبيضاء، بإطلاق سراح كل البدويين المسجونين بالمدينة، والتخلي عن كل متابعة سببها ديون أجنبية. وقد تمكن عامل الدارالبيضاء من الإتفاق مع زعماء الوفود(8). لكنه لم يحترم هذا الاتفاق، فألقى القبض من جديد على أفراد اتهموا بسلب أوربيين بقبيلة زناتة المجاورة للمدينة، الأمر الذي أثار سكان القبيلة والقبائل المجاورة ضد ممثلي المخزن. وأدى إلى استبدال قائد المدينة عبد الرحمان بركاش بالقائد أحمد بن العربي المديوني. كما أرسل السلطان محلة يقودها مولاي الأمين عم السلطان للشاوية بهدف تهدئة الأوضاع(9). وقد أرسلت هذه المحلة في الواقع لمنطقة الشاوية كمقدمة لانتقال السلطان وأحمد بن موسى للحوز الذي كان يشهد في هذه الأثناء اضطرابات عامة(10)وخاصة بالرحامنة(11).

ومن الجدير بالذكر، أن المحميين والمخالطين، كانوا من المحرضين على هذه الإضطرابات، ومن المشاركين فيها. وقد ظهر هذا جليا في الأحداث التي شهدتها قبائل مزاب والأعشاش من جديد سنة 1314/1896-1897. ذلك أن بعض فرق الأعشاش هاجمت قصبة ابن أحمد من جديد ونهبتها، وإذا اتهم القائد محمد بن أحمد الأعشاش وبعض القواد بالمسؤولية عما حدث، وإذا ادعى بعض التجار بنهب أموالهم بالقصبة فإن المصيبة هذه المرة أصابت القائد نفسه، إذا اتهم بالتهاون وعزل(12). وقد رأينا أن لأحداث 1894 نصيبا في هذا العزل نتيجة لحزازات القواد وسعاياتهم ضد بعضهم.

لقد كانت حوادث الأعشاش مناسبة أخرى لأحمد بن موسى، ليقوم بحركة ناجحة مماثلة لحركته للرحامنة(13). وهكذا خيمت جيوش المخزن وكثير من القبائل بصخرة الدجاجة سنة 1315/1897-1898، وضيقت على الأعشاش وخاصة على فرقة أولاد امحمد منهم، الذين تعرضوا للتنكيل والنهب والقتل(14).

ومما ينبغي ملاحظته كذلك، أن التجار الأجانب وجدوا الفرصة بدورهم سانحة ليتدخلوا في شؤون المخزن عن طريق تشجيع سماسرتهم على الإدعاء الباطل ضد جيوش المخزن. كما وقف كثير من المحميين بجانب المتهمين وآووهم في خيامهم(15). وبدل أن يخضع المحميون والمخالطون لأداء واجبات المخزن، فإنهم تهربوا منها، بل أرادوا الربح فادعوا بضياع أموالهم وطالبوا بتعويضات خيالية. فقد ادعى محمد بن الرامي مثلا، وهو محمي انجليزي، بأن الجيوش السلطانية استولت له على 2000 رأس من الغنم و 175 ثورا و 50 بقرة و 40 حصانا الخ... إلى آخر القائمة(16).

وإذا تمكن أحمد بن موسى من مواجهة هذه الانتفاضات بصرامة، والقضاء عليها بكل قسوة، فإن سياسته التي سلكها مع القبائل، وإطلاقه لأيدي القواد في قبائلهم يبتزونها ويجمعون له الأموال، كانت لها عواقب وخيمة بعد ذلك، وخاصة بالشاوية(17). فقد هيأ اختفاؤه فرصة أخرى لتملص السكان من ضغوط القواد. وانتهز الأجانب ذلك، ليزيدوا من تغلغلهم ويثيروا الفتن، ويغذونها لاقتطاف ثمارها باضعاف المخزن وممثليه في القبائل. ولقد كانت محاولة الإصلاح الجبائي سنة 1901، استجابة لهذا التطور، هدفت إلى محو الحزازات بين القواد والسكان، وسحب الذرائع من يد الأجانب(18). وهذا ما يفسر وقوف التجار والمخالطين ضد الترتيب وتجدد سعاياتهم في القبائل.

والملاحظ، أن قبائل الشاوية، لم تعرف أي اضطرابات موجهة ضد ترتيب 1901، حسب الوثائق التي تم التعرف عليها. لكن إعلان الترتيب، مثل ضربة خطيرة لنفوذ القواد بدون شك. وإذا أضفنا لهذا، تزايد نشاط الأجانب السياسي، وخاصة الفرنسيين الذين احتلوا توات، ودشنوا سياسة التدخل النشيط في المغرب، والذين دفعوا رجالهم إلى معارضة الترتيب، تفهمنا لماذا كانت النفوس تزداد إثارة ضد الأجانب وبالضبط ضد الفرنسيين(19).

والواقع أن بوادر الإضطراب بدأت تلوح في أفق الدواوير المنتشرة فوق سهول الشاوية الفسيحة منذ 1901، الأمر الذي يفسر تزايد استعداد القواد بالأسلحة والذخيرة. فقد تلقى أمناء الجديدة أوامر من السلطان تقضي "بدفع 50 مكحلة وعشرة آلاف من القرطوس" للقائد العياشي السعيدي، من نوع ساسبو. وبدفع 30 ألفا من القرطوس للقائد عبد السلام بن رشيد الحريزي(20).

ثانيا انتفاضة الشاوية 1903-1907

ولقد تطورت الأحداث بسرعة في الشاوية منذ أواخر 1902. وخاصة سنة 1903 فمنذ انتشار أخبار انتفاضة القبائل بشرق فاس، بزعامة الجيلالي الزرهوني (بوحمارة)، واستدعاء حركات قبائل الحوز، وعلى رأسهم قواد الشاوية؛ تهيأت الظروف لتطور الانتفاض ضد القواد، لما أصبحوا مضطرين لمواجهة تكاليف مساهمتهم في قتال بوحمارة أن يخرجوا على روح ترتيب 1901، بجمع مزيد من الإتاوات من القبائل.

فقد كتب عبد السلام بن رشيد الحريزي، إلى إحدى فرق إيالته، يدعوها للسكينة والقيام بالواجبات التي يطالب بها خليفته الحاج حمو بن أحمد بن الجيلالي، وجاء في رسالة القائد "إخواننا مليلة، أعيانهم وعامتهم... ها نحن ذاهبون مسرورين للحركة الشريفة، فعليكم أن تظهروا ما ننتظره منكم من طاعة للمخزن كما هي عادتكم. فلا تتهاونوا، وإذا قدم عندكم خليفتنا سيدي الحاج حمو بن أحمد، فاسمعوا له وأطيعوه، واصحبوه بنشاط إلى أي جهة يريد الذهاب إليها، ولا تفارقوه، إلا بعد أن يقضي أغراض الخدمة، وأنا من بعيد وراء ما أراه وأسمعه من جهتكم"(21).

والواقع أن شرارة الانتفاضة بالشاوية انطلقت من دكالة. فبأولاد فرج المجاورين لأولاد بوزيري وأولاد سعيد، ثار السكان ضد تصرفات خليفة القائد بوعلي قائد أولاد فرج(22). ثم انتشرت الانتفاضة بهجوم السكان على قصبة

القائد وتخريبها. وكان ذلك بداية لانتفاض عام نهبت خلاله، قصبات ودور قواد دكالة وغيرهم من قواد الحوز(23).

أما بالشاوية، فقد بدأت الاضطرابات بأولاد سعيد، وأولاد بوزيري، وأولاد سيدي بنداوود المجاورين لأولاد فرج. حيث أخذت جماعات منظمة من السكان تتجمع، وتهاجم قصبات القواد، وتنهب أموال كبار الأغنياء وخاصة المخالطين. وتشير إلى هذه الاضطرابات رسالة بعثها السلطان إلى قبيلة أولاد بوزيري يقول فيها

"خدامنا الأرضين كافة قبيلة أولاد بوزيري، أخص أعيانهم (...) وبعد، فقد بلغ علمنا الشريف أن فرقة من أولاد سعيد التي اشتغلت بالتشويش تحاول أن تجركم في نفس السبيل لتسود صحائفكم باتباعها.." وبعد أن ذكرهم بما سبق أن حاولوا القيام به واعتذارهم ونسبتهم الجور إلى عمالهم، أمرهم ببعث وفد من أعيانهم، لدى السلطان للتفاوض معه حول ما يصلح القبيلة أما "إذا اتبعتم أولاد سعيد، فأي عذر يبقى لكم" يقول السلطان. وأخيرا أمرهم بمقاطعة أولائك الذين يتبعون أولاد سعيد منهم، ومساعدة أعيانهم على تهدئة النفوس، "وقمع المشاغبين ووضع حد للتشويش، ونشر السكينة..."(24).

لكن هذه الرسالة لم يكن لها أي تأثير في الحشود المنتفضة، التي هاجمت قصبات قواد أولاد بوزيري(25). ثم قصبة القائد بوشعيب بأولاد سعيد التي خربت في 7 دجنبر 1903. وقصبة القائد العياشي السعيدي في 11 منه (26).

وإذا صدقنا الروايات الشفوية التي نقلها "باروكير" Barrouquere فإن الجموع الثائرة، كانت تهاجم دور القواد، لتنهبها أولا، ثم تخربها بعد ذلك، وأن "الزعماء كانوا يفرضون نظاما حازما خلال الهجوم، وأنهم كانوا يعاقبون عقابا صارما كل من ارتكب العنف أو السرقة، خارج حالات المقاومة الصريحة.."(28).

وهكذا، لم تكد سنة 1903 تنتهي، حتى أصبحت قبائل أولاد سيدي بنداوود وأولاد بوزيري وأولاد سعيد، في حل من قبضة قواد المخزن، وانتخبت قوادها وشيوخها الذين ارتضتهم من بين زعمائها.

والواقع أن الانتفاض لم يقتصر على القبائل المذكورة وحدها، بل كان منتشرا في مجموع قبائل الشاوية. وهذا ما يوضحه كتاب من مولاي عبد العزيز. موجه إلى جميع "قبيلة الشاوية" مما جاء فيه :

"خدامنا الأرضين كافة قبيلة الشاوية، أخص أعيانهم وكبراءهم.. وبعد فقد قدمنا لكم أمرنا الشريف غير مامرة، بأن تكونوا في الصلاح ذاة واحدة، وتكفوا كل من رأيتموه يتشوف للفساد، ويميل للطيش تطهيرا لساحتكم، وتمسكا منكم برضى الله ورسوله ورضانا، وجريا على ما عهد من خدمتكم وصلاحكم، وبراءة لكم من عهدة ما عسى أن يبلغنا عنكم فلكل عمل بحول الله جزاء. وزدناكم هذا تأكيدا في ثباتكم، وتسكين كل ما يحدث بناحيتكم..."(29). ثم أخبرهم بأنه كلف المرابط محمد بن داوود الشرقاوي، بالذهاب للقبيلة "لتحقيق أسباب ما حدث" كما أمرهم إن حصل لهم "ضرر من أحد"، أن يشافهوا به المرابط المذكور، ويعلموا السلطان "من غير طيش ولا ترويع" كما أطلع السلطان سكان القبيلة بأنه أصدر أمره، "للفرق التي حدث فيها التشويش"، بتوجيه أعيانها وكبرائها لدى السلطان، بقصد النظر في إيجاد حلول مرضية(29 مكرر).

نهب سطات 17 دجنبر 1903 :

كانت سطات(31) من أهم مراكز الشاوية، وكانت مركز قيادة المزامزة، ويرجع تأسيسها إلى عهد مولاي إسماعيل. وقد عرفت تجديدات في قصبتها خلال القرن التاسع عشر في ولاية القائد الكبير بن المدني(1845-1877) وابنه الحاج المعطي بن الكبير آخر قائد للمزامزة قبل الاحتلال. وكانت سطات تضم عددا من السكان بينهم عدد من اليهود، وكان التجار يمثلون نسبة مهمة من هؤلاء السكان.

تعرضت سطات للهجوم في 27 رمضان 1321، حيث نهبتها الجموع الثائرة صبيحة ذلك اليوم (32). وقد حل هذا المصير بالقصبة وبدورها في الوقت الذي كان الحاج المعطي، في طريقه إليها راجعا من فاس، كبقية قواد الشاوية لتدارك الأمر. فاضطر - بعد أن لقيه ابنه وخليفته، الحاج عبد السلام في الطريق - للعودة إلى الدارالبيضاء، التي مكث بها مدة ثم التحق بقصبته المنهوبة، ليشرع من جديد في استعادة وتجديد ما ضاع، بعد أن سكنت الأحوال بقيادته. فقد كتب للنائب محمد الطريس، يطلب منه أن يشتري له السلاح، كعادته معه قائلا :"هذا وقد كان موفرا عندنا من العدة على الثلاثمائة مكحلة إلا أنها ضاعت، حيث أصابنا وعيد النهب بواقعة سطات. وقد تعين خلف ذلك بقصد دفاع ما عسى يحدث مع أننا والحمد لله لا بأس هذه الساعة، وأخواننا في سكينة وهناء. فنحب من مجادتك أن تباشر لنا شراء خمسين مكحلة ساسبوا وإلا (كذا) منبهية وأربعة آلاف من القرطوس.."(33).

ولم يقتصر الإنتفاض على قبائل الشاوية الجنوبية، بل انتفضت قبائل المزاب، والأعشاش، والمذاكرة وأولاد حريز(34). فقد هوجمت دور القواد، وعزل بعضهم(35). وخربت قصبات بعضهم الآخر(36). وقد اتخذت الإنتفاضة بالأعشاش شكل صراعات بينهم وبين جيرانهم ورديفة(37). ويبدو أن تحرك الشاوية واضطرابها. جعل السلطان يقرر إرسال حركة هامة من الجيش قوامها 3000 جندي بقيادة عمه مولاي عبد الملك. وكتب لفرق الشاوية يحثها على التعاون معه "لإنهاء الإضطراب الذي حدث بنواحيكم - يقول السلطان - وهياج العامة، ولنشر السكينة التامة والأمن"(38).

ويظهر أن مهمة عبد الملك كللت بالتوفيق. ولذلك أمره السلطان بإركاب طابور الأغا الحسين الباعمراني من البيضاء إلى طنجة "لغرض مهم اقتضاه"(39). لكن سرعان ما بدأ أولاد حريز يثيرون العراقيل للقوافل المارة ببلادهم، الأمر الذي هدد بتجديد الفتنة، فكتب قائد المحلة المخزنية في 21 يونيو 1904 للسلطان يخبره بالواقع ويطلب منه إصدار أمره لقائد أولاد حريز بكف إيالته "قبل تجدد الفتنة"(40).

وفي الواقع لقد كانت قبيلة أولاد حريز في هذه الأثناء، تشهد تحركات ضد عائلة ابن رشيد، يتزعمها خليفة القائد، الحاج حمو بن أحمد الذي تمكن من الاستيلاء على القيادة. وبعد موته، نشب خلاف بين محمد بن القائد عبد السلام بن رشيد(41)، من جهة، وبين الحاج محمد بن الحاج حمو المذكور. وانتهى الأمر باستعانة الحاج محمد بزعماء الفرق المنتفضة بأولاد حريز والمذاكرة والمزاب، وحاصر المنتفضون قصبة ابن رشيد التي فر منها ابن القائد، فدخلها المنتفضون وخربوها أواسط سنة 1905 (42).

ثالثا دوافع الانتفاضة

من المصادر التي تعرضت لانتفاضة الشاوية في بداية القرن العشرين، نجد رواية "البعثة العلمية" في سلسلة "مدن وقبائل المغرب" وتشير هذه الرواية، إلى أن تسلح قبائل الشاوية نتيجة لعدم تأديتها للترتيب، جعلها تقاوم سلطة المخزن(43). كما أعطت هذه الرواية دورا كبيرا لتحريض المرابط البوعزاوي (44) ضد السلطان. وتتفق رواية مارتان Martin، مع الرواية السابقة حيث يرجع الدوافع إلى رفض القبائل تأدية الضرائب وإلى غياب القواد لحركة بوحمارة(45).

وفي دراسة حديثة أكد بورك Burk III (46) على أن "سيبة الشاوية" بين 1903 و 1907 ترجع إلى عاملين اثنين ثورة بوحمارة وترتيب 1901. معطيا هكذا ـ نفس الأسباب التي وردت في الروايات السابقة، ومضيفا شيئا جديدا، هو أن الصراع كان داخل "النخبة"، ويتزعمه المحميون ضد سلطة المخزن، أي أن الانتفاضة تمثل "عصيان طبقة جديدة صاعدة من الأعيان القرويين"، الذين لهم روابط مع "المصالح التجارية الأروبية"(47). والواجب علينا، هو مناقشة الروايات السابقة، على ضوء الحقائق والوقائع التي تم التعرف عليها سابقا، ومحاولة كشف العوامل، أو على الأقل كشف جانب من هذه العوامل، التي لن تكون واضحة بما فيه الكفاية، إلا إذا اكتشفت وثائق جديدة أخرى تلقي أضواء كاشفة على ما جرى(48).

لم تتخذ انتفاضة الشاوية، شكلا فوضويا لا هدف له ولا منطق، بل نجد أن القبائل التي بدأت فيها الحركة، تنتخب زعماء لقيادتها. وكان من أبرز زعماء الانتفاضة بأولاد بوزيري وأولاد سيدي بنداوود القرشي بن الرغاي، وكان في الأصل خليفة لأخيه القائد الجيلالي بن الرغاي(49) على أولاد سيدي بنداوود، الذي أقيل من منصبه لصالح القواد المجاورين بأولاد بوزيري وأولاد سعيد، في عهد أبا أحمد. وقد تزعم القرشي الانتفاضة وقادها مع آخرين ليس في قبيلته فحسب بل في أولاد سعيد وأولاد بوزيري ضد قواد المنطقة(50).

وبأولاد سعيد تذكر الروايات أن الشيخ البوعزاوي كان من المحرضين الرئيسيين على الانتفاض(51). أما بأولاد حريز فنجد الحاج محمد، ابن خليفة القائد ابن رشيد، هو الذي يتزعم قبيلته مع زعماء آخرين من نفس القبيلة ومن غيرها كالأحمر بن منصور من المذاكرة(52). هذه أمثلة، ويمكن القياس عليها في القبائل الأخرى حيث ظهر زعماء قادوا جماعاتهم التي أصبحت بيدها السلطة الفعلية.

كانت الجماعات المذكورة منظمة تنظيما، لا ينبغي معه الإعتداء على أحد دون سبب معقول، وقبل أن تقرر الجماعة في تجمع عام كان يطلق عليه "جوقة"، رد الفعل.

ومما يؤكد هذا الأمر أن من الأهداف التي كان "الثائرون" متفقين عليها هي

1. "لن تتقاتل القبائل فيما بينها"
2. "نهب القصبات وتخريبها".

3. "معاقبة الأغنياء وأخذ إتاوة منهم"
4. "يتكلف كل زعيم بحفظ النظام في فرقته" (53).

إن التأكيد على الهدف الأول، ينفي الفوضى، ويجعل للحركة أهدافا محددة في ممارسة حق الاسترجاع لما أخذه القواد والأغنياء، كما جاء في النقطتين الثانية والثالثة. أما تخريب قصبات القواد، فالقصد منه تحطيم دعائم الاستبداد بحيث يتحول ساكنو القصبات إلى أفراد عاديين. وأما معاقبة الأغنياء بأخذ إتاوة منهم، فتثير التساؤل عن حقيقة الأغنياء ؟ إنهم في واقع الأمر، المحميون والمخالطون والتجار الكبار، وبصفة عامة أولائك الذين تنكروا للجماعة وربطوا مصيرهم بالأجانب. وحول النقطة الرابعة، نلاحظ أن البديل لحكم القواد، هو التسيير الجماعي للقبيلة، ولكنه تسيير مسؤول، يكلف به زعيم أو شيخ مسؤول أما الجماعة.

مما سبق، يظهر أن الفرق المنتفضة، رفضت قواد المخزن. وهذا تؤيده رسائل السلطان، التي دعا فيها الفرق المنتفضة، للكتابة إليه، أو إرسال وفودها للتفاوض حول ما يصلح القبيلة. ويتأكد ذلك من أن الهجومات العامة كانت تتجه نحو قصبات القواد التي خربت ونهبت. وهكذا يظهر سبب رئيسي، هو أن مقاومة القواد الرسميين كانت إحدى دوافع الانتفاض. لكن الأمر لا ينبغي أن يقف عند هذا الحد. بل يجب التساؤل، لماذا كان القواد موضوع الهجوم والنقمة الجماعية؟ وهل يتعلق الأمر بالشطط في جمع الضرائب، وبرفض القبائل تأدية الضرائب القديمة والترتيب الجديد، كما تعتبره الروايات السابقة؟ ثم إذا كان النهب يتجه للمتاع والمال، فهل كان الأمر يتعلق بصراع داخل النخبة؟ وهل كان هدف النخبة هو السلب والنهب؟ وإذن من كان موضوعا للنهب والسلب ومن سعى إليه؟.
وأخيرا ما هي حقيقة زعماء الانتفاضة ؟

إن غياب القواد لحركة بوحمارة أواخر 1902 وبداية 1903، لم يكن هو الدافع الرئيسي للانتفاض، بل كان ظرفا ملائما لاتساعه. أما الدوافع الحقيقية، فيجب البحث عنها في العلاقات الإجتماعية والإقتصادية والسياسية بين القبائل وممثلي المخزن في عين المكان، من جهة، وبين القبائل والتدخل الأجنبي، من جهة أخرى، ثم في الظرفية العامة، التي كان المغرب، يمر بها على المستوى الداخلي والخارجي.

لقد حدث الانتفاض بسبب تراكم عوامل كثيرة، أبرزها التأثير السيء للتدخل الأجنبي بالشاوية، ذلك التأثير الذي أحدثته الحمايات والمخالطات وما نتج

عنها، دون أن ننسى بطبيعة الحال، ما يضاف لذلك من تكاليف المخزن التي ازدادت مع ازدياد التدخل الأجنبي، وكان قسط غير هيّن منها، يوجه لتعويض الأجانب والمتعاملين معهم أو لرد ديون أجنبية. إن التمرد ضد قواد المخزن، كان يعني مقاومة جهاز ضعيف يجد التجار الاحتكاريون الفرصة في ظله للإستغلال والنهب المقنن. وقد يكون من المفيد التذكير، بأن قسطا من مسؤولية القواد يرجع لأحداث عهد أبا أحمد. فقد أشرنا لفتن الشاوية، وصراعات القواد مع بعضهم، وتعدد حوادث شراء القيادات، وتولية عدد من القواد على قبيلة واحدة، كما حدث بأولاد بوزيري وأولاد سيدي بنداوود (54). إن الخلافات بين القواد حرضت الناس ضدهم، لكن بعد ارتخاء قبضتهم إثر وفاة أحمد بن موسى، وخاصة بعد ذهابهم لحركة بوحمارة، حلت ساعة الخلاص والقصاص، فأخذ السكان الأمر بين أيديهم ليسترجعوا ما سلب منهم أو ليقتصُّوا ممن ظلمهم، وهنا نلتقي بالعامل الإجتماعي ـ الإقتصادي ـ السياسي.

حقا إن الذهاب للحركة قد يدفع القواد إلى المطالبة بمزيد من الواجبات، لكن ترتيب 1901 سحب الذرائع منهم، وفي هذا الإطار ينبغي البحث عن روح التمرد. فالسكان لم يرفضوا أداء الضرائب، لأن غالبيتهم تحرروا منها، ولكنهم رفضوا الخروج عن روح الترتيب. وتوافق ذلك مع سعايات المحميين والمخالطين، ومع ظرفية كان المخزن يعيش فيها أزمة مالية، اضطرته للاقتراض من الخارج وبشروط تسيء لاستقلال البلاد. فاجتمعت بذلك عوامل التحريض ضد وضع لم يعد مقبولا من الجميع.

ويحاول بورك Burk، أن يؤكد على أن الصراع كان داخل النخبة. ونفهم منه أن فئة المحميين كانت ضد فئة الحكام. لكننا نعلم أن المنتفضين، كانوا في غالبيتهم من جماهير القبائل. فقد شاركت في نهب سطات، "جموع هائلة من الناس غطت التلال المجاورة" (55). ثم أن تلك الحشود من الناس كانت تهاجم قصبات القواد وتصادر أموال الأغنياء، أي أن الجماهير هي التي كانت تصادر ما جمعته "النخبة" وهذا يبين أن العقاب كان موجها لمصادر الثروة وليس ضد الأشخاص. وأن المحميين والمخالطين كانوا ضحية الأحداث ولم يكونوا يوجهونها.

فبأولاد بوزيري مثلا، تعرض أحد المخالطين لداوود عمار، وهو من التجار المشهورين بسطات لمصادرة أمواله، وقد قدر المنهوب للتاجر المذكور بـ 1200 رأس من الغنم و 15 ثورا و 3 أحصنة و 3 جمال و 40 جملا قمحا (56) وبقصبة سطات نهب 216 متجر و 60 دارا و 5 مخازن كبرى (57).

ولقد اعتمد بورك في حكمه بأن الصراع كان داخل النخبة، على لائحة لأسماء زعماء الانتفاضة بأولاد سعيد، ولاحظ أن العديد منهم أغنياء أو سماسرة ولم يلاحظ بينهم فقراء (58) لكنه وقف عند هذا الحد وكان عليه أن يتساءل عن حقيقة أولائك الزعماء. والواقع أن اللائحة تحتوي على 41 شخصا، لا يوجد بينهم إلا 3 محميين، ألماني واحد وإسباني وفرنسي(59). في حين تضم تلك اللائحة 11 رجلا ممن كانوا ضد التدخل الأجنبي صراحة فمنهم من رشحه البوعزاوي للقيادة ومنهم من عوقب من طرف الفرنسيين لما احتلوا البلاد، ومنهم من مات مجاهدا أمام الدارالبيضاء.

ولم تكن اللائحة المذكورة هي الوحيدة. ولكننا نستطيع أن نورد لوائح أخرى كان ينبغي عدم إهمالها. وهي لائحة زعماء الانتفاضة بالمذاكرة وأولاد علي وأولاد حريز(60). أو لائحة أولاد بوزيري (61) وأولاد سيدي بنداوود (62). وهنا نلتقي بأسماء لفقراء يوصفون بالصرامة. ونلتقي كذلك بأسماء لأغنياء. إن توصل بعض الفقراء للزعامة يعني أن الغالبية كانت منهم. وتزعم الأغنياء أمر طبيعي في مجتمع قبلي يلعب فيه الأعيان والموسرون دورا هاما. ولكنهم لا يخرجون عن تيار الجماعة، وقواعد التكافل والتضامن(63). فلا ننسى أننا في مجتمع مغرب القرن التاسع عشر، الذي كانت فيه القيم الأخلاقية شيئا ضروريا لحياة الجماعة واستمرارها.

وحتى إذا احتاج الأمر لمزيد من البيان، فإن الأغنياء المشار إليهم، كانوا من أمثال القرشي بن الرغاي، والحاج محمد بن حمو، والبوعزاوي، والأحمر بن منصور. إن هؤلاء كانوا أغنياء حقا، ولكن حقيقتهم لا تقف عند حد الغنى. لقد كانوا زعماء مرتبطين بجماعتهم، ومقدمين لقيادتها والذود عنها ضد الأعداء. وكان معظم المقدمين منخرطين في طريقة أو طائفة الرماية.

كانت طريقة الرماية من بين الطرق المرتبطة بالدين والجهاد (64) في سبيل الله. وكانت منتشرة بالشاوية خاصة، حيث كان لها منخرطون كثيرون. وفي الواقع، لقد كانت الجماعة تحرص علي تدريب أبنائها على كيفية حمل السلاح وركوب الخيل والقتال، أي على الفروسية بمعناها الكامل. وكان لجماعة "الرمى" أي الرماة دور خطير في حياة القبيلة. ولما كان الأساس دينيا، فإن مقدم "الرمى" كان من الشخصيات التي تتصف بالزعامة والرجولة والشجاعة والإيثار والتواضع(65). وكان الأحمر بن منصور مثلا - حسب ما أخبرنا به من عرفوه - يتصف بهذه الصفات. فقد كان له 15 خماسا من الفلاحين وكان يعتبر نفسه

واحدا منهم. يؤاكلهم ويشاركهم الرأي ويقودهم مع الجماعة للدفاع عن القبيلة. ولا ننسى في هذا السبيل أن نشير إلى أن مقدمي الرماية بالشاوية هم الذين سيقودون قبائلهم في الجهاد ضد الإحتلال الفرنسي(66). أما المرابط البوعزاوي فإن تزعمه للانتفاضة، أو إنصات الثائرين لمشورته ـ وهو الصحيح ـ فيدل بشكل واضح على أن الانتفاضة كانت شعبية وتهم عامة الناس، ويحركها العامل الديني من بين عوامل أخرى. لأن المرابط لن يستفيد كثيرا من إثارة الفتنة لمجرد الفتنة. ولقد اتهم البوعزاوي السلطان بالخروج عن الشرع، لاتباعه مشورة الأجانب (67). ثم ازدادت هيبة السلطان هبوطا بعد فشله في القضاء على بوحمارة، وانهارت كثيرا، بعد إعلان "مقررات مؤتمر الجزيرة" 1906.

ولا ينبغي للمرء أن يرى هذه الأمور التي كانت الشاوية مسرحا لها، يمعزل عما كان يجري على نطاق المغرب كله. بل عليه أن يربطها بالأحداث التي كانت تجري في جنوب البلاد مثل جهاد القبائل الصحراوية الذي دخل مرحلة حاسمة في 1905 (68)، وجهاد قبائل الصحراء الجنوبية الشرقية وتافيلالت، ثم بالتَوتُّر الذي كان يسود العلاقات الإسبانية مع قبائل الريف(69). والتوتر الذي كان يميز علاقة الريسوني وقبائل حوز طنجة مع الجالية الأجنبية بالمدينة(70). لقد كان الظرف إذن يتميز بازدياد هيجان النفوس وبتحفز الكل لمواجهة الخطر الأجنبي.

وبهذا المنظار ينبغي كذلك رؤية وجود بعض المحميين ضمن لائحة زعماء الانتفاضة بالشاوية. فحتى إذا فرضنا ـ جدلا أن هناك محميين شاركوا في الحوادث، فهذا يدخل في إطار مقاومة شعبية عامة للتسرب الأجنبي بالشاوية. فمنذ أن تخلصت الجماهير من قبضة القواد، سهل على كثير من المحميين والمخالطين، التخلص من مراقبة التجار والحامين دفعة واحدة. وبدأ الأجانب يعيشون بالشاوية فترة انحسار لمشاريعهم الإستغلالية. وتعرض نظام الحماية والمخالطة للمضايقة، وتدهور نفوذ التجار، وسقطت هيبتهم، وقوطع الفرنسيون مقاطعة تكاد تكون شاملة. وقد تأسف على ذلك أحد الفرنسيين فكتب يقول سنة 1906

"إن منطقة الشاوية التي تكون الدارالبيضاء منفذا لها، منطقة جيدة للزراعة وتربية الماشية. ومن المؤسف أن نظام الحماية والمخالطات أصبح فيها أكثر صّعوبة، بالقياس إلى ضعف سلطة السلطان. إن سلطته لم تعد موجودة إلا إسميا خارج أسوار المدينة، وحلت محلها الفوضى بين القبائل. يضاف لذلك أن الأوربي الذي يسكن المدينة، والذي لا يجرؤ على المخاطرة في الداخل أضاع كل

وسائله للتأثير على محميه أو مخالطه. الذي كان في العادة تابعا له"(71). إن انهيار مشاريع المخالطة والحماية. دليل لا يمكن إنكاره على أن انتفاضة الشاوية بين 1903 و 1907 أو "سيبتها" كانت موجهة في جانب كبير منها ضد تلك المشاريع. وبالفعل، لقد نقصت فوائد التجار، واستحالت عليهم عمليات المضاربة، التي كان يقوم بها الوسطاء، والسماسرة والتجار اليهود الصغار القاطنون بالبادية. وأدى هذا التطور إلى تخلي الشركات الأروبية عن كثير من معاملاتها مع البادية(72).

وأخيرا، هل يصح للمرء بعد تتبع هذه التطورات، أن لا يرى فيها شيئا آخر سوى فوضى مغربية ناتجة عن عجز المخزن؟ و"سيبة" هادفة لاستقلال القبائل عن هذا المخزن لأنها استطاعت بعد رفض أداء الضرائب أن تستغني وتشتري السلاح والخيول؟ ثم ألا يُنسينا هذا المنطق أن من أهم عوامل تلك الفوضى وذلك العجز، تدخلات أجنبية تعددت مستوياتها، وتنوعت مواضيعها، لكن هدفها كان واحدا ومعروفا للجميع؟

رابعا تحول الانتفاضة إلى جهاد

إذا انحرفت الانتفاضة، في مرحلة من مراحلها لصالح الفتنة، كما يبدو من مهاجمة قصبات القواد، ونهبها وتخريبها. فقد دلت النتائج، على أن الهدف كان هو العقاب، وأن هذا العقاب كان يتجه للمال والمتاع ولم يكن يستهدف الأشخاص، وأن الضحايا كانوا من القواد المستغلين والتجار المضاربين الذين استرجع ما سبق أن أخذوه من الجماهير. ومما يبين أن الدوافع للانتفاض كانت هي مقارعة طاغوت الاستغلال الأجنبي وفي ضمنه طغيان القواد، أن زعماء الانتفاضة منذ بدايتها هم الذين قادوا جهاد قبائلهم ضد المحتلين الأجانب. وفي الواقع، بدأت انتفاضة الشاوية تتحول إلى جهاد، منذ صفي الحساب مع قواد المنطقة، وخاصة بعد التطورات التي عرفها المغرب إثر إعلان الاتفاق الإنجليزي الفرنسي 1904 وفشل سفارة طايندي 1905 (73). ومنذ إعلان نتائج مؤتمر الجزيرة في بداية 1906، اختفت كل الحزازات الجانبية العارضة، التي كان من الطبيعي أن تظهر في وسط طفت فيه سلطة القواد بشكل كبير، وتوجهت السواعد إلى هدف واحد، وهو مواجهة الدخلاء الطامعين.

وأخذت قبائل الشاوية تتحفز للانقضاض على مركز الشر بالدار البيضاء، "وكون الجميع، الأعداء والأصدقاء، الثوريون والمخزنيون حسب قول باروكير Barrouquere - كتلة واحدة من أجل مطاردة الكفار"(74) من البلاد، وتحول الانتفاض في الحقيقة إلى جهاد.

وقد بدأت علاقات الشاوية تسوء مع المستوطنين الأجانب، الذين أصبحوا يتعرضون للمضايقات. وخوفا من العواقب وتحسبا لأي انفجار، قرر المخزن إرسال محلة للشاوية يقودها مولاي الأمين عم السلطان، بهدف البقاء في المنطقة حتى تهدأ النفوس وتزول أسباب تذمر السكان. وقد وصلت هذه المحلة في بداية 1906، واستقبلت في الدارالبيضاء من لدن الأمناء، وبعض العمال، ثم توجهت للتخييم بين الدارالبيضاء والقبائل في قصبة مديونة (75). ويبدو أن مولاي الأمين وجد القبائل محرضة كثيرا ضد الأجانب، ولذلك تحول بجنوده للدارالبيضاء وخيم بالسور الجديد(76).

والجدير بالملاحظة أن التجار الإنجليز الذين اشتهروا بعلاقاتهم الواسعة مع الشاوية، أصبحوا بدورهم يتعرضون للتضييق والهجوم. فقد نهب قطيع التاجر "Leeps ليب" الإنجليزي مرتين، وادعى أن قيمة ما نهب له تفوق 6800 ريال، وبعد تحقيق أجراه عامل الدارالبيضاء، تأكد أن المسؤولين عن الحادثين، ينتمون لعدة قبائل هي الزيايدة، وأولاد زيان وزناتة ومديونة. ونتيجة لإلحاح سفير انجلترا على فصال دعوى التاجر الإنجليزي المذكور، فقد كتب السلطان إلى عامل الدارالبيضاء الجديد أبي بكر بن بوزيد(77) يأمره بأن يتفاوض "مع أمناء المرسى وتجتمعوا - يقول السلطان - مع التاجر المذكور وتباشروا معه جعل تأويل فيما يدعي به، وتؤدوا له ما توقعون الفصل به معه، في ذلك عاجلا على وجه السلف عن الفعال. وتبينوا قدر ذلك لعمنا مولاي الأمين ليستوفيه من عمال القبائل المذكورين ويرده لكم"(78).

وهكذا يظهر للوهلة الأولى أن الاستغلال الأجنبي وصل إلى حد كان معه على قبائل الشاوية أن تقوم برد الفعل في شكل هجومات خاطفة على أملاك وأموال التجار الأجانب ومخالطيهم. لكن يبدو أن الأمر يتعدى ذلك فلو كان الناهبون من دوار واحد أو من فخذة واحدة أو قبيلة واحدة، لأمكن القول إن الدوافع كانت خاصة بأفراد معينين، يهدفون إلى التمول من الطريق الأسهل. أما أن يشترك عدد كبير من الناس ومن قبائل عديدة ليصادروا قطيع تاجر معروف، فهذا يوضح أن المسألة تتعلق بردود فعل شعبية موجهة. وليتأكد هذا التوجيه، فإن الحادث السابق لم يكن الوحيد من نوعه. فقد تعرض عزيب المسمى محمد الجزولي الزياني، وكان سمسارا للتاجر "مرضوخ Murdoch" الإنجليزي للمصادرة الكلية، من طرف أولاد حريز والمذاكرة. فتدخل سفير انجلترا كذلك وفصلت القضية بـ 14638 ريال على يد أمناء الدار البيضاء، وكتب السلطان لقائد

القبيلتين المذكورتين يقول "قد كان رفع لشريف حضرتنا، باشدور النجليز شكاية محميهم الحاج محمد الجزولي سمسار مسرس مرضوخ النجليزي، بأن أولاد حريز والمذاكرة، كانوا ضربوا على عزيبه، ونهبوا جميع ما فيه.. وعليه فنأمرك أن تكلف إيالتك المذكورين بأداء ذلك لخدامنا أمناء مرسى الدارالبيضاء عاجلا، على يد الخديم ابن بوزيد وقد أمرناه بإزعاجك لذلك" (79). كما تعرضت دار التاجر فرنو Fernau الإنجليزي خارج المدينة للهجوم، رغم ما قيل عن صداقته للشاوية في السّابق (80)، فاشتكى لسفير بلاده وطلب تعويضا بدوره (81). ومنع هذا التاجر وأمثاله من التصرف في أملاكهم خارج المدينة، التي صادرتها القبيلة، وانتظروا حتى استغلوا ظروف الاحتلال الفرنسي للشاوية ليطالبوا مولاي عبد العزيز باسترجاعها لهم. وهذا ما نفهمه من كتاب عزيزي لأمناء مرسى الدارالبيضاء يطلعهم فيه على أن التاجر فرنو الإنجليزي ادّعى أنه منع من أرض اشتراها خارج الباب الكبير "لما كانت عليه العامة من الطيش"، ويأمرهم بتحقيق المسألة واطلاعه على الواقع فيها ليصدر أوامره (82)

يظهر أن هؤلاء التجار تفهموا التغير الجذري الذي طرأ، والذي أصبح معظم الأجانب مستهدفين له، ولذلك نجدهم يتسلحون لمواجهة الطوارئ. ففي رسالة من مولاي عبد العزيز، إلى أمناء مرسى الدارالبيضاء بتاريخ 29 جمادى الثانية 1324 (20 غشت 1906)، نجده يأمرهم بتسريح دخول 6 بنادق و 400 من قرطوسها، للتاجرين الإنجليزين فرنو Fernau ومردوخ Murdoch (83)

إن هذه الأمثلة التي سمحت بها الوثائق التي أمكن الإطلاع عليها، تبين اشتداد التوتر الذي أصبح يسود علاقات سكان الشاوية مع الأجانب خلال 1906. وقد أوضحنا أن ذلك التوتر جاء مباشرة عقب إعلان مقررات الجزيرة، وعم المغرب كله، وخاصة الشاوية التي حث فيها ماء العينين على مقاومة الفرنسيين، ودعا فيها البوعزاوي إلى الجهاد وطرد الأجانب من الدارالبيضاء.

خامسا ماء العينين ومقاومة الأجانب بالشاوية

منذ اتضحت الأطماع الإستعمارية في الصحراء وبلاد شنقيط، برز إسم ماء العينين كمرابط يدعو للجهاد ويعمل على توحيد مجهودات القبائل الصحراوية ضد التسرب الأجنبي. ومنذ استقراره بالساقية الحمراء في سنة 1884، وعلى الخصوص، منذ حركات السلطان مولاي الحسن للجنوب المغربي في 1888، أصبح الشيخ ماء العينين ممثلا للمخزن بالجنوب الصحراوي، ومساعدا لا غنى

عنه في تنسيق الاتصال بين المخزن وقبائل شنقيط وأدرار. وكان الشيخ ماء العينين يقوم بين الفينة والأخرى بزيارات لمراكش وفاس، يلتقي فيها بالسلطان ليقدم زكاة القبائل، ويتزود بالمؤن والمال والسلاح. ففي سنة 1897، زار مراكش حيث اعتنى به أحمد بن موسى "ورجع لمقره مملوء الحقائب موفور الرغائب"(84). وفي 1905، في الوقت الذي ازداد فيه الزحف الفرنسي على الأقاليم الصحراوية، انطلاقا من توات شرقا والسنغال جنوبا، أرسلت القبائل الصحراوية، باتفاق مع ماء العينين وفدا للسلطان بفاس، حيث طلبت منه التدخل لدى الفرنسيين ليكفوا عن تسربهم في تلك القبائل، أو تزويدها بالسلاح، وإرسال من ينسق جهادها ضد المتدخلين.

وقد أرسل مولاي عبد العزيز ابن عمه مولاي إدريس بن عبد الرحمان بن سليمان خليفة عنه، وبعث معه عدة ظهائر لتعيين عدد من القواد (85). ونتيجة لنشاط ممثل المخزن، في أقاليم شنقيط وأدرار، وللأسلحة العصرية التي وزعها على القبائل الصحراوية، نشطت حركة الجهاد ضد الفرنسيين وخاصة بقبائل أدرار حيث قتل أحد رواد التسرب الفرنسي بالصحراء وهو "كوبولاني Coppolani" في 12 ماي 1905 (86).

ومن الجدير بالذكر أن هذه الأحداث التي كانت تجري بالجنوب، كانت ذات علاقة بما يحدث في الشمال والشرق، من ضغوط فرنسية ومقاومة شعبية لهذه الضغوط كما سبقت الإشارة لذلك.

أما بعد إعلان نتائج مؤتمر الجزيرة في بداية 1906، فقد عرف المغرب كله هيجانا واضطرابات ومن هذه الإضطرابات ما ارتبط بنشاط ماء العينين. فقد صادفت زيارة الشيخ للسلطان صيف 1906، هذه الظروف الملتهبة، وزادت دعواته للجهاد وتحريضه ضد الفرنسيين في إلهاب حماس الجمهور وخاصة بالحوز والشاوية. ولإعطاء هذه الزيارة صبغتها الوطنية، فقد احتفل السلطان بدخول الشيخ لفاس في 26 يوليوز، احتفالا كبيرا (87). وفي 29 غشت، غادر الشيخ العاصمة وهو محمل بالهدايا والأموال والأسلحة (88).

ونظرا لعداوة الفرنسيين لماء العينين، فقد اتهموه بالدعوة للجهاد بالشاوية. واتهموا أصحابه بتهديد الفرنسيين بالدار البيضاء(89). وتدخلت الهيأة القنصلية، بسعي من قنصل فرنسا، لدى العامل أبي بكر بن بوزيد وطلبوا منه اتخاذ التدابير اللازمة، ليغادر الشيخ وأصحابه بلاد الشاوية (90). وتدخلت

الحكومة الفرنسية لدى المخزن، وحملته مسؤولية تأييده لماء العينين وتقديم الإعانات المختلفة له (91). لقد كان هدف الفرنسيين من هذه الضغوط، هو إضعاف مقاومة المغاربة للتدخل الفرنسي. ودفع المخزن إلى التخلي عن المساعدات المادية والعسكرية للقبائل الصحراوية.

سادسا محمد بن الطيب البوعزاوي وجهاد الشاوية

في أواخر سنة 1906، أشارت تقارير القناصل الأجانب بالدارالبيضاء. إلى تحريض البوعزاوي (92) لقبائل الشاوية على مهاجمة الأجانب بالدارالبيضاء. كما أشارت تلك التقارير إلى دعوته للجهاد. فقد أخبر القنصل الفرنسي، بالمدينة، المكلف بالمفوضية الفرنسية بطنجة، بأن "حركة عامة ضد الدارالبيضاء، تهيأ وسط القبائل المجاورة" (93). وأن الشيخ البوعزاوي سيتزعم هذه الحركة، وسيدعو إلى الجهاد. ونبهه إلى الجو المعادي للأجانب بقوله "وإذا أخذنا بعين الاعتبار نفسية الأهالي الحالية، فإن تحريضات هذا المحرض المتعصب ستجد الأرض المهيأة لانفجار أخطار لا نعلم مداها" (94).

وقد أطلع النائب السلطاني بطنجة، بدوره، المخزن، على حالة الوضع بالشاوية، الذي يتميز بالتَشويش، بسبب ما ينسبه الأجانب "لرجل ظهر هناك" (95). والواقع أن دعوة البوعزاوي للجهاد، جاءت متزامنة مع زيارة الشيخ ماء العينين لفاس ودعوته لمقاومة الفرنسيين. كما حدثت بعد الزيارة التي قام بها البوعزاوي لمراكش والتقى فيها بخليفة السلطان هناك، مولاي عبد الحفيظ (96). وإذا علمنا هذه التطورات، تبين لنا بأن دعوة البوعزاوي للجهاد في خريف 1906، لم تكن دعوة متعصب ضد المسيحيين، ولم تكن دعوة رجل واحد، بل إن المرابط الشاوي لم يزد على أن ساهم في تيار متحرك معاد لقرارات ميثاق الجزيرة الخضراء وللتدخل الفرنسي.

ويبدو أن الاتهامات التي وجهت للبوعزاوي، جعلته يزور فاس، ليبرر موقفه عند السلطان مولاي عبد العزيز. وقد أبقاه السلطان بجانبه، إلى أن وقعت حادثة الدارالبيضاء وتمكن المرابط من العودة للشاوية، ليظهر بين زعماء الجهاد ضد الاحتلال الفرنسي (97).

هوامش الفصل الثامن

1)- نتوفر على رسائل كثيرة حول الموضوع. لا يظهر منها سبب الأحداث لكنها تبين حسب ما جاء في شكاوي قائد المزاب محمد بن أحمد، أن القبائل المتهمة هاجمت القصبة ونهبت ما فيها من مال زرع، وأن المهاجمين أحرقوا "انادر" التبن.. الخ وطالب برد ما نهب لإخوانه. فأرسلت محلة مخزنية لعين المكان وأدى قواد القبائل المتهمة ما أمرهم به السلطان لكنهم طالبوا بإجراء بحث دقيق في المسألة.
أنظر وثائق خ ح لسنة 1311.

2) - جاء في رسالة من القائد عبد السلام بن رشيد للسلطان مولاي الحسن مؤرخة في 2 شعبان 1311 / 8 فبراير 1894 ما يلي "وعلمنا ما ذكره سيدنا أعزه الله، بأنه وجه سيدي مولاي بلغيث حفظه الله، تقييد ما نهبوه المذاكرة وأولاد علي وأولاد حريز لإخوان خديم سيدنا المزاب من المتاع، فأمر سيدنا بتقويمه فاجتمع في قيمته تسعة وثلاثون ألف ريال ومائة وإحدى وسبعون ريال" و خ ح.
وقد دفع القائد المذكور ما قوم عليه لكنه طالب مرارا بإجراء بحث دقيق واتهم قائد امزاب بالكذب وذكر أن قيمة ما نهب أقل بكثير مما ادعى به.

3)- راجع رسائل مولاي بلغيث لأبيه في الموضوع، و خ ح، سنة 1311.

4)- وقد استمرت الحزازات والمنافسات بين قائد المزاب، وغيره من قواد الأعشاش، وقائد أولاد حريز والمذاكرة عبد السلام بن رشيد. وكان ذلك من عوامل نكبة قائد مزاب سنة 1896 الذي سجن ثم أبعد إلى العرائش بتدبير من قائد أولاد حريز.
فقد كتب أحمد بن موسى للقائد المذكور يجيبه إلى مطلبه قائلا
"عبد السلام بن رشيد الحريزي، وبعد، وصل كتابك بما أشاعه المزابي وعرفنا ما شرحته وصار بالبال بعد إطلاع العلم الشريف به. وقد أمر مولانا أيده الله بتوجيهه لسجن العرائش والسلام 3 شوال 1314 / 7 مارس 1897.
أنظر ك خ ح، رقم 429، ص 8.

5)- عن شخصية نيومان وعن تصرفاته الخارجة عن القانون أنظر

Germain Ayache, "Etudes d'histoire marocaine", S. M. E. R. Rabat 1976. PP. 255-6.

- و خ ح، رسالة من قائد مديونة لمولاي الحسن 11 شعبان 1306، مح 641.
- نهليل، رسائل شريفة، لوحة LVII.

6) أرسلت ألمانيا سفنا للسواحل المغربية، وذهب طاطنباخ في سفارة من طنجة إلى العاصمة حصل خلالها على قبول مطالبه.

Voir Kerdek de CHINY, "Un Boulvard de l'islam," tanger 1895,

7)- رسالة من القائد أحمد بن العربي المديوني يخبر السلطان بأنه نفذ حكم القتل في حق "عبد القادر الدكالي المسجون تحت اليد - يقول القائد - حيث أقر بالعدول أنه هو المباشر لقتل التاجر نيومان الألماني قرب الدارالبيضاء"، بمحضر قنصل ألمانيا. وأنه أبقى المسجونين الآخرين "بوشعيب والوصيف مبارك"، الذين حضرا معه عند قتله للتاجر، بالسجن "مخلدين فيه" 4 رجب 1312 / 1 يناير 1894، و خ ح.

8)- Martin, Quatre Siecles, op. cit. P. 372.

9)- أمر أمناء الدارالبيضاء، حسب رسالة جوابية للسلطان مؤرخة بـ 28 شوال 1312 / 24 أبريل 1895، أن يخصصوا 6907 ريال شهريا «مؤونة المحلة السعيدة التي مع عم مولانا أيده الله مولاي الأمين» كما جاء في الرسالة و خ ح.

10)- عن هذه الإضطرابات يراجع Martin, op. cit. P. 373 et suite.

- أحمد توفيق "المجتمع المغربي في القرن 19، أينولتان(1850-1912)" الدار البيضاء 1980، الجزء الثاني، ص 213 و مايليها، نقلا عن الغجدامي في مؤلفه "التسلي عن الآفات بذكر الأحوال ومافات" مخطوط.
وقد جاء في رسالة بعثها أحد قواد الحوز (لعله الرجراجي الدويلالي) لمولاي عبد العزيز، بتاريخ 20 صفر 1312 / 23 غشت 1894، هذا الوصف
"إن قبائل الحوز شاع فيها الفساد وانتشر فيهم وعم جميعهم، وقد أكلوا ديار عمالهم وهدموها وتعرضوا لقواد الأرحى الذين وردوا [...] رحامنة واوداية وغيرهم [...] ولا زالت العامة في ازدياد الخوض والفساد.." و خ ح.

11)- عن القضاء على فتنة الرحامنة تراجع
- رسائل السلطان العديدة لعمال المدن وخاصة لباشا مكناس حم بن الجيلالي وخليفة فاس مولاي عرفة.
- ابن زيدان عبد الرحمان "الاتحاف"، الجزء 1 ، ص 387-391.
- عبد القادر بن محمد بناني، "تلخيص ما عليه المعول في أخبار من بالمغرب من الدول" م خ ح، ص 47 وما يليها. حيث يتوسع في شرح انتفاضة الرحامنة وقمعها.

12)- لا نعرف بالضبط كيف حدث النهب ولا المسئولين الحقيقيين عنه، ولا كيف سجن القائد ولكننا تعرفنا من خلال بعض الإشارات الواردة في وثائق لاحقة أن القائد المذكور سجن بعد الحادث. و خ ح، سنة 1314-1315، أنظر الملاحظة(4).

13)- عن هذه الحركة وما جرى خلالها يراجع كناش خ ح، رقم 234.

14)- نفس الكناش.
قارن كذلك رسالة السلطان مولاي عبد العزيز للصديق بركاش عامل الرباط في الموضوع حيث تشير إلى ما حدث من تنكيل الجيوش والقبائل بفرق الأعشاش

"فهدموا ديارهم، وحرقوا مداشرهم وتركوها حصيدا كأن لم تغن بالأمس بعد أن قبضوا على مائة وعشرين مسجونا، وحزوا اثنين وخمسين رأسا، وصارت أموالهم للجيوش السعيدة فيئا..

نهليل لوحة، LXXXII.

15) ـ راجع رسائل أبا أحمد في الكناش المذكور في الملاحظة (13).

16) ـ عن هذه المسألة راجع

Mohamed Kenbib, " Les protections etrangères au Maroc, au 19éme Siecle - Debut du 20eme Siecle," thèse de Doctorat de 3eme siecle, Université de paris 7, Juin 1980.

ـ وكذلك ك خ ح، رقم 568 عن مفاصلة دعاوي بعض التجار الفرنسيين.

17) لقد وزع أحمد بن موسى قبائل الشاوية إلى قيادات كثيرة، وكان يشجع المنافسات بين القواد كما كان يعمل برأي من يستطيع الضغط على السكان ويقدم الإتاوات الكثيرة.

18) ـ أنظر أعلاه الفصل الأول.

19) ـ "وعندما يثار الحديث عن فرنسا، يبدى المغاربة امتعاضهم وهم يعرفون أنها تتربص بهم ويشعرون كأنهم واقعون في قفص. وينتظرون أن يأتي عدوهم في أي وقت"

هذا ما قالته المسافرة الإنجليزية "ماكنب" التي قامت بجولة في الحوز ومرت بالشاوية. ووصفها المذكور ينطبق على المسؤولين وعلى الرعية منذ أن احتل الفرنسيون توات.

أنظر عبد المجيد بن جلون "جولات في مغرب أمس 1901"، مطبعة النجاح، الدار البيضاء بدون تاريخ، ص 89.

20) ـ مكروفيلم خ ع، رقم 54، ص 58.

21) ـ الرسالة نقلها مارتان بدون تاريخ، وهي موجهة لليلة إحدى فرق قبيلة المذاكرة.
A.G.P. Martin, op. cit, p. 399.

22) ـ نفس المرجع، ص 406.

23) ـ نفسه، ص 407-408.

24) ـ الرسالة مؤرخة بـ 10 رمضان 1321 موافق 1 دجنبر 1903. نقلها مارتان المرجع المذكور ص 405-406.

25) ـ يحكي باروكير Barrouquere، اعتمادا على روايات شفوية، أن القرشي بن الرغاي

أخا قائد أولاد سيدي بنداوود، هو الذي تزعم الانتفاضة أولا بأولاد سيدي بنداوود، ثم انتشرت إلى أولاد بوزيري.

Barrouquere Claret, Settat, Paris 1919, p. 183-184.

وقواد أولاد بوزيري المشار إليهم هم التونسي بن البهلول، ومسعود بن التونزة، وأحمد بن صالح. راجع و خ ح، وكذلك المرجع السابق، ص 185.

26) - تولى القائد العياشي سنة 1894، بعد اضطرابات أثارها هو نفسه ضد قائد أولاد سعيد السابق، وظل يحكم القبيلة إلى سنة 1903 حيث حطمته الانتفاضة بدوره.

- مدن وقبائل المغرب، "الدار البيضاء وناحيتها"، الجزء 2 ص 208. مارتان 406.

27) - Barrouquere Claret, Settat, op. cit. p.184-195

28) - نفسه، ص 187.

29) - مولاي عبد العزيز إلى كافة الشاوية، 17 رمضان 1321 / 7 دجنبر 1903، و خ ح.

29 مكرر) - نفس الرسالة.

30) - نفس الرسالة.

31) - عن سطات وأصولها وقوادها

M. Simon, "Settat, ses caids ses origines," Bull. Soc. Geo. D'Alger et de l'Afrique du nord, 3eme trim; 1912, PP 349-355.
Barrouquere Claret, op. ciit.

Casablanca et les chaouia T.2. PP. 251-256.
Le Delhomme, "Notice sur Settat et la région de Settat", b. Soc. geo. Arch de la prov., d'Oran, 1913, P 298-319.

32) - Barrouquere, op. cit. P. 188.

33) - القائد الحاج المعطي المزامزي لمحمد الطريس، صفر 1322 / أبريل - ماي 1904. وتطوان، مح 30.

34) - هذا ما تؤكده رسائل السلطان إلى فرق الشاوية، أنظر الملاحظة(29).

35) - E. Mege, "Mzab et Achache" , A.B., 1918, PP. 254-255.

36) - مارتان، مرجع سابق، 408.

37) ـ رسالة من مولاي عبد العزيز للأعشاش، 25 حجة 1320 / 25 مارس 1903.

38) ـ رسالة من السلطان إلى فرقة أولاد بوزيري، 24 قعدة 1321 / 11 فبراير 1904

Martin op. cit. pp. 408-409 -

39) ـ 24 ربيع النبوي 1322 / 8 يونيو 1904، و خ ح.

40) ـ الرسالة مؤرخة بـ 7 ربيع الثاني 1322 / 21 يونيو 1904، و خ ح.

41) ـ توفي القائد عبد السلام بن رشيد قرب فاس عند ما كان غائبا في حركة بوحمارة.

42) ـ V.T. Casablanca et les Chaouia, T2, pp. 78-79.

43) ـ نفس المرجع الجزء 1 ص 167-168.

44) أ نظر أسفله ص 227.

45) ـ مارتان "أربعة قرون"، ص 406.

46) E. Burke III, "La grande Siba de la chaouia (1903-1907)", Hesperis Tamuda, 1976-77, PP. 149-163.

47) ـ نفسه، ص 159.

48) ـ لقد كان جل اعتماد "بورك" على رواية "مدن وقبائل المغرب" الخاصة بالدارالبيضاء والشاوية، الجزء الأول والثاني، وعلى مارتان في كتابه "أربعة قرون من التاريخ المغربي" وبذلك لم يزد على أن كرر وقائع كانت في حاجة إلى التحقيق ولم يستطع التعمق في فهم الدوافع الحقيقية للانتفاض، ولا حقيقة الأشخاص الذين ساهموا فيه.

49) ـ كان القائد الجيلالي بن الرغاي قائدا على أولاد سيدي بنداود، ويبدو أنه كان من القواد المرتبطين بجماعتهم، ولذلك لم يبد منه استبداد، الأمر الذي جعل القبيلة تحترم قصبته وتنتخب أخاه زعيما للانتفاض. كما أصبح القائد نفسه من معارضي الاحتلال الفرنسي، حيث قاوم هذا الاحتلال وبعد أن سيطرت فرنسا على المنطقة تمكن من العودة إلى قبيلته سنة 1910 تحت الحماية الألمانية.

50) Barrouquere, C, op. cit. PP, 184-187.

51) - Casablanca et les chaouia, T I. PP. 168-169 T 2. PP. 209-211.

وعن الشيخ ابوعزاوي ودوره في انتفاضة الشاوية وجهادها أنظر أسفله ص (195).

52) - Casablanca, op. cit. T2, pp. 78-79 et pp. 127-134

وتتفق جميع الروايات التي تلقيناها على زعامة الأحمر بن منصور لقبيلة المذاكرة.
أما الحاج محمد، فسنلتقي به كثيرا في هذه الدراسة ؛ أنظر ص 337-338.

53) - Villes et tribus op. T1.

54) ـ أعطيت قيادة أولاد سيدي بنداوود لقواد أولاد سعيد وأبعد الجيلالي بن الرغاي المذكور سابقا. كما تولى ثلاثة قواد على أولاد بوزيري.

55) - Barrouquere, op. cit. P. 188.

56) - Ibid P. 186.

57) - Ibid P. 179.

58) - E. Burke, op. cit, P. 159.

59) - Villes et tribus op. cit, PP. 209-210.

60) - Ibid T.2 P. 78-79.

61) - Barrouquere, op, cit. P. 186.

62) - Ibid, P. 185.

63) ـ قارن ما أثبته أحمد التوفيق في دراسته عن قبيلة "اينولتان" من أنواع هذا التضامن، المجتمع المغربي في القرن 19 ان(1850-1912)، جـ 2 ص 39-44.

64) ـ اعتبر "مارتان"، أن طائفة الرماية طائفة دينية وأنها زيادة على ذلك طائفة سياسية وعسكرية ووطنية. وعزا إليها مواقف المغرب إزاء أروبا.

A. G. P. martin, "Le Maroc et l'Europe", Paris E. LEROUX 1928, P. 129.

65) ـ من مقدمي الرمي المشهورين بالشاوية نذكر

ـ محمد ولد بوعبيد، بالمزاب والأعشاش وهو الذي قاد القبيلة في الجهاد بالدار البيضاء ضد جيش الاحتلال الفرنسي.
ـ الحاج محمد بن الحاج حمو الحريزي، أولاد حريز من زعماء الانتفاض كذلك.
ـ القرشي بن الرغاي أولاد سيدي بنداوود، قتل في معارك سطات في 1908.
ـ محمد بن المدني العروصي المزامزة.
ـ علي بن الحمري الزيراوي أولاد بوزيري، قتل في معارك سطات في 1908.
ـ الشيخ الزموري أولاد سعيد.
ـ الحبيب بن الفندور المديوني مديونة وأولاد زيان.
ـ مولى الركوبة زناتة.
ـ أحمد الجمعاوي الزيايدة.

Villes et tribus op. cit. T1, pp. 229-230-

66) ـ لا زال الشيخ محمد ولد بن صالح (116 سنة) يتذكر هذه الأحداث، وقد عاشها مع الأحمر بنمنصور، كخماس من جملة أناس آخرين، (الكارة 1983).

67) ـ مارتان، مرجع سابق

68) ـ أسفله ص 193 194

69) - Germain Ayache, "Les origines de la guerre du Rif", PP, 125-152.

70) - أنظر أعلاه

71) - A. de Montalembert, op. cit. P. III.

72) - Ibid, PP. 112-113.

كما أشار أن التجار الفرنسيين تضرروا أكثر من التجار الآخرين، لأنهم أصبحوا يجدون صعوبة كبيرة في الحصول على مساعدين من المغاربة وأعطى أمثلة من دكالة المجاورة للشاوية، فمن بين 100 سمسار و 400 مخالط بالجديدة لم يكن للفرنسيين إلا سمسارين اثنين و 8 مخالطين ومن بين 1000 محمي بعبدة لم يكن للفرنسيين إلا 50.

Ibid, pp. 113-114.-

73) - راجع أعلاه ص 53 وما بعدها.
ورسالة مولاي عبد العزيز للشاوية.

74) - باروكير، "سطات" مرجع سابق، 194.

75) - رسالة جوابية من محمد التازي أمين الأمناء إلى إدريس الفلالي، الذي كان أخبره بأن "مولاي الأمين قد حل بالمحلة السعيدة التي معه - يقول محمد التازي - ذلك الثغر البيضاوي في اليوم الذي بينت بعد أن تلقيتم له أنتم ومن سميتم من العمال وأنه أقام هناك ثالثة أيام وتوجه بالسلامة لقبيلة الشاوية"
الرسالة المؤرخة بـ 28 قعدة 1323 / 24 يناير 1906، و خ ح.

76) - مارتان، مرجع سابق، ص. 426.

Cf, A. G. V. 3H 15, Fariau à guerre, 14 Avril, 1906.

77) - سيرد الحديث عن أبي بكر بن بوزيد في الفصول القادمة (الفصل 11).

78) - الرسالة مؤرخة بـ 22 جمادى الأولى 1324 / 1 4 يوليوز 1986.
في كناش مكاتب الطابع الشريف م خ ع، د 1695، ص. 40.

79) - نفس الكناش ص 18، الرسالة مؤرخة 23 جمادى الأولى 1324 / 15 يوليوز 1906.

80) - مارتان، م س، ص.

81) - ك خ ع، د 18، 24 جمادى الأولى 1324 / 16 يوليوز 1906.

82) - الرسالة مؤرخة 21 جمادى الأولى 1326 / 21 يونيو 1908، و خ ح مح 420.

83) - ك خ ع، د 1695، ص. 34.

84) - عبد القادر بن محمد بناني، "تلخيص ما عليه المعول في أخبار من بالمغرب من الدول"، م

خ ح، ز 10273، ص. 71-72.

85) - محمد الغربي، "الساقية الحمراء ووادي الذهب"، الجزء الأول، دار الكتاب الدار البيضاء، دون تاريخ، ص. 340 وما بعدها.

86) C. A. Julien, Les Africains, T. 12, Paris 1978; P. 192.

87) . A. G. V. 3 H 15, Fariau à guerre, 29 Juillet 1906.

88) . Ibid. 1er septembre 1906.

89) . ارتان، أربعة قرون، ص. 450.

D. D. F. AFF.M. 1906-1907, 15-9-1906.

90) . Ibid.

91) . Ibid, 19 Septembre 1906.

92) - تختلف المصادر الأجنبية حول أصل البوعزاوي، ولكنها تتفق على أن ظهوره كان بامزاب أولا. ثم استقر بأولاد سعيد ثانيا، حيث أسس زاوية له هناك، وقد اشتهر الرجل ، الذي كان مثقفا ثقافة دينية، كمرابط بالشاوية قام بدور ملحوظ في جهادها ضد الاحتلال الفرنسي.

93) . D.D.F. AFF. M. 1906-1907, PP. 72-73.

94) - يجب أن لا ننسى أن كل معارض للتدخل الفرنسي كان يوصف بالتعصب.

95) - ك خ ع 0 272، ص 198.

96) Edmond Doutté, En tribu, Geuthner, Paris 1914, P. 248.

Martin, op. cit, PP 426-427.

97) - ولم يفر كما أشار لذلك قائد البعثة العسكرية الفرنسية بالمغرب بقوله "ومن جهة الرباط وسلا، فلا شيء يثير الانتباه. أما الدارالبيضاء وبلاد الشاوية الذين ظهر فيهما تشويش بعض الوقت بتحريض البوعزاوي. فقد عاد إليهما الهدوء، نتيجة لفرار المحرض إلى تادلة"

A.G.V. 3 h 15, Fariau a guerre 6 Novembre 1906.

وتؤكد رسالة بعثها القائد المحجوب المطاعي أحد قواد محلة مولاي الأمين، للخليفة مولاي عبد الحفيظ، ما ذكرناه. إذ جاء فيها "وقد قدم الفقيه سيدي محمد البوعزاوي للمحلة السعيدة، وتلاقى مع عمكم سيدي مولاي الأمين ومعه خمسة من الخيل وعلى نية السفر من المحلة السعيدة للأعتاب الشريفة" الرسالة مؤرخة 18 ذي الحجة 1324 الموافق 2 فبراير 1907. و خ ح.

الباب الثالث

حادثة الدار البيضاء

الفصل التاسع

حادث 30 يوليوز 1907

تقديم

في يوم 30 يوليوز 1907، حاول سكان الشاوية من مدنيين وبدويين إيقاف أشغال "الشركة المغربية" بميناء الدار البيضاء، ونتج عن ذلك شجار قتل فيه 9 عمال أجانب. وقد تذرع الفرنسيون بهذا الحادث، ليقرروا إرسال أسطول مدرع، وقوات إنزال لاحتلال المدينة أولا والشاوية بعد ذلك، ومهد الفرنسيون لذلك الاحتلال، بقنبلة الدار البيضاء وتخريبها فوق سكانها الآمنين فجر يوم 5 غشت. وفي يوم 7 غشت شرع الأسطول الفرنسي في إنزال القوات الفرنسية بينما كانت عملية القنبلة مستمرة للحيلولة دون اقتراب مجاهدي القبائل.

والمثير للانتباه، هو أن المصادر التي تعرضت للحادث، سواء الأجنبية ومعظمها فرنسي أو المغربية، درجت على نقل رواية مشوهة أصلا وبكيفية متعمدة من طرف الدبلوماسية الفرنسية. وإذا كانت أهداف الفرنسيين واضحة في التغطية على عمل غير شرعي، فإن المستغرب هو اعتماد المصادر المغربية ـ على قلتها ـ الرواية الفرنسية، دون أن يكلف مؤرخونا أنفسهم عناء التحقق مما جرى أو يتورعوا عن نقل الأكاذيب الاستعمارية، واختلاق الأحداث التي لم تقع (1).

وقبل أن نعرض للروايات المختلفة للحادث بالتحقيق والتحليل يجدر التنبيه إلى أن تشويه الحقائق قد أصاب أسباب الحادث أيضا وبشكل فاضح.

فما هي حقيقة الوقائع التي أدت إلى حادث يوم 30 يوليوز؟

وما هي حقيقة ذلك الحادث نفسه ؟ والعواقب التي نجمت عنه ؟

أولا ردود فعل سكان الشاوية بعد احتلال وجدة

لقد تعرفنا على حالة التحفز التي كانت تعيشها قبائل الشاوية سنة 1906، كما تعرفنا على الظروف العامة التي كانت تميز علاقة المغرب مع فرنسا، خاصة بعد احتلال وجدة وما أثاره ذلك الاحتلال من ردود فعل شعبية. والواقع أن حالة التحفز، التي كانت تميز قبائل الشاوية قد ازدادت سنة 1907 بازدياد الضغوط الفرنسية واتضاح الأهداف الاستعمارية للنشاط الفرنسي بالمغرب.

والملاحظ أن الأطماع الفرنسية بدأت تتجه مباشرة بعد احتلال وجدة إلى الموانئ الأطلسية وخاصة إلى الدار البيضاء والصويرة وطنجة والرباط. فقد كثرت شكايات التجار الأجانب، وتحذيرات القناصل الفرنسيين في هذه المدن من تزايد المشاعر العدائية للسكان تجاه التجار المرابين وخاصة تجاه تصرفات الفرنسيين. وكتب رينيو Regnault (2) إلى وزير الخارجية ليوضح له – حسب زعمه – حالة الفوضى التي تعيشها بعض الموانئ المغربية. ولم يكن من الصدف أن تكون تلك الموانئ هي التي كانت ترمقها أعين الفرنسيين الطامعين، والتي كانت مجالا للاستغلال الأجنبي الواسع.

فقد أشار المفوض الفرنسي إلى حالة الاضطراب بالشاوية. وأكد على ما يجري في الصويرة. من معارضة القائد انفلوس لتصرفات التجار الأجانب، وإجراءاته المضادة لهم، فاتهمه بمصادرة قطعان المحميين والمخالطين للأجانب، وفرض واجبات مرتفعة على القوافل التجارية(3). كما اتهم عبد الرحمان بركاش عامل الصويرة، بالضعف والتواطؤ لأنه لم يقم بشيء لاسترداد ما أخذه أنفلوس، بل نجد المفوض الفرنسي يشكك حتى في ولاء الجنود المغاربة بالصويرة، فينبه إلى أنهم يمكن أن "ينضموا إلى النهاب" نظرا لعدم توصلهم برواتبهم(4).

والملاحظ أن رينو يحرف الواقع كعادته، ويرسم صورة مغايرة للحقيقة ويهاجم الحكام والجنود بالصويرة، مكررا اللازمة التي اعتاد الأوربيون الطامعون في المغرب عليها، وهي الفوضى المغربية المزعومة بهدف استصدار أوامر من سلطات باريز للقيام بإجراءات مضادة للاستقلال المغربي في مناطق حساسة من البلاد. وبدل أن ينبه إلى أن تزايد الاستغلال الأجنبي لمنطقة الصويرة، والسيطرة على تجارة الحوز بينها وبين مراكش، واحتكار التجار لتجارة المدينة والمناطق

المجاورة، وتكثيرهم لقطعان الماشية على حساب السكان، وجمعهم للمنتجات الفلاحية بأبخس الأثمان بدل أن ينبه إلى أن ذلك أثار ردود فعل سكان البادية في ظروف ما بعد الجزيرة(5)، وإن عواطف الجنود المغاربة، وعامل المدينة، كانت معارضة لذلك الاستغلال، فإنه يتهم الكل بالتآمر ضد الأجانب. إن هدف رينيو كان واضحا، وهو أن يؤكد على أن المغرب ينحدر نحو الفوضى، وأن الأجانب معرضون للتهديد في أشخاصهم ومصالحهم، ولا يبقى إلا اتخاذ إجراءات عملية لحمايتهم. وهذا ما سيتكرر بالنسبة للدار البيضاء وعاملها ابن بوزيد. وبالنسبة لمدن ساحلية أخرى كالرباط.

لم يقتصر الأمر على الصويرة إذن، بل كان القنصل الفرنسي بالرباط (لاريش) Leriche أكثر جسارة وعجرفة من قنصل فرنسا بالصويرة (Kouri). وهكذا اختلق "لاريش"، أو حاول أن يختلق، الخلافات مع قائدي الرباط (السويسي) ومهدية. وتدخل لدى رينيو Regnault، فكتب هذا الأخير إلى وزير الخارجية بيارين(6)، متهما قائد مهدية بالتعصب، لأنه منع "لاريش" من دخول القصبة، وسكت عما ارتكبه القنصل من سب في حق العامل. وفي الوقت نفسه، تشكى من عامل الرباط، ومن "حالة انعدام الأمن التي تسبب فيها نظرا لسوء سيرته" مع البدويين، الذين غزوا ضواحي المدينة. ومن الصدف أن يكون أحد الفرنسيين هو الضحية، لأن زعير صادروا قطيعه قرب أبواب الرباط(7).

إن كل هذه الشكاوي، توضح بشكل لا جدال فيه، أن الفرنسيين كانوا يرغبون في أن يروا القواد المغاربة يأتمرون بأوامر القناصل الفرنسيين، ويتكفلون بحماية تصرفاتهم المضادة لمصالح البلاد، وتسربهم الذي لم يعد خافيا. وكل قائد لم يسايرهم، وتفهم عواطف (مواطنيه)، كان يتهم بالضعف والتواطؤ أو سوء السيرة. فعبد الرحمان بركاش قائد الصويرة ضعيف أو متواطئ - في نظرهم - لأنه لم يفعل شيئا لمعارضة أنفلوس. وقائد مهدية متعصب، لأنه رفض الخضوع لرغبات قنصل الرباط المتعجرف. وعامل الرباط سيء السيرة، لأن القبائل هاجمت المدينة، وصادرت قطيع فرنسي وهددت الجالية الفرنسية !

أما عامل الدارالبيضاء بوبكر بن بوزيد(8)، فيستحق في نظر الفرنسيين كل الأوصاف المشينة، فهو ضعيف وعاجز تارة، وهو متواطئ ومتآمر تارة أخرى.

وفيما يخص الدارالبيضاء والشاوية، فقد نبه رينيو كذلك إلى حالة الفوضى المزعومة التي تعيشها القبائل، وأعطى مثالا عليها بإيراده لحادث بسيط يتلخص في أن المخزن ألقى القبض على قائد أولاد زيان، التهامي بن العايدي على يد قائد

المدينة وأمره بدفع قدر كبير من المال، لكن قبائل أولاد حريز وأولاد زيان والمذاكرة تدخلوا لإطلاق سراح القائد التهامي(8 مكرر). ويمكننا أن نرى في هذا الحادث - إذا صح - دلالة على اشتداد ردود فعل السكان ضد الأروبيين، وعلى تخلص القبائل من نفوذ المخزن الذي كان يخضعها لشروط الأجانب، وخاصة المطالبة بتسديد ديون كثيرة وتعويضات ثقيلة.

والحاصل أن قبائل الشاوية، بدأت تهدد من جديد الأجانب بالدار البيضاء سنة 1907. وخاصة الفرنسيين منذ احتلال وجدة. وإذا كانت المصادر لا تسعفنا في تتبع كيفية حصول ذلك التهديد، وأسبابه المباشرة، فإن الوثائق تطلعنا رغم الثغرات العديدة على حصول ذلك التهديد.

فقد كتب محمد الطريس إلى ابن سليمان، يخبره بأن القناصل الأجانب بالدارالبيضاء، كتبوا لنوابهم بطنجة يطلعونهم على تهديد الشاوية للمدينة، ومما جاء في رسالة النائب

"فإن باشدورات الألمان والنجليز والفرنصيص والصبنيول، أخبرونا بورود الأعلام عليهم من قناصلهم بالدارالبيضاء بأن عاملها أخبر جميع القناصل هناك، بما بلغه من أن قبائل حوز الثغر المذكور يرومون الضرب عليه ومد اليد العادية في سكانه، فاجتمعوا معه، وطلبوا منه اتخاذ الوسائل والاحتياطات للدفاع، فأجابهم متعللا، بأنه لا شيء عنده من تلك الوسائل، فكتبنا له بالمتعين في ذلك، واستنهضناه للقيام بجعل كل ما يمكن لصيانة البلد، وأن يكتب لعم مولانا أيده الله، كبير المحلة السعيدة بتلك النواحي، مولاي الأمين، بطلب توجيه نحو ثلاثمائة من العسكر تعضيدا له إن لم يتحقق عنده ما ذكر. وإلا فإن تحقق عنده ذلك فيطلب منه النهوض بجميع المحلة للتخييم بها حذاء الثغر المذكور، لتكون حاجزة، بينه وبين من يرومه بسوء، كما كتبنا في ذلك لكبير المحلة المذكورة حسبما بالنسخة من الكتابين لهما الموافيتكم طيه"(9). ويبدو أن ممثلي المخزن بالمنطقة، تمكنوا من تهدئة الوضع، وجنبوا المدينة هجوم القبائل، فقد أخبر عامل المدينة أبو بكر بن بوزيد النائب السلطاني، الذي كتب بدوره إلى السلطان يقول "فليكن في كريم العلم، أن عامل الدارالبيضاء كتب لنا، بأن الفتنة التي كادت أن تتقد بتلك النواحي قد سكنت، وخمد لهيبها، نطلب الله أن يقطع شرها"(10).

لا ندري المطالب التي طالب بها زعماء القبائل، ولا نعرف كيف حُل مشكل تهديدهم للأجانب بالدارالبيضاء، لكن المؤكد أن آثار احتلال وجدة، وردود الفعل الشعبية التي أثارها ذلك الاحتلال بقبائل حوز مراكش وخاصة نواحي الصويرة،

كانت لها انعكاسات مماثلة داخل قبائل الشاوية التي كانت في هيجان مستمر ضد الأجانب (11) منذ 1906.

• ويبدو أن رسالة النائب المذكورة كانت متفائلة أكثر من اللازم، وأن التهديد كان جديا، الأمر الذي دفع السلطان إلى أن يأمر النائب الطريس ووزير الحربية الجباص الموجود بطنجة منذ أواخر 1906، أن يبعثا بطابور العسكر الذي خصص للتوجه مع الباشا قدور بن الغازي لمراكش، إلى الدارالبيضاء أولا، قبل أن يلتحق به الباشا المذكور، ليساعد عاملها على المحافظة على الأمن(12). وقد نفذ أمر السلطان وأرسل طابور من الجنود "قدره 545 «بجميع متعلقاتها»"، كما جاء في رسالة من النائب(13).

وهكذا يظهر أن تزايد الضغوط الفرنسية على المغرب، وما آثاره احتلال وجدة من ردود فعل شعبية خاصة في الحوز، حيث طالبت القبائل بإبعاد الفرنسيين من مراكش، يظهر أن ذلك كان له أثره على قبائل الشاوية التي تحركت بدورها ضد الأجانب بالدار البيضاء. لكن هذه الدوافع غير كافية لتفسير التحركات والتهديدات التي أشارت إليها الوثائق بخصوص الشاوية والدارالبيضاء. ولذلك يلزم البحث عن دوافع خاصة ومحلية.

لقد رأينا في فصول سابقة أن علاقة الشاوية ساءت مع التجار الأجانب وخاصة الفرنسيين والإنجليز، ويبدو واضحا، أن تلك العلاقة ازدادت سوءا مع الفرنسيين، لما شرعوا في الأعمال التمهيدية لبناء رصيف ميناء الدارالبيضاء منذ مارس 1907. عندئذ تبين للشاوية أن الخطر الذي أصاب وجدة يمكن أن يتكرر بالدارالبيضاء، ولذلك ازدادت النفوس قلقا وبدأ السكان يهددون بطرد الفرنسيين من المدينة وإيقاف تسربهم للمنطقة. لكن تهديدات الشاوية لم تحمل الفرنسيين على التقليل من تسربهم، والتخلي عن مشاريعهم الاستغلالية. ومع ذلك يلاحظ أن قبائل الشاوية لم تعمد كما كانت تشيع الأوساط الاستعمارية إلى نهب المدينة، الأمر الذي يؤكد أن المسألة لا تتعلق بفوضى ضاربة أو "سيبة" كبرى! إن الأمر يتلخص ببساطة في تهديد أجنبي، في شكل مشاريع استغلالية ذات أهداف أمبريالية، حاول سكان الشاوية إيقافها. ولما طغى ذلك التدخل بفرض مراقبين فرنسيين بمرسى مدينة الدارالبيضاء كان لابد من ردود فعل عملية، الأمر الذي هيأ لحادث 30 يوليوز 1907 وحادثة قنبلة الدارالبيضاء 5-7 غشت من نفس السنة.

ثانيا الدوافع الحقيقية وراء الحادث

إن أحدث دراسة ـ حسب ما نعلم ـ هي التي أصدرها أندري آدام سنة 1968 في كتابه "تاريخ الدارالبيضاء منذ القديم إلى 1914" حيث خصص فصلا مطولا لرواية وقائع حادث 30 يوليوز، وكارثة قنبلة المدينة تحت عنوان "دراما سنة 1907" (14). وقد اجتهد المؤلف ـ فيما يظهر ـ لإبراز الحقيقة لكن محاولته لم تكن موفقة، لأنه اكتفى بما كتبه الصحفي جورج بوردون Georges Bourdon (15)، الذي كان معاصرا للأحداث، كما اعتمد رواية صحفي آخر، وهو كريستيان هويل Christian Houel (16)، الذي التحق بمولاي احفيظ إثر بيعته، وكتب عن مغامراته في المغرب في وقت متأخر. ودون أن ننبه على تحامل "بوردون" أو "هويل"، لأنهما كانا مجرد مراسلين لصحف استعمارية. فقد ارتأينا أن نعرض لتصحيح ما رواه بوردون عن أسباب حادث 30 يوليوز ونكون بذلك قد صححنا ما رواه أندري آدام.

والجدير بالملاحظة أن بوردون، حاول أن يدخل في روع القارئ منذ البداية، أنه لن يحيد عن التواضع والعدل والدقة، ليكون ما رواه هو الصحيح، خاصة وأنه كان شاهد عيان على "القسم الأكبر من الأحداث" التي أخضعها لمراقبة صارمة حسب زعمه. لكن احتياطات بوردون، لم تمنعه من السقوط وبشكل فاضح في الأخطاء التي حذر منها. حيث نلاحظ أنه عاد ـ وهو الصحفي المشاهد ـ ليردد على مسامع القارئ كل ما أشاعه "الدارسون الاجتماعيون" لمغرب ما قبل الحماية من مقولات باطلة مثل قوله "ان عربي المغرب مثله مثل عربي الجزائر يحس خوفا مغذى بكل انكسارات إخوانه، من الأروبي، بما يحمله له من مجهول وشدة أجنبي الشمال"!! (17). وقد ذكر هذا ليخلص منه إلى أن ذلك هو سبب "كره المغربي للمسيحي كعدو لدينه وجنسه. ومع ذلك فالمغربي ـ في نظره ـ خاضع ووديع حتى في الدارالبيضاء، ولكنه إذا هاجم فإنه يهاجم "داخل سكر كراهيته المشتعلة"! بهذا يجتهد "بوردون" ليجعل القارئ يعتقد بأن تعصب المغاربة كان أحد أهم أسباب قتل العمال الأجانب يوم 30 يوليوز. وربما تذكر المؤلف احتياطاته المزعومة فأردف قائلا "وإذا لم يمكن الادعاء بأن اغتيالهم كان نتيجة تعصب مباشر، فيلزم على الأقل أن نبحث عن السبب وسط تحريض متزايد وعام للأهالي" (18). بهذا يقبض "بوردون بخط الرجعة ليحاول حصر الأسباب التي أدت إلى حادث 30 يوليوز في ثلاثة أسباب

- أسباب مباشرة محلية.
- أسباب غير مباشرة عامة.
- أسباب خاصة تتعلق بأشخاص.

ولإبراز زيف هذا التحليل نعرض لما درسه المؤلف تحت هذه العناوين.

فعن الأسباب العامة، ردد المؤلف ما تعودت الأوساط الاستعمارية تكراره باستمرار، وهو فوضى المغرب، وعداوة سكانه للأجانب، وعدم معاقبة اغتيالات الفرنسيين (شربوني وموشان...) ثم عدم فعالية احتلال وجدة وتحريض الألمان... إلخ(19). أما التسرب الفرنسي والضغوط المتوالية على المغرب وما نتج عنها من ردود فعل شعبية، فلم ير فيها المؤلف إلا انعدام ثقة المغاربة بالفرنسيين.

وحول الأسباب المحلية، ذكر "بورديون" أن قبائل الشاوية كانت مستعدة للتحرك، بدفع من بعض القواد الذين استغلوا أشغال الميناء وجلوس المراقب الفرنسي بالديوانة

ونلاحظ أن "بورديون" لكي يخفي سببا رئيسيا وهو جلوس المراقب الفرنسي مع الأمناء المغاربة - كما سنوضح ذلك - (20)، أكد على استعداد الشاوية للاضطراب، وعلى ارتفاع درجة التحريض فيها، ولكي ينفسوا على هذا الاستعداد، وهذا التحريض عارضوا جلوس المراقب الفرنسي. وإذا اتبعنا هذا المنطق في التحليل، فستنقلب الحقائق رأسا على عقب، وتصبح الأسباب الحقيقية مجرد أشكال ومظاهر لاضطراب موجود، ورفض وفوضى لا معنى لهما. أما معارضة أعمال الشركة الفرنسية بميناء الدارالبيضاء، فلم ير الكاتب فيها سوى أن بناء رصيف يتعارض مع محافظة العرب. وأن السكة اخترقت مقبرة إسلامية وشاهد الناس عظاما بشرية "تخوفوا منها"(21).

ونصل إلى السبب الخاص عند الكاتب، فنجده يرده إلى خلاف بين الأعيان على السلطة. وبالضبط بين قائد أولاد حريز الحاج محمد بن حمو مع عامل المدينة أبي بكر بن بوزيد(22). فالأول كان يرغب في خلافة أبيه على عمالة المدينة، ولذلك كان يجتهد في إثارة المشاكل للثاني، لإظهار عجزه ودفع السلطان إلى عزله بـ "إثارة فتنة هوجاء تتجه ضد الدارالبيضاء" أما موقف العامل ابن بوزيد - في نظر بورديون - فيتلخص في اتباع سياسة منافسه بهدف احباط مشاريعه ؛ أي أن عامل الدارالبيضاء سار في نفس النهج الذي سلكه قائد أولاد حريز، والهادف إلى عزل أبي بكر من عمالة الدارالبيضاء(23) ! إننا نستغرب أن يكون ولد الحاج حمو معاديا للأجانب ومحرضا للقبائل ضد الدارالبيضاء، وأن يكون ابن بوزيد معاديا

للأجانب بدوره وفي الوقت نفسه يكون سبب هجوم القبائل على الأجانب، نستغرب أن يكون كل ذلك عداوة شخصية بين الرجلين وأطماعا شخصية لولد الحاج حمو كما يدعي بوردون. ويختم بوردون كلامه بإضافة تهمة مجانية لقبائل الشاوية بقوله "إن هؤلاء الفلاحين نهابون كذلك، وهم يعيشون من نهبهم كما يعيشون من حقولهم" ولذلك عرضت عليهم الدارالبيضاء الغنية، والغنيمة السهلة، ودفعوا لها دفعا. إذن هناك رغبة في نهب مدينة غنية يضيفها الكاتب كدافع من دوافع حادث 30 يوليوز. وهكذا يتضح أن بوردون يحاول أن يقنع القارئ، بأن الأسباب التي أدت إلى حادث 30 يوليوز لا تتعلق بمعارضة شعبية، وإنما هي أسباب تتعلق أساسا بظروف محلية خاصة بقبائل الشاوية وحدها، ترجع للفوضى المزعومة التي كانت تعيشها تلك القبائل، وإلى استعدادها للنهب، وتطاحن بعض الأعيان على السلطة. والنتيجة هي ارتكاب حماقات ضد الأروبيين لأنهم مسيحيون، والمغربي متعصب يعادي المسيحي !

والغريب في الأمر أن كل الذين كتبوا عن الحادث يتبعون التعليل نفسه، ويقتنعون بالتأويل نفسه. "فأندري آدم"، يرجع الدوافع إلى العداء للأجنبي وإلى الفوضى التي كانت تعيشها الشاوية وإلى الأطماع الشخصية لولد الحاج حمو(24). ويشير إلى دافع آخر وهو الفقر الذي كان يخيم على الشاوية ليوحي بوجود رغبة في النهب، وهنا نلاحظ تناقضا بين المصادر الفرنسية، فبينما يؤكد بعضها على استعداد القبائل وتسلحها وقوتها يشير آدم إلى فقرها(25).

والواقع أن المؤلفات الفرنسية كلها، ركزت على دوافع ثانوية، فأكد بعضهم على سوء نية المخزن وتهربه من كل تعويض طالبت به فرنسا، وعلى تحريض الألمان (26) بينما ذهب بعضهم الآخر بعيدا ليتهم "الساحر" ماء العينين بتحريض الشاوية ضد المسيحيين(27).

أما الأسباب الحقيقية التي أصبحت عندهم مجرد مطالب، فنجملها في سياسة التغلغل النشيط وبسط النفوذ الفرنسي، أي السياسة الأمبريالية الهادفة إلى استعمار الشعب المغربى، وما أثارته من ردود فعل سبق أن درسناها. وعندما تجلت هذه السياسة في مشاريع عملية بالدار البيضاء، وخاصة لما شرعت "الكمبانية المغربية" في أشغالها لبناء رصيف بالمرسى، قلق سكان الشاوية وازدادا هذا القلق لما جلس المراقبون الفرنسيون "بالديوانة"

وهكذا نعتبر أن السبب المباشر لإثارة حادث 30 يوليوز، هو جلوس هؤلاء المراقبين. ولتوضيح كيفية حصول ذلك يجب أن نتتبع بالدراسة مسألة إصلاح

ميناء الدار البيضاء، وقضية المراقبة الفرنسية ومدى مسؤوليتهما عن الحادث المذكور.

أشغال ميناء الدارالبيضاء

خلال سفارته لفاس سنة 1905، طلب "سان روني طايندي" Taillandier من جملة ما طلب، القيام بتجهيز الموانئ لتسهيل التجارة فيها وتنشيطها قائلا "ومن الأمور المنوطة بتحسين المراسي أمر المون بها لأن المراسي مفتقرة لضبطه، والذي ينبغي هو إصلاح ذلك ببناء مون صغير في المراسي تصل الفلايك إليه، وجعل بوجي ينزل السلع من الفلايك في المون" (28).

وكان الفرنسيون قد هيأوا مخططات للقيام بأشغال تجهيزية يسندها المخزن إليهم في بعض الموانئ، من جملتها مشروع تجهيز ميناء الدار البيضاء الذي وضعه المهندس رينو Renaud، رئيس المصلحة الهيدروغرافية للبحرية، وكان ذلك المشروع يهدف إلى بناء رصيف ومخازن جديدة بالميناء (29). وإذا بدأت المفاوضات منذ سنة 1905 فإن "كنطردة" بناء رصيف الدار البيضاء لم تعقد إلا بعد مفاوضات مطولة لأن المغاربة كانوا يعلمون أن هدف المشروع الفرنسي هو تسهيل عمليات التجار الاستغلالية، وبالتالي مزيدا من التوافد الأجنبي وتوسيعا لامتيازات الأروبيين وفوزا استراتيجيا للاستعمار الفرنسي في النهاية.

والحاصل أن الاتفاق على شروط العقد تم في نهاية 1906، لكن التصديق عليه لم يقع إلا في بداية 1907، بعد محاولات عديدة قام بها رجال الأعمال الفرنسيون لتعديل فصول العقد، حسبما تبينه الرسائل الجوابية التي بعثها النائب محمد الطريس إلى أمين الأمناء محمد التازي (30). ويظهر من أجوبة الطريس أن المفاوضات انتهت بالعاصمة فاس بين المخزن وممثل الشركة الفرنسية صاحبة الامتياز، بالاتفاق على شروط العقد، وصورة الرصيف الذي ينبغي بناؤه بمرسى الدارالبيضاء. فبعث أمين الأمناء بتلك الشروط لدار النيابة في 23 جمادى الأولى 1324 الموافق 15 يوليوز 1906، وبصورة مرسى الدار البيضاء وأسفي في 25 منه أي 17 يوليوز، وأمر النائب أن يعقد "الكنطردة" مع ممثل الشركة وهي "الشركة المغربية La compagnic Marocaine" وهي فرع من شركة "كروزو" Creusot الفرنسية (31) لكن ممثل الشركة حاول أن يبدل بعض فصول العقد، وألح على النائب في قبول ذلك التبديل، فما كان من النائب إلا أن أرجع الأمر ليد المخزن ليتفق مع ممثلي الشركة على التغييرات المقترحة (32). وبعد

أن تم الأمر كلف الطريس بتوقيع العقد(33)، وبعد التوقيع كتب النائب لأمين الأمناء يخبره، بأن العقد تم "وفق الأمر الشريف" بجعل مدة "الكنطردة" ثلاثين سنة بدل أربعين، وأرسل له 4 نسخ من العقد(34). كما أخبره بأنه أرسل لأمناء الدار البيضاء نسختين وكتب لهم وللعامل "بالتمشي على مقتضى تلك الفصول وشد العضد لنواب الكمبانية المذكورة بإجراء مقتضاها"(35).

وبعد أن تمت هذه الإجراءات، شرعت المؤسسة الفرنسية المذكورة في أشغالها التمهيدية منذ مارس 1907، حيث بنت سكة حديدية طولها حوالي 1500 متر، بين المرسى والمحجر الذي ستنقل منه الأحجار لبناء الرصيف. ومنذ ماي 1907 بدأت الأشغال الفعلية، حيث استخدمت قاطرة صغيرة من نوع "ديكوفيل Dccauville" لنقل الأحجار.

هل منظر هذه القاطرة الصغيرة هو الذي أسرع "بالدراما" كما كتب أندري آدم؟ الذي أضاف قائلا إن صفارة "القاطرة أذكت الهياج الخامد في نفوس البسطاء"(36). إننا نستغرب مما كتبه أكاديمي عرف بأبحاثه المتعمقة حول الدارالبيضاء، إذ فاتته الأخطاء التي وقع فيها مراسلون أجانب، لا يخفى على الباحث تحيزهم للطرف الذي اعتدى على السيادة المغربية. كما أن مؤهلاتهم العلمية، لم تكن تسمح لهم باستشفاف الحقيقة، وهم مسخرون - زيادة على ذلك. لصالح أوساط رأسمالية أمبريالية.

فقد قال هويل "إن هذه الآلة كانت اختراعا شيطانيا" وإن المغاربة كانوا يتأملونها ويقولون "إن هذا الشبح الحديدي يمكن أن يمتد إلى بلادهم ويزرع في دواويرهم دخانه المشرير(37)" !

وكتب قبله "ريجنالد رانكه Reginald Rankin يقول (38) "إن التدخل الفرنسي في الدار البيضاء كان سببه صيحة صفارة" وكرر "هنري كامبون" H.Cambon (39) نفس النغمة قائلا وقد تجمع ارتياب الأهالي على القاطرة الصغيرة التي أطفى صفيرها ودخانها مظهرا شيطانيا أمام أعينهم"

وإذا كنا لسنا في حاجة، إلى إظهار زيف خيالات "كريستيان هويل" الذي كان مراسلا لجريدة "La dêpeche Marocaine" التي اشتهرت بنصبها العداء للمغاربة إلى حد الحقد، ولا إلى إبراز تحريف "رانكة" الذي كان يراسل جريدة "التايمز" Times اللندنية، وكان مقربا من الجنرال داماد، كما كان يعلم ثمن أقواله التافهة، وهو يتهافت على الشهرة والمال. وإذا تفهمنا تحيز "كامبون" للأوساط

الاستعمارية، وخدمته لايديولوجيتها، فإننا لا نفهم اعتماد أندري آدم تلك التفسيرات الغيبية إلا في إطار تزكيتها، ومدها بحقنة للاستمرار، في وقت لم يعد فيه مكان للأحكام التبريرية المجازفة، بالنظر إلى ما عرفه البحث التاريخي من تطور وتدقيق علمي.

إن حادث قتل العمال الأروبيين وقع يوم 30 يوليوز 1907، وأشغال ميناء الدارالبيضاء بدأت منذ مارس 1907، وبدأت القاطرة تنقل الأحجار منذ ماي. والسؤال الذي ينبغي طرحه على الروايات السابقة هو إذا كان صفير القاطرة هو الذي أثار سكان الشاوية والمدينة، فلماذا أنتظر هؤلاء هذه المدة ليخربوا السكة الحديدية ويوقفوا أعمال الشركة الفرنسية؟ إن الحقيقة هي أن ظهور تلك الآلة لم يكن هو سبب حادث يوليوز 1907، ولا الكارثة التي حلت بالدارالبيضاء يوم 5 غشت 1907، بل إن السياسة الاستعمارية الفرنسية التي سبق أن حللناها تجاه المغرب، هي التي تتحمل مسؤولية ما حدث، يضاف إليها دسائس الأوساط الاستعمارية، وسوء سيرة منفذي تلك الدسائس في المغرب.

ولقد رأينا كيف حرص المغاربة على تجنب كل تعهد بالتعاون المزعوم الذي طالب به الفرنسيون، ورفضوا مشروع المطالب الفرنسية سنة 1905 أملا في عدم السقوط في قبضة الفرنسيين وحدهم. كما عرفنا نتائج مؤتمر الجزيرة التي فرضت على المغاربة ضرورة قبول ما رفضوه سنة 1905. وحللنا أحداث ما بعد الجزيرة والميكانيزمات التي رافقتها. ولذلك كله، فحادث 30 يوليوز لم يكن مستبعدا في منطق الأحداث ولا في الظرفية التي كان يعيشها المغرب في مواجهة التسرب النشيط للفرنسيين. إن مقاومة المغاربة لذلك التسرب، ومحاولة التشبث باستقلالهم، هي التي دفعتهم لمعارضة سياسة الأمر الواقع بالدارالبيضاء صيف 1907 (40). وقد جاء في تقرير لقائد جيش الاحتلال بالدار البيضاء "إن قبائل الشاوية مثل كل القبائل المغربية معادية للتدخل الأروبي في المغرب، وإن أشغال الميناء ووضع السكة اعتبرت في أعينهم تهديدا لاستقلالهم أكثر مما كانت سببا في تزايد عصبيتهم" (41). وهكذا كان علينا أن ننتظر لنرى الفرنسيين يشهدون بأنفسهم في تقاريرهم السرية ذات الصبغة السياسية، وبعد المقاومة الباسلة التي واجهتهم بها قبائل الشاوية حول مدينة الدارالبيضاء ؛ على أن الدوافع التي دفعت الشاوية لمعارضة الفرنسيين، هي الخوف على مصيرهم واستقلال بلادهم. وأن مقاومة أشغال الميناء كانت تعني مقاومة وسائط السيطرة الفرنسية. ولسنا في حاجة إلى التأكيد، على أن الفرنسيين كانوا يعلمون عواقب ما يفعلونه في

المغرب، وأنهم كانوا يريدون فرض إرادتهم فرضا، كما لسنا في حاجة إلى التأكيد كذلك، على أن المغاربة كانوا يعرفون من يعارضون ويعادون.

ولقد أشار "هويل" لعداوة المغاربة لمشاريع الفرنسيين عندما لاحظ أن الشاوية كان يمكن أن يستأنسوا بهذه التجديدات "لو لم يرفع القائد حمو (في الحقيقة الحاج محمد بن حمو) (42) شعارات طرد الفرنسيين"(43). لقد كان الشاوية إذن يعارضون الفرنسيين الذين ازدادت ضغوطهم على البلاد، في حين كانت أعمال إصلاح ميناء طنجة والعرائش جارية على قدم وساق، ومع ذلك لم تثر أي ردود فعل لدى المغاربة، لأن القائمين بها كانوا ألمان ونظرا لما كان يتظاهر به هؤلاء من مساعدتهم للمغاربة في الدفاع عن استقلالهم.

وقد سبق لنا أن رأينا بأن الأروبيين كانوا يعيشون في أمان في البلاد المغربية، وأن تلك الحالة تغيرت إثر مؤتمر الجزيرة، ولاحظنا قبل قليل، أن الفرنسيين كانوا هم المعنيين أكثر بعداوة المغاربة نظرا لعملهم الحثيث على بسط نفوذهم وهيمنتهم على المغرب، باستخدام كل أساليب الترهيب. ونظرا لكل ما سبق، فقد مثلت أشغال ميناء المدينة قمة التهديد الفرنسي في أعين سكان الشاوية خاصة والمغاربة عامة في ظروف ما بعد احتلال وجدة، والضغوط الفرنسية لمعاقبة المتهمين في حادث موشان بمراكش.

وقد عبر الشاعر الشعبي عبد الهادي بناني(44) عن هذا التحدي المتبادل بين طغيان الفرنسيين وصمود المغاربة فقال في قصيدة يمدح فيها جهاد الشاوية ضد المحتلين

سَبَّتْ هَذَا الفْتَانْ فَالضَّيْ أُدجُـورْ
بِها نَاسْ العْقُولْ لَفْضَالْ نْخَبَّرْ
نَاضْ الكَافَرْ بَالْعَزْمْ يَصْنَعْ بَابُـورْ
يْعِينْ عَلَى المُونْ ويْنَقَّلْ لَحْجـــرْ
حَطْ السِّكَّا وْسَارْ يَخْدَمْ ظَلَّمْ أُجُورْ
حَتَّى فَاتْ لَحْدُودْ وَطْغَى وتْجَبَّـرْ
قَامْ عْلِيهْ لَهْرَاجْ وتْفَلَّسْ وَخْســـرْ

ولا ينبغي أن نفهم من هذه الأبيات أن أشغال الميناء، كانت هي السبب المباشر في إثارة السكان، بل ينبغي أن نفهم منها أنها مثلت أمام أعينهم طغيان الفرنسيين، خاصة لما مدوا سكة حديدية من الميناء إلى المحاجر القريبة. ولأن هذا

العمل كان بارزا ومعروفا لجميع الناس. لكن السبب الذي آثار حادث 30 يوليوز، هو جلوس المراقب الفرنسي بالديوانة بجانب الأمناء المغاربة. وفيما يلي تفصيل ذلك.

مسألة المراقبة المالية 1904-1907

لقد منح عقد اقتراض 1904 للفرنسيين امتياز تعيين وكلاء للنيابة عن أصحاب السلف في الموانئ المغربية حسب ما جاء في الفصل الثاني عشر "تضمينا لإجراء العمل بهذا التوثيق (توثيق مداخيل الجمارك المغربية) فإن جميع الحقوق المتعلقة باستلزامات السلف المقررة بهذه الكنطردة تباشر بإسم وفي حساب الحملة على يد نائب عنهم تعينه البنكات المعقود معها السلف على الكيفية التي تعنيها ولنائب حملة الاستلزامات أن يعين من قبله وكيلا من الأربويين، يكون خاصا بهذا العمل، ومن غير أن يتعاطى التجارة بالمغرب ينوب عنه بكل مرسى نيابة كلية أو بعضية، كما له أن يستخدم الأشخاص الذين يتوقف عليهم للقيام بما موريته ولا يجاوز عددهم أربعة بكل مرسى" (45).

كما حدد الفصل السادس عشر من العقد مهمة هؤلاء الوكلاء إذ جاء فيه "قبض واجب الأعشار بالديوانات الموثقة في هذا السلف يكون على يد أمناء الدولة الشريفة، ونائب حملة الاستلزامات له أن يعين بكل مرسى نائبا عنه، كما له ولنوابه، أن يصححوا ويبحثوا في جميع ما يتعلق بشؤون الديوانات المعينين بها، ويكون الأمناء يدفعون لهم في كل يوم يومية ببيان مدخول الديوانات وضعا ووسقا" لقد فسر المغاربة هذا الفصل، بأن مهمة الوكلاء الأجانب هي "البحث من خارج، وليس الجلوس مع الأمناء بالديوانة" (46). في حين كان الفرنسيون يفسرون الامتياز بأنه يسمح لهم بمراقبة ما يوضع وما يوسق، وما يقبض، حتى يأخذوا 60٪ من مدخول الجمارك يوميا. ولذلك ظلوا منذ اليوم الأول يطالبون بأن يجلس وكلاؤهم بالديوانات للمراقبة المباشرة، ومشاركة الأمناء في عمليات البحث والتسجيل والتعشير، الشيء الذي يتعارض مع التفسير المغربي ومع السيادة الوطنية بصفة عامة. ونتيجة لذلك ظل المغاربة يعارضون جلوس المراقبين الفرنسيين مع الأمناء. فخلال سفارته لفاس سنة 1905، تشكى سان روني طايندي من عدم تمكن الوكلاء الأجانب من القيام بالمراقبة، ومن أن "كنطردة السلف ليست جارية على مقتضاها، ومعلوم أن من لهم المراقبة لا بد أن يبحثوا ويسألوا وهؤلاء لا يحوزون إلا تقاييد من الأمناء من غير اطلاع [...] وفي هذه الأيام تشكى نائب حملة الاستلزامات بكون نوابه بالمراسي لا يساعدون على الاطلاع وإنما هم صورة.." (46 مكرر).

وهكذا نفهم أن الفرنسيين لم يقنعوا بأخذ التقاييد اليومية، التي كان يدفعها لهم الأمناء ونسبة 60٪ من المدخول اليومي، واعتبروا ذلك تنقيصا من قدرهم فطالبوا بالمراقبة في عين المكان، مع الأمناء جنبا إلى جنب. وفي ذلك ما فيه من خدمة للنفوذ وللهيبة الفرنسيين. وهو ما كان الفرنسيون يحرصون عليه أشد الحرص. وقد انتبه إلى هذا أعضاء مجلس الأعيان في جوابهم على الشكوى الفرنسية السابقة المتعلقة بعدم جريان المراقبة المالية حسبما يرغب فيه الفرنسيون، بقولهم

إن المعروف هو "أن المراقبين يبحثون من الخارج، ويطلعون نائب الأبناك على ما يحدث، وللسلطان النظر في إثبات ما قاله أو إنكاره. ويظهر أن مراده هو الخوض والظهور أمام الأجانب"(47).

ولقد رأينا أن سفارة طايندي هذه فشلت وتوترت العلاقات المغربية الفرنسية نتيجة لذلك الفشل(47 مكرر). وحسب المادتين 96 و 97 من ميثاق الجزيرة، أخضعت الجمارك المغربية للمراقبة الدولية الجماعية. وعينت "لجنة للديوانات" كلفت بممارسة مراقبتها العامة على الديوانات المغربية. وتضم ممثلا عن أرباب "سلف 5٪ 1904".

وإثر الضغوط التي مارسها الفرنسيون سنة 1907، حصل اتفاق بين المخزن والحكومة الفرنسية، على بدء المراقبة المالية بالجمارك، كما يتضح من الرسالة الآتية التي وجهت لعامل الصويرة آنذاك عبد الرحمان بركاش في شهر يونيو 1907 "وبعد فلأجل مصلحة تحسين خدمة المرسى، وزيادة الضبط في عملها اقتضى نظرنا الشريف، على وجه الاختيار، تنفيذ إجراء عمل المراقبة بالفعل على يد أرباب القرض الفرنصوي الجاري بجلوس أحد الأعضاء منهم بالديوانة السعيدة مع أمنائها، لمدة من خمس سنين من تاريخ الشروع في العمل. وقد أصدرنا شريف أمرنا للأمناء المذكورين بقبوله للجلوس معهم، وتمكينه من التصرف على مقتضى ضابط خدمته. وعليه فنأمرك بقبوله لذلك، والكون منه على بال، وشد عضده، فيما يتوقف عليه من أمور تكليفه الراجعة لخدمة المرسى"(48). كما كتب السلطان للنائب محمد الطريس في يوليوز في نفس الموضوع، وأمره بإصدار التعليمات الخاصة للأمناء، وتوجيه الرسائل السلطانية لهم. وأجاب النائب بأنه نفذ الأوامر السلطانية على مقتضاها(49). وهكذا يظهر أن عمل المراقبة قد اتفق عليه خلال شهر يونيو. ولكن الشروع الفعلي في تطبيقها، لم يحدث إلا في شهر يوليوز (50).

كيف استقبل المغاربة جلوس المراقبين الفرنسيين بالديوانات ؟ من الجدير بالملاحظة، أن جلوس المراقبين الفرنسيين بالديوانات بجانب الأمناء، قد أثار امتعاضا شديدا، واستقبل بمعارضة واسعة النطاق. إن حجم تلك المعارضة وسرعة انتشارها يجعلنا نتساءل عن دور الأمناء وبعض أعضاء المخزن فيها، وكذا عن دور أطراف أخرى من الأوساط الدينية؟ ولكننا، وحتى تتيح لنا الوثائق الإجابة على جزء من هذا السؤال، نستطيع أن نؤكد على أن المغاربة الذين ظلوا يرفضون على المستوى الرسمي، إجراء تلك المراقبة الديوانية، لم يستقبلوا ذلك الإجراء بارتياح، بل اعتبر على جميع المستويات الشعبية والرسمية، ضربة خطيرة لسيادة البلاد ولهيبة السلطان. وإذا لم يجد المسؤولون مندوحة عن القبول، فإن الشعب رفض، وبدأ يتساءل عن حقيقة ما يفعله المخزن، حتى أن الإشاعات بدأت تشير إلى "حكاية السلطان المسحور من طرف المسيحيين"، حسب ما نسبه مارتان لأمناء الدارالبيضاء وزعماء المقاومة بالشاوية(51). إن جلوس المراقب الفرنسي بديوانة الدارالبيضاء في شهر يوليوز، كان سببا مباشرا للتحركات المضادة للفرنسيين التي حدثت في نفس الشهر، مثلما أثار جلوسه بديوانات أخرى نفس المعارضة. ففي يوم 23 يوليوز 1907، أقدم حوالي 100 فارس من زعير على تهديد الجالية الفرنسية بالرباط، وطالبوا بمغادرة المراقب الفرنسي "لديوانة" مرسى العدوتين (52). وقد اتهم القنصل الفرنسي بالرباط "لاريش" Lcrichc أمناء المرسى، كما اتهم البرجوازية الحضرية بالتحريض(53).

ويعني كل ذلك أن الأمر لم يكن يتعلق برؤية المغاربة لآلة غريبة تطلق "دخانا سحريا" لأنهم تعودوا منذ أكثر من نصف قرن، على رؤية "بابور البحر" في مرسى مدينتهم، وكان "بابور البر" شيئا عاديا عندهم. لكن الأمر الذي خرق العادة، هو سماعهم وتحققهم من تحكم الفرنسيين في وظيف يعتبر عندهم من رموز السيادة والاستقلال. وهكذا فالرد الشعبي في الرباط والدار البيضاء ومدن أخرى، كان ردا يحدوه شعور وطني، ضد فعل سياسي حاولت الأوساط الاستعمارية الفرنسية أن تجني منه مكاسب سياسية كثيرة. وقد أوضح جرمان عياش، هذه الحقيقة، وبين العلاقة بين تنفيذ المراقبة وبين انتفاض يوم 30 يوليوز بالدار البيضاء، في دراسته عن الشعور الوطني في مغرب القرن التاسع عشر(54). ويمكن التأكد من ذلك باستنطاق بعض الوثائق الرسمية التي تعرضت للحادث. فقد كتب السلطان إلى عامل الصويرة، في 4 غشت، يشرح له ما أثاره الإجراء المذكور بالدار البيضاء، وينبهه إلى الحذر، واطلاع سكان القبائل المجاورة للمدينة على دوافع تنفيذ المراقبة قال السلطان :

"وبعد فإن بعض الرعاع من القبائل المجاورين لثغر الدار البيضاء مدوا يد العداء بخارجه بسبب جلوس المراقب الأجنبي مع أمناء الثغر المذكور، وصاروا يتحدثون في ذلك بأقوال غير مقبولة ولا معقولة لجهلهم بحقيقة الأمر. وعدم معرفتهم أياه. لأن جلوس هذا المراقب مع من ذكر تقدمت له نظائر عديدة في عهد سيدنا الجد (55) رحمه الله وفي حياة سيدنا المقدس (56) بالله للمراقبة على مال السلف الذي كانوا يحوزونه من المراسي في السلف الذي اقترض منهم، وقتئذ ولما توصلوا به انصرفوا لحالهم. وهكذا هؤلاء المراقبون الذين جلسوا الآن بالمراسي، فإنهم إنما جلسوا للمراقبة على مال سلفهم الذي اقترضه منهم المخزن على القاعدة الجارية في ذلك من قديم الأعصار. وبمجرد ما يتوصلون به ينهضون لشأنهم كذلك، ولا ضرر في ذلك على المسلمين.." (57).

وفي رسالة أخرى أوضح السلطان، بأن سبب قتل الأروبيين من طرف مديونة وأولاد زيان هو "لأجل ما رأوه من جلوس المراقب الفرنصيصي مع أمنائها لجهلهم بحقيقة الأحوال" (58).

والتفسير نفسه قدمه وزير الخارجية المغربي عبد الكريم بن سليمان إلى القنصل الفرنسي بفاس (59). كما أكد مدير "الكمبانية المغربية" المكلفة بأشغال الميناء هذا التفسير بقوله "من الواضح أن السكة الحديدية الممتدة إلى المحجر تضايق المغاربة وتزعجهم، ولكننا نعزو الانفجار إلى حضور فرنسيين بمخازن الديوانة وبصندوقها" (60).

ونحصر هذه الأدلة بإيراد وثيقة رسمية توضح أن الأمر يتعلق "بالمراقبة الديوانية" بالفعل. فقد كتب النائب الطريس للسلطان يقول

"يعلم سيدنا أعزه الله أنه ورد على الخديم الكتاب الشريف بما بلغ شريف العلم أسماه الله من حادثة الدارالبيضاء، وبما كان راج مع بعض الملكفين بالاعتاب الشريفة من الفرنصويين في شأن تأخير إبراز المراقبة الديوانية التي نشأ عنها ما نشأ. وإلحاحهم في إبراز ذلك الآن فكان من القدر ما كان.." (61).

وهكذا، تظهر لنا حقيقة الدوافع التي حدت بسكان الشاوية إلى معارضة المشاريع الفرنسية بالدار البيضاء، وحقيقة الأسباب الواقعية التي أدت إلى حادث يوم 30 يوليوز.

فماذا حدث بالضبط في ذلك اليوم ؟

ثالثا مقتل عمال الشركة الفرنسية التسعة 30 يوليوز 1907.

والآن، وبعد أن تتبعنا خطوة خطوة وحللنا الأسباب الحقيقية التي كانت وراء حادث يوم 30 يوليوز 1907، يبقى علينا أن نتصدى كذلك، لتوضيح ما جرى في ذلك اليوم. إن من يعرف الحوادث السابقة التي تعرض لها فرنسيون بالمغرب وآخرها حادث "موشان"، يجد من المبالغة منح اهتمام كبير لتوضيح ملابسات حادث مقتل تسعة من عمال "الكمبانية المغربية"، التي كانت مكلفة بأشغال ميناء الدار البيضاء. لكن العواقب الخطيرة التي نتجت عن ذلك الحادث، والتفسيرات المضللة، بل الخاطئة التي سطرتها أدبيات عهد الحماية، ورددت فيها تأويلات الدبلوماسيين الفرنسيين الكاذبة، والجهل المطبق الذي تناوله بها المؤرخون المغاربة، كل ذلك حتم علينا أن نتصدى لتصحيح الأخطاء، وتوضيح الضلال والتضليل، وإبراز الحقيقة التاريخية المجردة التي أريد لها أن تبقى خافية.

فقد أشارت بعض الروايات إلى أن وفدا من بعض القبائل المجاورة للدار البيضاء، يتزعمه ممثلوا قبيلة مديونة، اتصل بقائد الدار البيضاء أبي بكر بن بوزيد في 28 يوليوز، وطالب بثلاث إجراءات

1. طرد المراقبين الفرنسيين من الديوانة.
2. تخريب السكة الحديدية.
3. الإيقاف الفوري لأشغال ميناء الدار البيضاء (62).

وأضافت هذه الروايات أن القائد - وقد تحير في الأمر - أمهل الوفد إلى يوم الثلاثاء 30 يوليوز ليرد عليه. وحدد مارتان يوم اللقاء بـ 29 يوليوز، وذكر أن عدد أفراد الوفد بلغ 30 شخصا (63). أما نائب القنصل الفرنسي بالدار البيضاء، ميكري Maigret، فقد ذكر أن مديونة وأولاد زيان، أرسلوا وفدا للقائد بإسم جميع القبائل، وأن الوفد كان يتكون من 40 فردا وأنه التقى بالقائد وبمولاي الأمين(64). وفي تقرير للقنصل البريطاني بالدار البيضاء(65)، نجد أن بعض قبائل الشاوية، عقدت اجتماعا في 28 يوليوز، وهو يوم سوق الأحد بأولاد حريز، واتفق المجتمعون في السوق المذكور، على إرسال وفد يتكون من 10 أشخاص للمدينة، ليطالب القائد بتوقيف أعمال السكة الحديدية، وعمل المراقب الفرنسي بالديوانة - وذكر التقرير أن الوفد كان يمثل، قبائل زناتة والزيايدة ومديونة وأولاد زيان. كما أشار التقرير المذكور، إلى أن المجتمعين قرروا بعث وفدين آخرين إلى كل قبائل الشاوية، وإلى قبائل أخرى، كبني مسكين ودكالة والرحامنة والسراغنة، وغيرها

لدراسة الموضوع الذي يشتكون منه. وقد أكد التقرير المذكور، أن الوفد اجتمع بالقائد يوم 29 يوليوز، وأن القائد المذكور وقواد القبائل ظلوا بمعزل عن هذه الحركة.

مما سبق، يلاحظ أن الروايات المستقاة من مصادر فرنسية لا تتفق على يوم لقاء الوفد بالقائد، ولا على المطالب المقدمة فبينما ينقل "آدم" عن "بوردون" ويقول بأن وفد القبائل طالب بإزالة السكة الحديدية، وإلغاء المراقبة، وإيقاف أشغال الميناء، فإن مارتان لا يشير إلا إلى مطلب إزالة السكة وإيقاف عمل المراقب الفرنسي. وهكذا تتفق رواية مارتان مع التقرير القنصلي المذكور على المطالب المقدمة، وعلى يوم لقاء الوفد بالقائد أي يوم 29 يوليوز 1907. بينما تتضارب الروايات بشكل يجعلنا نشك في دقتها. وعلى عكس الرواية الفرنسية التي تشير إلى أن العامل تحير وأمهل الوفد إلى يوم 30 يوليوز، فإن تقريرا آخر للقنصل المذكور، يشير إلى أن القائد أجاب الوفد بأن ما طلبه من "اختصاص المخزن"(66). ويتفق هذا التقرير مع ما جاء في جواب وزير الخارجية المغربي للقنصل الفرنسي بفاس. إذ بين له أن وفد القبائل ذهب عند الباشا، واتهم عنده السلطان ببيع البلاد للأجانب، بإعطائهم الديوانات البحرية، وبالسماح لهم بوضع سكة حديدية ستساعد على التدخل الأجنبي في المغرب(67).

إذن يتضح مما سبق أن أهل الشاوية، لم يقدموا على أي عمل متسرع ضد الأجانب، وإنما قرروا بعد مناقشة الوضع الناتج عن التسرب الفرنسي للدار البيضاء، المطالبة أولا بإلغاء المراقبة وإزالة السكة الحديدية. وبعثوا بوفد اتصل بالقائد ابن بوزيد يوم 29 يوليوز، لكن القائد أجابهم بأن الأمر من اختصاص المخزن، فلم يقنع هذا الجواب المتظلمين.

ماذا حدث في اليوم التالي، أي في يوم 30 يوليوز؟

تتضارب الروايات الفرنسية كذلك، عند وصفها لما جرى يوم 30 يوليوز، بشكل يفضح تحيزها ضد المغاربة.

فقد ذكر بوردون معلقا على ما جرى في ذلك اليوم، بأن الشاوية كانوا يريدون في الحقيقة، تنقية المدينة من كل وجود أروبي، ونهب حي الملاح(68). وهكذا يخطئ بوردون عندما يعود لاتهام سكان الشاوية بالرغبة في النهب بدون أدلة. ومع ذلك، نلاحظ أنه أشار لنصف الحقيقة، عندما ذكر أنهم كانوا يريدون تنقية المدينة من الوجود الأروبي. أما النصف الآخر من الحقيقة، الذي حاول إخفاء

عمدا، وتبعه في ذلك جل الرواة الفرنسيين، فهو أن الصراع في هذه الأثناء كان محتدا بين المغاربة من جهة، وبين الفرنسيين من جهة أخرى. وقد انفلتت هذه الحقيقة مما كتبه بوردون نفسه، عندما قال معلقا على موقف أبي بكر بن بوزيد من مطالب السكان "كان في إمكان سي بوبكر أن يجيب على هذه الأوامر، بما أجاب به قائد الرباط، الرجل القوي، قبل ذلك الزمن بقليل، في ظروف مشابهة

"ليكن، نطرد الفرنسيين، أنا معكم. لكن السلطان مدين لهم بثمانين مليون يجب أداؤها أولا، هل عندكم الأموال؟" (69). إن ما ذكره الكاتب هنا، بالرغم من بعض التحريف والتعريض الذي لا يخفى، يعبر عن حقيقة موقف المغاربة سواء بالرباط أو بالدار البيضاء، وهو الرغبة في طرد الفرنسيين الطامعين. ومما يؤكد أن السخط الذي انفجر يوم 30 يوليوز كان متجها ضد الفرنسيين خاصة، أن التجار الأجانب، لم يتأثروا ولم يتأسفوا على خروج الجالية الفرنسية من الدار البيضاء (70). وأنه في الوقت الذي كان يقتل فيه الفرنسيون، كان الألمان يتجولون دون أن يصابوا بأذى (71). وقد علق القنصل البريطاني في أحد تقاريره قائلا "يظهر أن الوضعية المتدهورة كانت عبارة عن انفجار فجائي لسخط متجمع ضد الفرنسيين" (72).

إذن لا حاجة بنا، بعد هذه الشواهد، إلى أن نؤكد من جديد، على أن موقف المغاربة بالدار البيضاء يوم 30 يوليوز وقبله، لم يكن موقف من يرغب في الفوضى والنهب. أو موقف من يريد تنقية المدينة من كل وجود أروبي، كما كان الفرنسيون يشيعونه بين الأروبيين ويريدونهم أن يعتقدوه.

- تخريب القاطرة وقتل العمال أشار بوردون إلى أنه في الساعة الحادية عشرة من يوم 30 يوليوز، "كان شخص وسخ يرافقه شخص أسود يدعو للجهاد وينذد بالأروبيين وبالنصارى الكلاب" (73). وحكي فكتور بيرتي Victor Berti أنه على الساعة العاشرة صباحا، دعا الشريف حسن الزياني مواطنيه إلى الانتفاض قائلا "خلال خمسة أيام، سنغزو الدارالبيضاء وسنقتل النصارى واليهود، فعلى مدينة وأولاد حريز والمذاكرة وأولاد زيان والزيايدة أن ينضموا لإخوانهم، في أقرب وقت ممكن ليقضي الله أمرا كان مفعولا" (74). وقد اعتمد أندري آدم الرواية الأخيرة، وعلق عليها بقوله "يجب أن نقرأ بدل الزياني، الزيداني، لأن زيان بربر يوجدون بعيدين عن الدار البيضاء" (75). إن الروايات السابقة، إن لم تكن خاطئة، لا يمكن التسليم بها وقبولها، لأنها تحرف الواقع وتشوهه :

أولا لأن الرجل الذي أشار إليه "بيرتي" و"آدم" هو الحاج الحسين بن محمد الزياني وليس حسن الزياني أو الزيداني(76)، وهو من قبيلة أولاد زيان. وهي إحدى القبائل المجاورة لقبيلة مديونة. وكان الرجل المذكور أحد أعيان الدار البيضاء المشهورين(77).

ثانيا أما حقيقة ما حدث فهو أن براحا عموميا من أولاد حريز، إسمه محمد بن العربي، ويدعى "سحور" (Sohor)، كان يرافقه بعض الأعيان أشهرهم الحاج الحسين المذكور، وكان ينادي سكان المدينة والقبائل بمقاطعة التعامل مع التجار الأجانب، ويهدد من لم يمتثل من المغاربة للاجماع الشعبي. كما دعا الفرنسيين إلى مغادرة الدار البيضاء وإيقاف عمل السكة الحديدية. ويؤكد ما ذهبنا إليه ما ورد في تقرير قنصلي من أن "فارسا بدويا كان يتجول في الأزقة، وخلفه جماعة من الرعاع وكان يهدد المسيحيين قائلا أن كل من حاول جلب مواد الغذاء أو الزرع للتجار فإنه سيتعرض للنهب"(78). وهذا ما أكده مارتان بدوره(79). وجاء في رواية أخرى أن البراح دعا المستخدمين المغاربة إلى مقاطعة الأجانب والالتحاق بقبائلهم(80).

وهكذا يتضح، على خلاف الرواية المتحاملة لبوردون ومن نسج على منوالها، أن المغاربة لم يدعوا في صباح 30 يوليوز لا إلى نهب المدينة ولا إلى قتل المسيحيين واليهود. بل طالبوا - وهذا أمر طبيعي - بمقاطعة التجار الأروبيين، ومقاطعة التعامل مع الفرنسيين خاصة. وبما أن الفرنسيين كانوا هم المستهدفين(81)، فقد اتجه غضب الجمهور ضدهم، وانتهى الأمر بحادث شجار في أوراش الميناء بين المغاربة والفرنسيين عشية 30 يوليوز، ذهب ضحيته 9 عمال فرنسيين وغير فرنسيين(82)، كما ذهب ضحيته عمال مغاربة.

فكيف حدث قتل عمال المؤسسة الفرنسية ؟

تؤكد الرواية الشفاهية أن "زعماء الثوار" من أولاد زيان ومديونة قرروا، يوم 30 يوليوز، الاجتماع "بجامع السوق" بالمدينة لبحث ما يفعلونه. وكثر الهرج والضجيج بالمسجد، الذي كان غاصا بالناس لأداء صلاة الظهر، ولما حاول أحد الأعيان، ويدعي أحمد الريح، أن يصد المجتمعين عما يفعلونه والوقت وقت صلاة، قرر المنتفضون حلق لحيته(83). ثم ذهبوا عند الباشا أبي بكر بن بوزيد وأمروه بإيقاف العمل بالسكة الحديدية ومنع جلوس النائب الفرنسي مع الأمناء. لكن الباشا أجابهم بأنه لا يمكن التعرض على أمر السلطان، فذهبوا للميناء وقتلوا العمال(83 مكرر).

وحسب ما أورده تقرير للقنصل البريطاني مادن Madden أن هذا الأخير، احتج على قائد المدينة، مما كان يجري في الشوارع، "وبعد ذلك - يقول القنصل - بعث القائد خطابا يدعو الهيئة القنصلية للاجتماع به، من أجل سماع التفسيرات والإجراءات التي كان في نيته القيام بها، لحفظ الأمن داخل وخارج المدينة... وقمت باستدعاء الهيئة القنصلية - يضيف القنصل - وعند الساعة الثانية بعد الظهر، توجهنا إلى مكان إقامة القائد الذي شرح لنا مطالب سكان القبائل المتعلقة بإزالة السكة وكذلك المراقب الفرنسي من إدارة الجمارك، وكان جوابه على هذا "أن الأمر من اختصاص المخزن. وبالطبع فإن هذا الجواب لم يكن مقبولا" (84). ونظرا لعدم استجابة الباشا لمطالب السكان، فإن جماعة منهم، تختلف الروايات في تقدير عدد أفرادها (85)، ذهبت إلى أوراش الميناء وأخذت تضع الأحجار في طريق القاطرة التي استأنفت عملها بعد الظهر. ثم حدثت إثر ذلك المشاجرة التي قتل فيها العمال الأجانب التسعة.

إن الروايات لا تفيدنا حول من بدأ الأعمال العدائية، ولا كيف حدث القتل بالتفصيل، ولكنها تشير إلى أن القاطرة وهي عائدة من المحجر، توقفت عند كومة من الأحجار، ولما حاول عامل إزالة الأحجار، نشب شجار، قتل خلاله عامل، وميكانيكي القاطرة المسمى "Rata" "راطا" وفي الوقت نفسه، انتهت المشاجرة بالمحجر، بقتل عدد من العمال الأجانب على رأسهم رئيس الورش، المسمى "Mace" الذي تصدى للمغاربة بسكين (86).

وتؤكد روايات أخرى أن عمل القتل، بدأ في المحجر على يد أشخاص كانوا يتجولون هناك. وعندما كانت القاطرة عائدة نحو الميناء، "توقفت أمام كتل الأحجار الموضوعة فوق السكة. ولما أوقف الميكانيكي الآلة أحاط به الأهالي حالا، وضربه أولا السائق المغربي ورماه إلى الأرض مظهرا تضامنه مع مواطنيه" (87). إن هذه الرواية تشير إلى عنصر هام في الموضوع، وهو تدخل عامل مغربي، ومشاركته في قتل رئيسه. فما هي حقيقة موقف المستخدمين المغاربة في أوراش الميناء، وهل عملية القتل أصابت الأجانب فقط؟

إن ابن الأعرج، عندما كان يتحدث عن مقتل موشان بمراكش، أضاف قائلا "وفي تلك الأثناء وقعت حادثة أخرى بالدار البيضاء. وذلك أن خدمة المرسى بها، وقعت بينهم فتنة، هلك فيها بضعة أنفار بين أروباويين ووطنيين" (88). إن الكاتب هنا يشير - إذن - إلى حدوث فتنة أو شجار - كما ذكرنا - ويشير إلى هلاك "أنفار بين أورباويين ووطنيين"، وهذا الأمر لم تعرج عليه الرواية الفرنسية الرسمية

وتجاهلته بالمرة. والواقع أن هناك إشارات، تؤكد بما لا يدع مجالا للشك، أن ضحايا يوم 30 يوليوز، لم يكونوا أجانب فحسب، الأمر الذي ردد كثيرا. كما أن عمل القتل لم يقم به سكان بدويون متعصبون "متوحشون" - حسب اتهام سان أولير St Aulaire- وإنما شارك فيه كذلك مستخدمو "الكمبانية" الفرنسية من المغاربة الذين سقط من بينهم ضحايا. ويتضح هذا مما ذكره كونجو(82) الذي أورد حادث القتل هكذا "هاجمت جماعة من فرسان القبائل، يساعدها بعض الحضريين، القاطرة التي كانت تسير في الطريق الرابطة بين المحجر والميناء. وقد بادر مساعد مغربي بالضربة الأولى للميكانيكي "راطا لازار" Rata Lazar الذي أجهز عليه الجمهور وقد قتل المكلف بالتشحيم المغربي عندما حاول الدفاع عن رئيسه" وقال Brunet (90)، وهو طبيب عسكري وصل الدار البيضاء في 1 غشت "نزل السائق الأهلي ابن غازي ليزيل الأحجار من السكة" ولم يذكر ماذا حصل له بعد ذلك، أو ماذا فعل. إلا أن "هويل" (91) أشار إلى أن أحجارا "وضعت... وقتل عامل حاول إزالتها"

ومهما يكن، فإن الروايات السابقة تؤكد أن الشجار حدث بالفعل، وإن المستخدمين المغاربة شاركوا فيه، وإن عاملا منهم على الأقل قد قتل بجانب العمال الأجانب التسعة، (3 فرنسيين و 3 إسبانيين و 3 إيطاليين).

رابعا الحالة بالدار البيضاء بعد حادث 30 يوليوز

عقب حادث 30 يوليوز، سيطر زعماء الانتفاضة على الوضع بالمدينة (92). وقد طرد المراقب الفرنسي من "الديوانة" وطلب من الجالية الفرنسية مغادرة المدينة، فالتجأت للسفن الراسية بالمرسى. وأخبر الزعماء المذكورون إخوانهم بالشاوية بما حصل للفرنسيين قائلين "فقد قضى الله أمرا كان مفعولا على يد بعد [بعض] الإسلام، وقتلوا أصحاب البابور تسعة وفسد عمله كله، وخرج الكافر منها الذي بالمرسة وكذلك دائرة الفرنصيص كلها" (93).

وقد مر جلاء الفرنسيين دون تهديد ودون رعب، حيث كان فرسان القبائل يؤطرون ركوبهم (94). على عكس ما حاولت الروايات الفرنسية إثباته(95). بل تجدر الإشارة إلى أن قائد المرسى، صاحب الجالية الفرنسية من القنصلية إلى باب المرسى، وأنه قام بواجبه أحسن قيام في إبعاد الجمهور عن الملتجئين إلى السفن(96). لقد أمر الفرنسيون بالخروج من المدينة، وتمكنوا من الالتجاء للسفن الراسية دون أن يصابوا بمكروه، على الرغم من أن الجمهور كان يراقب جلاءهم.

كما كان أجانب آخرون يراقبون ذلك الجلاء دون أي تأثر أو أسف، لأنهم يعرفون أسباب معاداة المغاربة للجالية الفرنسية(97).

وهكذا يتأكد لنا أن زعماء الانتفاضة، لم يمنعوا الفرنسيين من اللجوء للسفن، بالرغم من أنهم كانوا يمانعون في خروج غيرهم كالانجليز مثلا(98). أما الألمان فلم يحرك لهم ساكن، لأنهم كانوا بعيدين عن الخلاف بين المغاربة والفرنسيين، بل كانوا يتظاهرون بصداقتهم للمغاربة. ويظهر أن منع خروج الانجليز كان احتياطا من أن يظن بالمغاربة العداء لجميع الأجانب دون مبرر، واحتياطا من إقدام الفرنسيين على قنبلة المدينة.

وعلى الرغم من وصول البارجة الحربية الفرنسية "كاليلي" Galilee يوم 1 غشت 1907 (99)، وعلى الرغم مما اتخذه قائدها من إجراءات عدائية (100)، فإن الهدوء ظل شاملا، والحياة العادية اتخذت مجراها الطبيعي. كما قام باشا المدينة بعدة إجراءات فوزع الجنود لحراسة القنصليات الأجنبية وخاصة قنصلية فرنسا، ووضع ثلاثة مراكز لحراسة الطريق بين هذه القنصليات وباب المرسى. وأصدر المخزن تعليماته لعمال المراسي بأخذ الحيطة والحذر، وحماية الأجانب من ردود فعل السكان، وإن كانت المصادر الفرنسية التي عودتنا على أن كل شيء يأتي من المبادرة الأجنبية، لا تتردد في القول بأن قناصل فرنسا قاموا على ساق الجد للحفاظ على الأمن بالموانئ الأخرى (101). والواقع أن قناصل فرنسا بالصويرة والجديدة والرباط، هم الذين نشطوا في اختلاق إشاعات انعدام الأمن، ليمهدوا للتدخل المسلح، وليدفعوا بحكومة بلادهم إلى اتخاذ إجراءات عسكرية ضد المغاربة.

وقد أكد "هويل" (102)، الذي وصل إلى الدار البيضاء يوم 2 غشت كمراسل لجريدة La dêpcche marocaine، حقيقة عودة الحياة لمجراها الطبيعي بالدار البيضاء، حيث ذكر أنه تجول بالمدينة، فلم يثر انتباه أحد من المارة، كما زار الملاح وقال انه وجده مليئا بالحياة رغم هجرة بعض سكانه. ولاحظ أن الأزقة مملوءة بتجار الخضر والجزارة، وأن كل الحوانيت مفتوحة وفي "حي التناكر المخصص للمغاربة وجدنا - يضيف هويل - الحركة أكثر حيوية من أحياء الوسط.." ووصف هذا الحي الشعبي، وأثار انتباهه قرع أجراس السقائين، وهم ينتقلون بين الحوانيت. إن هذه المدينة الآمنة، وهذا الحي الشعبي التناكر، الذي كانت غالبية مساكنه من الأكواخ المبنية بالقصب، المغطاة بالتبن، والذي كان يحتوي كذلك على دور جميلة، وتسكنه آلاف الأسر الصغيرة، ويملأ أطفالها أزقته بالضجيج والحياة،

هو الذي سيتعرض فجر يوم 5 غشت لجحيم قنابل "الملينيت" Milinite المحرقة، ويخرب فوق رؤوس ساكنيه.

خامسا موقف القبائل بعد حادث 30 يوليوز:

لا نتوفر على المعطيات الكافية لتحليل موقف قبائل الشاوية بعد حادث يوم 30 يوليوز مباشرة، ولذلك فسنحاول، اعتمادا على بعض الأخبار، إبراز الموقف الذي اتخذته القبائل دون تفصيل كثير. فقد أشار "مارتان"(103) إلى أن اجتماعا عقد بسيدي علي بن مومن يوم 30 يوليوز (أي يوم وقوع الحادث نفسه)، وحضر هذا الاجتماع أولاد سعيد والمزاب والمزامزة وأولاد بنداوود ثم أولاد بوزيري، وخطب فيه عدة خطباء من أصدقاء البوعزاوي. الذي كان لا زال بفاس. ثم افترق الجمع بعد الاتفاق على اللقاء تحت أسوار الدار البيضاء" ويظهر أن خبر قتل العمال الفرنسيين انتشر بسرعة بين القبائل منذ 31 يوليوز حيث "كان محرضون ومبعوثون من أولاد بورزق يزورون القبائل، ويشيرون الى احتمال تدخل مسلح للنصارى، ويدعون السكان إلى المقاومة والجهاد"(104). وتطلعنا رسالة، موجهة إلى قبيلة أولاد حريز، على جانب من التحركات التي شهدتها الشاوية عقب الحادث، وهذا نص الرسالة المذكورة التي كتبت في 31 يوليوز (105)

"الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله

إخواننا قبيلة أولاد حريز كافة، رعاكم الله وسلام عليكم، ورحمة الله وبركاته عن خير مولانا نصره الله وبعد. فغير خاف عليكم اننا كنا تشوفنا لما ظهر وبان بثغر الدارالبيضاء [...] من جعل بابور البر فيها، ونزول الرومي بمرستها كذلك. فقد قضى الله أمرا كان مفعولا على يد بعد [كذا] الإسلام. وقتلوا أصحاب البابور تسعة وفسد عمله كله، وخرج الكافر منها الذي كان بالمرسة، وكذلك دائرة الفرنصيص كلها. وتجمع من حضر من قبيلة الشاوية وجعل الرفود على الثغر المذكور، وغير ذلك من الطرقات والصادر والوارد في قبيلة الشاوية كلها.

وتعين إعلامكم لتكونوا على بال، وتتلاقوا مع بعضكم بعضا، وتعلموا جواركم من إخواننا أولاد بورزك بأن يكونوا ببال. وتقدموا للجمع يوم الإثنين الآتية في أصبيح [كذا] ليقع الرفود بين القبائل، وتبرحوا في الأسواق، وتكونوا على بال، بحيث إذا ظهر شيء في البحر تكونوا فيه يدا واحدة. ومن وقع شيء في أرضه، يحرق دوائره [كذا] وأن الشاوية وما أضيف إليها يدا واحدة. وبه الاعلام وعلى الإخوة والسلام، في 20 جمادى الثانية عام 1325،"

"أعيان قبيلة الشاوية كافة أمنهم الله".

في الهامش "وتوجهوا هذه إلى إخواننا أولاد بورزك بعينها"

إن هذه الرسالة التي تخبر كافة قبيلة أولاد حريز، بنتيجة ما حصل إثر جلوس المراقب الفرنسي مع الأمناء المغاربة بالديوانة، وإثر استخدام القاطرة، لا يعرف مصدرها بالضبط، وبالرغم من أنها موقعة من طرف "أعيان قبيلة الشاوية كافة"، فهي في الواقع ليست كذلك. إن أعيان الشاوية كافة هم أعيان جميع قبائل الشاوية، وهؤلاء لم يكونوا في اجتماع عام. وواضح أن كاتبي الرسالة هم بعض أعيان الشاوية، وخاصة القاطنين بالدار البيضاء، كولد الحاج حمو والحاج الحسين الزياني وعبد السلام بن الدوح وغيرهم(106)، بالإضافة إلى بعض أعيان القبائل الأخرى كمديونة وزناتة وأولاد زيان المجاورين للمدينة، الذين وجدوا فيها أثناء وقوع الحادث. وقد يكون هؤلاء الأعيان من مديونة وأولاد زيان فقط. أي الذين حضروا اجتماع يوم الأحد 28 يوليوز بأولاد حريز، والمسؤولون عن حادث 30 يوليوز. وعلى أي حال فعبارة "أعيان قبيلة الشاوية كافة"، لا تعني أن كل الأعيان حضروا بالفعل اجتماعا معينا وكتبوا هذه الرسالة، لأن الرسالة نفسها تدعو لمثل هذا الاجتماع يوم الاثنين 5 غشت. كما يفهم من الرسالة نفسها أن الذين حضروا، ليسوا كل الأعيان وإنما "تجمع من حضر من قبيلة الشاوية" في الدار البيضاء.

ويلاحظ أن الأعيان الذين حضروا الاجتماع، وغيرهم، كانوا ينتظرون ردود فعل الفرنسيين. فقد بينت الأحداث أنهم استغلوا مقتل موشان لاحتلال وجدة، ولا شك أن مقتل 9 عمال، سيستغل لمحاولة الهجوم من البحر على الدار البيضاء والشاوية. وتحسبا لذلك، كان لابد من الاستعداد، ولن يكون هناك استعداد حتى يحصل الاتفاق بين جميع قبائل الشاوية على إزالة الخلافات الهامشية، وأسبابها لتكون وجهة الجميع واحدة وهي الدفاع عن الأرض ضد التدخل الأجنبي. إن الدعوة إلى "الرفود" أي لتبادل الضمانات بين القبائل على حفظ الأمن، تعني أن بعض الخلافات كانت لازالت موجودة بين فرق الشاوية. كما أن عقاب بعض الجرائم بحرق "الخيمة" أو "الدوار" يعني أن القتل كان مستبعدا كعقاب. وكذلك الاحتكام إلى السيف، بل كان الالتجاء إلى التحكيم هو السائد وهذا الاستنتاج يعزز ما سبق أن نفيناه عن الشاوية من فوضى شاملة.

كما أن الاخبار بخروج "دائرة الفرنصيص"، يؤيد ما ذكرناه من أن الفرنسيين كانوا هم المعنيين، وأن الجالية الفرنسية هي التي استهدفت يوم 30 يوليوز. وعلى الرغم من محاولة الفرنسيين جعل الخلاف بين المغاربة والأروبيين

جميعا، لتبرير تدخلهم أمام الرأي العام الأروبي فإن ما اتخذوه من إجراءات عدائية ضد المغرب، يؤكد بشكل جلي أنهم كانوا يعلمون حقيقة الموقف "الوطني المعادي لأطماعهم الاستعمارية.

سادسا كيف استغل الفرنسيون حادث 30 يوليوز.

الملاحظ أن حادث مقتل 9 عمال أجانب، قد شوه تشويها، وحرف كثيرا من طرف الدبلوماسية الفرنسية(107). ويظهر أن المكلفين بالمفوضية الفرنسية كانوا ينتظرون فرصة يتيحها حادث مماثل، ليشنوا على المغرب حملة دعائية حاقدة، هدفها قلب الحقائق وتبرير ما سيتخذ من إجراءات عدائية، كما يبدو أن الكتاب الفرنسيين بما فيهم الأكاديميون المحدثون الذين اهتموا بتاريخ المغرب، تقبلوا أكاذيب المكلف بالأشغال الفرنسي بطنجة ودونوها كل على حسب هواه(108).

وهكذا، فحالما توصلت المفوضية الفرنسية بخبر الحادث، يوم 30 يوليوز 1907، عمد المكلف بأشغالها "سان أولير" St Aulaire، وكان ينوب عن الوزير الفرنسي رينيو Regnault، الذي كان في عطلة بباريز عمد إلى سلسلة من الأكاذيب المتعمدة، كان يهدف من ورائها إلى دفع الحكومة الفرنسية إلى القيام بإجراءات عسكرية، وانتهاز الفرصة التي طالما انتظرتها الأوساط الاستعمارية الطامعة في المغرب. ولسنا في حاجة إلى بذل الجهد لإبراز هذه الحقيقة، فقد كفانا "أولير" نفسه توضيحها، إذ كتب في مذكراته التي نشرها بعد الحادث بـ 43 سنة يقول "كنت إذن مهيأ لمواجهته (الحادث) بواسطة "سناريو" اتفقت عليه مسبقا مع رينيو وهو الانتقام السريع، إذا كانت عندنا الوسيلة دون المطالبة بتعليمات [من باريز] إذا لم تبعد العمل فإنها تعرضه للفشل بتأخيره. ثم نقلل من عواقب عملية مضادة للوضعية الدولية للمغرب إلى أدنى حد، بجعلها شرعية عن طريق أخذ موافقة الحكومة المغربية..."(109).

وقد استدعى "أولير" قائد البارجة Galilee "كاليلي" التي كانت بالمياه المغربية، وزوده بتعليمات منها - حسب رواية أولير نفسه - أنه أمره بأن لا يتردد في "قنبلة المدينة"(110).

وهكذا يعتبر هذا المتآمر العريق، الذي وضعته الأوساط الاستعمارية بطنجة لينفذ أوامرها، على رأس الذين يتحملون مسؤولية كارثة هدم الدار البيضاء. ولو أن "أندري آدم" استبعد رواية أولير هذه لأن هذا "النثر الفروسي للذكريات - في نظر آدم - يغرق الكل في نوع من التآمر الوطني، ويتوج بالنجاح دبلوماسيين وبحارة مقابل جبن الحكومة"(111).

لا ندري لماذا يحاول هذا الأكاديمي أن يستبعد رواية أولير مع أن القرائن تؤيدها وإجراءات الرجل تؤكدها

فقد أبرق لباريز بأخبار الحادث مشوهة ومحرفة يقول "ان عددا من الأروبيين جرحوا، في وسط الأحداث التي تسببت في مقتل 5 من مواطنينا الذين أهينوا من طرف الجمهور، الذي بعد أن أبدى ضراوة نحو جثثهم، رمي بها في البحر"(112). وفي هذه البرقية يرجع "سان أولير" سبب ما حدث إلى رؤية المغاربة للقاطرة، ويقول بأنه دعا مراسلي الصحف الفرنسية إلى عدم الإلحاح على مسألة المراقبة بالديوانة، لكي يمكن مقاومة الأوساط المضادة للفرنسيين، التي تبالغ في قضية المراقبة، وهو إجراء فرنسي خاص. وهكذا نفهم لماذا تجاهلت الصحف الاستعمارية حقيقة المشاعر الوطنية للمغاربة، المضادة لجلوس موظفين فرنسيين بجانب الأمناء، وركزت على مسألة القطار الصغير وأشغال الميناء، لتظهر المغاربة في صورة معارضين لكل إصلاح وكل تجديد، وتبرهن على تخلفهم "وتوحشهم" كما تتضح لنا أسباب الروايات المتهافتة والمتحاملة التي روجها كتاب المناسبات ومراسلوا الصحف الذين تعرضوا لأحداث الشاوية(113). وبعد أن أشار "سان أولير" في برقيته السابقة إلى احتمال عودة الأمن واستتباب النظام بالدارالبيضاء ـ وهو ما حدث فعلا ـ نتيجة لإجراءات المخزن، نبه إلى أن ذلك غير كاف، وأردف قائلا "والنفرض أن الأمن عاد تلقائيا أو نتيجة لتدخل المخزن، فإن هذا التدخل لا يكفي لضمان العقوبات الضرورية، ولتجنب التشجيعات التي يحدثها في مناطق أخرى عدم العقاب"(114). وفي الأخير أخبر الوزير أنه أمر قائد "كليلي" بالتوجه حالا للدار البيضاء، "وقد طلبت منه ـ يضيف أولير ـ أن يتحلى بالحذر ويتفق مع ممثلنا نظرا لضعف وسائلنا" ويرى آدم أن هذه التعليمات كانت "متريثة وحكيمة"، وتتعارض مع ما ذكره أولير من تآمره مع "رينيو"، وأنها تجعل المرء يحاكم قائد "كاليلي" بقسوة، في حين أن ما قاله "أولير" عن اتفاقه مع "رينيو" يغرق الكل في التآمر ولا يمكن قبوله.

ولكننا نلاحظ، أن كل ما أورده "أولير" لا يتعارض أبدا مع ما جاء في مذكراته. فالتعليمات بالتدخل المسلح واضحة. ولكن نظرا لكون البارجة كانت وحيدة. فالانتظار والتريّث والحذر، كلها أمور ضرورية، ريثما تصل سفن حربية أخرى استدعيت على عجل، وأمر قائد كاليلي أن يتصل بها ويتعاون معها. وسنرى أن هذه التعليمات هي التي طبقت.

فبالرغم من وصول البارجة الفرنسية للدار البيضاء يوم 1 غشت، فإن القنبلة لم تحدث إلا في 5 غشت بعد أن اتخذت جميع الاحتياطات وبعد أن اقترب وصول البوارج الأخرى. ثم إننا لسنا في حاجة لمحاكمة تنافس الفرنسيين على تحقيق المطامع الاستعمارية لبلادهم، من هو السابق ومن هو اللاحق، لأن هذا معناه الانحراف عن الهدف، وهو إبراز الحقيقة التاريخية المجردة. وبدل البحث أكان أولير متآمرا ومسؤولا عما حدث أم لا، يجب أن نبحث أولا، في من سعى لتعيينه بطنجة؟ ومن عين رينيو Regnault كذلك؟ ثم من أعطى التعليمات لقائد البارجة التي توجهت للدار البيضاء وهو قائد عسكري؟ وأخيرا من اقترح تعيين قائد الأسطول الذي كلف بإنزال القوات الفرنسية بالدار البيضاء بعد ذلك ؟ (115).

في الواقع لقد اجتهد أولير لكي يكون الدرس قاسيا، والإرهاب كافيا. ولذلك تآمر مع قائد كاليلي على ارتكاب جريمة تسرع بالأحداث وتورط الجميع. وذاك ما كان يرغب فيه الحزب الاستعماري.

ولقد حث أولير في برقية أخرى (116)، وزير الخارجية على الاسراع باحتلال الدار البيضاء، لأن فرنسا هي المعنية ـ حسب زعمه ـ ولأن الفرنسيين هم الذين استهدفوا يوم 30 يوليوز، ولذلك "لا ينبغي أن نتأخر ـ يقول أولير ـ ويجب أن يقوم تعاون بين الأسطول وبين الجيش الفرنسي بالجزائر لاحتلال الدار البيضاء." كما اقترح المطالب التي ينبغي أن تقدم للمخزن. فزيادة على المطالبة بالتعويضات يجب المطالبة بـ

1. إعدام المسؤولين الرئيسيين عن الحادث.
2. عزل الباشا وخليفته بعد القيام ببحث يقوم به الفرنسيون.
3. عزل الصدر "الذي يقوم بوظيفة وزير الداخلية والمسؤول عن إبقاء باشا الدار البيضاء في منصبه"

"إن هذا المطلب الأخير ـ يقول أولير ـ ليس صعب التحقيق كغيره من المطالب، وستكون له نتيجة هامة جدا، ذلك أنه سيضع المخزن بين أيدينا مدة طويلة.." (117).

هكذا يلح أولير على الشروع في احتلال المغرب انطلاقا من الدار البيضاء، ويلح على معاقبة المغاربة رعية ومسؤولين، بهدف إعطائهم درسا في ما يمكن أن تقوم به فرنسا، حتى لا يقاوموا أي تدخل فرنسي في الشؤون المغربية، وحتى تزداد هيبة فرنسا لدى المخزن فيخضع لرغباتها. و سنرى أن هذه العقيلة هي

التي كانت وراء كارثة الدار البيضاء. وفي الوقت الذي كانت فيه المفوضية الفرنسية توالي برقياتها للحث على احتلال الدار البيضاء، كان رئيسها "رينيو" بباريز يجمع التأييد لمطالب المكلف بالأشغال ويصدق على أكاذيبه، بتأييد ودفع من أقطاب الحزب الاستعماري النشيطين. فقد اجتمع أقطاب الاستعمار في وزارة الخارجية في 2 غشت، واتفقوا على عمل سريع بالدار البيضاء(118). وكتب وزير الخارجية لرئيس الوزراء كليمنصو Clemenceau يخبره بما تقرر(119).

ولتلوين هذا التدخل العسكري الفرنسي بصبغة دولية، عملت فرنسا على جر إسبانيا وراءها. فقد كتب بيشون Pichon إلى سفير فرنسا بمدريد(120)، يطلعه على الإجراءات المتخذة التي تتلخص في النقط الآتية

1. بعث سفن حربية من أسطول الشمال بقيادة الأميرال فيليبير Philibert إلى الجزائر لحمل قوات التدخل في الدار البيضاء.

2. تعيين فريق لقيادة هذه القوات نظرا لأهميتها وتحسبا لأي مفاجأة وهو الجنرال درود Drude. وتحديد مهمته في احتلال المدينة والنواحي المجاورة. وفي "تثبيت النظام وحفظ الأمن وحماية الرعايا الأجانب"

3. تنظيم البوليس بالمدينة بقيادة مانجان Mangin.

4. معاقبة القبائل المجاورة للدار البيضاء "المسؤولة عن الاضطرابات" وعن "حوادث القتل"

كما أمر وزير الخارجية السفير باطلاع الحكومة الإسبانية فورا على أن "الحكومة الفرنسية تعتمد على مشاركة إسبانية منذ البداية"، أي القيام بإنزال مشترك، وبعمليات عسكرية مشتركة ضد المغاربة، والمساهمة في تنظيم البوليس. وهكذا نجحت مؤامرة الأوساط الاستعمارية، في دفع الحكومة الفرنسية إلى تنظيم حملة عسكرية لاحتلال الدار البيضاء والمنطقة المجاورة، بالرغم من المعارضة التي كان يتزعمها الاشتراكيون في البرلمان بزعامة جان جوريس J. Jaures (121).

ومن المهازل التي التجأ إليها سان أولير، في تآمره ضد المغرب الدعاية الكاذبة لما سماه بـ"اتحاد الشغالين الفرنسيين" بالمغرب. فقد سعى هذا الاستعماري إلى عقد اجتماع مع بعض الفرنسيين، وأملي رسالة بعثها لوزير الخارجية في 3 غشت ادعى فيها أن "الجالية الفرنسية المجتمعة يوم السبت 3 غشت، قررت بالاجماع إرسال أحر تعازيها لعائلات العمال الإيطاليين

والإسبانيين والفرنسيين ضحايا التعصب المغربي"! وتمنى في تلك الرسالة أن تقوم فرنسا بعقاب صارم في عين المكان الذي قتل فيه العمال حالا (122) !

وفي 4 غشت، أصدر وزير الخارجية الفرنسية، تعليماته لسفراء فرنسا، ليخبروا الحكومات الأجنبية، بأن الحكومة الفرنسية قررت إرسال قوة بحرية وقوات إنزال إلى الدار البيضاء قوامها 3000 رجل. وأنها طلبت من إسبانيا أن ترسل بدورها قوات للدارالبيضاء. وعن هدف تلك القوات جاء في برقية الوزير "أن القوات التي ستنزل ستحتل المدينة وضواحيها، وتعيد النظام والأمن، وتضمن حماية الرعايا الأجانب"، وسينظم البوليس بالمدينة(123). هذه هي اللغة التي كان على الفرنسيين أن يتكلموا بها مع الرأي العام الدولي لإخفاء نواياهم. فما هي اللغة التي استعملوها في خطابهم مع المخزن؟

موقف المخزن لقد كان الفرنسيون يحسبون الحساب لأي معارضة يبديها المخزن، لا لأن هذا الأخير كانت تخشى قوته، بل لأن أي معارضة منه، يمكن أن تفضح ادعاءهم التعاون مع السلطان لتنظيم البوليس. ونظرا لذلك كان الفرنسيون يعرفون كيف يؤثرون في حكومة تكبلها أزمة مالية مزمنة. وكان أعضاء المخزن والسلطان، يجتهدون في تجنب كل خلاف، مع فرنسا، قد يعرقل حل مسألة وجدة، ويشفقون على أنفسهم من تحمل مسؤولية حوادث جديدة، يمكن أن تستغل لمزيد من الإبتزاز والاحتلال لأطراف البلاد. إن هذه العقلية المسالمة، هي ما كان يحتاجه أمثال سان أولير، لترتيب شريطه التآمري، وما كانت تحتاجه الأوساط الاستعمارية، لتزكية تدخلها العسكري ومنحه صفة الشرعية.

وهكذا لم يقتنع الفرنسيون، بما أبداه المخزن من استعداد لإعطائهم جميع الترضيات اللازمة فقد جاء في رسالة من المكلف بالقنصلية الفرنسية بفاس مؤرخة بـ 4 غشت، أرسلها إلى سان أولير، يخبره فيها، بأن المخزن تلقى خبر حادث البيضاء، الذي لا زال لم يعرف إلا من طرف بعض الشخصيات. وأن وزير الخارجية المغربي صرح له، بأن السلطان يأسف للحادث، وأنه لا يقبل مثل ذلك التصرف، وهو "مستعد لإعطاء جميع الترضيات الضرورية للحكومة ولعائلات القتلى"، وأن باشا المدينة سيعزل ويستبدل بآخر أكثر قدرة على حفظ الأمن. وبأن أوامر سلطانية أعطيت للنائب بطنجة لإرسال قوة للدار البيضاء، للقضاء على الاضطراب وحماية الأجانب. وأن أوامر أخرى ستعطى لقواد القبائل لإلقاء القبض على المسؤولين عن الحادث. وان جلالة السلطان يأمل أن "تقدر الحكومة الفرنسية هذه الإجراءات الفورية"(124).

على الرغم من هذا الموقف، الذي تحمل فيه المخزن مسؤولية حادث 30 يوليوز، وقبل القيام بالإجراءات المفروضة عليه، فإن وزير خارجية فرنسا أصدر تعليماته للمكلف بالأشغال بطنجة، ليتدخل لدى المخزن، من أجل دفعه للموافقة على التدخل الفرنسي المسلح بالدار البيضاء. وإصدار أوامره للقواد والعمال لتسهيل ذلك التدخل ! كما أمره في الوقت نفسه، أن يطالب المخزن بتنفيذ جميع مطالب الحكومة الفرنسية، التي قدمتها بعد حادث موشان(125). وقد نصح الوزير المكلف بالأشغال، أن تأتي هذه المطالب، بعد مؤاخذة المخزن واتهامه بعداوة الفرنسيين، ويتواطؤ موظفيه. وما ينبغي الإشارة إليه، هو أن الوزير نصح سان أولير، بأن لا يتدخل لدى المخزن، ويطلب موافقته، إلا بعد "حدوث الأمر الواقع"، أي بعد حدوث التدخل المسلح في الدار البيضاء (126) !

هوامش الفصل التاسع

1) - قارن ما كتبه مثلا عبد الرحمان بن زيدان، الاتحاف الجزء الأول، ص 421-424.

2) - DD.F. Af., M. 1906-1907

3) - عن علاقة انفلوس بالأجانب في الصويرة وما أثارته معارضته للتسرب الأجنبي بالمنطقة يراجع

- كناش المكاتب الموجهة للحضرة الشريفة، خ ع، ك 2720، ص 176-177.

- نهليل، لوحة، CXI

A. E. P, M. N. S; T 186.

4) - D. D.F. Af. M. 1907, Regnault à Pichon, II Février 1907.

5) R. M. M., Juin Juillet, 1907 P 574.

6) D. D. F. Af. M. 1907, P. 181, N° 202.

7) - نفسه

8) - مكرر مرجع هامش (4).

9) - الطريس لابن سليمان، 27 صفر 1325 / 11 أبريل 1907، ك 2720 ص 292.

10) - 5 ربيع الأول 1325 / 18 أبريل 1907، ك 2720 ص 296.

11) - A. M. V., BB4 2602, Commandant du Forbin au ministre de la marine, 20 Avril 1907.

12) - الطريس لابن سليمان، 7 ربيع الأول 1325 / 20 أبريل 1907، خ ح ك 2720، ص 297.

13) الطريس لابن سليمان، 21 ربيع الأول 1325 / 4 ماي 1907، نفس المرجع ص 306

14) A. Adam, Histoire de Casablanca des origines à 1914, éditions P 14 ophyrys, Aix en provence, 1968, PP. 103-135.

15) - Georges Bourdon, " Ce que j'ai vu au Maroc, les journées de casablanca", Paris, 1908.

16) Houel Christain, " Mes aventures marocaines", Casablanca, 1954,

17) - بوردون ص 4.

18) - نفسه.

19) - نفس المصدر، ص 5.

20) - أسفله ص 202.

21) - بوردون، ص 7.

22) - عن الرجلين راجع الفصل الحادي عشر.

23) - بوردون ص 10.

24) - أندري آدم، المرجع المذكور، ص 107-108.

25) - نفسه وكذلك

CF, Grasset, "A travers la chaouia (1907-1908)". paris, 1909, PP 10-11.

H. Terrasse, Histoire du maroc, T 2, P. 392.
S. Aulaire, op. cit., p. 177.

26) - H. Terrasse, 2, P. 392.

27) H. Cambon, Histoire du maroc, paris, 1952. P 184 et suite.

28) - ك خ ح، رقم 777، ص 8.

29) - أندري آدم، ص 105.

30) - 4 شوال 1324 / 21 نوفمبر 1906، ك خ ع، ك 2720، ص 211.

Pierre Guillen; les milieux d'Affaires Français et le maroc à l'aube du XX,s. La fondation de la compagnie marocaine, R.H.T CCXXIX, 1963, P, 3T3 et suite.

32) - الطريس إلى أمين الأمناء، 10 شوال 1324 / 27 نوفمبر 1906.

33) - مدير الشركة المغربية هو Gaston de Caquery

34) - من الطريس إلى محمد التازي، 25 حجة 1324 / 9 فبراير 1907، ك خ ع، ك 2720.

35) - نفس الرسالة

36) - A. Adam, Histoire, P, 105.

37) - C. Houel, op, cit. P. II.

(38 R. Rankin, Au Maroc avec le général D'AMADE, 3eme éd. Paris 1909, P. 5.

(39 H. Cambon, op cit, P. 184.

(40 - عن سياسة فرنسا ودسائسها وسوء سيرة الفرنسيين تجاه المغاربة، ومقاومة هؤلاء للفرنسيين والإسبان دون غيرهم، يراجع المقال الهام الذي نقلته جريدة بروكسيل "Etoile Belge" في عددها 148 بتاريخ 5 غشت 1907، وفيه قارنت بين تصرف الفرنسيين وتصرف المغاربة ومما جاء فيه "أن المغربي لا يحب الفرنسي، لأنه يرى فيه غازيا وشخصا غير جدير بالاحترام"

A. E. P. M.NS. 43, Coupure de l'Etoile Belge. 5 Aout 1907.

(41 A. E. P. M.NS. 46, P. 224.

(42 - أنظر عنه فصل نتائج الحادثة.

(43 - Houel op. p.11

(44 - عبد الهادي بناني، "الدرر البهية في مدح رجال الشاوية" قارن كذلك، مرجع هامش 40.

(45 - ك خ ح، رقم 773

(46 - ك خ ح، رقم 777

(46 مكرر) - الكناش نفسه، ص 8.

(47 - نفس الكناش.

(47 مكرر) - أعلاه الفصل الثاني.

(48 - مولاي عبد العزيز إلى عبد الرحمان برگاش 10 جمادى الأولى 1325 / 21 يونيو 1907، نهليل، لوحة CXV (115).

(49 - محمد الطريس للسلطان / 29 جمادى الأولى 1325 / 10 يوليوز 1907، ك خ ع، ص

(50 - Victor Berti, Les événements de Casablanca, France outre mer (A. Sept), 1953, P. 16-18.

(51 A.G.P. Martin, Quatre siecles d'histoire Marocaine, op, cit, P. 439.

(52 A.E.P, M. NS, 43, Leriche à S. Aulaire, 24 - 7 1907.

(53 - اشتهر لاريش بعداوته للمغاربة وتطاوله وعجرفته على المسؤولين بالرباط وسلا.

54) - Germain Ayache, Etudes d'histoire Marocaine, 1979, P. 195-197.

55) - سيدي محمد بن عبد الرحمان.

56) - السلطان مولاي الحسن.

57) - مولاي عبد العزيز إلى عبد الرحمان بركاش 25 جمادى الثانية 1325 / 5 غشت 1905 نهليل، لوحة CXVI.

58) - مولاي عبد العزيز إلى قواد وأعيان وأشياخ وكبراء قبيلة الشياظمة، 29 جمادى الثانية 1325 / 9 غشت 1907، نهليل CXVII.

59) - A.E.P. NS, 43, P. 295.

60) - G. Caqueray, Note pour, l'histoire de casablance et de son port A.F/R.C., 1937, P. 90.

61) - محمد الطريس إلى مولاي عبد العزيز، 29 جمادى الثانية 1325 / 9 غشت 1907، ك خ ع، ك 2720.

62) - G. Bourdon, op. cit, P. 13.

A Adam, op, cit, P. 110.

63) - Martin, op. cit, P. 439.

64) - Maigret, La Journée du 5 Aout 1907, B.P ; Sept 1917, p.4

65) - F.O., 174/253, N° 151, July 30, 1907.

66) - Ibid N° 153, july 30, 1907.

67) - A.E.P.T. 43, Maroc, P. 295.

68) - G. Bourdon, op, cit, P. 19.

69) -

70) - Ernest Vincent, Notes d'un temoin, AF., 1907, P. 335.

71) - Conjeaud, op, cit, P. 43.

72) - F.O. 174/253, N° 156, July 30, 1907.

73) - G. Bourdon, op. cit. P 20.

74) - Victor Berti, op, cit, P. 16.

75) - Adam, op. cit. P. III.

76) - أنظر لائحة المتهمين، في حوادث يوم 30 يوليوز A.E.P. NS Maroc, 195, pp. 75-76

77)- حدثني الشيخ هاشم المعروفي البيضاوي (80 سنة) أن حسين بن محمد الزياني، كان محميا ألمانيا للتاجر "كارل فيكي" Karl Ficke الذي كان عدوا الدا لفرنسا.
ونلاحظ أننا لا نستطيع التأكيد على أن الرجل كان فعلا محميا ألمانيا، لأنه لو كان كذلك لذكرته الروايات الفرنسية كحجة على اتهامها للألمان بالتحريض. ولو كان محميا ألمانيا لما تعرضت أملاكه للمصادرة من طرف المخزن عقب الحادثة، ويظهر أن الرجل كان مثله مثل ولد الحاج حمو من الأعيان المسموعي الكلمة في قبائلهم ومن الزعماء "الوطنيين" الذين دعوا للجهاد ضد الغزو الاستعماري الفرنسي. للشيخ هاشم المذكور اهتمام بتاريخ الدار البيضاء ولذلك فهو يكتب مذكراته عن تاريخ المدينة. (كان لقائي به في صيف 1983). توفي رحمه الله سنة 1987.وفي هذه السنة صدر له كتاب حول تاريخ الدار البيضاء

78) F.O. 174 : 253, N° 153, July 30, 1907. Madden to "Lawther:

79)- مارتان، مرجع مذكور، ص 440.

80) - Villes et tribus, Casablanca et les chauia, I, P. 37.

81)- A.M.V. BB4 2602, P. 459-60, (Kouffemann, 20 Aout 1907)

82) - Houel op. cit. P. 16.

83)- يفهم مما جاء في كتاب "مدن وقبائل المغرب" أن الحلق حدث فعلا

V.T. Casablanca et les chaouia, TI, P. 37.

83 مكرر) - الشيخ هاشم المعروفي.

84) - F.O. 174/253, N° 153, July 30, 1907.

85)- بوردون، م س (150 فرنكا).

"ميكري" م س، ص 3 (050 فرنكا).

86) - هويل، م س، ص 16.

87) - "Casablanca et les Chaouia" T.I. p.37

88) - ابن الأعرج السليماني، "زبدة التاريخ"، الجزء 2، ص 369.

89) - كونجو، م س، ص 42.

90) - Dr Brunet, "A Casablanca : Ier - 7 Aout, Extrait de la revue de Paris, N° de 15 Mars I - 15 Avril 1909, P. 4.

91)- مرجع هامش 86، ص 16.

92) - بوردون، م س، ص 40.

93)- من رسالة موجهة لأولاد حريز، نصها العربي مثبت في كتاب "مدن وقبائل المغرب، الدار البيضاء والشاوية"، الجزء 1. ص 42.

94) - A.E.P. NSM., T. 43, 20 Août 1907.

95) - CF. A. ADAM, P. 114.

96) E. Vincent, "Notes d'un Témoin, AF. 1907, P. 335.

97)- نفس المرجع والصفحة.

98) - F.O. 174-253, N° 154, July 30, 1907.

99)-ولم يصادفها الحال بمرسى المدينة كما ورد - خطأ - عند ابن زيدان وابن الأعرج.

100)- أنظر أسفله ص 292.

101)- مارتان، م س، ص 441.

102)- هويل م س، ص 18-19.

103)- تنظر هامش 101.
ويذكر "كونجو" أن الاجتماع حدث بسيدي علي موسى ص 44.

104)- "الدار البيضاء والشاوية"، جـ 1، ص 40.

105)- أنظر الملاحظة 93.

106)- أنظر عن هؤلاء فصل نتائج الحادثة.

107)- تقارن المراجع والمصادر الآتية

DD. F. Af. M. T III, N° 334, et N° 335.

S.A. Confessions, P. 177.

A.E.P. NS. M, T. 43, P. 3.

W. Harris, Le Maroc disparu, PP. 111/113.

H. Cambon, Histoire, 1952, PP. 184-185.

CH. A. Julien, Histoire de l'afrique du Nord" PP. 733-734.

"Le Maroc face aux imperialismes", PP., 73-74.

A. Tardieu, La coférence d'Algésiras, P. 546.

- ابن زيدان، الاتحاف 1، ص 425.
- محمد غريط، "فواصل الجمان"، ترجمة عبد الكريم بن سليمان.
- ابن الأعرج، زبدة التاريخ، II، 364-365.

108) ـ نفس المرجع السابقة.

109) S. Aulaire, op. cit. P. 177.

110) ـ نفس المرجع والصفحة.

111) A.Adam, Histoire, P, 114.

112) A.E.P. NS Maroc, T. 42, 288, S. Aulaire à Pichon, 31 Juillet 1907.

DD. AF. M. III, 1907, N° 334 - 335.

113) ـ قارن ما كتبه

R. Rankin, op, cit.

R. Kann, Impressions de campagne, Paris.

A. Bernard, Le Maroc, 5ème édition-Paris, 1918.

A. Tardieu, La conférence d'Algésiras" F. Alcan, Paris, 1909.

114) ـ مرجع هامش (112).

115) ـ اعترض "أولير" على تعيين بعض الضباط واقترح آخرين وكان تعيين "فليبير" باقتراح وزير الخارجية الفرنسي. أنظر

A.E.P.M. NS. 43, S. PICHON à Clemenceau, 2 Aout 1907.

116) ـ A.E.P. N5, T. 43, S. Aulaire à Pichon, 2 Aout 1907.

117) ـ Ibid, M. NS, 43, PP. 14-16 (sans date).

118) ـ ضم الاجتماع وزير الخارجية "بيشون" و"رينيو" و"ريفوال" Revoil و "جول كامبون" Jules Cambon و "باريير" Barrere.

119) ـ A.E.P, M. NS, 42. S. Aulaire à Pichon, I Aout 1907.

120) ـ DD.F. AF. M. 111, 1907, N° 350. Pichon à Revoil, 3 Aout 1907.

121) ـ J. Jaures, Contre la guerre du Maroc. Paris 1936.

122) ـ DD. F. Af. M. III, 1907, N° 348 P. 291. (3 Aout).

123) ـ Ibid, N° 356, PP 297 - 8.

124) ـ رسالة القنصل الفرنسي بفاس إلى القائم بالأعمال بطنجة.

A.E.P.M. NS, 43, 4 Aout, 1907.

125) ـ DD. F. Af M. III, 1907 N° 365. Pichon à S. Aulaire 5 Aout 1907.

126) ـ نفس المصدر.

الفصل العاشر

قنبلة الدار البيضاء

5 غشت 1907 - 7 غشت 1907.

1. التهييء للقنبلة

وصلت البارجة الحربيةالفرنسية كاليلي Galilcc للدار البيضاء يوم 1 غشت على الساعة الثامنة صباحا(1). ومنذ وصول هذه الدارعة شرع قائدها في الاستعداد لتنفيذ ما اتفق عليه، هو وسان أولير من القيام بانتقام عنيف يعيد هيبة فرنسا في أعين المغاربة. وقد أبدى أوليفيي Ollivicr رغبته في إنزال بحارة، لاحتلال القنصلية الفرنسية، وبعض القنصليات الأخرى، وفي قنبلة المدينة. لكن المكلف بالقنصلية الفرنسية، طلب منه تأجيل ذلك الإجراء، حتى يأخذ رأي الهيئة القنصلية في الموضوع(2).

ونتأكد من نوايا قائد البارجة، من التقرير الذي كتبه Ollivicr أليفيي نفسه بتاريخ 2 غشت 1907(3). فقد جاء في هذا التقرير أنه استدعي للذهاب إلى الدار البيضاء من طرف المكلف بأشغال المفوضية الفرنسية. وبعد أن كرر الرواية الفرنسية لحادث 30 يوليوز، أظاف قائلا "لقد اتخذت الاستعدادات على ظهر الطراد (Galilcc) لإنزال فرقة مخصصة لاحتلال قنصليتنا وقنصليتان أجنبيتان إذا

رغب في ذلك أصحابها. إن القوات التي أتوفر عليها لا تسمح بأكثر من ذلك. وقد هيأت المدافع لقنبلة الشاطئ، كما غيرت مرسى باخرتين لإفساح مجال رمي مدفعيتنا. وكان على القنصل فور عودته لمقره، وبعد أخبار زملائه بإيواء مواطنيهم في أماكن آمنة أن يعلمني بإشارات اتفقنا عليها، إذا ما كان القائد يقبل هذا الاحتلال، ويضمن حرية مرور رجالنا، وهل يمكن النزول قسرا..." (4).

هكذا نفهم من تقرير قائد "كاليلي"، أن المهمة التي كلفت بها البارجة، هي قنبلة المدينة بعد إنزال بحارة لحماية القنصلية الفرنسية، ولكن بما أن القوة التي كانت تتوفر عليها البارجة، لا تستطيع مواجهة المغاربة إذا حدث النزول عنوة. وبما أن الهيأة القنصلية رفضت النزول في ذلك الوقت بحجة عدم كفاية بحارة "كاليلي"، وخوفا من أن يؤدي ذلك إلى هجوم المغاربة على كل الأروبيين بالمدينة، فقد أجل قائد البارجة تنفيذ قراره (5).

ويفهم من المحضر الذي اتفق عليه القناصل (6)، أن الباشا ابن بوزيد رفض أن يضمن نتائج الإنزال. وقد اشترط عليه نائب القنصل الفرنسي - حسب ما جاء في المحضر المذكور - الشرطين الآتيين

1. أن يقوم الباشا بإخلاء الطريق من القنصلية إلى باب المرسى من المغاربة. وأن لا يمنع من يريد المرور فيه من الفرنسيين.

2. أن تخلى السكة الحديدية من المغاربة كذلك.

مما سبق يظهر أن القائد الفرنسي، أجل النزول نتيجة لرفض الهيأة القنصلية. ولكننا نلاحظ - خاصة وأن النزول قد وقع بعد مرور ثلاثة أيام، ومن البارجة "كاليلي" فقط، أن تأخير إنزال البحارة الفرنسيين، ربما جاء نتيجة لتواجد رجال القبائل بكثرة في المدينة آنذاك. ولأن الفرنسيين تخوفوا من المقاومة التي يمكن أن تواجه الفرقة النازلة. ولذلك انتظروا حتى تتكفل السلطات المغربية نفسها بإبعاد رجال القبائل عن باب المرسى الذي كانوا يحرسونه، وإفساح الطريق بينه وبين القنصلية الفرنسية، حسب الشروط التي اشترطت على باشا المدينة. ولو حدث النزول في تلك الظروف وبكيفية قسرية لواجهته مقاومة عنيفة، ولما تمكنت تلك الفرقة من البحارة التي لم يكن عددها يتعدى 80 من اقتحام باب المرسى. لقد قرر الفرنسيون النزول إذن، ولكنهم أجلوه إلى فرصة ملائمة، ولو توقفوا على موافقة الهيأة القنصلية لما تجاهلوا ذلك الموقف، ونزلوا في فجر يوم الإثنين 5 غشت، كما سنوضح ذلك.

وقد جاء في تقرير "أوليفيي" نفسه، ما يؤكد ما ذهبنا إليه حيث قال "لقد اتفقت مع القنصل بأن يبلغ عند عودته للبر، للقائد من جهتي بأنني قبلت تأجيل النزول مؤقتا ما دام قد أظهر اهتماما بالأمن داخل المدينة، وبأن عليه أن يتمم طرد الرحل ليس من المدينة فقط ولكن من ضواحيها أيضا..."(7).

أليس هذا ما عناه "سان أولير"، بالتريث والحذر؟ لقد كان على قائد البارجة أن يضمن نجاح أي عملية يقدم عليها. ولذلك كان عليه أن يتريث ويحذر (7مكرر). وعلى أي حال، فقد كانت مسألة الشروع في قنبلة المدينة ونزول البحارة الفرنسيين، مسألة وقت واختيار للظرف الملائم. فقد صرح نائب القنصل الفرنسي "للهيأة القنصلية، بأنه قبل هذا العمل الممكن ـ النزول ـ فإنه سيخبر القنصليات الأخرى، بدون أن يجمع القناصل من جديد، ولهذا يرى نفسه مضطرا إلى أن يلتمس من القناصل الآخرين أن يتخذوا إجراءاتهم منذ الآن نظرا لهذا الاحتمال"(8).

ومن جملة الاستعدادات التي أقدم عليها الفرنسيون ـ احتياطا ـ والتي تؤكد نيتهم في التدخل، كما تؤكد تخوفهم من مقاومة المغاربة لأي محاولة إنزال، أنهم أنزلوا عددا من البحارة خفية بين يوم 3 و 4 غشت، على هيئة سواح، وفي ثياب مدنية. كما أنزلت معهم صناديق مليئة بالأسلحة والذخيرة كتب عليها معلبات غذائية(9). وعاد بعض الفرنسيين إلى البر، ليساعدوا البحارة والمدنيين الموجودين بالقنصلية التي هيئت لإطلاق الرصاص على المغاربة في الوقت المعين. ومن الجدير بالإثبات كذلك، زيادة في تأكيد التحليل السابق، أن نية الفرنسيين في القيام بإنزال مبكر للقوات، قد تسربت سرا إلى بعض القناصل يفهم هذا مما جاء في تقرير سري للقنصل البريطاني بالدار البيضاء، مؤرخ بـ 4 غشت أشار فيه إلى أن زميله الألماني أخبره بأن رغبة الفرنسيين في النزول، حقيقية وقد استقاها من مصدر مطلع(10).

كانت البارجة الفرنسية على اتصال دائم بسفن حربية أخرى صدرت لها الأوامر بالالتحاق بالدارالبيضاء حالا، وهذه البوارج هي "دي شايلا" Du Chayla و"فوربان" Forbin كما كانت على اتصال دائم مع القنصلية الفرنسية بالدار البيضاء منذ أيام 2 و 3، 4 غشت. ولما اقترب وصول البوارج المذكورة من الدار البيضاء يوم 4 غشت، ادعى القنصل الفرنسي أن قائد "كاليلي" أخبره بأنه تلقى من "دي شايلا" برقية، مفادها "أن أسطولا يحمل قوات هامة" سيصل للدار البيضاء، وسينزل هذه القوات صباح 5 غشت، وأنه طلب منه أن يتصل بمولاي الأمين، لكي يكون باب المرسى مفتوحا !

ومما أثار استغرابنا، أن "أندري آدم" أهرق كثيرا من الحبر فيما لا جدوى فيه، ليناقش هل هذه البرقية صحيحة أو غير صحيحة، وهل خدع قائد كاليلي القنصل أم لا؟ وهل كان قرب وصول دي شايلا يعني وصول الحملة الفرنسية التي خرجت من الجزائر؟ وأي إنزال كان يعني "أولفيي"، هل بحارة "كاليلي" أم بحارة الأسطول الذي كان بعيدا عن الدار البيضاء بـ 48 ساعة (11)؟ في حين أن ما ينبغي الاهتمام به في هذا المجال، هي الإجراءات التي اتخذها قائد "كاليلي" ليلة 4-5 غشت للتهييء لقنبلة المدينة، الأمر الذي يؤكد ما جاء في تقرير "أوليفيي" السابق، وعند ذاك تتضح خيوط المؤامرة المدبرة ضد سكان الدار البيضاء.

وقد جاء في تقرير آخر (12)، بعثه قائد "كاليلي" للأميرال فيليبير Philibert، يشرح فيه كيفية تنفيذ عملية القنبلة ومبرراتها أنه طلب من القنصل أن يخبر مولاي الأمين، بالنزول ويأمره بفتح باب المرسى وعدم التعرض للفرنسيين وادعى أن القنصل أجابه، بأن مولاي الأمين قبل، وأمر باشا المدينة بفتح باب المرسى.

كما ادعى غيره (13)، أن مولاي الأمين، بعث رسالة للقنصل الفرنسي يخبره فيها بقبول نزول البحارة. وأورد آدم (14) اعتمادا على ما كتبه هويل (15) Houel أن القنصل أخبر الفرنسيين بعد ظهر يوم 4 غشت بالنزول، وأن مولاي الأمين والقائد ابن بوزيد أخبرا كذلك، وأمرا بأن يحضرا لباب المرسى، وأضاف قائلا "وبعث ميكري Maigret حالا رسالة إلى الهيئة القنصلية يطلعها بهذا الحادث موحيا هكذا، بأن خبر النزول عرف يوم 4 غشت بعد الظهر. والواقع أن هذه الروايات التي تتعلق بأخبار الفرنسيين لمولاي الأمين والباشا أبي بكر بن بوزيد، وللهيئة القنصلية، بوقت النزول إذا لم تكن روايات خاطئة بالمرة، فإنها غير مقبولة ومشكوك فيها. ولكي تتضح الحقيقة، فإن عرض أدلة كافية أمر يفرض نفسه وسنلتقط هذه الأدلة مما كتبه الفرنسيون أنفسهم، ثم نعززها بشواهد لأطراف محايدة.

فقد روى "بوردون" أن عملية الإخبار حدثت في الحادية عشرة ليلا، وإذا كانت هذه الرواية تكذب الروايات السابقة من حيث زمن الأخبار بالنزول. فإنها بدورها غير صحيحة إلا إذا كانت تعني أن القنصل الفرنسي لم يخبر الفرنسيين الموجودين معه بالقنصلية إلا في ذلك الوقت. ومع هذا، فما رواه "فكتور بيرتي Berti، يؤكد حقيقة أخرى، وهي أن القنصل الفرنسي لم يطلع الفرنسيين إلا بعد منتصف الليل. فقد ذكر "بيرتي" (16) أن ميكري "اتخذ بين منتصف الليل والساعة 4 صباحا، الإجراءات والاحتياطات اللازمة : فقد جمع الجالية الفرنسية

بالقنصلية، ثم أخبر القناصل بالقرارات المتخذة، وتأكد من أن مولاي الأمين سيقوم بالضروري لكي ينزل البحارة في الأمان إلى القنصلية" وهكذا نفهم من هذه الرواية، رغم انحيازها التام لمقولة الطرف المعادي للمغاربة، أن إخبار الهيئة القنصلية، لم يقع إلا بين منتصف الليل والساعة الرابعة من صباح 5 غشت، أي قبيل ساعة من بدء تنفيذ عملية الإنزال. وعلينا أن نرى في هذا الاحتياط، الذي اتخذه الفرنسيون، بالمدينة، شيئا آخر فلو كان الأمر يتعلق بنزول سلمي. ولو كان مولاي الأمين، قد ضمن فعلا ـ نزول البحارة بأمان، لما احتاج القنصل الفرنسي لهذه "الاحتياطات اللازمة"، ولما أخر الأخبار بعملية النزول إلى الساعات الأولى من يوم 5 غشت.

وإذا كان القناصل الأجانب، ومن بينهم عميد السلك القنصلي بالدار البيضاء وهو قنصل انجلترا "مادن" Madden، لم يشعروا إلا في ذلك الوقت المتأخر، فلا يعقل أن يخبر المغاربة قبلهم، ولا يعقل أن يكون مولاي الأمين قد كتب رسالة يقبل فيها النزول ويعثها للقنصل كما ادعى بوردون. إن الذين تآمروا على الدار البيضاء يوم 5 غشت، لم يتمكنوا من الاحتجاج بتلك الرسالة المزعومة. ولو وجدت لتناقلتها روايات الحزب الاستعماري ومن لفّ لفه. إن الحرص على أن تكون عملية النزول مفاجئة للجميع، باعتبارها عملية عسكرية عدوانية، هو الذي أخر مسألة اطلاع القناصل وبالتالي الجالية الأروبية، كإجراء لتجنيب تلك الجالية من أن تصاب بقنابل البارجة. وحتى لا يتسرب خبر النزول للمغاربة. ولو تسربت أخبار النزول عنوة للمغاربة، لما تمكن البحارة الفرنسيون من النزول بسلام.

ولكي نزداد اطمئنانا إلى هذا التحليل. نشير إلى أن القنصل البريطاني، لم يخبر في الواقع إلا في الساعة الواحدة والنصف من صباح 5 غشت (17)، وأن القنصل الألماني لم يعرف حقيقة الإنزال إلا في الساعة الثانية أي قبل بدء عملية الإنزال بثلاث ساعات فقط(18). ومن المعقول أن إخبار الجالية الأجنبية، سيكون متأخرا عن إخبار القناصل. لأن هؤلاء كان عليهم أن يطلعوا مواطنيهم في ذلك الوقت المتأخر من الليل ويجمعونهم في القنصليات، أي في الأماكن الآمنة التي لا يمكن قنبلتها. ويؤكد هذه الحقيقة الأخيرة ما صرح به المسمى Domingo Perca "دومينغو بيريا" وهو إسباني من جنسية كوبية كان يدير نزلا بالمدينة. قال دومينغو: "في يوم 5 غشت 1907 بين الساعة الثانية والثالثة صباحا، بعث القناصل عملاء إلى مواطنيهم الذين يسكنون بنزلي، وأمروهم بالانتقال إلى قنصلياتهم الخاصة، فنفذوا الأمر حالا، أما أنا، فرفضت مغادرة منزلي، معتقدا أن أي شيء لن يحدث"(19).

وهذه شهادة ـ إذا كان الأمر يحتاج إلى مزيد من الشواهد ـ ليس على أن الفرنسيين، فعلوا ما فعلوه بتكتم شديد على المغاربة فقط، بل إنهم بيتوا أمرا وأخفوه حتى على الأجانب.

ويجب على المرء أن ينتبه كذلك، لأمر آخر ذي دلالة وهو إذا كان الفرنسيون أرادوا النزول بسلام كما ادعوا ذلك، وإذا كانوا قد أنزلوا عشرة بحارة في ثياب مدنية، لماذا لم يتمموا عملية إنزال 70 بحارا آخرين بالطريقة نفسها ليحتلوا القنصلية، دون اعتداء، ودون القيام بعمل هجومي لا يمكن تبريره في جميع الأحوال؟ ثم إن هذه الإجراءات لا تدع مجالا للشك في وجود نية مسبقة لارتكاب أمر خطير.

ونعود إلى مسألة إشعار مولاي الأمين، والباشا أبي بكر فنقول من المحتمل أن يكون القنصل الفرنسي، قد أطلع مولاي الأمين على عملية الإنزال، بكيفية أو أخرى في ذلك الوقت المتأخر من ليلة 4-5 غشت وأمره بأن يصدر تعليماته بترك باب المرسى مفتوحا. ولكي يتجنب الخليفة السلطاني كل خلاف جديد مع الفرنسيين، يبدو أنه أوحى لبعض الحراس بفتح باب المرسى مبكرا وتركه مفتوحا، دون أن يسرب خبر نزول الفرنسيين، لأن ذلك يمكن أن يثير مقاومة المغاربة. أما الباشا أبو بكر بن بوزيد، فلا يعقل أن يكون قد اطلع على شيء بالمرة، نظرا لعداوة الفرنسيين له منذ 1906، ونظرا للاتهامات التي وجهت له منذ حادث 30 يوليوز. ولهذا سنكون مضطرين، إلى نفي الرواية التي نقلها عبد الرحمان بن زيدان، والتي يحاول أن يحمل فيها المسؤولية للقائد المذكور، وملخص هذه الرواية أن القنصل أخبر العامل بالنزول وحذره من التعرض للبحارة الفرنسيين بسوء، وأن العامل المذكور استشار مولاي الأمين فأجابه "بأنه لا دخل له في صعود ولا هبوط" ثم أن العامل تفاوض مع بعض أعيان المدينة "فأشاروا عليه بغض الطرف عنهم (...) فاستحسن رأيهم الفاسد ونظرهم الكليل الكاسد، فأمر أحد أعوانه المدعو البدوي بأن يأذن للمكلف، بفتح باب مرسى الثغر قبل الوقت المعتاد لفتحه"(20).

إن الفرنسيين لم يتحدثوا عن أي أخبار وجه للقائد ابن بوزيد. وقد جاء في الدورية التي وجهها القنصل الفرنسي، للقناصل يخبرهم فيها بالإنزال، ما يفيد أن الباشا لم يخبر. ففي نهاية تلك الدورية أضاف القنصل العبارة الآتية

"وسأتكفل بتوجيه هذا الإشعار إلى مولاي الأمين في الوقت المناسب"(21).

ومعنى هذا أن مولاي الأمين لم يخبر إلا بعد أن تم إخبار القناصل، هذا إذا حدث

أن أخبره القنصل الفرنسي. أما الباشا أبي بكر فلا يوجد أي دليل على إشعاره بما تقرر تلك الليلة. وهكذا تكون جميع الروايات، التي حاولت أن توحي بأن المغاربة أطلعوا على النزول وأنهم وافقوا عليه، مجرد أقاويل لا أساس لها من الحقيقة، وتبريرات مردودة واتهامات باطلة.

2. نزول بحارة "كاليلي" فجر يوم 5 غشت ونتائجه

ومهما يكن، فمنذ الساعة الخامسة من صباح 5 غشت 1907، انفصلت عدة قوارب من البارجة "كاليلي" وتوجهت نحو باب المرسى الذي كان مفتوحا حيث أنزلت حوالي 66 بحارا(22). وقد ساعد بحارة المرسى المغاربة، الفرنسيين على النزول، حيث مدوا ألواحا من الأخشاب بين القوارب والساحل(23).

وعند باب المرسى، ادعت الرواية الفرنسية، أن الباب سد في وجه البحارة النازلين، فاندفع قائدهم وفتحه بقوة، وحينئذ خرقت رصاصة أطلقها المغاربة يده اليمنى، فأمر بحارته "هيئوا سلاحكم ! إلى الأمام ! أهجموا بالحراب !"(24).

ويوحي هذا الأمر، الذي أوردته الروايات الفرنسية، دون أن تتفق على صيغة موحدة له (25)، أن هذه الروايات تريد أن تقنعنا بأن سلاح البحارة لم يكن مهيئا. في حين أن الأمر باستخدام الحراب، يدل على رغبة في قتل أناس مسالمين، كانوا يحرسون طريق مرور الفرقة الفرنسية. وبالفعل، لقد نفذت تلك الفرقة أوامر قوادها، فقتلت كل المغاربة الذي صادفتهم في طريقها، وكان معظمهم من الجنود الذين كان مولاي الأمين، قد وضعهم لحراسة الطريق الرابط بين باب المرسى والقنصليات الأجنبية(26). وقد أشار مدير المدرسة الإسرائيلية بالبيضاء، في رسالة إلى رئيس الاتحاد الإسرائيلي بباريز، إلى أن البحارة الفرنسيين، "اخترقوا المدينة مغطين طريقهم بالجثث، ولما وصلوا للقنصلية رفعوا إشارة القنبلة"(27).

هل كان باب المرسى مغلقا، وهل سد في وجه البحارة كما ادعت الروايات الفرنسية (28)، علما بأن النزول كان خرقا لسيادة البلاد في كل الأحوال؟

إن تقارير قائد البارجة المسؤولة عن مجزرة يوم 5 غشت، تكذب الروايات التي تدعي أن البحارة فتحوا باب المرسى عنوة، بعد أن أغلقه المغاربة، إذ يتأكد منها أن الباب كان مفتوحا(29).

وهناك شهادات أجنبية تكذب الروايات السابقة كذلك، فقد جاء في تقرير "كوفمان" قائد الباخرة الألمانية "أركاديا"، المذكور سابقا، ما يلي "بدأت القوارب تنزل بين 60 و 100 رجل توجهوا حالا نحو باب المرسى الذي كان مفتوحا. ولم

يهتم الحرس المغربي الذي كان يوجد بالباب بهذه العملية، وترك الفرقة تدخل إلى المدينة دون أن يقلقها"(30). وتؤكد الوثائق الألمانية أن الباب كان مفتوحا بالفعل فكل "الألمان، الذين كانوا يتابعون على ظهر الباخرة الألمانية "أركاديا" الأحداث التي تمر بالأرض بانتباه فائق، ينفون بشكل قاطع، أن يكون الباب مغلقا على الجنود الفرنسيين الذين نزلوا"(31).

إذا اتضح أن باب المرسى كان مفتوحا، فإن ما قام به البحارة الفرنسيون من تقتيل، يبرهن على نية مسبقة في القتل. وقبل أن نناقش دوافع وخلفيات ما ارتكبه قائد "كاليلي" فجر 5 غشت،علينا أولا أن نتتبع الأفعال الإجرامية التي ارتكبت في حق المغاربة، وخاصة الجنود الرسميين.

قتل الجنود المغاربة

أشرنا إلى أن مولاي الأمين كان قد وضع حرسا، لحراسة الطريق بين باب المرسى والقنصليات الأجنبية. إن هذا الحرس الذي كان يحتل ثلاثة مراكز هو الذي تعرض للذبح على يد البحارة الفرنسيين، بكيفية غادرة ودنيئة. ومن مراجعة تقرير قائد البارجة الفرنسية "كاليلي"، يتأكد ما أشرنا إليه، فقد جاء فيه بالحرف الواحد أن قائد البحارة "أمرهم بسرعة بتوجيه نيرانهم للمغاربة، فقتلوا حوالي 60 من الأعداء ولم يتركوا وراءهم أحدا..."(32). وقد ادعى قائد البارجة أن المغاربة أطلقوا النار على جنوده من كل مكان، وواضح أن هذا الادعاء، ادعاء كاذب ولا أساس له، لأن أثر رصاص المغاربة غير موجود، ولأن البحارة وصلوا إلى قنصليتهم سالمين.

وقد تبنى أحد الأكادميين المحدثين الرواية نفسها مدعيا بأن "رمي البحارة المنضبط كان أكثر قتلا وأن اندفاعهم قلب كل شيء"(33). كما ادعى بأن المغاربة فوجئوا فكان رصاصهم غير منضبط. ولكننا نتساءل كيف يكون رمي المغاربة غير منضبط، ونيرانهم موجهة لجماعة من الجنود تتقدم مجتمعة وفي زقاق ضيق، إذا صدقنا الرواية الفرنسية؟ إن عدم ضبط رمي المغاربة كذبة لا يمكن الدفاع عنها، وسيعترف العسكريون الفرنسيون أنفسهم بدقة تصويب المغاربة خلال حصار هؤلاء للبحارة بالقنصلية الفرنسية كما سنرى (34).

ولإبراز بطلان الرواية المذكورة، وإظهار المؤامرة المدبرة ضد المغاربة بالدار البيضاء، جنودا ومدنيين يوم 5 غشت، نشير إلى أن القتل الذي نفذه البحارة الفرنسيون، لم يصب الجنود المغاربة الذين كانوا يحرسون الطريق بين باب

المرسى والقنصليات الأجنبية فقط، بل ذهب ضحيته كذلك جنود المركز الذي كان مكلفا بحراسة القنصلية الفرنسية نفسها. ولقد ادعت الرواية الفرنسية، أن ترجمان القنصلية المسمى الزاكوري، الذي كان يوجه فرقة البحارة في طريقها إلى القنصلية، تقدم للجنود المغاربة وأمرهم بالفرار. وبالرغم من ذلك "فإن البحارة - يقول هويل - لم يريدوا أن يفهموا، فأطلقوا زخة جديدة من النيران طرحت ثلاثة أرباع [المغاربة] وهرب الباقون. ومن بين الموتى - يضيف - وجد خادم لصديقنا "داريك" Darrique، كان يحمل سلة من الخبز في طريقه إلى سيده"(35). وهكذا يعترف هذا الصحافي، ولكن بطريقة غير مباشرة، بمسؤولية البحارة عن قتل الجنود الذين كانوا يحرسون القنصلية الفرنسية بدون مبرر. ووجود خادم بين القتلى يعني أن القتل كان عشوائيا يتعرض له كل مغربي سواء كان عسكريا أو مدنيا. وهذا دليل واضح على نية القتل المبيتة ضد المغاربة.

ولتتضح أبعاد المؤامرة الإرهابية، التي نفذها بحارة "كاليلي"، يجب أن نضيف كذلك، بأن المذبحة قد شارك فيها أيضا المدنيون الفرنسيون والبحارة، الذين كانوا موجودين بالقنصلية الفرنسية. فبالقنصلية الفرنسية "فتح البحارة التسعة يقول فانسان يعاونهم ستة من المتطوعين المدنيين بأمر "كوسم" Cosme، عند الطلقات الأولى للنار، نيران بنادقهم على الجنود المغاربة الذين كانوا يحتلون جوانب الطريق، ليسهلوا على بحارتنا دخول القنصلية والحديقة"(36). ونختم هذه الأدلة، التي تدين ما ارتكبه جنود البحر الفرنسيون في فجر يوم 5 غشت بما رواه المعمر الفرنسي كونجو Conjcaud وهو يصف كيفية قتل الجنود المغاربة، قال كونجو(37)

"وصل البحارة الفرنسيون أمام القنصلية، وهم يجرون ويقتلون. كان 35 جنديا مغربيا أمام القنصلية مخيمين في الزقاق منذ بضعة أيام يحرسون جوانب القنصلية، وكان بعضهم يهيء شاي الصباح، لقد سمعوا كل هذه النيران، ولكنهم كمحاربين قدماء لم يهتموا بها كثيرا، ولأنهم لم يتلقوا أوامر فلم يتحركوا أبدا..." ثم وصف كيف قتل أولائك الجنود الأبرياء، من طرف البحارة، قائلا "تخوف العساكرية المغاربة فأطلقوا رصاصهم نحو رجالنا ولكن رميهم لم يكن مصوبا فلم يتسبب في أية خسارة وبالعكس كان رد فعل بحارتنا سريعا ومضبوطا فأردى بالأرض طرفا من الجنود وطرحت الحراب طرفا آخر وهرب الباقي"

توضح هذه الرواية، بالرغم من تحيزها البين - ان كان الأمر يحتاج إلى مزيد من التوضيح - المؤامرة التي دبرت للمغاربة مدنيين وجنود. وتفضح بشكل يندى له

الجبين، الغدر الذي ارتكبه البحارة الفرنسيون بمشاركة القنصلية الفرنسية، في شخص مترجمها الذي كان يوجه البحارة إلى القنصلية، وكان بإمكانه أن ينصح قائد الفرقة بعدم الإساءة للجنود المخزنيين الذين لم "يخونوا ثقة" الفرنسيين، حسب ما صرح به نائب القنصل الفرنسي، عندما كان يخطب في الذكرى العاشرة لقنبلة الدار البيضاء(38). والأدهى من كل هذا، هو أن ينسج مؤرخون مغاربة عاصروا الأحداث، على منوال الأجانب ويرددوا رواياتهم، أما جهلا بالواقع وسذاجة منهم، أو إرضاء للعدو ومسايرة له (39).

3. الشروع في القنبلة

ولا يظنن القارئ، أن ما ارتكبه جنود البحر، يمثل كل عناصر الواقعة، بل إن ما وصفناه إلى حد الآن، لا يمثل إلا جانبا من الصورة. ولا تتضح أبعاد الكارثة، التي تعرضت لها الدار البيضاء يوم 5 غشت، إلا برؤية الجانب الآخر الأكثر سوادا والذي نتج عن قنبلة المدينة. لقد صاحب المذبحة التي ارتكبها البحارة الفرنسيون بالبر، قنبلة الأحياء التي يسكنها المغاربة من البحر. فكيف وقعت هذه القنبلة؟ وما هي أسبابها؟ وماذا أسفرت عنه من عواقب؟

عندما قرر قائد كاليلي قنبلة الدار البيضاء، اتفق مع الفرنسيين الموجودين بالقنصلية، أن يخبروه بوصول البحارة الذين أنزلوا فجر يوم 5 غشت ـ كما مربنا ـ وقد رأينا أن نية قنبلة المدينة، ظهرت منذ وصول البارجة الفرنسية لمرسى المدينة في 1 غشت، إلا أن تنفيذ عملية الإنزال والقنبلة لم يحدث إلا بعد أن تأكد الضابط الفرنسي من اقتراب سفن حربية، كان منتظرا أن تصل يوم 5 غشت أمام الدار البيضاء. وتحكي الروايات الفرنسية أن الاتفاق حول رفع علامة القنبلة كان معلوما مسبقا، يقول كراسي Grasset "وكما كان متفقا مع كاليلي في حالة وقوع حادث، فإن علامة القنبلة رفعت، وعندما وصل البحارة للقنصلية، وأخذوا مواقعهم، بدأت مدافع الطراد تطلق قنابلها، في حين كانت طلقات الرصاص تنطلق من السطوح مهددة القنصليات، وعند ذاك غطت القنبلة المدينة كلها بالحديد والنار"(40).

يتأكد لنا إذن، أن قرار ضرب المدينة بقنابل البارجة، كان قد اتخذ في الوقت الذي اتخذ فيه قرار الإنزال، ولم يأت نتيجة لكيدة دبرها المغاربة للبحارة الذين نزلوا حسب ادعاء الرواية الفرنسية(41). ويؤكد "هويل" الذي كان بالقنصلية الفرنسية يشاهد الأحداث، أن القنبلة لم تبدأ إلا عندما وصل البحارة

للقنصلية(42). أن اتفاق قائد البارجة مع القنصلية، على رفع علامة القنبلة، كان متعلقا بوصول البحارة للقنصلية وليس بوقوع حادث، وهذا ما يثبته كونجو (43) بقوله "إن العلامة التي أعلنت وصول بحارتنا للقنصلية فتحت القنبلة، فغطت المدافع الكبيرة لبارجتنا المدينة بالحديد والنار" وهكذا تتأكد المؤامرة الحقيقية التي دبرت ضد سكان الدار البيضاء المسالمين، الذين صبت عليهم نيران المدافع في الوقت الذي كان فيه معظمهم لا يزال في فراش النوم. وفي الوقت الذي كانت فيه مدافع كاليلي تدك حي التناكر الشعبي الذي تجمع حوله حقد قائد البارجة، وفي الوقت الذي كانت فيه قنابل "المليتيت" Milinite "تساقط في كل مكان، تقتل المذنب - حسب ادعاء كونجو - والبرئ بلا نظام" وبشكل فضيع ومرعب، وصلت البارجة "Du Chayla" وشرعت حالا في القصف معززة عمل البارجة الأولى. والملاحظ أن هذه الدارعة الثانية أنزلت بدورها فرقة من البحارة يبلغ عددها حوالي 120 بحارا، لكنهم لم يتمكنوا من الدخول للمدينة والالتحاق بالقنصلية الفرنسية إلا بعد أن ذهبوا بعيدا عن باب المرسى الذي سده المغاربة وصعدوا عبر سلالم ثم دخلوا من فتحة أحدثت في جدار القنصلية البرتغالية ومنها التحقوا بقنصليتهم(44).

إن اضطرار فرقة دي شايلا، للدخول عبر سلالم للمدينة، يكذب إدعاء الذين حاولوا أن يضفوا على بحارة "كاليلي" مظهرا من الشجاعة الوهمية، حيث نسبوا لهم، الدخول المنتصر صباح 5 غشت. فلو كانت شجاعة البحارة هي التي دفعتهم في ذلك الصباح لاقتحام باب المرسى، فلماذا نجد بحارة دي شايلا الذين كانوا أكثر عددا، لا يتمكنون من الدخول إلا من فتحة في جدار، بعيدا عن باب المرسى بـ 800 م، وحدث هذا في الوقت الذي خرب فيه الحي الشعبي بالقذائف؟

بعد دي شايلا، وصلت سفينة حربية إسبانية "ألفارودوبازان" Alvado de Bazan، وشرعت بدورها في القصف لبعض الوقت ثم أنزلت حوالي 40 بحارا ذهبوا للقنصلية الإسبانية. وفي المساء وصلت بارجة فرنسية ثالثة وهي "فوربان" Forbin وعززت "كليلي" و"دي شايلا" في تغطية المدينة بالقذائف، ثم أنزلت بدورها صباح يوم 6 غشت فرقة من بحارتها.

وبالرغم من أن مولاي الأمين، طلب توسط القنصل الإنجليزي لإيقاف عملية القنبلة(45). وقبل ما اشترطه عليه الفرنسيون وهو أن يكتب رسالة يعتذر فيها باسم المخزن عن "الخيانة" بالرغم من ذلك، فإن القصف استمر. وأدى قبول مولاي

الأمين لشروط الفرنسيين إلى انفضاض جنود المحلة من حوله، "وأخبرني - يقول أوليفيي في تقريره - بعد الظهر أنه لم تعد هناك أي سلطة موجودة بالمدينة"(46). وكما علمتنا السلطات الفرنسية، التي درجت على الإعتداء على السيادة المغربية، أنها كلما ارتكبت هجوما على هذه السيادة، إلا حاولت أن تجد له تبريرا أمام الرأي العام الدولي، بالضغط على المخزن، لتحميله مسؤولية ما حدث. وهذا ما فعلته مع مولاي الأمين. إن قبول الرجل - مضطرا - لشروط المهاجمين يبرز رغبته - فيما يظهر - وهو الذي كان يشعر بتحمل مسؤولية النيابة عن المخزن أن يفعل شيئا يخفف عن السكان الجحيم المصبوب عليهم. كما يبرز في الوقت نفسه انعدام التنسيق مع المخزن، الذي كان في حالة غياب بالقياس إلى وسائله القاصرة، وخاصة فيما يتعلق بنقل الأخبار وسرعة الإتصال مع موظفيه. ونتيجة لهذا القصور، كان جل اعتماد المخزن في التعرف على أخبار الدار البيضاء، على دار النيابة بطنجة. فقد جاء في رسالة جوابية، بعثها محمد الطريس للصدر المفضل غريط، ما يلي "وصل كتابك بأن أخبار الدار البيضاء تبطئ الوصول للاعتاب بطريق البر، وأمرنا مولانا دام علاه بالكتابة كل يوم بما تجدد من أخبارها من طريق البحر وما حدث فيها..."(47).

ومهما يكن، فإن المخزن لم يكن بإمكانه، في مثل تلك الظروف إلا الخضوع لسياسة الأمر الواقع، التي فرضها التدخل المسلح. ومما فرضه الفرنسيون بالدار البيضاء، احتواءهم للخليفة السلطاني، الذي يبدو أنه لم ينتبه لأغراضهم البعيدة.

4. مقاومة الإنزال

لكن، مقابل هذا الموقف الرسمي، نجد ما تبقى من سكان المدينة وجنود محلة مولاي الأمين، يحملون السلاح للانتقام من الغزاة. وكذلك تواردت أفواج المجاهدين من القبائل القريبة والبعيدة عن المدينة. وحوصر البحارة الفرنسيون في حي القناصل، واتجهت نيران المغاربة على الخصوص نحو القنصلية الفرنسية، في الوقت الذي كانت فيه البوارج توالي قصفها للمدينة وضواحيها لمنع دخول فرسان القبائل. ويصف شاهد للأحداث ما وقع يومي 5 و6 غشت بقوله "وفي ساعة 12 ابتداء [كذا]، مدفع الفرنصيص يضرب خارج البلد لدفع خيل الأعراب. والإصبنيول أعطى 40 رجلا واجتمعوا مع عسكر الفرنصيص في قاربين قرب فركاطة الفرنصيص. ولما سمع أهل البلد الفركاطة تخرج أخرجت الأبراج، برج سيدي علال القيرواني عمارتين فيها فأجابتها فركاطة الفرنصيص فهدمته عن آخره"[...] وبعده وردت فركاطة فرنصيصية إسمها فُرْبَن وأخرى في 2/2 إسمها

ذشالاً وتفرقوا على البلاد وصاروا يضربون على التناكر، وأحرقوا النواويل داخل البلد، وهدموا سيدي بوافي لأن الخيل كانت تتدرق فيه، وفي ساعة 3 نزلت الخيل وأحاطت بالبلد، فصار يضرب جماعتهم، وقتل ما لا يحصى. ووقع قتال بين عسكر البلد وعسكر الفرنصيص والإصبنيول ومات من عسكر المسلمين 150 وعسكر الفرنصيص 6 ومن الإصبنيول 4. ويوم الثلاث قام المدفع والحريق خارج البلد وداخلها لدفع الأعراب المتحشدين [كذا] والبارود لا يفتر والمدافع تلوي.. (48).

وهكذا أسرع سكان المدينة الذين استيقظوا على صوت المدافع، وانفجار القذائف للدفاع عن أنفسهم، وعمد المغاربة حضريون وبدويون، إلى إغلاق باب المرسى ومنعوا الدخول أو الخروج منه. والملاحظ أن سكان الدار البيضاء ومجاهدي القبائل تحملوا عبء قتال الفرنسيين، دون انتظار تعليمات المخزن، الذي كان يرى عدم جدوى المقاومة. كما تجدر الإشارة إلى تدخل أبراج المدينة على قلتها، وعتاقة مدافعها وعدم تحصينها. ويتهم ابن زيدان القائد أبا بكر بن بوزيد بالايعاز لأحد "المكلفين بحراسة الصقالة من رماة المدافع وهو محمد وشت" (49) بقذف البارجة الفرنسية. ونظرا لعتاقة المدفعية المغربية فإنها لم تلحق أي ضرر بدارعة العدو، ولأن القذائف لم تتعدد مسافة 400 متر، في حين كانت البوارج راسية على بعد 800 متر.

وقد برر الفرنسيون القصف المتوالي للمدينة وضواحيها، بأنهم كانوا يريدون منع فرسان القبائل من الدخول للمدينة. وليخففوا من ضغط هجومات المغاربة على البحارة بالقنصلية. وبالرغم من توالي القصف، وفتك القذائف بجماعات الفرسان المتوافدة. تمكن المغاربة من تضييق الخناق على حي القناصل، ونظموا "حصارا ضد القنصلية الفرنسية، واتخذوا من سطوح المنازل وصوامع المساجد والنوافذ الضيقة للدور، متارس ومخابئ كانوا يطلقون منها نيران بنادقهم بدون انقطاع" (50).

ومع اشتداد المقاومة، كثفت البوارج الفرنسية قصفها لحي التناكر، الذي التهمته النيران، في الوقت الذي كان البحارة المحتلون للقنصلية يطلقون الرصاص في كل اتجاه، ويوجهون نيران بنادقهم، ومدافعهم الرشاشة نحو كل شبح يتحرك، دون تمييز بين المقاتلين وبين الهاربين من جحيم القنابل من نساء وأطفال ورجال. وهكذا ساهم رصاص البحارة في تضخيم حجم ضحايا القنبلة المستمرة. وخلال الليل، أي ليلة 5-6 غشت حاول المغاربة اقتحام القنصليات،

فقاموا بهجوم شديد "وكانت ليلة 5-6 غشت سهرة للأسلحة ساخنة ودموية"(51)، كما كانت "ليلة كئيبة أسودت بدخان كثيف"(52)، لم تكن الأضواء الباهتة للبوارج تتخلله إلا بصعوبة، لإضاءة الأحياء وتوجيه نيران المدافع. وقد اعترف قائد البارجة "كاليلي"، بأن هجوم المغاربة اشتد "خلال الليل، فقد وقع هجوم عنيف [...] حوالي الساعة الحادية عشرة والنصف جاء من الشاطئ، من حي المسجد مهددا قنصلية السويد"(53). كما هوجمت قنصلية إسبانيا وقنصلية إنجلترا، وكان الهجوم من الخطورة بحيث اضطرّ القنصل الإنجليزي لحرق وثائقه وشيفرته(54). ولم ينقذ الفرنسيين إلا المدفعية التي وضعت فوق سطح قنصلية البرتغال وسطح قنصلية فرنسا. وقد تكبد البحارة، خلال هذا الهجوم، العديد من القتلى والجرحى بين فرنسيين وإسبان.

وفي يوم 6 غشت، حاول المغاربة فيما يبدو احتلال المدينة وطرد الفرنسيين، وكانت أخبار هجومهم قد تسربت للفرنسيين من المخبرين، ولذلك استعدوا واستخدموا المدفعية بشكل مكثف لإبعاد المهاجمين. وبالفعل لقد وقع الهجوم من جهة قنصلية البرتغال، لكن المغاربة اضطروا للتراجع، بفعل نيران المدفعية البحرية ومدافع الميدان الموضوعة فوق القنصليات. وكان الهجوم من الخطورة بحيث أقدم الفرنسيون على تحطيم منارة المسجد الكبير(55). وفي هذه الأثناء كانت البوارج توالي قصفها لأبواب المدينة، وخاصة لباب مراكش لمنع دخول المجاهدين من الجهة الجنوبية للمدينة. ويظهر أن هذا القصف تسبب في سقوط ضحايا كثيرين، بالنظر إلى إصرار مجاهدي القبائل على الدخول للمدينة وموالاة هجوماتهم على الفرنسيين، وإلى هذا أشار أحد الشعراء بقوله(56):

وسقط الأبطال في الهيجاء بين دروب الحي في البيضاء
مقبرة حول ضريح مومـــن يسكنها كل شهيد مؤمـــن

ولقد استمر القتال خلال ليلة 6-7 غشت، لكن المغاربة لم يقوموا بأي هجوم بل استغلوا الظلام ليقتربوا من القنصلية الفرنسية بهدف اقتحامها في الصباح. وقد وصف Ollivicr ما حدث ليلة 6 وصباح 7 غشت بقوله

"وخلال ليلة 6-7 غشت كانت أضواء البوارج تبحث بدون انقطاع مثل الليلة السابقة البادية المجاورة، وأطراف مراكزنا، حيث أطلقنا بعض القنابل. كان الليل هادئا باستثناء جانب قنصلية إسبانيا وإنجلترا... وبدل أن يوجه المغاربة نيرانهم نحو رجالنا استغلوا الظلام ليدوروا إلى المنازل المحيطة بالدور التي نحتلها وتحصنوا هناك. ومنذ صباح الغد (7 غشت) غطت نيران شديدة مراكزنا، وخاصة

قنصلية إسبانيا، وكان الرصاص يتطاير على الجدران، كما كانت دقة تصويب المغاربة خلال هذه الصبيحة عالية جدا"(57).

ويصف قائد البارجة "دي شايلا"، الذي كان في الوقت نفسه يقود البحارة بالمدينة، ما حدث صباح 7 غشت، فيذكر أن ذلك الصباح عرف عدة اشتباكات منها "اشتباك دار المخزن"، الذي وقع لما حاول الفرنسيون إنجاد القنصلية الإسبانية، "لكن في إحدى الأزقة - يقول الضابط المذكور - المؤدية إلى المسجد سمعنا صخبا مستمرا، ثم برزت من جهتنا مجموعة من المغاربة مسلحين، وكان رجالنا مستعدين، حيث أطلقوا رصاصهم، فقتلوا الخمسة الأولين، أما الآخرون فقد رَدُّوا بهجوم مضاد وعنيف، بحيث كانوا يظهرون ويختفون بسرعة وهم يطلقون نيران بنادقهم"(58). ولما تبين للفرنسيين أن قتال الأزقة هذا سيكلفهم ضحايا عديدة، تراجعوا للقنصلية. يقول قائد "دي شايلا" "عملت على تراجع فرقتي، ثلاث خطوات بثلاث خطوات، مع إطلاق نيراننا، على النقط التي ينطلق منها الرصاص تجاهنا من فوق السطوح"(59). وعن نتائج هذا القتال أشار الضابط المذكور إلى أن ثلاثة بحارة سقطوا بجانب "أصدقائهم الإسبان" وإن الضابط الإسباني تخوف "من عدم القدرة على الاستمرار في المقاومة طويلا لأن جميع الدور المجاورة مملوءة بالمغاربة [...] ونظرا لحرج الموقف - يضيف قائد دي شايلا - قدرت بأن كل ما يمكن لنا عمله إلى أن يصل الأسطول، وجيش الحملة، هو أن نحافظ على المراكز التي نحتلها، وأن مهمتي تتلخص في هذا الهدف"(60).

وقد أشار القائد المذكور إلى أنه جلب مدفع 65 مم إلى القنصلية الإنجليزية التي لم يجد بها مجاريح، لكنه "وجد بعض البنادق تكسرت في أيدي [البحارة] بواسطة رصاص المغاربة، ولما شرع مدفع 65 مم في عمله، اخترقت رصاصة رجل [المكلف به] فجرى دمه غزيرا فأنزله الجنود"(61). وبذلك أسكت المغاربة هذا المدفع وأصابوا المكلف به منذ أول طلقة منه.

5. وصول الأسطول وجيش الحملة الفرنسية للدار البيضاء

وبالجملة فإن الفرنسيين بالدار البيضاء، أخذوا يشعرون، مع صباح يوم 7 غشت، بخطر داهم، ويعيشون ساعات حرجة. ولم ينقذهم إلا وصول الأسطول الفرنسي بقيادة الأميرال "فليبير" Philiberl، أمام الدار البيضاء، في الساعة 11 صباحا، يوم الأربعاء 7 غشت. وقد شرعت البوارج المرافقة للحملة، في التمهيد لإنزال القوات بقنبلة المدينة وأطرافها(62)، مما أدى إلى مذابح في صفوف السكان الفارين.

ويصف شاهد للأحداث ما حصل يوم الأربعاء، بقوله

"ويوم الأربعاء وردت فراكط، فيهم الأميرال الفرنصوي [...] وأنزلوا في الدار البيضاء من العسكر الزواف قيل 3000، في فلايك المخزن ومن الصبح للظهر المدفع يدوي، وعند العصر سكت المدفع.."(63). وبالفعل، لقد استولى قائد الأسطول على قوارب مرسى الدار البيضاء، واستخدمها في إنزال قوات الاحتلال، بقيادة الجنرال درود Drude. وكان عدد تلك القوات حوالي 3000 رجل بمعداتها وتموينها وحوالي 300 حيوان من بغال وخيول. وقد عسكر الجنرال درود على بعد 500 م جنوب المدينة، حيث نظم معسكرين لقواته، وستعزز هذه القوات بقوات إسبانية يتعدى عددها 400 رجل. وبإمدادات متوالية من الجنود والعتاد أثر اشتداد هجومات المغاربة.

لقد رأينا كيف كانت مقاومة المغاربة للبحارة الفرنسيين الذين أنزلوا أيام 5-6و7 غشت. ولولا استخدام المدفعية بشكل مكثف، ولولا مدافع البوارج التي كانت تحمي الحي الأروبي من أي هجوم يقوم به الفرسان، لولا كل ذلك، لما استطاع البحارة الصمود حتى وصول قوات الحملة الفرنسية.

ويظهر أن المغاربة لو أقدموا على اقتحام القنصليات، في هجوم عام وكاسح، لنجحوا في تحطيم تلك الجيوب المسلحة، التي استمرت في توجيه نيران أسلحتها باستمرار. وفي الواقع، فإن ذلك الهجوم العام، لا يمكن أن يقوم به إلا جيش منظم وخاضع لقيادة واحدة. أما المغاربة الذين كانوا يجاهدون دون تنسيق، وسط فزع عام بمدينة مخربة، تملأ أزقتها الجثث، والذين كانوا محرومين من المدفعية والأسلحة الرشاشة، فإنهم لم يقوموا بذلك الاقتحام، واكتفوا بتضييق الحصار على البحارة المتحصنين في القنصليات. والأكيد أن أولئك البحارة "لم يكن في استطاعتهم الصمود طويلا أمام هجومات هؤلاء العرب الشديدة"(64)، حسبما جاء في تقرير الأميرال "فليبير"، عن وصول ونزول القوات بالدار البيضاء. وبوصول الأسطول تجددت المجازر بالمدينة. وأنهت مدافع الأميرال ما بدأته مدفعية قائد "كاليلي"

أ. مذبحة السور الجديد تؤكد هذه المذبحة الصفة الإرهابية لقنبلة الدار البيضاء. فعندما اشتدت القنبلة. على سكان المدينة، وضج الناس وزاغت أبصارهم وهم يبحثون عن ملاجئ آمنة تأويهم، اتفق مولاي الأمين، الذي كانت

محلته مخيمة بالسور الجديد ـ كما سبقت الإشارة لذلك ـ مع القنصل الفرنسي، على تأمين السكان الذين يلتجئون إلى السور الجديد. وبالفعل لقد فر الآلاف إلى هذا السور، وعندما تم اجتماعهم، وظنوا أنهم أمنوا القتل، بجانب جنود المحلة السلطانية، عند ذاك صبت عليهم القذائف المحرقة، فحولت جمعهم إلى ركام من الجثث المشوهة. ولقد تعرض عبد الرحمان بن زيدان لمأساة لاجِئي السور الجديد، فقال (65):

"وكان الضرب بالغا حدّه، فضج الناس وافتتنوا، ولم يجدوا ملجأ ولا منجى، ولما جل الخطب وطم، أمرهم الخليفة المولى الأمين المذكور، بعد الموافقة مع القنصلية الفرنسية، بالخروج للمحل المعروف بالسور الجديد، الذي كان محل تخييمه بالقوة التي كانت إلى نظره من عساكر وخيل ورماة. وصرح لهم، بأن كل من حل به فهو آمن على نفسه وماله" وبعد أن أشار إلى أن الناس انقسموا قسمين، أحدهما قبل دعوة الأمين، والآخر رفضها، وخرج هاربا للبادية، أضاف قائلا

"وفي عشية يوم الأربعاء سابع غشت، موافق سابع وعشري جمادى [الثانية] أطلقت الدار عتان الفرنسيتان قنابلهما، على الملتجئين بالسور الجديد، حيث رأت أحزاب العتاة المفسدين تجمهرت حوله ورامت الهجوم على من به، وقصدهما تبديد جموعهم وتشتيتهم [...] فهلك عدد عديد من أولائك البؤساء المرعوبين الجياع العطاش المسلوبين المنهوبين الذين كانوا بالسور الجديد" (66).

يظهر أن المؤرخ ابن زيدان بايراده لهذا الوصف، أراد أن يبين غدر السلطات العسكرية والقنصلية بالدار البيضاء دون أن يصرح بذلك. ولكنه عندما يردد الذريعة الباطلة التي أشاعها الفرنسيون، وهي أن القنبلة كانت موجهة ضد "العتاة المفسدين"، أي لمجاهدي القبائل، وعندما يبرر تلك المذبحة، بأن القصد منها كان هو تبديد وتشتيت جموع المغاربة، وعندما يسكت عن ذكر القتلى من الجنود المغاربة، فإنه يسقط في الاستيلاب البين، ويبتعد عن الإنصاف. ومن الشائع المتواتر عند المسنين، أن الفرنسيين أمروا الناس بالالتجاء للسور الجديد ثم قتلوهم.

ومما يوضح بشاعة المجزرة التي صاحبت قنبلة الأسطول الفرنسي للدار البيضاء، هذا الوصف الصارخ الذي نقله المراسل الصحافي "بوردون"، عن ما حل بلاجئي السور الجديد، وهو وصف يمكن مقارنته مع ما ذكره ابن زيدان، قال بوردون (67):

"إن ما بينه لي من بعد ـ (يقصد أحد الفرنسيين المدنيين الذين شاركوا في قتل كثير من السكان ويسمى "ميرسيي" Mercier، وقد صاحب بوردون ليدله على أماكن المجازر) ـ لن أصفه. إنها المجزرة الأكثر فضاعة والأكثر بشاعة. التي يمكن للخيال أن يتصورها. هل تتذكرون معسكر المرتزقة في "سلامبو"(68)، وتتصورون الجثث الممددة، والذباب الذي يتنافس على إيجاد مكان فوق العفونة، ورائحة الجثث المنتنة؟ [...] لقد رأيتها، وشممتها.

معسكر مرتزقة "سلامبو". إنه كان بالسور الجديد على أرض واسعة عارية، نحو الغرب في منطقة هذا الحي البشع التناكر، الذي هو حي العرب المعوزين. هناك، قد التجأ سكان الدار البيضاء بلا نظام، هاربين، في الوقت نفسه، من النهب والقنبلة، جنود المخزن، ونهاب أريكتهم قنابلنا [...] وعند ذاك وهي تسقط فوق كتلة مزدحمة وكثيرة الصياح [...] لا، لا. لقد استيقظ قلبي ولن أبين لك ذلك. هذا الجندي المخزني الذي فقد وجهه، وذي الفم المتورم الملتوي، الذي أزال له انفجار القنبلة ثلاثة أرباع رأسه. وهذه المرأة الحامل، التي ولدت هناك وسط الرعب والفزع، وسقطت ورأسها محني إلى الأمام وأرجلها مثنية [...] وتضم إلى لحمها العاري الذي لا يزال يختلج الصغير الذي ازداد لحينه، ولم ير النور إلا ليموت".

ب **فضائع جيش الاحتلال** بمجرد النزول، أطلقت فرقة اللفيف الأجنبي على المدينة لتنهي عمل قنابل الأسطول. وهكذا انتشر الفزع والخوف فيما تبقى من سكان الدار البيضاء. فقد قامت هذه الفرقة بعمليات تقتيل جماعي للمغاربة مسلمين ويهود، حيث كانت تخرج الأحياء من مخابئهم وتجهز عليهم، كما نظمت عمليات نهب وسلب للممتلكات، وارتكبت ما استطاعت أن ترتكبه من أعمال الفساد والإجرام. ويبدو أن هذه الأعمال الإجرامية، قد تقرر ارتكابها من طرف جيش الاحتلال، ليتمكن من إتمام عملية إرهاب المغاربة والقضاء على ما تبقى منهم بالمدينة خوفا من استمرار مقاومتهم. وهذا ما يفهم مما جاء في "نشرة إفريقيا الفرنسية"، التي تحاملت كثيرا على المغاربة قائلة "وكلف جنود اللفيف بتطهير المدينة من كل النهاب الذين لا زالوا فيها. ولم تدم المهمة طويلا. فكل مغربي ألقي عليه القبض، والسلاح بيده، يعدم. ونفس المصير لقيه أولا الذين أخذوا وهم يسرقون في الحوانيت المخربة. وقد أخرج كل الأهالي من الدور التي يحتلونها وأعدموا، وفي المساء، تبين أن الفرقة الأجنبية أدت مهمتها، وأن عليها أن تعوض"(69).

نلاحظ إذن، أن كارثة الدار البيضاء التي رأينا وجهها الدموي صباح 5 غشت، اناخت بكلكلها على سكان الدار البيضاء إلى حد ما وصفناه، ثلاثة أيام بلياليها. وإذا فوجئ المغاربة، وهم نيام، بأعمال الذبح والتخريب يوم 5 غشت، وإذا ضاقت بهم الأرض بما رحبت يوم 6 غشت نتيجة لتساقط القنابل بشكل عشوائي، لمنع المجاهدين من أحكام سيطرتهم على المدينة، فإن يوم 7 غشت وليلته، حملا فضائع جديدة من "رسل الحضارة". لقد أطلقوا ذئاب اللفيف الأجنبي، لا لتنظم الأمن، ولا لتحمي النظام، ولكن لتنشر الفزع والإرهاب، وتجهز على المحتضرين. وترتكب أنواع الفساد والسلب والنهب، تلك الجرائم التي الصقها المحتلون بقبائل الشاوية.

وقبل أن نتعرف على من تسبب حقا في أعمال السلب والنهب، يبدو من البليغ أن نورد ما كتبه أحد الملاحظين الأجانب لتأكيد الحقائق السابقة والتمهيد لما نحن بصدده

قال هذا الكاتب (70) واصفا الأفعال الإجرامية التي ارتكبها جنود اللفيف: "إن هؤلاء الشياطين ذبحوا كل نفس حية، كانت في متناولهم، مهاجمين ومندفعين إلى الداخل، ومخربين كل بيت، وكل حانوت أو مخزن وجدوه. وقد قرر شاهد على درجة كبيرة من الجدارة والتصديق، وقد عاش في البلاد منذ مدة طويلة، وكان حاضرا طوال هذه الأيام الدموية. فقرر أن الشدائد المفرطة والنهب الذي مارسه المغاربة أثناء القنبلة، كان وكأنه لا شيء إذا ما قورن بأعمال أولائك الشياطين. إن أعمال القتل والنهب استمرت حتى الليل فأوقف السكر أعمالهم الدامية".

هكذا يصف هذا الكاتب ما ارتكبه جيش الاحتلال بالدار البيضاء، وهو وصف لا يختلف عما نقلته نشرة إفريقيا الفرنسية إلا في الأسلوب وفي التهمة التي ألصقتها النشرة بالمغاربة، وهي تهمة السلب والنهب، فما هي حقيقة السلب والنهب الذي تعرضت له الدار البيضاء؟

جـ من هم المسؤلون عن النهب ؟ تتهم الروايات الفرنسية المغاربة، وخاصة رجال القبائل بنهب المدينة بعد القنبلة مباشرة أي منذ يوم 5 غشت، كما تتهمهم بأعمال القتل والسرقة(71). وهناك روايات ظاهرة التحامل والبطلان مثل ما أشاعه سان أولير(72)، من أن قنبلة المدينة جاءت نتيجة لتعرض الدار البيضاء للنهب، ورغم تكذيبه لهذه الرواية، فإن "آدم" اتهم بدروه المغاربة بارتكاب أعمال النهب والسلب والاختطاف(73).

وإذا كان من المنطقي، أن لا يقف سكان المدينة أو من وجد بها من البدويين، مكتوفي الأيدي، وهم يرون كل شيء يحرق ويخرب أمامهم بفعل النيران التي أشعلتها القنابل. ولذلك يبدو أن من استطاع حمل شيء والفرار به، قد فعل ذلك، وهو أمر مشروع لاستنقاذ ما يمكن استنقاذه. ومن المحتمل كذلك أن تمتد أيدي البدويين إلى ما يمكن أن يوجد في متناولهم من الأثاث والمتاع الثمين، وهم يرون كل شيء يدمر، ليس الأثاث والمتاع والمساكن فقط، بل الأبرياء من رجال ونساء وأطفال وعجزة. لكن ـ ومع إدخال ما ذكرنا في الحسبان ـ فإن ما ينبغي للتاريخ أن يسجله، وما ينبغي للمرء أن يؤكد عليه، توضيحا للحقيقة ودحضا للأباطيل والتزييف، هو أن المغاربة، إن قاموا ببعض أعمال النهب، بعد التخريب الذي تعرضت له مدينة الدارالبيضاء، فإن ما قاموا به لا يمكن مقارنته مع ما قام به جيش الاحتلال وعصابات الجالية الأجنبية.

إن النهب المنظم هو الذي مارسه الفرنسيون أنفسهم، مدنيون وعسكريون، ويطلعنا على هذه الحقيقة شاهد منهم، بقوله "كان علينا أن نذهب لننهب بدورنا حوانيت المدينة"(74)، وهو يشير إلى الحصار الذي ضربه المغاربة على الفرنسيين وإلى صعوبة الحصول على المواد الغذائية. وهكذا نظم الفرنسيون عمليات نهب بقيادة بعض ضباط البحرية. واستولوا على البضائع والمدّخرات الموجودة بالحوانيت(74مكرر). ولقد شاركت الجالية الإسبانية، وكان عدد أفرادها كثيرا نسبيا، في أعمال النهب وسلب السكان المرعوبين. أما جنود اللفيف فهم الذين قاموا بأبشع عمليات السطو، وارتكبوا أنواع الفساد في حق سكان المدينة من مسلمين ويهود. ولقد أثارت تلك الأعمال ضجة في الصحافة الدولية، حتى اضطر وزير خارجية فرنسا إلى تنبيه وزير الحربية. فكتب هذا الأخير (75) للجنرال درود قائد جيش الاحتلال، ليجيبه بتفصيل عن كثير من النقط التي تتعلق بتصرفات جيش الاحتلال مثل أعمال العنف والنهب، والإجراءات التي اتخذها درود لزجر تلك الأعمال، والنتائج التي توصل إليها "المجلس الحربي" لجيش الاحتلال. ثم ما طالب به درود ـ نظرا لأمور سياسية ـ من التخلي عن المتابعات "ضد العسكريين المتهمين بأعمال العنف والنهب والتي ارتكبت يوم الإنزال"

وقد اعترف درود بتلك الأعمال الإجرامية في جوابه (76)، مدّعيا أن سببها يرجع لسكر جنود اللفيف. كما اعترف بأنه استبدل فرقة اللفيف بجنود من القناصة. وبالرغم من سكوته عن جرائم جنود اللفيف، فإنه اضطر إلى التصريح بأن أربعة منهم ضبطوا، "اثنان دخلا المعسكر ومعهما قدر من الحوائج المنهوبة، والآخران اتهما بإطلاق الرصاص الأول على امرأة والثاني على فتاة، كلتيهما من

الأهالي... وأضاف متهما الجنود الإسبان بمشاركة الجنود الفرنسيين في أعمال النهب قائلا "وفي أثناء ذلك وقعت مشاهد النهب والعنف التي تعرض لها تقرير القائد "مانجان Mangin" بتاريخ 14 غشت، والتي ارتكبها، من جهة، السكان اليهود والإسبان، ومن جهة أخرى، الجنود الإسبان أنفسهم. وبالرغم من عودة الإنضباط بسرعة لقواتنا - يقول الجنرال - على عكس القوات الإسبانية فإن بعض الصحف تبحث لإثارة عدم الثقة في جنودنا، وتشن عليهم حملة قاسية" (77).

إن الأدلة السابقة لا تحتاج إلى تعليق. وهي كافية لإظهار زيف الأحكام المتسرعة والاتهامات المجانية، التي رددها بعض المؤرخين بما فيهم الأكاديميون المحدثون ولم ينتبهوا إلى أنها أكاذيب دبلوماسية لا غير.

فقد علق شارل أندري جوليان (78) على صورة لزقاق مليء بالجثث والأثاث قائلا "زقاق بعد مرور النهاب وقنبلة مدمراتنا" وكأن النهب وقع قبل القنبلة، وكأن النهاب كانوا مغاربة.

وكتب طراس، ملخصا الحادثة في الجملة الآتية

"وهكذا انطلقت العمليات الحربية، فنهبت القبائل المدينة، التي قنبلتها السفن الحربية الفرنسية، وقتلت بعض سكان المدينة" (79).

واتهم مؤرخنا، ابن زيدان، المغاربة مدنيين وعسكريين، بنهب المدينة لا بعد حدوث القنبلة يوم 5 غشت بل قبلها أي بعد حادث 30 يوليوز. إذ كتب يقول "ثم إن أولائك الهمج لم يقفوا بخبثهم عند ذلك الحد (أي عند قتل العمال الأجانب)، بل دخلوا البلد، ومدوا يد النهب والقتل، وجاسوا خلال الديار والأسواق وعززهم من استهوته الشياطين ممن هو على شاكلتهم من العسكر المخزني" (80) !

وبالجملة، يمكن التأكيد، على أن أعمال النهب قد شارك فيها في البداية، بعض،سكان المدينة، إثر العمل التخريبي للقنابل، ثم البدويون الذين صادفهم الحال بالمدينة، ثم اليهود، وبعدهم قام بأعمال النهب المنظم المدنيون الإسبان والفرنسيون، وأتم الجنود الفرنسيون العملية بعد احتلال المدينة(81).

هوامش الفصل العاشر

1- A.M.V. BB4 2602, Ollivier au ministre de la marine, 2 Aout 1907.

2- G. Bourdon, Les journées de Casablanca, op. cit, P. 40.

3) - التقرير المذكور في هامش 1

4) - نفس التقرير.

5- F.O. 174-253, N° 175, Aout 1907.

6- Ibid.

7) - هامش 1.

7 مكرر) - بخلاف ما يراه أندري آدم، من أن تعليمات أولير كانت مخالفة لما أقدم عليه قائد البارجة.

8) - بوردون، ص 43.

V. Berti, Les événements de Casablanca, op. Cit. P. 17.

9- C. Houel, Mes aventures marocaines, op. cit, P. 21.

E. Vincent, Notes, d'un temoin, A.F., 1907, p. 335.

10- F.O. 174. 253, N° 165, August 4, 1907 Madden to Lawther.

11- A. Adam, Histoire, op. cit., PP; 121-126.

12- A.M.V. BB4 2602, Ollivier à Philibert, 9 Aout 1907.

13- V. Berti, op. cit, P. 18. Bourdon, P. 68.

14- A. Adam, op. cit, P. 122.

15- Houel, op, cit, P. 23.

16- V. Berti, op. cit P. 18.

17- F.O. 174-253, N° 166, August 5, 1907 Madden To Lawther.

18- GP. TR. FR. T. XXX, Tanger, 19-8-1907, d'après Guenane, les relations Franco-Allemandes, op. cit., P. 207.

19- R. Rankin, au Maroc avec le général d'Amade, PP. 272-273.

20) - عبد الرحمان بن زيدان، 1. 423-424.

21- F.O. 174 - 253, N 172 bis, 4 Aout 1907,

22) ـ تختلف الروايات في تقرير عددهم بين 66 و 100 بحار.

23) - C. Houel, op. cit, p. 26.

V. Berti, op cit, P; 18.

24) - A. ADAM, op. cit P. 128. Houel, P. 26.

25) ـ الواقع أن الروايات الفرنسية سواء أكانت تقارير أو مذكرات، فإنها تختلف حول هذا الأمر، مما يبين تهافتها، ويفضح رعبتها التبريرية ويسمح بالتالي بعدم قبولها، قارن خاصة

R. Maigret, infra. note 38.

E. Vincent, op. cit.

V. Roberti, op. cit.

26) - C. Grasset, "A travers la chaouia avec le corps de debarquement de casablanca", (1907-1908), Paris, 1909, P. 26.

27) - A.E.P., M. NS, 45, p. 190-191.

28) ـ هامش 24.

29) - A.M.V. BB4 2602, P. 261-262.

30) - Ibid, BB4 2602, Kouffemann, 20 Aout 1907.

31) - Guenane, op. cit, P. 207.

32) ـ التقرير المذكور، 9 غشت 1907.

33) - A.ADAM, op. cit. P. 128.

34) ـ انظر أسفله، ص 309.

35) - C. Houel, op, cit, P; 27.

36) - E. Vincent, op, cit, p. 335.

37) - Conjeaud, op. cit. p. 50.

38) - Roger Maigret, "La Journée du 5 Aout 1907 à Casablanca", B.O. supplément au N° 254, 30 Sept, 1917.

39) ـ عبد الرحمان بن زيدان، الاتحاف 1، 424-425.
ـ محمد غريط "فواصل الجمان"، مرجع سابق.

40) - Grasset, op. cit. p. 20.

41) - تقرير أوليفيي، 9 غشت 1907.

42) - Houel. op. cit. P. 28.

43) - Conjeaud, op. cit. p. 52.

44) - Houel, op. cit. p. 32.

45)- جاء في رسالة القنصل البريطاني للقنصل الفرنسي

"سيدي وزميلي العزيز إن الشريف مولاي الأمين قد بعث يتوسل إلي، لأتدخل لديك لإيقاف القنبلة، إنهم يقولون أنهم يريدون تسليم المدينة لكم، هل تستقبلون المبعوثين"

F. O. 174-253, August, 1907, N° 166 bis.

46)- التقرير المذكور في هامش 12.

47)- محمد الطريس إلى محمد غريط 8 رجب 1325 - 17 غشت 1907. خ ع ك 2720.

48) - تسويد مؤرخ بـ 27 جمادى الثانية 1325 / 7 غشت 1907 محفوظ بوثائق دار النيابة، تطوان 170/40.

49)- عبد الرحمان بن زيدان، الاتحاف جزء 1، ص 424.

50) - A.F. 1907, P. 329.

51) - Loc, cit.

52) - Ibid.

53) - A.M.V., BB4 2602, Rapport Ollivier, 9 Aout 1907.

54) - هويل، مرجع سابق ص. 34.

55) -

F.O. 174 - 253, August 6, 1907.

A.M.V. BB4 2602, Rapport du Commandant de DU Chayla, 13 Aout 1907.

56) - تفضل المرحوم الحاج أحمد كنوني المذكوري باطلا عنا على مسودة قصائده حول المقاومة المغربية قديما وحديثا.

57)- التقرير المذكور في هامش 53.

58)- التقرير المذكور في هامش 55.

59) - نفس التقرير.

60) - نفس التقرير.

61) - نفس التقرير.

62) - A.G.V. 3 H, 23, Amiral Philibert à la marine, 9, Aout 1907.

A.M.V. BB4 2507 - Amiral a s. Aulaire, 8 Aout 1907.

63) - مرجع هامش 48.

64) - أنظره في

A.M.V. BB4 2602, BB4 2507, Amiral à marine, 8 Aout 1907.

65) - الاتحاف 1، 424-429.

66) - نفس المرجع والصفحات.

67) - بورلون، 153-155.

68) - سلامبو Salambo رواية كتبها فلوبير سنة 1862. وصف فيها حرب قرطاجة ضد مرتزقتها الثائرين عليها.

69) - A.F. 1907, P. 329-330,

70) - Extract form à private, Letter dated Tangier, 15 th August, 1907.

عن صورتها المحفوظة (ب ع س)

71) - Houel, op. cit. 28-29.

72) - S. Aulaire op. cit. p. 180.

73) - A. Adam. op. cit. p. 32.

74) - Houel, op. cit. p. 32.

74 مكرر) - نفس المرجع والصفحة.

75) - من وزير الحربية إلى الجنرال درود 29 غشت 1907.
A.G.V. 3 H 76-

76) - جواب درود لوزير الحربية 9 شتنبر 1907.

77) - Ibid, 3 H 76

78) - C. A. Julien, Histoire de l'Afrique du Nord, Paris 1931, P. 713 et p. 734.

79) - H. Terrasse, Histoire duMaroc, 2, p. 392-3.

80) - عبد الرحمان بن زيدان، الاتحاف 1، 423.

81) - F.O. 174/253 N 188, Madden to Lowther, August 13, 1907

"The shops and stors suffered at the hands of many sets of looters in succession. First After the bombardment of the Town it self Coased, the Townspeople looted, the Arabs, thene the spanish civilians and lastly the French soldiery"

الفصل الحادي عشر

نتائج الحادثة

أولا حجم التخريب الذي أصاب المدينة

لقد وجهت قذائف البوارج منذ البداية، إلى الحي الشعبي المعروف بحي التناكر. وكان حي التناكر محاذيا للمرسى، كما كانت أغلبية مساكنه مبنية، بالطوب والقصب، ومغطاة بالتبن. وكان معظم سكانه من الفقراء، الذين يكونون غالبية سكان المدينة، الذين هاجروا حديثا من البوادي المجاورة(1).

وبما أن القذائف، كانت من نوع "المليتيت" Milinite الاشتعالي فقد التهمت النيران معظم أكواخ الحي، وأتمت بذلك، عمل القذائف التدميري "إن القنبلة التي قامت بها بوارجنا - يقول أحد الكتاب - حملت النار والدمار للحي العربي... إن الحي العربي المكون من كوربيات وتوايل، والمكون أيضا من مباني جميلة، قد دمر، وأحرق بواسطة القنابل"(2).

ولم يقتصر التخريب، على حي التناكر وحده، بل تعرضت الأماكن التي كان يتجمع فيها المغاربة، كالأسواق وأبواب المدينة، للقنبلة والتخريب. ولم ينج في الواقع من أثر قنبلة البوارج إلا الحي الأروبي، حيث كانت تقع مباني القنصليات.

إن الدار البيضاء "بعد أن كانت في السابق مدينة مزدهرة، تحولت إلى أرض مغطاة بالخرائب. وبالفعل فلم ينج من التخريب، ولو مخزن واحد في كل

المدينة. وقد هربت آلاف العائلات، وأصبحت آلاف أخرى بدون مأوى. وخيم في كل مكان بؤس لا يمكن وصفه"(3). وقد وصف "كونجو" أثر القنابل التخريبي بقوله "لقد شقت الدور وتساقطت الحيطان وارتفعت غيوم الغبار، وانتشر دخان النيران التي اشعلتها القنابل أو النهاب، في كل اتجاه"(4)

إن حجم التخريب الذي نتج عن قنبلة الدارالبيضاء، فاق حدود التصور والمنطق، علما بأن ما حدث، أصاب مدينة مسالمة، وأثار اشمئزاز الملاحظين الأجانب، بقدر ما أثار فزع السكان المغاربة والجاليات الأجنبية بالمدن الأخرى. وهذا ما عبرت عنه رسالة خاصة، كتبها أحد الإنجليز يصف فيها ما حل بالمدينة وأثر ذلك على سكان طنجة إذ قال "إن كل سكان طنجة من غير الفرنسيين قد ملأهم الفزع والاشمئزاز، لتلك الفضائع الفاحشة التي ارتكبها الفرنسيون في الدار البيضاء. هذه المدينة الساحلية التي ازدهرت في يوم من الأيام، وكانت تضم ما يقرب من ثلاثين ألف من السكان، قد قنبلت وخربت ونهبت وأحرقت بإسم الحضارة، وذلك على يد القوات المنتمية إلى دولة أروبية تسمى نفسها متحضرة"(5).

ثانيا تقدير عدد القتلى

لا شك أن التخريب المشار إليه سابقا، كانت له عواقب وخيمة من حيث الخسائر في الأرواح. والسؤال المطروح هو هل يمكن تقدير عدد قتلى الكارثة التي حلت بالدار البيضاء؟

إن المثير في الأمر، هو أن مختلف المصادر الفرنسية، سواء كانت تقارير أو رسائل أو مذكرات أو حتى بعض الدراسات قد ضربت صفحا عن الاهتمام بتقدير عدد القتلى. وإذا كان موقف تلك المصادر مفهوما، يتلخص في التغطية على حجم الكارثة ومحاولة نسيانها، فإن المصادر التاريخية المغربية على قلتها، لم تحاول. فيما يبدو - حتى الاهتمام بالإشارة إلى عدد الذين نكبوا بالدار البيضاء. وهكذا اكتفى صاحب "تاريخ الدار البيضاء"، بالإشارة في معرض كلامه على القتلى، إلى أن عدد اليهود الذين قتلوا، يصل إلى 30 ضحية "أما عند المسلمين - يضيف الكاتب - فإن عدد الخسائر غير معروف ولو بكيفية تقريبية. ولكننا نعلم أن جثثا كانت تنتن بعض الأحياء. وأن أول مهمة كلف بها "مانجان"، الذي كان مكلفا بالبوليس، هي تنظيم أعمال السخرة لنقل ودفن تلك الجثث"(6). أما الصحافي "بوردون" فحصر الضحايا بين 600 و 1500 ضحية(7) فقط، وهذا التقدير هو الذي أورده شارل أندري جوليان(8).

لكننا إذا تذكرنا أن سكان الدار البيضاء، قد تعرضوا للقتل بفعل القنابل والانقاض، ثم بفعل الحرائق التي نتجت عن انفجار القذائف، وكذلك تعرض الكثيرون للقتل برصاص البحارة وجنود اللفيف. إذا تذكرنا كل ذلك، فإن حجم القتلى لن يقف عند التقديرات السابقة بدون شك.

جاء في تقرير قدمه "مانجان" قائد البوليس، للجنرال "درود Drude"، قائد جيش الاحتلال بتاريخ غشت 1907 ما يشير إلى بعض التقديرات حيث قال "وباتفاق مع سي علال بن عبو(9)، بدأت جمع ودفن الجثث. لقد استعملنا كل الأيدي المتوفرة من المسلمين، والإسرائليين، كما أوقف النهاب واستخدموا كذلك. لقد دامت العملية عدة أيام. ولقد دفنا 300 مغربي مسلم تقريبا و 300 يهوديا. وكل يوم نكشف جثثا أخرى، تحت انقاض المنازل أوفي الحدائق"(10)

إن مانجان في هذا التقرير لا يستطيع إلا أن يقدر. ولكنه لم يعمد إلى إحصاء دقيق للجثث، لأن ذلك لم يكن بإمكانه، نظرا لكثرة الجثث التي كانت تدفع دفعا إلى العربات، وترمي في الحفر وهي متراكمة ومتداخلة في بعضها بعد أن مرت عليها أيام وتحللت. ثم إن الجثث المشار إليها، كانت منتشرة في الشوارع والأماكن العمومية، ولكن مابال الجثث التي دفنت تحت الانقاض والتي اختفت بفعل النيران في حي التناكر؟ !

وقد طالب مانجان في تقريره السابق، أن توفر ميزانية خاصة، لتأدية أجور نقدية لأولئك المغاربة البؤساء، الذين فرضت عليهم أعمال السخرة مقابل قسط من الخبز والسميدة، وإلا استحال استمرار أعمال جمع الجثث ودفنها، وهي أعمال كانت ضرورية لإتمام عملية تنظيف المدينة من الجثث. ووصف "بوردون" المدينة بعد الكارثة، فقال "إنه الفراغ في كل مكان والسكون المؤثر في القلوب، الذي يشبه سكون المقابر"(11). وقال هويل : " إن مظهر المدينة غداة الإنزال، يتعدى ما يمكن للمرء أن يتخيله من فضاعة. إن الأزقة الضيقة مليئة بنتانة تؤدي إلى الاختناق"(12)

وإذا تذكرنا المذبحة التي وقعت بالسور الجديد، فيظهر من كل ما سبق أن عدد القتلى، يتعدى بكثير التقديرات المتواضعة السابقة. فقد أشار شاهد عيان، إلى وجود أكثر من 2000 جثة بالمدينة وجوانبها، وتساءل عن الجثث التي يمكن العثور عليها إذا ما فتشت كل الانقاض(13). وأما التقارير الألمانية فقدرت عدد القتلى بين 2000 و 3000 (14). لكن الملاحظ الإنجليزي المشار اليه، له رأي آخر في تقدير عدد الضحايا إذ كتب يقول "من ثلاثين ألف من السكان، تبعا لشاهد

عيان كان موجودا إبان المذابح، لم يتبق إلا حوالي مائتين بالمدينة. من الآلاف الباقية، آلاف من رجال أبرياء ونساء وأطفال صغار، يهود ومغاربة سيان، قد مزقوا إربا إربا بواسطة قنابل الملينيت، وبقروا بالحراب، وأردوا بالرصاص بينما كانوا يفرون من الموت، وبعد أن استنفذت القنبلة أسوء ما عندها، كانوا يخرجون من مخابئهم ويقتلون بكل هدوء بواسطة أعوان اللفيف الأجنبي الذين أطلقوا على المدينة" (15).

وتدعي الروايات الفرنسية أن اليهود المغاربة لم يقتل منهم إلا 30 شخصا، ويبدو أن هذا التقدير اكتفى بما ذكره مانجان في تقريره السابق. لكن ابن زيدان يقدر عدد القتلى بـ 40 ضحية. في حين أن الملاحظ الإنجليزي المذكور يقول "إن بضعة آلاف من اليهود، فروا من منازلهم المحطمة إلى ملجإ وهمي على حافة البحر خارج خط النيران، وحالما شوهدوا من السفن غمروا بوابل من القذائف المحرقة" (16).

ويبدو أن هذه الإشارة، التي ينفرد بها هذا الملاحظ، الذي اعتمد على رواة حضروا الأحداث، تعني يهودا التجئوا إلى السور الجديد مع من التجأ إليه من سكانالمدينة. كما يؤكد "فانسان" VINCENT، وكان شاهدا للأحداث أن اليهود والعرب هربوا من الأحياء المدمرة، يقوله "وانتشرت الجثث فوق الأرض وهرب اليهود والعرب هائمين في البادية وخلت الأحياء، وفي 7 غشت صباحا كان المشهد مفزعا" (17).

إن هذه الروايات تؤكد كذلك حقيقة هامة، وهي بطلان التهمة الموجهة إلى سكان القبائل الذين اتهموا باختطاف بعض سكان المدينة من اليهود والمسلمين على السواء، فلا يعقل أن يفر اليهود وغيرهم من السكان إلى البادية وفي الوقت نفسه يكون البدويون معادين لهم. وتؤكد بعض التقارير القنصلية، أن اليهود خلال الأحداث ومنذ 30 يوليوز لبسوا اللباس المحلي المغربي، حتى لا يأخذهم البدويون على أنهم فرنسيين، وفي الوقت نفسه لبسوا القبعات حتى لا يأخذهم الفرنسيون على أنهم عرب. ومعنى هذا، أن الفرنسيين، وخاصة جنود اللفيف والبحارة، قد تسببوا، بجانب القنبلة، في قتل كثير من اليهود المغاربة، عندما كانوا لا يميزون بين سكان المدينة. ويجب التنبيه كذلك إلى أن معظم الضحايا اليهود كانوا من البؤساء ومتوسطي الحال، الذين هاجروا من قراهم بالشاوية أو بالجنوب. أما اليهود المحميون والمتجنسون، فقد التجأوا منذ الأيام الأولى إلى السفن الراسية مع الجالية الفرنسية.

التقديرات المغربية للقتلى لا توجد أية تقديرات لدى المؤرخين المغاربة الذين عاصروا الأحداث، مثل ابن الأعرج أو ابن زيدان، وغيرهما. ومع ذلك تمكنا من العثور على بعض الإشارات المفيدة في هذا الباب.

فقد جاء في التسويد المؤرخ بـ 27 جمادى الثانية 1325 (19) الموافق 7 غشت 1907. الذي سبق الاستشهاد به في أحداث القنبلة، تقدير لعدد القتلى من الجنود المغاربة. إذ حصره في 150 عسكريا. وإذا لا حظنا أن التقدير المذكور يهم قتال يومي 5 و 6 غشت، فهمنا المقصود من ذلك العدد. ولقد ذكرنا ـ سابقا ـ أن مراكز الحراسة التي نظمها مولاي الأمين بين باب المرسى والقنصلية الفرنسية كانت ثلاثة، أحدها كان مكلفا بحراسة القنصلية. كما أشرنا إلى أن قائد "كاليلي" ذكر أن بحارته قتلوا 60 من المغاربة، ولم يشر إلى قتل الجنود الذين كانوا يحرسون القنصلية. وقد أوردنا رواية "كونجو"، التي ذكرت أن عدد أولئك الجنود كان 35 جنديا وأن معظمهم قتل. ونتيجة لكل هذه الحقائق، فالرواية الفرنسية لا تذكر إلا 95 من القتلى الذين قتلوا صباح 5 غشت، ولكن يبدو أن مراكز الحراسة، لا يمكن أن يقل عدد أفرادها عن 50 جنديا للمركز الواحد ولا يتعدى 100. ويظهر أنه كان بين 50 و 60 جنديا فيكون مجموع جنود الحراسة يتراوح بين 150 و 180 على أقل تقدير. ولذلك كله فالتقدير المشار إليه في الوثيقة السابقة، وهو 150 قتيلا من الجنود المغاربة، يبدو صحيحا، وهو يعني الجنود المغاربة الذين قتلوا يوم 5 غشت 1907. ويبقى التساؤل عن عدد الجنود الذين قتلوا بالمحلة المخيمة بالسور الجديد ؟ إن المصادر المتوفرة لا تجيب على هذا التساؤل.

أما عدد قتلى سكان المدينة، فيمكن أن نأخذ عنه فكرة إجمالية، مما ورد في رسالة هامة، بعثها الوزير الأكبر لمولاي عبد الحفيظ، عقب بيعة هذا الأخير في 15 غشت 1907، إلى عميد الهيأة الدبلوماسية بطنجة، بتاريخ 7 رجب 1325 الموافق 16 غشت 1907. فقد احتج فيها على قنبلة الدار البيضاء، "التي تعرض سكانها للعنف والاعتداء بحيث قتل منهم 6000 نسمة" (20)، حسبما جاء في الرسالة.

هذه أهم الروايات التي تعرضت لتقدير عدد قتلى كارثة الدار البيضاء. وإذا كنا لا نستطيع ـ نظرا لقلة المعطيات ـ أن نحدد بدقة الخسائر في الأرواح، فالذي لا شك فيه، أن سكان المدينة الذين كان عددهم يبلغ حوالي 30000 نسمة، لم يبق منهم إلا عدد قليل، والباقي قتل أو تشتت في البوادي المجاورة.

وفي الأخير، هل بإمكاننا أن نقدر حجم الخسائر المادية، التي نتجت عن تخريب مدينة وتحويلها إلى "أرض مملوءة بالخرائب والجثث؟" وهل يمكن تقدير حجم التعويضات التي يمكن أن تعوض ما خرب ومن قتل؟ لقد سعى المحتلون إلى تعويض خسائر التجار الأجانب وبعض المغاربة، ولكن كم كانت خسائر الأسر التي اختفت بأجمعها، أو التي خلفت بعض الحمقى والمجانين والمشردين؟ على كل حال يمكن للمرء أن يقرأ ما كتبه الطاهر بن محمد بن عبد السلام الأوديي، حول موضوع خسائر المغاربة، ويتأمله مجرد تأمل، ودون تعليق. لأن الرجل ـ فيما يبدو. كان يحلم وهو يوجه كلامه إلى رجال الدولة البريطانية ويأمل تدخلهم لإنقاذ المغاربة من الاحتلال الفرنسي. قال الأوديي، بأسلوبه القريب من العامية(21)

"فقد تئملتم وتحكمتم في تقييد مقالاتنا، بحجاجها صحيحة [ ] على فرنسا احتوات على مراسي المغرب بسلاف خمسين مليون، بطلوعهاعشرة صارت ستين مليون فرنك. وزادت ثانيا احتلت وسط المغرب الشاوية بسبب مقتلة سبعة أجنبيين بنايين في البحر جسر مرسى الدارالبيضاء. مع أن هذه المقتلة ارتكبها المعمرون الفرانساويون بإشارة إخوانهم الحربيين، نزلوا في الحين من الفركطة، قتلوا كل جائز في طروق المدينة وخاريجها، رجال ونساء وصبيان ماتوا بكور المدافيع من القرصان الأبيض. فقد تحمل على المتسلطين الهاجمين مليارين فرنك عن هذه الخسارة الفادحة التى عملت فرنسا"

إن المغرب الضعيف، المغلوب على أمره، لم يطالب ولو بمليون واحد من هذه "الملايير بل طالب أعداؤه الذين هاجموه وخربوا مدينة تعتبر واسطة العقد بين ثغوره، بأن يعوض لهم، ثمن الرصاص والقنابل والنقل والقتلى الذين سقطوا منهم. ويعوض الخسائر التي تكبدها التجار نتيجة للقنبلة واحتلال الجيش للعقارات. وسعوا إلى تكوين لجنة دولية لتقدير التعويضات التي ينبغي للمغرب أن يدفعها(22)

ثالثا النتائج السياسية للحادثة

لقد أثرت حادثة الدار البيضاء، وما نتج عن قنبلتها تأثيرا كان له صداه في مختلف فئات الشعب المغربي.

ويظهر أن الفاجعة كانت كبيرة ـ كما سبق أن أشرنا لذلك ـ بحيث يكفي لإبراز خطورتها، أنها كانت سببا مباشرا لما حدث من تغيير على مستوى الحكم في المغرب. فقد دفعت هذه الحادثة مولاي عبد الحفيظ أخا السلطان عبد العزيز وخليفته بمراكش إلى إعلان بيعته سلطانا بالمدينة، وعزل أخيه من الملك(23). كما

وجد سكان فاس وعلمائها في احتلال الدار البيضاء، الذريعة التي اعتمدوا عليها لإعلان بيعتهم لمولاي عبد الحفيظ.

ومما يثير الإنتباه، أن التذمر والاستياء الذي أشرنا إليه، لوحظ كذلك بين الجنود المغاربة. ويظهر أن سقوط إخوانهم ضحية الغدر بالدار البيضاء، ساهم في زيادة حنقهم ضد الفرنسيين. وتطلعنا رسالة بعثها المكلف بالأشغال الفرنسي بطنجة إلى وزير الخارجية بتاريخ 25 غشت 1907، على هذه الحقيقة، كما تطلعنا على عداء هذا الموظف لكل مغربي يبدي عواطفه المعادية للاحتلال الفرنسي. فقد كتب "سان أولير" إلى الوزير، يخبره بالحالة التي يوجد عليها جنود طنجة، من تذمر وإثارة، نتيجة لأحداث الدار البيضاء وبيعة عبد الحفيظ. وأنه يتخوف من قيام أولئك الجنود بالهجوم على الأروبيين بالمدينة. وجاء في آخر الرسالة قول المكلف بالأشغال "ولقد وعدني الجباص بتسريح كل الجنود الذين ينتمون لقبائل الشاوية بدون تأخير. وهو يتكفل بأمن طنجة مقابل تأدية أجور الجنود بكيفية منتظمة" (24). وهكذا يظهر، أن العواقب السياسية للحادثة، لم تقتصر على ما حدث من تطورات داخل المخزن المغربي، بل نجد الفرنسيين يلجأون إلى معاقبة كل من أظهر عواطفه الوطنية المتضامنة مع إخوانه، والمعارضة لتصرفات الفرنسيين. وأول من أصابته مصيبة كارثة الدار البيضاء. قائدها أبو بكر بن بوزيد السلاوي.

محاكمات تعسفية

1 من هو أبو بكر بن بوزيد من أسرة سلاوية، انخرط في وظيفة الأمانة منذ 1884 ثم رشح بعد ذلك لأمانة الدار البيضاء وقيادتها، وهما وظيفتان كان لا يتولاهما إلا المقتدرون من المغاربة. وقد تولى ابن بوزيد قيادة الدار البيضاء مرتين أولاهما من سنة 1898 إلى 1900. الثانية من سنة 1905 إلى 1907. وبين الوظيفتين كان يتولى منصب أمين بديوانة مرسى الدارالبيضاء.

في سنة 1906، اتهم القنصل الفرنسي، أبا بكر بن بوزيد بالتواطؤ مع أتباع ماء العينين، وطالب بعزله من منصبه(25). وبمناسبة حادث 30 يوليوز 1907، اتهم الفرنسيون القائد، تارة بالعجز واللين، وتارة أخرى، بالتآمر والتواطؤ ضد الفرنسيين بدعوى أنه لم يقم بأي شيء لمنع وقوع الحادث المذكور(26). ونتيجة لهذه الاتهامات، ذهب أبو بكر بن بوزيد ضحية للسياسة الفرنسية بالمغرب سنة 1907. فقد عامله المحتلون معاملة سيئة، ثم ألقوا القبض عليه، وسجنوه بالجزائر.

وقد تدخل النائب، محمد الطريس لدى المخزن، منبها إلى براءة الرجل مما أتهم به، وموضحا بأن الدفاع عنه من مسؤولية المخزن، الذي يجب أن لا يسكت على ما يتعرض له موظفوه من إهانات(27).

ومن الجدير بالذكر، أن القائد المذكور، قد أطلق سراحه، بعد شهور من الحجز، دون أن ينال منه الفرنسيون شيئا، ودون أن تثبت إدانته بشيء، مما يؤكد بطلان التهم التي أتهم بها(28). لكنه تضرر من كارثة الدار البيضاء، نتيجة لضياع ماله ومتاعه(29). ليس في شخصه فقط، بل حتى في نهب داره وضياع ماله ومتموله. كما يفهم من رسالتين بعثهما للقائد عبد الله بن سعيد أحد أعضاء لجنة تعويضات الدار البيضاء الدولية(30).

2. محاكمة زعماء الحركة الشعبية بالدار البيضاء

كما تعرض بعض الزعماء، الذين وجهت لهم التهم، "بالتحريض ضد الأجانب"، ودفع السكان إلى معارضة المشاريع الفرنسية. تعرض هؤلاء إلى السجن بدورهم وصودرت أملاكهم. وكان على رأسهم قائد أولاد حريز، الحاج محمد بن الحاج حمو، والحاج الحسين بن محمد الزياني والحاج سليمان بن عبد الله الزياني. وكان هؤلاء من أعيان الدار البيضاء كذلك.

ـ الحاج محمد بن الحاج حمو

كان الحاج حمو بن أحمد بن الجيلالي، خليفة للقائد عبد السلام بن رشيد على المذاكرة وأولاد علي. وإثر حوادث 1903 بالشاوية، وعندما توفي القائد المذكور خلال حركته مع السلطان لبوحمارة، تدخل خليفته الحاج حمو، وتمكن من تولي القيادة فترة قصيرة على أولاد حريز والدار البيضاء. وقد كان الحاج حمو قائدا على المدينة سنة 1905/1323، حسبما يفهم من رسالة عزيزية هامة، وجهت له، وللأمين أبي بكر بن بوزيد السلاوي وللمحتسب عبد الكريم بنكيران، لإحصاء أملاك المخزن بالمدينة(31).

وعقب وفاته التي كانت سنة 1905، عين الأمين ابن بوزيد عاملا على المدينة. وتدعي الروايات الفرنسية، التي سبق أن تعرفنا عليها، أن الحاج محمد بن الحاج حمو غضب من كون المخزن لم يعينه عاملا مكان أبيه على المدينة، ولذلك أثار السكان البدويين ضد القائد الجديد وضد الأجانب بالمدينة. والواقع الذي يجب إثباته، هو أن الحاج محمد، الذي تنعته المصادر الأجنبية، "بولد الحاج حمو"، كان من الزعماء الشعبيين بالشاوية خلال انتفاضة 1903. وقد رأينا أنه كان مقدما

للرماية في قبيلته أولاد حريز، وكذلك في قبيلة المذاكرة وأولاد علي. وهذا المنصب يجعل الرجل من الساهرين على مصلحة الجماعة، والمعارضين للاستغلال الأجنبي، الذي برز في شكل الحمايات والمخالطات، وفي شكل ديون التجار الأروبيين على سكان الشاوية، وفي هذا المجال نشير إلى أن الرجل كانت له خلافات مع هؤلاء التجار حسب ما يفهم من هذه الرسالة

"(خديمنا الأرضى القائد محمد بن الحاج حمو الحريزي)... قد اشتكى على شريف أعتابنا اليهوديان "أزلاي" و "ابن ريمره" [؟] محميا الطليان، بأن لهما عليك أربعة عشر ألف ريال وسبعمائة ريال، وبيدهما أملاك لك في الدار البيضاء مرتهنة، وطالت المدة ولم تنصفهما. وعليه فنأمرك أن تنصفهما فيما لهما عليك وتعجل بذلك لتريح وتستريح والسلام في 22 محرم عام 1325" (32)

ونظرا لمعارضة الرجل للتسرب الفرنسي والاستغلال التجاري ولكونه كان زعيما من زعماء الانتفاضة، فقد وجهت له التهم بالتحريض ضد الدار البيضاء. ونسب ذلك إلى رغبة الرجل وطموحه في تولي قيادة المدينة. والواقع - فيما يبدو لنا - وكما أكدنا ذلك مرارا أن الرجل كان من المعارضين للتسرب الأجنبي مثله في ذلك مثل المرابط محمد بن الطيب البوعزاوي وغيرهما من زعماء الحركة الشعبية المناهضة للتدخل الأروبي بالشاوية. وقد عرف "مارتان" القائد المذكور بقوله "ولد الحاج حمو ابن لعامل الدار البيضاء السابق ومهيج كبير [...] وهو صديق للبوعزاوي ولمولاي احفيظ وزعيم مفترض للمذاكرة وأولاد حريز وأولاد علي، الذين دفعهم لتخريب دار ابن رشيد في غشت 1906 وكذلك لأولاد زيان الذين حرضهم على تخريب دار العايدي في يناير 1907" (33)

إذن، كان الحاج محمد من زعماء انتفاضة الشاوية ضد التسرب الأجنبي، وضد سياسة المخزن تجاه هذا التسرب. ولذلك لما وقعت أحداث الدار البيضاء واحتلها الفرنسيون، بدأوا يبحثون عن كل معارض للتدخل الفرنسي، وعلى رأسهم قائد أولاد حريز الذي ألقي عليه القبض بعد احتلال قصبة ابن رشيد. وقد تمكن المحتلون كذلك من إلقاء القبض على حوالي 11 مغربيا اتهموا بالتحريض مع الحاج محمد المذكور. وهؤلاء المغاربة هم (34)

- الحاج الحسين بن محمد الزياني، المدعو حسين الزياني.
- الحاج سليمان بن عبد الله الزياني، المدعو سليمان ابن البوح الزياني.
- محمد بن العربي، المدعو سحور Sohor، وهو البراح الذي اتهم بالمناداة بمقاطعة الأجانب يوم 30 يوليوز وهو من أولاد حريز.

- الحسن بن الربلة المدعو الكبير.
- حميدة برغوت.
- بوشعيب بن الحاج الفايدى.
- امحمد بن امحمد البيضاوي.
- فتاح بن مسعود.

كما اتهم آخرون مع بعض من سبق بقتل العمال يوم 30 يوليوز وهم
- الجيلالي ولد الحاج عبد الله، ألقي عليه القبض يوم 7 غشت.
- البشير بن محمد، ألقي عليه القبض يوم 7 غشت.
- بوشعيب بن عبد القادر، ألقي عليه القبض يوم 9 غشت.
- سي محمد بن امحمد بن محجوب، ألقي عليه القبض يوم 10 غشت.
- سي محمد بن محمد العيادي، ألقي عليه القبض يوم 19 غشت.

وقد سجن هؤلاء الخمسة بسجن المدينة، ولا ندري المصير الذي تعرضوا له.

ونفهم من رسالة بعثها "رينيو" Regnault إلى وزير الخارجية "بيشون"، حول "معاقبة اعتداءات الدار البيضاء"، نفهم أن وزير الحربية الفرنسي سمح لضباط جيش الاحتلال بالقيام بمتابعة "الأفعال الإجرامية"، المزعومة ضد "عدد كبير من الأهالي متهمين بالقتل، والعنف والنهب خلال الأيام الأولى التي تبعت إنزال قواتنا"، كما قال رينيو. وأضاف بأن البحث انتهى إلى ثلاثة أحكام أعلنت بتاريخ 21 و 22 أبريل 1908.

كما أشار لأسماء الذين حوكموا، فلم يذكر إلا 4 منهم، وهم

1. المدني بن محمد بوطيفي Boutifi، "اتهم بالانتماء إلى عصابة من الأشرار"، والقتل، حكم عليه بالأشغال الشاقة.
2. أحمد بن عيد، نفس التهمة، حكم عليه بالإعدام.
3. أحمد بن قوداري، اتهم بالإنتماء إلى "عصابة من الأشرار والسرقة". حكم عليه بخمس سنوات سجنا.
4. أحمد بن البشير، المتهم "بالمشاركة مع السابقين" بريئ.

ثم انتقل رينيو للمتهمين الإحدى عشر الذين اتهموا "بالتحريض" فقال "وقد أثير انتباهنا إلى قضية تهمنا [وزارة الخارجية] مباشرة وهي قضية الذين ألقي عليهم القبض واتهموا بالمشاركة في أحداث 30 يوليوز [...]. والمشكل المطروح هو هل يطبق على هؤلاء نفس العقاب الذي طبق على المتهمين

في أحداث ما بعد الإنزال. وإذا تأكد العكس، وإذا سلموا للسلطات المغربية، فيخاف أن تبرئ ساحتهم في الظروف السياسية الحالية"(35).

وهكذا يظل "رينيو" والشبكة الدبلوماسية والقنصلية التي يرأسها بالمغرب، مستمرين في التضييق على المغاربة والسعي لمعاقبتهم حتى ولو كانوا أبرياء، لا لشيء إلا لكونهم تجرأوا على معارضة التسرب الفرنسي علانية. وبالفعل، لقد صدر الحكم العسكري في حق المتهمين مع القائد الحاج محمد في أحداث 30 يوليوز، في يوم 26 شتنبر 1908، وقد جاء في ذلك الحكم ما يلي

1. بما أن الحركة الشعبية في 30 يوليوز 1907 قد سبقت الإنزال بـ 6 أيام، وسبقت كذلك أفعال النهب الجماعي التي ارتكبت أيام 5 و6 و 7 غشت، فيمكن ربطها بهذه الأفعال عن طريق علاقة الإرتباط(Connexité) ، وأن هذا الإرتباط ينتج من أن المحرضين، مثلهم مثل المنفذين، ودوافع الأفعال الإجرامية توجد هي نفسها في كلا الفترتين اللتين ارتكبت فيهما الأفعال الإجرامية المذكورة.

2. وبما أن أصل الجرائم يجب أن يبحث عنه ـ إذن ـ في الفترة السابقة لـ 30 يوليوز.

3. وبما أن هذا الأصل يكمن في

ـ كمحرك في طموح المتهم الرئيسي ولد الحاج حمو في الحصول على قيادة الدار البيضاء.

لذلك فإن منفذي جرائم 30 يوليوز و 5 و 6 و 7 غشت وشركاؤهم، سيسلمون إلى السلطات المغربية التي يرجع لها تطبيق العقوبات الضرورية.

نفذ بالقيادة العامة بالدار البيضاء في 26 شتنبر 1908.

إمضاء داماد (36).

ويمكننا أن نستخلص من هذا الحكم عدة حقائق هامة

أولها أن ما حدث يوم 30 يوليوز، الذي كان تتويجا لتطور سابق للأحداث بالشاوية، كانت وراءه "حركة شعبية" عامة يشترك فيها كل سكان الشاوية، وليس فردا واحدا أو مجموعة من الأفراد التي كانت تتحرك لتحقيق مطامح شخصية.

ثانيا حصول هيجان في "العواطف الشعبية"، و إذا لم يبين الحكم سبب ذلك الهيجان فقد سبق لنا أن حللنا دوافعه وحركياته.

ثالثا أن الأروبيين وخاصة الفرنسيين الذين لم يحددهم الحكم السابق، كانوا هم المستهدفين، من طرف "الحركة الشعبية"، وكانوا هم المبرر لهذه الحركة. وإذا سكت الحكم عن سبب الإستهداف، فقد أكدنا على التصرف الإستغلالي للتجار وعلى التسرب والرغبة في التسلط، التي أبداها الفرنسيون.

رابعا أن الأمر لم يكن يتعلق أبدا برغبة فوضوية في القتل أو النهب، ولذلك حكم على المتهمين بتسليمهم إلى سلطات بلادهم أي بتبرئتهم مما نسب إليهم من أفعال القتل أو النهب.

ويبدو أن القائمين على توجيه السياسة الفرنسية بالمغرب لم يعجبهم هذا الحكم، كما سبق "لرينيو" أن تنبأ. وهكذا عارض هذا الأخير تسليم المغاربة المحبوسين إلى السلطات المغربية. وتدخل لدى وزير الخارجية الفرنسي، ليوضح له بأن الجنرال داماد، قرر دفع ولد الحاج حمو ومن معه للسلطات المغربية، في حين أنه كان قد حكم ونفذ الحكم في متهمين آخرين، وهذا "تعارض - يقول رينيو - سيعرض العدالة العسكرية لكثير من المجادلات المزعجة"

وأبدى معارضته للحكم السابق قائلا "لا ننسى أن أحداث 30 يوليوز كانت سببا في قيام مولاي عبد الحفيظ بحركته، ولهذا لا يعقل أن يعاقب المتسببين فيها دون أن يكون عرضة لعداوة المحيطين به، والذين يؤيدونه في الجهاد. وأننا لا يمكن أن نحاكم الجناة بتسليمهم إلى سلطات ستعمل على تحريرهم أو تعلن براءتهم" (37).

وهكذا يؤكد رينيو الصبغة السياسية للاتهامات الباطلة التي وجهت للمغاربة، ويصر على معاقبتهم على يد الفرنسيين، حتى يزداد النفوذ الفرنسي وتعظم هيبة الفرنسيين بين المغاربة.

إن نتيجة الحكم السابق، والمعارضة السياسية التي أبداها رينيو توضح لنا أمرا هاما، وهو ادعاء الحكومة الفرنسية، بأنها أرسلت حملتها لمعاقبة القبائل المسؤولة عن حوادث القتل الذي تعرض له العمال، بما أن من اتهموا بالتحريض عليه أو المشاركة فيه قد حكم بتسليمهم لحكومة بلادهم. وكان من العدل والحق، أن يترك لهذه الحكومة تسوية ما نتج عن حادث 30 يوليوز. ولكنها الرغبة في الإحتلال هي التي تحكمت في تصرفات الحكومة الفرنسية وهي التي تفسر لنا

مارقع بالدار البيضاء، وما تعرض له قائدها وقائد أولاد حريز الحاج محمد، والذين اتهموا معه، من محاكمات تعسفية.

ونختم الحديث عن المحاكمات التي تعرض لها بعض سكان الدار البيضاء والشاوية بالتنبيه إلى أننا، لا نعلم بالضبط نتيجة معارضة رينيو على مصير أولئك المغاربة. ولكن نستطيع أن نؤكد تبعا للاستخبارات التي تلقيناها، أن الحاج محمد بن حمو قد سجن أو فرضت عليه الإقامة الجبرية بوجدة، وفيها ظل حتى وفاته. ومن المحتمل أن جميع الذين اتهموا معه لاقوا نفس المصير، وخاصة الحاج الحسين بن محمد الزياني والحاج سليمان بن عبد الله الزياني. وذلك تنفيذا لرغبة الأوساط الإستعمارية التي كانت تعادي المشاعر الوطنية للمغاربة.

كما تجدر الإشارة إلى أن مخزن مولاي عبد العزيز، أصدر أوامره لأمناء الدار البيضاء بمصادرة أملاك الحاج محمد بن حمو وأملاك أبيه، وكذلك أملاك الحاج الحسين والحاج سليمان الموجودة بالدار البيضاء(38).

هوامش الفصل الحادي عشر

1)- علال الخديمي "أثر الإستقرار الأجنبي بالدار البيضاء خلال القرن 19."
أعمال ندوة الدار البيضاء، نشر كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالدار البيضاء 1983، ص 38-42.

2) - Bulletin, Soc. Geo. d'Alg., 1908, P. 2 - 3.
cité par Guenane Djamal, Les relations Franco-Allemandes et les affaires Marocaines. P. 207, N. 7.

3) - G. P. TR. T XXX, Tanger berlin, 19-8-1907. in Guenane op. cit.

4) - Conjeaud, op. cit. p. 52.
R. Rankin, op. cit. p. 272.

5) - Extract From a private letter dated Tangier, 15 th August, 1907.
لعل كاتبها هو المحامي الإنجليزي مدشل" وكان يعمل بطنجة وجبل طارق.

6) - A. Adam, oc. p. 135.

7) - بورديون، ص 108

8) - C.A.Julien, Le Maroc face aux impérialismes, Paris, 1978, p. 73-74.

9)- علال بن عبو الريفي، عين خليفة لعامل طنجة منذ بداية 1907، وعقب حادث 30 يوليوز أرسله النائب السلطاني، من طنجة لمساعدة مولاي الأمين في إدارة المدينة. وقد عمل بتوافق مع السلطات القنصلية وعقب حادث القنبلة تعرض للنهب، وقبل التعاون مع المحتلين بعد إلحاح "مانجان"، حيث تحمل مهمة حكم المدينة تحت سلطته وكنائب عن خليفة السلطان في الظاهر، وعمل كوسيط بين جيش الإحتلال وما تبقى من سكان المدينة.

10) - A.G.V. 3 H 568, Mangin à Drude 22 Aout 1907.

11) - بوردون، ص 107.

12) - هويل، ص 39.

13) - E. Vincent, Notes d'un témoin, AF, 1907 p. 337.

14) - G.P. TR TXXX Tanger berlin, II-8-1907. voir Guenane, op. cit. P. 207.

15) - مرجع هامش 5

16)- نفس المرجع.

مرجع هامش 22.

F.O. 174 253, N-(18

19) . أعلاه ص 256 أنظر كذلك هامش 48.

. محمد بن عبد الكبير إلى عميد الهيأة الدبلوماسية A.E.P Maroc, NS. 186 p.237.

. الطاهر بن محمد بن عبد السلام الأوديّي "الإستبصار، في عجائب الأمصار والجبال والأنهار، والبحور ومنافيس النار. مخطوط بخزانة محمد المنوني ص 182

22) . أنظر أسفله ص 447-454.

23) . أنظر الفصل الرابع عشر

D.D.F. AFF. M. 1907, N° 427 P. 340.

25) . أنظر أعلاه ص 231

Bourdon, PP. 10-12 et PP. 130-132.
Houel, p. 20.

. (26

27) محمد الطريس لمولاي عبد العزيز، 26 شعبان 1325 الموافق 14 أكتوبر 1907 ك خ ع رقم 2720 ص 381

28) . علمنا ذلك من حديث مع الشيخ الحاج العربي بن عبد الله بن سعيد السلاوي أنظر كذلك أحمد معنينو "جلالة الملك عبد العزيز" دعوة الحق، عدد 1 السنة 23، 1982، ص 110

29) . يفهم ذلك من رسالتين من أبي بكر بن بوزيد إلى عبد الله بن سعيد 17 جمادى الثانية 1326 الموافق 17 يوليوز 1908 و 12 جمادى الثانية 1326 الموافق يوليوز 1908

30) . ك خ ح، رقم 453

31) . كناش مكاتب الطابع الشريف، خ ع ص 89

A.G.P. Martin, Quatre siècles d'histoire Marocaine, P. 439. . (32

A.E.P. Maroc NS, 195, PP. 75-76. . (33

A.F.V., 3 H 76, Druide à guerre, 9 septembre 1907. . (34

A.E.P., Maroc NS, 194, PP. 28-29, 10, septembre 1908. . (35

Ibid, 195, PP. 75-77, 26 septembre 1908. . (36

37) . نفس المرجع

38) . مولاي عبد العزيز إلى أمناء الدار البيضاء، 10 جمادى الأولى 1326 موافق 10 يونيو 1908 و 6 محرم 1326 الموافق 9 فبراير 1908، و خ ح

الباب الرابع

جهاد الشاوية ضد الاحتلال الفرنسي

أو

عمليات الاحتلال والمقاومة

الفصل الثاني عشر

معارك الدار البيضاء

منذ وصول الحملة الفرنسية للدار البيضاء، ومشاركة الأسطول الفرنسي في عملية القنبلة، تبين لقائده الأميرال فيليبير، أن الأمر خطير، يستدعي الحذر، وأن قبائل الشاوية معادية للتدخل الفرنسي المسلح ومصممة على مقاومته.

ويظهر، أن عنف المقاومة الأولى داخل المدينة، جعلت قيادة جيش الاحتلال، والسلطات القنصلية وقيادة الأسطول، يفكرون في خطة لمجابهة الوضع بالدار البيضاء. وقد تلخصت هذه الخطة في التظاهر بالعمل مع المخزن، والاتفاق معه، وضمان تعاون خليفة السلطان بالمدينة، وهذا ما حصل بالفعل. "إن عملنا بالدار البيضاء - يقول الأميرال - ستكون له انعكاسات قوية على الاستعدادات المعادية للقبائل المحرضة على الحرب من قبل. وأخاف على قواتنا أن تواجه هجومات خطيرة ولذلك فقد رأينا مع الجنرال درود والسيد مالبرتوي Malpertuy، أنه من الجوهري أن نتظاهر على الأقل بالسير متفقين مع المخزن، وفي هذا المجال نضمن مساندة عم السلطان مولاي الأمين(1)"

وبالرغم من أن ممثلي المخزن حاولوا التعاون مع المحتلين لأجل المحافظة على الهيئة المخزنية بالمدينة، فقد حوصر جيش الاحتلال بخنادقه، وكان عليه أن يخوض معارك مستمرة ضد المجاهدين.

أشرنا في السابق إلى أن جيش الاحتلال اتخذ مواقعه جنوب المدينة، ونظمها في معسكرين تحميهما المدفعية، وأضيف معسكر ثالث بعد وصول إمدادات جديدة، واتخذت هذه المعسكرات، شكل هلال يحيط بالدار البيضاء، من الجنوب الغربي إلى الجنوب الشرقي. وقد حفرت القوات المحتلة خنادق عميقة للإحتماء من هجمات المغاربة، واعتمدت على حماية مدفعية الأسطول الراسي قرب المدينة، وعلى مدفعية الميدان التي وضعت فوق بعض الدور المجاورة. وبالرغم من هذه الاحتياطات ومن الأسلحة المتفوقة، فقد تعرض المعسكر الفرنسي لهجوم عنيف غداة الإنزال أي في يوم 8 غشت. وقد قام بهذا الهجوم مجموعات من المجاهدين "الذين برهنوا على تعصب وعلى احتقار للموت مثيرين حسب قول الضابط "سوكون" Seconds (2).

1. قتال يوم 10 غشت

تعرض المعسكر الفرنسي يوم 10 غشت إلى هجومات عنيفة، ويبدو أن المغاربة كانوا يهدفون من وراء تلك الهجومات التي حدثت على عدة محاور إلى الإستيلاء على المعسكر. ولكن كثافة نيران العدو، وقذائف الأسطول، خففت من حدة الهجمات المغربية واقنعت المهاجمين بالتراجع. وقد أسفر القتال على تكبيد الفرنسيين ثلاثة قتلى و 10 جرحى، حسب الرواية الفرنسية(3).

وقد تناقلت التقارير خبر هذا الهجوم العنيف، الذي تزعمه في ذلك اليوم أولاد بوزيري، وأشارت إلى مقتل 5 فرنسيين، وإلى جسارة المغاربة الذين كانوا في هجوماتهم المتوالية يكادون يصلون إلى المعسكر(4).

كما اضطرت بعض الصحف الفرنسية إلى الإعتراف بالحقيقة. وهكذا تعرضت جريدة "La depêche marocaine" لوصف قتال 10 غشت، مبينة أن المعسكر الفرنسي كان في حالة دفاع أمام هجومات متوالية، الأمر الذي اضطر قيادة الجيش لإبقاء ألفي جندي في خط النار بالخنادق. ويتحدث مراسل الجريدة عن شجاعة المغاربة قائلا "وبجسارة خارقة، كان مقاتلوا الشاوية يكادون في هجومهم يدخلون إلى معسكرات الجيش الفرنسي"(5).

ويبدو أن قتال يوم 10 غشت، جعل الجنرال درود يتعرف لأول مرة على إمكانيات المغاربة القتالية، وعلى تعبئتهم (تكتيكهم) التي أدهشت الملاحظين وأدهشت الجنرال نفسه، وجعلته يكتب لباريز، ملحا على إرسال مزيد من الإمدادات لمواجهة الموقف. ومما جاء في برقية درود قوله : "نظرا للمعارك

المستمرة ليلا ونهارا، إبعثوا من فضلكم مقدارا ثانيا من الذخيرة، للأسلحة المحمولة وللمدفعية، بأهمية المقدار الأول نفسه، وبتموين 20 ألف قرطوشة للرشاشات" (6).

ولقد استمر المغاربة في مناوشة القوات الفرنسية في خنادقها سواء خلال الليل أو في النهار، ولم تجرؤ تلك القوات على القيام بأي استطلاع بعيدا عن المعسكر أو أي هجوم على تجمعات المجاهدين المرابطين بعيدا عن مرمى المدفعية.

2. قتال يوم 18 غشت

وفي 18 غشت، عاود المغاربة هجومهم في الساعات الأولى من الصباح، لكن المدفعية ردتهم على أعقابهم، وعند طلوع الشمس، بعث الجنرال درود بسرية من الفرسان نحو التل الذي صدر منه الهجوم، وحالما ابتعدت تلك السرية عن المعسكر فاجأها الفرسان المغاربة بهجوم عنيف كادت تسحق خلاله، لولا النجدات السريعة التي بعثها الجنرال من المشاة والمدفعية، التي أبعدت المغاربة، وأنقذت السرية المحاصرة. وتذكر الروايات الفرنسية أن المحتلين تكبدوا في هذا القتال 3 قتلى و12 جريحا بينهم قائد السرية(7).

كان لقتال يوم 18 غشت صداه الكبير ليس بالدار البيضاء فقط، لكن حتى بباريز، حيث قررت الحكومة الفرنسية، بعث إمدادات هامة لتعزيز جيش الاحتلال(8). واضطرت الحكومة الإسبانية، بعد أن تبين لها إصرار المغاربة، لإرسال أوامرها إلى قائد القوة الإسبانية بالدار البيضاء بعدم المشاركة في أي قتال ضدهم(9).

ويبدو أن قتال 18 غشت، بين لقائد القوات الفرنسية، حدود ما تستطيع قواته أن تفعله، ولذلك بعث برقية لوزير الحربية في يوم 18 غشت نفسه، يشرح وضعية قواته، وفي هذه البرقية تعرض درود لمسألة "عقاب الشاوية"، ووضح أن الأمر يستدعي مزيدا من القوات والاحتياطات لمواجهة المغاربة، على عكس ما كان يعتقد في السابق. "ففيما يخص العقوبات الجماعية يقول الجنرال فإن الوضعية الحالية ليست هي تلك التي كنا نعتقد إبان إرسال قوات الإنزال. إن الدار البيضاء المخربة لا توفر أي مورد للتموين، أو وسائل للنقل أو يد عاملة"(10). ثم أكد على أنه، قبل القيام بأي عملية ضد قبائل الشاوية، فلا بد من تعزيزات إضافية، حددها في "كتيبة من الرماة الجزائريين... لضمان أمن الدار البيضاء" أما الهجوم على قبائل الشاوية، في الداخل، فسيكون "عملية صعبة، تتطلب عددا

كبيرا من القوات ويدفعنا يقول الجنرال لعملية عامة يمكن أن ترهن المستقبل" (11). ثم حصر عدد القوات اللازمة في ثلاث كتائب مشاة، وكوكبتين من الفرسان، إحداهما كوم (100 فارس جزائري)، ووسائل جديدة للنقل 50 عربة بلوازمها و 51 بغلا لمختلف المهام. كما طلب ضابطا مساعدا (الكلونيل Brulard)، و 20 عاملا للمراقبة، ونبه إلى ضمان مسائل التموين لأي عملية، والاحتياط للمستقبل نظرا لقرب حلول فصل الشتاء (12).

هكذا، وبعد أقل من نصف شهر من المقاومة، تبين للفرنسيين أن الهدف الذي جاءوا من أجله، يظهر بعيد المنال. "فمعاقبة قبائل الشاوية" المزعومة، أصبحت عملية عسكرية صعبة تتطلب حسابات أخرى، وإمدادات مستمرة لقوات الاحتلال، التي وجدت نفسها محاصرة في خنادق متعبة، ومعرضة للاستنفار ليل نهار، لمواجهة هجومات محتملة في أي وقت (13).

ثم إن الأمر لم يعد يتطلب إمدادات عسكرية يمكنها أن تحسم المعركة لصالح المحتلين فقط، بل إن تصميم المجاهدين على قتال جيش مدجج بأسلحة فتاكة، لا سبيل إلى مقارنتها ببنادق المغاربة القليلة، جعل قيادة القوات المحتلة بالدار البيضاء تقترح وسائل أخرى لمواجهة الموقف.

ولقد بعث الجنرال درود، بتقرير شامل عن الوضعية العسكرية والسياسية بالشاوية، مؤرخ بـ 20 غشت، وفي هذا التقرير، ألح الجنرال على استعمال السياسة، والتدخل لدى بعض القبائل الكبرى لإقناعها بالدخول في "الطاعة" باسم السلطان. "إن هذه السياسة المعروفة عند المخزن - يقول درود - يمكن أن تؤدي إلى تفكيك قبائل الشاوية، التي يظهر الآن، أنها بأجمعها مدفوعة في حركة عداء ضد الأجنبي" (14).

وفي الواقع، فإن التقرير السابق، يعبر عن تخوفات الجنرال، من استكمال مجاهدي قبائل الشاوية، والقبائل الأخرى، لعملية المرابطة حول الدار البيضاء، وحصار القوات الفرنسية بها. وهو حصار منع كل أنواع الإمدادات من الداخل، وجعل المدينة تعيش مما يأتي إليها عبر البحر.

ومما جاء في تقرير مصلحة الاستخبارات عن الحالة السياسية بالشاوية في 20 غشت مايلي "إن قبائل الشاوية مصممة على الحرب ضد الفرنسيين، وأن المركز الرئيسي للمقاومة يوجد بتدارت على بعد 10 كلمترات تقريبا جنوب الدار البيضاء، حيث تتجمع محلة هامة من الفرسان والمشاة، (يبلغ عدد أفرادها

بين 1500-2000 حسب تقديرات المخبرين)، تضم متطوعين من أولاد حريز، وأولاد سيدي بنداوود، والمذاكرة، والمزاب، وأولاد زيان، وأولاد سعيد وأولاد بوزيري، كما تضم بني مسكين حسب بعض الأخبار. وهناك تجمعان آخران أقل أهمية، يتكونان من زناتة والزيايدة والمذاكرة، وحتى من أعراب الرباط وزعير، وهم ليسوا من الشاوية، يوجد أحدهما بالحاج بوعزة [دار الحاج بوعزة بن امسيك] على بعد 5 أو 6 كلمترات شرق المدينة، والآخر بتيط مليل أبعد من الأول."(15)

وقد نبه رئيس استخبارات جيش الاحتلال، إلى حقيقة موقف المغاربة بالشاوية، ودعا بدوره إلى سلوك سياسة التفرقة بين قبائل الشاوية. "إن تجمعات تدارت والحاج بوعزة وتيط مليل - يقول Huot - تبين بالفعل، وبوضوح أن النفوس محرضة جدا ضدنا، وبأن جمهور الشاوية يرغب في الحرب[...] إننا لا نوجد كما كان يعتقد أمام بعض قطاع الطرق المنعزلين، أو بعض المجموعات من العصاة والمتمردين، ولكننا أمام تجمعات كبرى، من القبائل التي تبدي عداوة حقيقية تجاهنا"(16).

من التقارير السابقة، يتأكد لنا، أن الفرنسيين الذين ظلوا يتجاهلون حقيقة موقف سكان الشاوية، أصبحوا مضطرين للتصريح بالواقع، والاعتراف بأنهم يواجهون خصما عنيدا، لا يمكن التكهن بنتائج الصراع ضده. كما يتأكد من خلال تلك التقارير، عزم مقاتلي الشاوية على دفع المحتلين عن بلادهم، ومساهمة قبائل أخرى من خارج الشاوية في الجهاد ضد الفرنسيين، كقبائل زعير وبني مسكين. وسنرى أن الأمر لن يقتصر على هذه القبائل، بل سنجد مجاهدين من دكالة، والرحامنة، وزيان، والسراغنة، ومن تافيلالت يقاتلون الفرنسيين بجانب قبائل الشاوية(17).

والجدير بالذكر، أن هذه الحركة الجهادية بدأت تعم المغرب كله منذ إعلان بيعة مولاي عبد الحفيظ بمراكش في 16 غشت 1907. ومنذ انتشرت أخبار تهيئه للذهاب للشاوية لتزعم الجهاد ضد الفرنسيين كما سنحلل ذلك في حينه. إن هذه الحركة هي التي أقلقت قيادة قوات الاحتلال، وجعلتها تلح على اتخاذ الإجراءات السياسية المذكورة بهدف إضعاف مقاومة قبائل الشاوية. ولقد بحث الفرنسيون عن وسطاء لدفع الشاوية للصلح والكف عن القتال، وفي هذا الإطار بذل أحد الشيوخ (الشيخ المعيزي) من الجديدة محاولة للتوسط، بتدخل من قنصل انجلترا(18).

وبالدار البيضاء بدأ الفرنسيون يبذلون محاولات عديدة، للتقرب مما تبقى من السكان، وللتخفيف من مقاطعة سكان الشاوية للمدينة، ودفع من هرب منها للعودة إليها. ونفهم جانبا من هذه الإجراءات، مما ورد في رسالة مانجان "Mangin" إلى درود يقول فيها "ومنذ انتهينا من الإجراءات الضرورية لسلامة الجمهور، اشتغلت بطمأنة السكان المسلمين، وإعادة الثقة إليهم، لقد كلف سي علال بن عبو عددا من البراحة للدوران في المدينة، تحت حماية جنودنا، للمناداة بالسكينة والطمأنينة، وقد استدعيت القاضي وأئمة المساجد وطلبت منهم أن يستأنفوا مهامهم حالا، وأبنت لهم رغبتي في استئناف الصلوات في جميع مساجد المدينة".(19)

إن هذه الرسالة التي تعبر عن استمرار مقاطعة سكان الشاوية للمحتلين، وعن الفراغ الذي كانت تعيش فيه مدينة الدار البيضاء في ظل الإحتلال إلى يوم 22 غشت على الأقل، توضح الرغبة الملحة للسلطات الفرنسية بالشاوية، في التأثير على حركة المقاومة بمختلف الوسائل.

ومما يلاحظ في هذا الإطار، أن حدة الإشتباكات خفت طيلة الأيام بين 20 و28 غشت، وفي هذه الأثناء، وصلت تعزيزات هامة من القوات والأسلحة للدار البيضاء يوم 25 غشت، رفعت أعداد القوات المحتلة من حوالي 3000 إلى 5000 جندي وأكثر من 1400 حيوان كما جلبت بطاريات مدفعية من عيار 75مم، والمدفعية الجبلية عيار 80 مم، وسريتين من الكَوم الجزائريين(20).

ويبدو أن هذه القوات الهامة، ومحاولات التفرقة التي بذلت للتأثير على المجاهدين. يبدو أن ذلك، جعل الجنرال درود يحس بأن في مستطاعه أن يقوم بعملية استطلاع بعيدا عن الدار البيضاء ببعض الكلمترات، لكن نتيجة هذه العملية كانت معركة أخرى حامية، اضطرت الجنرال إلى دفع كل قواته للميدان، في محاولة لإنقاذ دورية استطلاع ،كادت أن تمنى بخسائر فادحة.

3. معركة دار بوعزة 28 غشت 1907 :

حدثت هذه المعركة لما علمت قيادة جيش الإحتلال بأن مجموعات من فرسان المغاربة تتجمع في ضيعة تبعد عن المعسكر الفرنسي بـ 4 كلمترات، فأمر الجنرال درود باعتراض المغاربة، وكلف بذلك مفرزة مكونة من سريتين من المشاة، وسرية واحدة من الفرسان والكَوم، ثم قطعة من مدفع 75 مم.

وأعطيت القيادة للمقدم (كمندار) Provot. وهذا وصف النقيب (قبطان) F. Fons رئيس القيادة العامة لتلك المعركة(21) :

"في الساعة الثانية زوالا، بدأت المفرزة سيرها على شكل مربع، في وسطه المدفعية، ووراءه الخيالة، وأمامه خيالة الاستطلاع، ثم الكَوم من الوراء وعلى اليمين.

وفي الساعة 2.15 وصلت المفرزة إلى قمة على بعد 1400 م، حيث توقفت بعد أن استقبلت بنيران شديدة ردت عليها بالمثل.

وفي 2.20 فرقت المدفعية تجمعات قوية على بعد 1700 م.

في 2.40، عادت المفرزة للسير تحت غطاء مدفعية الطراد كلوار La gloire ومدفعية 75 مم، حيث وصلت للضيعة المذكورة وحيث فرقت العدو الذي كان موجودا بها.

وفي الساعة 3.30، تظاهر العدو بالتراجع نحو الجنوب، فأعطى القائد Provot أوامره بالعودة للمعسكر متجها نحو الغرب، وأمر الفرسان بحمايته من الوراء واليسار. وفي هذه الأثناء شوهدت تجمعات كبيرة من فرسان العدو آتية من الجنوب والغرب، أي على يمين المربع وقد تزايدت جسارة هؤلاء الفرسان المغاربة الذين كان عددهم يزداد في كل لحظة، وتقدموا في هجومهم إلى 400 متر من المربع وعند ذلك (الساعة 4) قام الكَوم بهجوم لحماية المربع.

"لكن المغاربة تراجعوا نحو المشاة الذين كانوا مختبئين وراء الأشجار. وفي الساعة 4.15، تراجع الكوم وبدأ المربع في المسير نحو الغرب، ولكنه هوجم حالا من جانب الفرسان المغاربة الذين ضايقوه بشدة على ثلاث جهات.

وبعد أن رأى الجنرال حرج وخطورة الوضعية التي كان يراقبها أعطى الأوامر الآتية

في الساعة 3.45 لقائد المعسكر رقم (1) بالمسير على رأس سريتين، وقطعتي مدفعية لإنقاذ Provot - وكان الهدف هو تجمعات المغاربة الآتية من الجنوب الغربي التي تهاجم القائد Provot على يمينه -

ثم في الساعة 3.55، أمر قائد المعسكر(2) بالذهاب على رأس سرية من القناصة لتقوية مفرزة Provot، وذهبت هذه السرية ليمين المربع فأوقفت العدو

وطردته. وبعد ربع ساعة من ذلك، أمرت بالذهاب نحو الشرق لحماية يسار المربع.

ثم أرسل المعسكر (I) بقيادة Passart، بسريتين من الرماة، وقطعتين مدفعية 80 مم (جبلية) وكان غرض الجنرال من هذا المدد اللحاق بالقائد Provot، لكنه منذ خروجه من المعسكر اضطر لمواجهة تجمع كبير من فرسان ومشاة العدو [...] وبفعل العمل المشترك لنيران البارجة La gloire، وقطع مدفعية 75 مم ونيران المشاة، تراجع العدو، شيئا فشيئا دون أن يتخلى عن محاولاته العديدة في العودة للهجوم.

ومنذ الساعة 5.30، أعطيت الأوامر بالدخول للمعسكر.

الخسائر 3 قتلى و 9 جرحى

الخيل 3 قتلى و 10 جرحى

لقد أصيب العدو بخسائر مرتفعة، ولقد ظهر اليوم أكثر عددا الشيء الذي لم يحدث من قبل.

إن الاستخبارات التي تلقيناها في الأيام الأخيرة، والمتعلقة بالإمدادات المقدمة من المزاب ودكالة تأكدت إذن لقد أظهر العدو شجاعة وبسالة خارقة، ـ وكان يعاود الهجوم باستمرار، ويتقدم أحيانا إلى بعد 400 متر من خطوط المشاة.

"إنه يمثل بالتأكيد خصما مخيفا (redoutable). وإنه بفضل تفوق تسليحنا وحده، استطعنا أن نبعده عنا مسافة، وأن نتجنب هكذا خسائر فادحة.

القبطان F. Fons رئيس القيادة العامة.

"أخبار غير مؤكدة إن قوات العدو كانت حوالي 4000 مشاة وفرسان وخسائره 200 قتيل، منهم 130 قتيل من المزاب وحدهم".

هذه معركة حقيقية، تواجهت فيها القوات الغازية مع مجاهدي الشاوية، ومن خلال الوصف الذي قدمه ضابط في القيادة العامة لجيش الإحتلال الفرنسي، يمكن للمرء أن يقارن بين استعداد المجاهدين للقتال وبين استعداد القوات الغازية، وفي الوقت نفسه يمكنه من المقارنة بين تعبئة المغاربة في القتال وتعبئة جيش عصري حديث يقوده ضباط درسوا فن القتال في الكليات الحربية.

وإذا كنا لا نستطيع التعرف على مدى صدق الوصف الذي قدمه أحد ضباط جيش الإحتلال نظرا لعدم توفر أوصاف محايدة، ولانعدام وجود وصف مغربي لقتال يوم 28 غشت. فبإمكاننا أن نشك في التقديرات التي أوردها عن نتائج

المعركة. إن عدد 4000 مغربي الذين ذكر أنهم شاركوا في المعركة، عدد مبالغ فيه كثيرا. فقد جاء في تقرير للجنرال درود مؤرخ بـ 31 غشت أن عدد المغاربة الذين هاجموا الفرنسيين يقدر بين 3000 و 4000 رجل، مشيرا إلى أن خسائر المغاربة كانت حوالي 150 من المزاب و 10 من المذاكرة وكذلك من أولاد حريز(22).

لكن حتى تقديرات قائد جيش الاحتلال، يمكن عدم قبولها وملاحظة مبالغتها. ونستطيع أن نقترب من الحقيقة، مما كتبه هيو Huot رئيس مصلحة الإستخبارات في القوات المحتلة، الذي حدد عدد المجاهدين المغاربة بحوالي 1500 فقط (23). وحتى هذا العدد يبدو مبالغا فيه، وهدف المبالغة واضح، وهو تبرير فشل قوات الجنرال درود، في مواجهة المغاربة، وتكبيدهم خسائر فادحة تبعدهم عن محاصرة الدار البيضاء، بدل اللجوء إلى الإحتماء بخنادق المعسكرات بالمدينة.

نتائج معركة 28 غشت

لقد أسفر قتال يوم 28 غشت عن نتائج هامة بالنسبة لمواجهة مجاهدي الشاوية لجيش الإحتلال الفرنسي. فقد حطمت هذه المعركة معنوية الجنود الأجانب، الذين احتكوا بالمغاربة وقاسوا شجاعتهم في القتال بالرغم من ضعف تسليحهم، كما بينت هذه المعركة، أن الفرنسيين لم يحرزوا أي تقدم يذكر على المغاربة، بالرغم مما ارتكبوه من مجازر في الدار البيضاء. وقد اعترف بهذه الحقيقة، الأميرال "فليبير" قائد الأسطول، الذي شارك بدوره بمدافعه في هذه المعركة. قال الأميرال واصفا للقتال ولنتائجه

"مرت بداية الأسبوع بالدار البيضاء هادئة، ثم اضطربت بهجوم وحشي وطويل أظهر فيه المغاربة شجاعة معتبرة. كنا نشاهد القتال الضاري على بعد كلمترين من البحر، وحاولنا بالمدفعية إبعاد المغاربة، ولكننا اضطررنا للقتال متراجعين [...]. ماذا نفعل مع هؤلاء الفرسان المندفعين؟ كيف تقع هذه الهجومات الجنونية بعد الدروس القاسية التي لقناها من قبل للمغاربة؟ [...] إنهم متحمسون جدا، وواثقون من شجاعتهم. فهم يتبعون تعبئة ماهرة، وفرسانهم أسرع من فرساننا، والكوم يقاتلون متراجعين فلا يصيبونهم. هذه ثلاثة أسابيع مرت على نزولنا، واليوم نتعرض لهجوم يصل إلى 300 متر من المعسكر... وهكذا يمكن القول "إن أي تقدم لم يحرز على المغاربة، فهم يقولون بأنهم يحاصرون الفرنسيين في الدار البيضاء المخربة"(24).

وقد تساءل الأميرال عما حققه الفرنسيون منذ نزلوا في الدار البيضاء، وعن الهدف من النزول بالمغرب، وهل ما حصل في صالح قوة وهيبة فرنسا؟ ثم طالب بمزيد من الإمدادات وبقوات كبيرة حتى يمكن فرض الهيبة الفرنسية وتجنب الكوارث بالشاوية، كما أكد على ضرورة الاتفاق مع بعض القبائل(25).

ومن حيث عدد القتلى من الجانبين فلا يمكن تقدير خسائر المغاربة لأن الفرنسيين لم ينتصروا في المعركة ويحصوا عدد القتلى. ويبدو أن ما ذكرته تقارير الضباط عن عدد قتلى المغاربة مبالغ فيه كثيرا. أما عدد قتلى الجانب الفرنسي فقد رأينا التقرير السابق يحصره في 3 قتلى و 9 جرحى، في حين أن "كونجو" يشير إلى 3 قتلى و 12 جريحا(26). ويظهر أن الخسائر أفدح من ذلك كما يفهم من أوصاف المعركة، ويستنتج من تراجع القوة الفرنسية إلى خنادقها أمام هجومات المغاربة المتتابعة.

ولقد تعرض درود لهجوم الصحافة بباريز التي انتقدت نتائج معركة 28 غشت، كما انتقدت فشله ومطالبته المستمرة بالإمدادات(27). كما تعرضت الحكومة الفرنسية بدورها للإنتقاد، إذ قالت جريدة L'Eclair "إن كل برقية ملفقة ومزورة تشهد على رداءة نظام عسكري، يقوده نظام سياسي بدون حسم وبدون هدف" (28).

ويبدو أن الحكومة الفرنسية أحست بالحرج، وهي تشاهد أن كل ما فعلته بالدار البيضاء لم يزد المغاربة إلا صمودا. ولذلك أمر وزير الحربية الجنرال درود، بالقيام بضربة قوية لبعض القبائل الضعيفة القريبة من الدار البيضاء، حتى تكون مثالا للقبائل الأخرى. ومن الأحسن - في نظر الوزير - أن تكون لتلك الضربة نتائج محسوسة، كأخذ الأسرى أو تخريب الممتلكات والإستيلاء عليها، وإحراق الخيام. "إن ما يجب الآن - يقول الوزير - هو أن نتمكن من القيام بضربة قوية. لا أقول لكل قبائل الشاوية، ولكن لقبيلة واحدة أو لعدد من القبائل الأكثر قابلية للإنجراح. إن ضربة قوية ضد أحد من تجمعاتها مع نتائج محسوسة سيفيد كثيرا التهدئة" (29).

إن هذه الأوامر تفضح نوايا الحكومة الفرنسية، وتوضح الفشل الذي وقع فيه جيش الإحتلال. وواضح أن ذلك الفشل راجع للتقديرات المتفائلة للأوساط الإستعمارية التي كانت تعلن بأنه يكفي لإحتلال مدينة مغربية بعض القوات القليلة. كما يرجع لخطأ حسابات هذه الأوساط التي ظنت أن حملة قوامها 3000 رجل، كافية لاحتلال الدار البيضاء والشاوية، وهي ترى الآن أن ضعف ذلك العدد، أصبح محاصرا في خنادقه بالدار البيضاء تحت حماية مدفعية الميدان ومدفعية الأسطول.

إن المغاربة الذين أظهروا إصرارا عظيما على المقاومة، بالرغم من تفوق الأسلحة الفرنسية، لا شيء يجعلهم يتعقلون - في نظر وزير الحربية - إلا القيام بضربة قوية أخرى شديدة، ضد قبيلة أو مجموعة من القبائل القريبة من الدار البيضاء والأقل استعدادا للحرب، ثم سحقها وأسر ما تبقى من الرجال، والإستيلاء على ما يوجد من مؤن، و"كذلك من العدل - يضيف الوزير - والمشروع أن نستولي على مطامير قبيلة وتستحوذ عليها كمساهمة حرب"(30) !

بهذه الطريقة ظن وزير الحربية الفرنسية أن في إمكان الجنرال درود حسم الحرب لصالحه.

لكننا نلاحظ، أن وزير الحربية الفرنسي قد نسي، أن أخطر ضربة وجهتها حكومته للمغاربة عامة، وسكان الدار البيضاء خاصة، هي تخريب هذه المدينة وقتل سكانها الأبرياء، وبالرغم من ذلك، كانت النتيجة عكس ما توقعه الغزاة، إذ صمم سكان الشاوية على الجهاد لطرد المحتلين، وهاهم يحرجون جيشا يفوقهم تسليحا وتنظيما.

معركة سيدي مومن 3 شتنبر 1907 :

ويبدو أن الجنرال درود استعد بعد قتال يوم 28 غشت لمواجهة المجاهدين وتكبيدهم هزيمة نكراء، فيكون بذلك قد نفذ التعليمات التي جاءته من باريز. ففي 3 شتنبر خرج على رأس قوات هامة معبأة تعبئة قتالية تامة. وهكذا وزع قواته منذ البداية إلى مربعين معززين بالمدفعية والفرسان.

يقود المربع الأول الليوتنان كلونيل "بلان" Blanc، واستعمل كطعم لجر المغاربة للميدان الذي يمكن سحقهم فيه بعد ذلك من طرف المربعين معا.

أما المربع الثاني، فيقوم بدور المساندة، ويقوده "الليوتنان كلونيل برولار Brulard" والجنرال درود نفسه(31).

ويظهر أن المجاهدين علموا بخروج هذه القوات الهامة، لذلك نجدهم يتخذون تعبئة دفاعية في البداية، حيث تركوا القوات الفرنسية تتوغل نحو ضريح سيدي مومن. ولما ابتعد المربعان عن المدينة واقتربا من الضريح، تعرضا لهجومات شديدة قام بها الفرسان على المربعين كل على حدة وفي الوقت نفسه. وهكذا بدل أن تفرض المعركة، علي المغاربة، فرضوها على الجنرال درود وثبتوا قواته بعد أن حركوها !

وقد ظهرت جسارة المغاربة ومهارتهم في القتال، في مغامرتهم بالدخول بين القوات الفرنسية والبحر، بل بين المربعين نفسيهما. ولما حاول الجنرال أخذ المغاربة بين المربعين في حركة التفاف، فشلت محاولته، وتمكن المجاهدون من الإنسحاب في حركة أسرع من حركة القوات الفرنسية. وبعد قتال شديد دام حوالي 5 ساعات تراجعت القوات الفرنسية نحو خنادقها تحت حماية نيران المدفعية(32).

كانت نتائج هذه المعركة شديدة على الجنرال درود وجنوده، فقد فقد فيها ضابطين كبيرين هما القبطان Provot والليوتنان بنيزة، الذين قتلا ضمن 10 قتلى، أما الجرحى فبلغ عددهم 17 جريحا حسب الروايات الفرنسية(33).

وهكذا يمكن القول إن قوات الجنرال درود تكبدت هزيمتين أو على الأقل فشلين، عندما تجرأت وخرجت من خنادقها، في محاولة لإبعاد المجاهدين عن المعسكر الفرنسي، الذي كان يتعرض للهجومات باستمرار خلال الليل والنهار. إن التعزيزات الهامة في الرجال والسلاح، لم تفد الجنرال درود أمام خصم عنيد، يملأه الإيمان بعدالة موقفه، ويدفعه الحماس للدفاع عن أرضه ودينه. ولكنه، كذلك، خصم يعرف كيف يقاتل، وكيف يواجه قوات تفوقه عددا وتسليحا، ويفرض عليها المعركة في الوقت الذي يراه مناسبا. وهكذا لم يستفد الجنرال درود من تفوق سلاحه، فكانت قواته تقاتل متراجعة لتحتمي بالخنادق. وقد أرخ الشاعر الشعبي لهذا الفشل فقال (34) :

بْدَا يُحَارَبْ لَحْرَامِي كُلُّ يَوْمْ قتَـــالْ لِينْ مَارَدْ الرَّاسْ فْسَاعْتُو يْوَلِّـــي
غَرْبَتْ شْمُوسُو مَنْ بَعْدْ الطّلُوعْ ونْضَالْ طَاحَتْ سْوَارُو وَبْقى في الفْضَا مْتَلِّي
كُلْ يَوْمْ يْجِيبْ مْحَلاَّ هْبِيلْ لَهْبَـــالْ جَاحْ وَبْقى فَهْمُومْ مْحَايْنو مْقَلِّـــي

إ ن نتائج هذه المعارك الغير الحاسمة، وعدم تجرؤ القوات الفرنسية على البقاء بعيدا عن خنادقها، يسمح بالقول ـ كما كان يشيع المجاهدون ـ إن النصر كان حليف المغاربة في هذه المعارك حول الدار البيضاء.

و في الواقع، كانت نتائج الهجومات المتوالية على القوات الفرنسية وخيمة على معنويات جنودها ـ كما سبق أن أشرنا ـ وأدى إلى حالات فرار مستمرة من المعسكر الفرنسي، الأمر الذي زاد موقف الجيش المحتل حرجا، وعرض قيادته للإنتقاد.

وأمام هذه النتائج اضطرت الحكومة الفرنسية إلى إرسال مزيد من التعزيزات للجنرال درود. كما مدت قواتها بالدار البيضاء بمنطاد للإستطلاع، لكي تخفف من خسائر الخيالة والكَوم الذين كانوا ينفذون عمليات الاستطلاع. وهكذا أصبح في إمكان الجنرال درود، كشف مسرح العمليات المراد تنفيذها مستفيدا من البعد الثالث لاستطلاع تحركات المغاربة في العمق.

وبهذه الوسيلة تمكن درود في صباح 11 شتنبر 1907، من أن يفاجيء مخيم تادارت ويحرق بعض خيامه التي غادرها سكانها بسرعة. وعند تراجع القوات الفرنسية، هاجمها المجاهدون وكبدوها قتيلا و6 جرحى (35).

إن هذه العملية، التي اعتبرتها الصحافة الاستعمارية عملية ناجحة، والتي قام بها الجنرال على رأس معظم قواته في صباح كثيف الضباب، لم تكن في الواقع سوى غارة خاطفة بسيطة لم يتكبد فيها المغاربة أية خسارة، باستثناءحرق خيامهم التي تركوها خالية.

وقد استهزأ "بوردون" ممن تباهوا "بانتصار" تادارت، وقال إن ذلك مجرد أسطورة، لأن الأمر يتعلق بعملية بسيطة كثيرا ما حاول الجنرال القيام بها، وقادته الصدفة والظروف الجوية ليفاجيء أحد مخيمات المغاربة بمكان يقال له تدارات، وهو ليس بقرية ولا مدينة. ورغم المفاجأة فقد كانت النتيجة حرق الخيام والرجوع بسرعة للدار البيضاء(36).

وتشهد برقية الجنرال درود نفسه، على تفاهة النتيجة، فقد كتب لوزير الحربية يقول "يسعدني أن أرفع إلى علمكم بأنني في هذا الصباح وبفضل الضباب والأرض تمكنت من مفاجأة تدارت، لقد أحرقت مخيمات المغاربة وشتت المحلة - إن العدو لم يستطع الصمود، وتابعته مدافعنا وكذلك مدفع البارجة La gloire التي قدمت لنا مساعدة فعالة جدا. لم نخسر إلا قتيلا و6 جرحى" (37).

وفي 21 شتنبر كرر الجنرال نفس الشيء، إذ فاجأ دوارا آخر بسيدي إبراهيم، وأحرق خيامه، بعد أن وجده خاليا. وكان المجاهدون والسكان علموا بتحرك الفرنسيين من نار أوقدها سكان المدينة فوق إحدى السطوح(38). لقد غنم جنود درود في هذه العملية بعض الحيوانات الصغيرة والدجاج وطفلان. لكنهم تكبدوا عند تراجعهم قتيلا و12 جريحا(39). وقد اعتبرت الأوساط الإستعمارية العملية نجاحا كبيرا. وهنأ وزير الحربية الجنرال درود على فعله وعاتبه، لأنه لم يعمل بسرعة. وأمره بالإستمرار في تخريب "كل التجمعات التي تشكلها" قبائل

الشاوية حول الدار البيضاء. كما أمره بالهجوم قائلا "هل تتوفر الآن على خيالة كافية ؟ إذن لتتسع العمليات" (40).

وإذا أردنا التعرف على حقيقة مكسب الفرنسيين من عملية سيدي إبراهيم. فيكفينا ما قاله Sabatier عن نتيجتها

"إن عمليات الإستطلاع غير مجدية وخطيرة، وقد بينت التجربة ذلك، إن المغربي لا يمكن الإستيلاء عليه. لأنه يلزمه الذهابَ ليحمل كل شيء معه. حقا إنه يهرب أمامنا، وماذا يهم إذا طوى أو لم يطو خيمته المتواضعة؟ إن الغنيمة الجميلة حقا - طفلان وبعض الدجاج - هي التي تركها بين أيدينا في سيدي إبراهيم. لقد ذهبنا بعدد أربعة آلاف من الجنود إلى هذه الحملة معززين بالمدفعية والرشاشات. أما هم فكانوا حقا ألف وخمسمائة، وكانوا يقطنون ليس معسكرا للمحاربين، بل مخيما للرحل، أي سكانهم الاعتيادية. إن وجود الأطفال الصغار والدجاج يشهد على ذلك" (41).

إن هذه النتائج الهزيلة جعلت الجيش المحتل يكتفي بتحصين مواقعه في الدار البيضاء لمواجهة فصل الشتاء. كما يبدو أن إبان الحرث قد شغل العديد من المجاهدين. ولذلك خفت الإشتباكات بين الجانبين. لكن وصول محلة من المجاهدين بعثها مولاي عبد الحفيظ، يقودها محمد بن مولاي رشيد عامل تافيلالت (42)، الذي اشتهر بتشجيعه للجهاد في الجنوب الشرقي ضد الفرنسيين إن وصول تلك المحلة أدى إلى تزايد تحرك المجاهدين ومرابطتهم قرب الدار البيضاء.

وفي الوقت الذي ظن فيه الفرنسيون أن المغاربة أحجموا عن مقاتلة قواتهم، حدثت معركة 19 أكتوبر، وجاءت نتائجها مفاجئة للفرنسيين. "لقد خسرنا في هذا اليوم الشديد - يقول كونجو Congeaud - 3 قتلى بينهم القبطان Ihler و10 جرحى" (43).

إن هذه المعركة الخطيرة، التي شارك فيها مجاهدون من محلة مولاي عبد الحفيظ، جعلت الجنرال يعمد إلى تحصين مواقعه بالدار البيضاء ؛ فبنى حصنين، حصن Provost وحصن Ihler، لمراقبة الطرق المؤدية للمدينة. ويبدو أن تردد أخبار الجهاد، وإعلان مولاي عبد الحفيظ عن عزمه على الذهاب للشاوية، يبدو أن ذلك زاد من قلق الجنرال درود، الذي بدأ يطالب بمزيد من الإمدادات، واقترح التدخل لدى السلطان مولاي عبد العزيز، ليقوم بأي تحرك لموازاة، نفوذ ودعاية مولاي عبد الحفيظ بالشاوية، وبدل أن يقوم "درود" بهجومات في عمق الشاوية، كما أمر بذلك

اكتفى بأعمال التحصين وشغل جنوده بأعمال التنظيف استعدادا لمواجهة فصل الشتاء، وصادف الحال انشغال رجال القبائل بأعمال الحرث كما ذكرنا، لذلك اكتفى المغاربة بحصار الطرق المؤدية للمدينة. وقبل أن نتعرف على موقفي مولاي عبد الحفيظ وعبد العزيز، يظهر من المفيد أن نقول كلمة عن تعبئة جيش الإحتلال، وتعبئة المغاربة خلال هذه المرحلة الأولى من العمليات.

5. تعبئة المجاهدين في مواجهة جيش الإحتلال بالدار البيضاء

إن القتال الذي وصفناه، يؤكد حقيقة هامة وهي أن المغاربة كانوا على درجة عالية من الشجاعة في القتال، وأنهم كانوا يتبعون خطة قتالية لا تقل مهارة عن خطة القوات الفرنسية. بل تتفوق عليها كثيرا نتيجة لقدرة المجاهدين على استعمال الميدان الذي كانوا يعرفونه، ونظرا لدقة تصويبهم وقدرتهم الفائقة على القتال وهم على ظهور خيولهم. وإذا كان الحق هو ما شهد به العدو فإن الجنرال درود انذهل بالفعل من تعبئة مجاهدي الشاوية. وعبر عن هذا الإنذهال غير ما مرة. كما شهد بذلك الأميرال "فليبير" الذي ظل فوق سفينة القيادة "جلوار" Gloire، يشاهد الإشتباكات بين الطرفين ويشارك فيها بقذف قنابله لردع وإبعاد هجومات المجاهدين.

قال الجنرال درود لمراسل جريدة La depêche marocaine وهي جريدة ذكرنا أنها ناصبت المغاربة العداء باستمرار. قال عن تعبئة المغاربة في هجومهم على معسكر الفرنسيين يوم 10 غشت

"إنهم يتحركون مثلنا بالضبط [...] إن رميهم أكثر دقة وتصويبا، وهم يستهدفونني أنا خصيصا، فكل مرة يرونني فيها يوجهون إلي نيرانهم، وقد تساقطت ثلاث رصاصات عند قدمي، وكان علي أن أزيل العلم من فوق خيمتي التي كانت هدفا لتصويبهم. إنهم يدفعون جماعة من الفرسان بسرعة معتدلة، وتحت غطاء الغبار الذي تثيره الخيل يتحرك مائتان من المشاة. وعندما يصلون إلى منحدر يحميهم يرجع الفرسان بسرعة ويتركون المشاة مختبئين. ثم تنطلق بعد ذلك، طلقات قاتلة من هذه المتارس. ولولا أن رجالنا مختبئون جيدا في الخنادق لكنا فقدنا ضحايا عديدة"(44). وعلق المراسل على كلام الجنرال قائلا وبهذه التعبئة استطاع المغاربة احتلال ضيعة السيد (روزن Rozen) ولما حاولت سرية من 400 جندي إبعادهم تعرضت لهجوم كاسح، فقد فيه الجانب الفرنسي قتيلا و 7 جرحى. وأضاف متسائلا "ما العمل؟ قال الجنرال إنه ينتظر التعليمات"(45).

وكتب "بوردون" يقول عن رأي الجنرال درود في المغاربة الذين قاتلوه يوم 10 غشت "إنها المرة الأولى التي التقى فيها مغاربة في المعركة. وطلبت منه، وهو الذي يعرف، الداهوميين، والطونكينيين والصينيين(46)، أن يعطيني رأيه الذي كونه عن هؤلاء الخصوم الجدد. عند ذلك وبعدما أطرى شجاعتهم، وحركتهم ومرونتهم، قال لي مشيرا إلى معركة يوم 10 غشت "إنه لأمر غريب جدا هناك حكمة تعبوية (تكتيكية)، كانت تتردد كثيرا على لسان أحد أساتذتنا في المدرسة الحربية، وهي هذه ثبت العدو وحركه. نعم، إن المغاربة الذين لم يدرسوا أبدا التعبئة (التكتيك) [...] وجدوا هذه الحقيقة دفعة واحدة. وهذا المبدأ هو الذي وجههم قبل الأمس" لقد حفظت - يظيف بوردون - هذه الملاحظة المتبصرة، إن التعبئة التي جعلها الناس علما، ليست شيئا آخر، سوى تطبيق العقل الراشد، ولا تحتاج لكي تبرز إلا لذكاء منظم وبَدْهي، ولنوع من الإلهام شبيه بالإلهام الفني"(47).

أمام هذه المزايا القتالية، ماهي الإمكانيات التي كانت متوفرة لمقاتلي الشاوية؟ الواقع أن عدد المجاهدين كان غير قار، فهو يزداد عندما يتوافد متطوعوا القبائل أول مرة، وينقص عندما تقل التموينات. ويظهر أن عدد المقاتلين المغاربة الذين كانوا يواجهون قوات الإحتلال، لم يكن يتعدى في أحسن الأحوال 2000 مقاتل. وكان هذا العدد موزعا في مراكز ومحلات مرابطة على الجهاد، لا تخضع لقيادة واحدة، ولا يوجد بينها تنسيق كبير. ولم يكن هؤلاء المجاهدون يستندون إلى مصادر تموينهم وتضمن لهم السلاح والذخيرة والمؤن، ولم يكونوا يعتمدون على قوات نظامية تساندهم عند الحاجة. كان سلاح المغاربة هو بنادقهم، المكونة من نوع ساسبو Chassepot غالبا، ومن أنواع أخرى انجليزية وألمانية، وكانوا يشترون الذخائر بأموالهم الخاصة عن طريق التهريب عبر الجديدة وآسفي. ولقد كان على هذه القوات الغير المنظمة، أن تواجه جيشا حديثا متفوقا عليها تنظيما وتسليحا.

6. تعبئة جيش الإحتلال

أ - المزايا كانت القوات الفرنسية النازلة بالدار البيضاء تستفيد من عدة مزايا أهمها التفوق في السلاح، فقد كانت مسلحة ببنادق حديثة سريعة الطلق، وبالمدافع الرشاشة، ومدافع الميدان (75 مم) والمدفعية الجبلية (80 مم). والمدفعية البحرية المحمولة (36 مم). يضاف لذلك، القوة النارية الضاربة المساندة، التي ظلت بوارج الأسطول توفرها باستمرار للقوات البرية، وهي التي كان لها الدور الحاسم في إبعاد المهاجمين المغاربة عن معسكرات الجيش المحتل بالدار البيضاء.

كان الأسطول الفرنسي الذي شارك في الحملة والقنبلة يتركب من 8 بوارج، وزورق طوربيد وحوالي 4 بواخر كبرى للنقل، استخدم بعضها كمستشفى متنقل، وكان يقود هذه القوة البحرية أميرال. أما الجيش البري النازل، الذي رأينا أن عدده وصل بعد 25 غشت أي في أقل من شهر إلى 5000 جندي ؛ فكان يتوفر على كل ما يتوفر عليه جيش عصري، من مصالح للنقل والهندسة والصحة والتموين. كان يتكون من وحدات تضم فرقا من اللفيف الأجنبي، والرماة الجزائريين، والخيالة، والگوم (فرسان) الجزائريين و"الزواوى Zouaves "، أي أنه كان يتكون من وحدات مدربة على الحرب بإفريقيا. وكان يؤطر هذا الجيش ضباط، نوو رتب عالية درسوا في الكليات الحربية، ويقوده الفريق "درود" Drude.

كان درود الذي دخل الجندية منذ 1872، يتوفر على خبرة بالحملات الإستعمارية، حيث شارك في حملة الطونكين Tonkin، وفي حملة الداهومي (1893 -1894). كما شارك في حملة الصين (1900). وكان قد رقي لرتبة فريق في 20 يونيو 1907، وعين قائدا للفرقة الثانية للمشاة بلواء وهران. ثم أسندت إليه مهمة قيادة "جيش الإنزال" بالدار البيضاء في 3 غشت 1907(48).

- **التعبئة** اتخذت القوات الفرنسية بالدار البيضاء، موقفا دفاعيا منذ البداية، حيث حفرت الخنادق وبنت التحصينات. وقد تأكد هذا الموقف، إثر فشل عمليات الإستطلاع، التي انتهت بمعركتي 23 غشت و 3 شتنبر 1907، كان الجنرال درود يعبيء قواته على شكل مربع، خلال عمليات الإستطلاع. ولم يضمن امتياز الهجوم، بل كان في الواقع، مأخوذا بالخناق، إذ ظل مقاتلوا الشاوية، يتحدُون قواته لتبتعد عن الدار البيضاء، وعن حماية مدافع الأسطول.

وقد لاحظ "هويل" أنه "خلال ستة أشهر من قيادته، فإن الجنرال درود لم يبتعد عن الدار البيضاء... وأن المغاربة كانوا يقولون عن الفرنسيين بالدار البيضاء "إنهم مثل الأسماك، لا يستطيعون مغادرة شاطىء البحر"(49)، وأشار "بوردون" إلى أن الفرنسيين، كانوا يستخبرون عن موقف أهل الشاوية، من بعض الناس الذين أخذوا يعودون للمدينة منذ 15 غشت. وعرفوا منهم، أن المقاتلين كانوا يزدرون الفرنسيين ويتحدونهم أن يبتعدوا من الخنادق لمبارزتهم في الميدان، ويقولون "ليخرجوا إذن من مخابئهم، ليأتوا إلى بلادنا، ليتجرؤوا على مبارزتنا وجها لوجه. إنهم لن يجرؤوا على ذلك" (50).

يتضح إذن، أنه بالرغم من التفوق في السلاح، فإن قوات الجنرال درود لم تكن تجرؤ، على الدخول في معارك مفتوحة مع المغاربة. كما يتضح أن هؤلاء كانوا يضيقون الحصار على المحتلين. ويؤكد "بوردون" أن الحراسة كانت شديدة بمعسكر القوات الفرنسية، وأن الحراس، كانوا في مراقبة مستمرة للحشائش المتحركة خوفا من تسرب مغربي خفية وإطلاق رصاصه. كما أشار لسهر الجنرال درود المستمر وتحفزه الدائم لمواجهة خطر أي هجوم. وذكر أن ليله كان ينتهي عند الساعة الحادية عشرة، وأنه "لم يخلع نعليه هذه مدة 17 يوما" وأن جنوده كانوا يستيقظون في الساعة الثالثة صباحا ليأخذوا أماكنهم بالخنادق استعدادا لرد هجوم محتمل(51). ولقد أثرت هذه الوضعية في معنويات الجنود، وأصبحت حياة الخنادق لا تطاق. ونظرا لكل ما سبق فقد سجلت حالات كثيرة من فرار جنود اللفيف، والمجندين الجزائريين والتونسيين. وقد لخص كونجو هذه الحالة بقوله(52)

"لقد انحطت معنويات الجنود، وكان جنود اللفيف والرماة يفرون تقريبا في كل أسبوع، بحيث كان الأهالي ينتقلون لمعسكر مولاي احفيظ. أما جنود اللفيف، فكانوا يحاولون المرور للرباط، حيث كان القنصل الألماني، ينقلهم إلى بلادهم. أما الذين ألقي عليهم القبض فقد حوكموا، بخمسة أعوام من الأشغال العامة علي الأكثر."

وسجل الشاعر الشعبي عبد الهادي بناني، الحالة نفسها في هذه الأبيات(53) :

طَاحْ مَيْمُونْ الكَفَرْ كْبَارْ وصْغَارْ ... صَادْفُ لَمْحَانْ ولَفْتَانْ والخْسَارَا
يَا هَلْ الشَّاوْيَا صُولُوا بْعَزْ وسْرَارْ ... بَالجْهَادْ فَلْجْعُودْ خْنَازْرْ النْصَارَا
كَمْ مَنْ كَافَرْ للَرْبَاطْ دْخَلْ عَرْيَانْ ... هَذِي هَانَا ولِيسْ تَشْبَهْهَا هَانَا
فَرُّوا واتْفَرْقُوا عْلَى جْمِعْ البُلْدَانْ ... ارْهَوطْ كثَارْ جَاتْ مَنْهُمْ عُرْيَانَا

ومما يدل على انحطاط معنويات قوات الجنرال درود، ما حدث يوم 23 دجنبر 1907، عندما لم تجرؤ فرقة للاستطلاع، على الدخول في المعركة، لما هاجمها المغاربة، فهربت نحو المعسكر الفرنسي، في الوقت الذي كان مَدَدٌ يستعد لمساندتها(54).

تصرف جيش الإحتلال

لما أحس درود بقلة حيلته أمام خصم عنيد، لا يهاب الموت ويهاجم باستمرار، وبشكل فعال، التجأ إلى اتباع طريقة الرشق الجماعي، على شكل

رخات نارية (feu de salve)، تقوم بها أسلحة المشاة والفرسان والمدفعية مجتمعة وفي الوقت نفسه للرد على أي هجوم.

ويبدو أن هذه الطريقة في القتال أثارت بعض الإنتقادات لتصرف القوات الغازية، المفروض أنها تمثل دولة متقدمة ونظاما راقيا، في مواجهة مقاومة شعبية ضعيفة التسليح إن اللجوء لطريقة الرمي الجماعي العشوائي، أمر أخل بحرمة القوات الفرنسية، إن كان للقوات الإستعمارية حرمة بالفعل، كما جلبت لها انتقاد خف التي نسبت ذلك التصرف إلى رداءة ذخيرة السلاح الفرنسي. ففي نتبر 1907، كتب وزير الحربية للجنرال درود، يثير انتباهه إلى الأخبار التي تنشرها الصحف، وتحاول أن تثبت أنه "خلال الإشتباكات مع المغاربة - يقول الوزير فإن الأثر الضعيف لمدفعيتنا ومشاتنا، يرجع إلى رداءة نوع الذخائر" وأمره باتخاذ جميع الإجراءات لجعل حد لتلك الأخبار(55).

ويبدو أن الإنتقادات المذكورة، هي التي حدت بالقيادة العليا لجيش الإحتلال، إلى كتابة رد بمثابة تقرير في الموضوع، يشرح الدوافع وراء الإستعمال المكثف للنيران في مواجهة المغاربة. وكتب هذا التقرير تحت عنوان "ملاحظات حول آثار نيران المشاة في العمليات حول الدار البيضاء" حيث لاحظ التقرير "أن ذلك الإستعمال ضروري، لأن فرسان المغاربة أسرع حركة، ولكي يكون لنيراننا يقول كاتب التقرير - تأثير كبير في المغاربة".(56) !

وقد لاحظ بوردون هذا التصرف، فذكر أن الجنرال درود كان يظهر كثيرا من البخل بدماء جنوده فـ "خلال كل لقاء نشاهد - يضيف الكاتب - بالفعل، أن العدو يؤخذ ويشطب من مسافة بعيدة بواسطة قتال شديد واستهلاك غريب للذخائر" وعلق الكاتب المذكور قائلا "بالتأكيد إن ذلك لا يرجع لكون الجنرال كان يخشى حدوث التحام بين جنوده وبين المغاربة، ذلك أن قواته صلبة وشجاعة، ولكن مثل هذا الالتحام سيكون أكثر فتكا بجنودنا. وهو يفضل اقتصاد الأرواح البشرية بدل اقتصاد الرصاص".(57) !

هل كان الإشتباك مع المجاهدين في معركة مفتوحة مخيفا إلى هذا الحد؟.

إن تصرفات جيش الإحتلال، تشهد حقا على تفوق تعبئة المغاربة خلال القتال، الأمر الذي جعل الجنرال درود يتبع طريقة الرمي العشوائي المكثف لحصد كل هدف يتحرك، وحصر المجاهدين في مسافات بعيدة عن القوات المحتلة.

وقد حكى لنا أحد المخبرين، أن أباه قتل في معركة من معارك الدار البيضاء كما قتل حصانه، وعاد زملاؤه بسرجه، وأنه شاهد بأم عينيه ذلك السرج وقد ثقب

ثقوبا كثيرة حتى أضحى كالغربال. ويدل هذا على أن أسلحة كثيرة وجهت لذلك الفارس، الأمر الذي يؤكد الإنتقادات السابقة. إن هذا الاستعمال المكثف للأسلحة والمدفعية هو الذي مكن جيش الإحتلال من تجنب خسائر فادحة. وكانت خسائره غير متناسبة مع "مقاومة وشجاعة المغاربة"(58).

ويظهر أن تكتيك درود الذي ظل يعتمد الدفاع، وقيامه باستطلاعات على رأس قوات هامة، تتحرك على شكل مربعات تحميها المدفعية، يظهر أن هذه التعبئة قد نجحت فعلا في تقليل خسائر الفرنسيين وفي التأثير على المجاهدين بدورهم، كما يفهم من هذا البيت

كَانْ لَحْرَامِي فَالصُّوْكَا يْدِيرْ حِيَالْ مْعَ مْشَاكْلْ ونْواعْرْ حَيْرُ هْلَ المَيْز"(59)

لكن الواقع، هو أن ضراوة المقاومة، واستهانة المجاهدين بالموت، ومهارتهم في "تحريك العدو وتثبيته"، كما شهد بذلك الجنرال درود نفسه، كل ذلك، بين عدم فعالية قوات درود في الشاوية وحكم عليه بالفشل. فـ "خلال الثلاثة أشهر التي تلت احتلال الدارالبيضاء، ظلت القوات الفرنسية [...] في حالة دفاع، وكانت تقوم بعمليات استطلاع بين الحين والآخر دون أن تبتعد عن ضواحي المدينة. إن عدم فعالية هذه الجولات كانت واضحة"(60).

ومن علامات الفشل الذي ميز دور القوات الفرنسية بالمغرب، ما أقدم عليه درود من إعدامات للمغاربة الذين ألقي عليهم القبض قرب المعسكر الفرنسي. ويبدو أن هذه الإعدامات كانت وسيلة للتأثير على صمود المجاهدين. وقد أثار هذا التصرف انتقادات واسعة لتصرفات قوات الإحتلال. نفهم ذلك من رسالة جوابية رد فيها وزير الحربية الفرنسي على زميله في الخارجية، الذي كان احتج على الإعدامات التي يقوم بها درود، والتي تناقلتها الصحافة، بحيث "تأكد أنه أعدم 13 مغربيا وأنه أعلن أن كل من ألقي عليه القبض في حدود 15 كلم وبيده السلاح يعدم"، وأنه أعدم حتى الجرحى(61).

وقد جاء في جواب وزير الحربية أن المغاربة لا يتركون جرحاهم ولا موتاهم. وأن الذين أخذوا هم مجموعة من الجرحى الذين كانت جروحهم خطيرة وقد توفي بعضهم. كما جاء في جوابه أنه طلب من درود توضيحات حول المسألة، وطلب منه أن يطبق مع المغاربة قوانين الحرب. كما أشار وزير الحربية في نهاية رده إلى أن ما "أنما ما تتدد به الصحافة الألمانية سبق للألمانيين أن ارتكبوه في جنوب غرب إفريقيا"(62).

وكان وزير الحربية الفرنسي قد تساءل عن تصرفات الجنرال درود في 29 غشت، وجاء في جواب الجنرال درود ما يؤكد التصرفات التي نددت بها الصحافة. فحول إعدامات المغاربة كتب درود بتاريخ 9 شتنبر، تقريرا لوزير الحربية يقول فيه

"إن الإعدامات التي نفذت إلى حد اليوم هي

1 **مغاربة ألقي القبض عليهم وأعدموا بالمراكز المتقدمة**

في 16 غشت مغربي أخذ بسلاحه ليلا (15-16) أخبر به القنصل كمتعصب خطير.

18 غشت مغربي آخر سجن خلال هجوم ليلي (17-18).

25 غشت مغربي سجن ليلا بعد محاولة سرقة السلاح.

2. **مغاربة اتهموا بالتجسس**

27 غشت مغربيان سجنا في مراكزنا المتقدمة وهما يحاولان التجسس.

1 شتنبر مغربي ألقي عليه القبض في المعسكر بعد أن دخله بحجة طلب الأمان.

3. **مغاربة قبضوا بالمدينة وهم يتعاطون لأعمال النهب**

8 غشت مغربيان أخذا والسلاح بيدهما يوم 7 غشت بعد الظهر وبيدهم حوائج منهوبة.

23 غشت أربعة مغاربة ثلاثة منهم من العسكر (المخزني) سجنوا بالمدينة قرب السور الجديد. كانت معهم أسلحة وذخائر رغم نزع السلاح. وبحوزتهم العديد من الحوائج المنهوبة. ولهم اتصالات مع الخارج.

إن الجنود الثلاثة دخلوا المدينة بدون تسريح، ويحتمل أنهم دخلوا بواسطة تسلق السور ليلا.

كل المغاربة الذين أعدموا كانوا مسلمين. إن إعدامات 16-18-25-27 غشت و1 شتنبر تهم مغاربة ألقي القبض عليهم والسلاح في أيديهم. لقد أعدموا خلال مداولة المجلس أو قريبا من ذلك.

وفي الواقع لم يكن من الممكن أخذ مساجين. يضاف لذلك، أن ثلاثة منهم هاجموا رجال الحرس الذين كانوا يصحبونهم بهدف أخذ الأسلحة منهم.

أما إعدامات أيام 8 و 23 غشت، فقد قررت من طرف (الكمندان) القائد Mangin "مانجان" بعد بحث هام بين بأن المغاربة المعدومين كانوا أجانب عن المدينة، ودخلوها لأجل إثارة الفوضى وللتجسس" (63).

إن هذه التصرفات، لم يقم بها جيش دولة محارب لجيش دولة معادية، وإنما قامت بها قوات فرنسية أرسلت للدار البيضاء، "لنشر الأمن"، و"تنظيم البوليس"، و"لتحمي التجارة"، بتعاون مع المخزن، كما أدعت الحكومة الفرنسية.

إن إعدام مجاهدين تجرأوا على مقاومة المحتلين، في معسكراتهم وإعدام مغاربة اتهموا بالتجسس" أو "بالتعصب" - المزعوم - أو الاتصال مع الخارج يسمح بملاحظة هامة، وهي أن موقف سكان الشاوية من التدخل الفرنسي بالدار البيضاء سنة 1907 كان موقفا وطنيا واضحا. كما كان موقف أناس، يعرفون كيف يجاهدون في سبيل الدفاع عن بلادهم وأرضهم، ولو دفعوا أرواحهم ثمنا لذلك الجهاد، ولم يكن موقف "رعاع" أو "عتاة مفسدين" أو "همج متوحشين" !

إن صمود سكان الشاوية في وجه قوات الجنرال درود، قد فضح اللعبة الدبلوماسية التي لم يستطع مخزن مولاي عبد العزيز أن يفضحها. وأفشل الخطة العسكرية "المتواضعة"، التي هيأتها الحكومة الفرنسية. وأصبح من الضروري للأوساط الإستعمارية أن تقلب أوراقها فإما احتلال سافر، وبالتالي إرسال مزيد من القوات. وإما جلاء مخجل، واعتراف بالفشل في التعاون المزعوم مع المخزن المغربي.

لقد سقطت أسطورة التدخل السلمي - إذن - وما على الحكومة الفرنسية إلا الاعتراف بالحقيقة التي حاولت إخفاءها وهي أن دون إخضاع المغاربة للاستغلال الرأسمالي، لابد من خوض حرب حقيقية. وقد اتضحت هذه الحقيقة أكثر، لما تدخلت محلات مولاي عبد الحفيظ بالشاوية. ويبقى علينا الآن أن نتعرف على موقف مولاي عبد الحفيظ من الاحتلال الفرنسي ومن جهاد قبائل الشاوية.

هوامش الفصل الثاني عشر

1- A.M.V, BB4 2602, Copie annexée au rapport Philibert, 8 Aout 1907.

2- L. Segonds, "La chaouia et sa pacification", paris, Charles Lavauzelle, 1909.

3- نفس المرجع. Conjeaud, op. cit, P. 67.

4- F.O. 174-253 ; N° 180, August II, 1907. Cf, N° 179, même date.

5- "La dépêche Marocaine", 14 Aout 1907, A.E.P., NS. 45.

6- A.G.V, 3 H 23, 12 Aout 1907, Drude à guerre.

7- Congeaud, op. cit, P. 68.

8- Segonds, op. cit, P. 44.

9- Ibid, P. 45.

10- A.G.V, 3 H 23, Drude à guerre, 18 Aout 1907.

11- Ibid

12- Ibid

13- أسفله، ص 366.

14- A.E.P, NS, 46 P. 228, 20 Aout 1907.

15-

L.CL. Huot, La Situation politique en chaouia, Aout 1907 Janvier 1908". B.S.G.M.T. T 3. Fasc. 2-3, 1922 P. 109.

16- ibid

17- الفصل الرابع عشر.

18- A.M.V. BB 4 2602, P. 881.

19- A.G.V. 3 H, Mangin à Drude, 22 Aout 1907.

20- Segonds op. cit. p. 47.

21- A.M.V. BB4 2602, pp. 649 - 651.

22- A.G.V. 3 H 568, Drude à guerre, 31 Aout 1907.

23- Lt Huot, op. cit. P; 111.

A.M.V. BB4 2602, 30 Aout 1907, Philibert à Marine - (24

Ibid - (25

Conjeaud, op. cit. p. 67. - (26

"Le Gaulois" du 30 Aout 1907. - (27

"L'éclair" du 31 Aout, 1907. - (28

- (29

Picquart à Drude, 29 Aout, Voir Guiral, "Quelques lettres sur les débuts de l'intervention Française au Maroc. Annales de la Faculté des lettres d'AIX T. 31, p. 43.

Ibid - (30

Segonds, op. cit. P; 48. - (31

L'illustration", Aout 1907, pp. 188-189. - (32

33) - كونجو، ص 70.

34) - عبد الهادي بناني، "الدرر البهية في مدح رجال الشاوية"، ضمن مجموع طبع على الحجر، محفوظ بكلية الآداب بالرباط.

35) - مرجع هامش 33.

36) - بوردون، مرجع سابق ص 306.

D.D.F. Aff. M. 1907, N 477. - (37

38) - مرجع هامش 33 ص 73.

39) - نفسه.

- قارن مرجع الملاحظة 32 ص 222-223.

40) - مرجع هامش 29 - ص 44.

Sabatier "L'Erreur d'Algésiras", Rev. Pol. Parl. op. cit.P. 270. - (41

42) - لقد اشتهر مولاي رشيد عم السلطان، وعامل تافيلالت بعداوته للتسرب الفرنسي بالجنوب الشرقي وطالما اشتكى الفرنسيون، بتشجيعه وتمويله للحملات الجهادية ضدهم بنواحي بوذنيب وبشار. وعندما أعلن مولاي عبد الحفيظ بيعته أيده مولاي رشيد منذ البداية وبعث له وفدا من متطوعي تافيلالت بقيادة ابنه مولاي محمد الذي تولى قيادة أول محلة حفيظية توجهت للجهاد بالشاوية. قارن مرجع هامش 37، رقم 443، رسالة من حاكم الجزائر إلى وزير الخارجية، 29 غشت 1907. قارن كذلك عنه
Martin, op. cit. p. 479 - 480

43)-مرجع هامش 33، ص 76. راجع كذلك مرجع هامش 32 ص 275.

44)-مرجع هامش 14 مجلد 45، 11 غشت 1907.

45)-نفس المرجع، والتاريخ.

46)- انظر أسفله ص 364 وما يليها.

47)- بوردون، مرجع سابق، 140-141.
راجع كذلك أوصاف المعارك، التي تناقلتها بعض الصحف المصرية، في مقال الأستاذ محمد المنوني "مقاومة الدار البيضاء والشاوية ضد التدخل الفرنسي في مطلع القرن العشرين" في أعمال ندوة الدار البيضاء، نشر كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالدار البيضاء 1983، ص 53-56.

48) -
Brasset, "A travers la chaouia", 1907-1908, Paris 1909. p. 25.
Guikal, op. cit. p. 37.

49)-هويل، مرجع سنابق، ص 37.

50) - بوردون، ص 157-158.

51) - نفسه ص 184-185 وص 296-298.

52)-كونجو، مرجع سابق، ص 75.

53)- عبد الهادي بناني مرجع سابق.

54)- كونجو، ص 77.

55) - A.G.V. 3 H 76, Picquart à Drude, 27 Septembre 1907.

56) - Ibid, 3 H 63, 15-10-1907.

57) - بوردون، ص 182.

58) - نفسه ص 183.

59)- عبد الهادي بناني مرجع سابق، "الصوكا" تعني الهجوم.

60) - "مدن وقبائل المغرب، الدار البيضاء والشاوية"، I، ص 174.

61) - A.G.V. 3 H 65, doss 13, Picquart à Pichon, 20-9-1907.

62) - Ibid,

63) - Ibid, 3 H 76, Drude à Picquart. 9.9.1907.

الفصل الثالث عشر

موقف مولاي عبد الحفيظ والسلطان عبد العزيز من الجهاد بالشاوية

1. الشاوية يطلبون مساندة مولاي عبد الحفيظ

في 11 غشت 1907، عقد زعماء الجهاد بالشاوية اجتماعا قرروا فيه الكتابة لمولاي عبد الحفيظ بمراكش، ليسرع إلى مساعدتهم على رد الغزاة النازلين بالدار البيضاء. ويؤكد "مارتان"، أن الذي حرر رسالة الاستغاثة، هو الفقيه البجاج بمساعدة الفقيه بوشعيب بن عزوز(1). وقد أكد أهل الشاوية في رسالتهم، على أن العدو يحاول قهرهم واحتلال بلادهم، واشتكوا من عدم توفر "البنادق والمدافع والذخيرة"، وتوسلوا لمولاي عبد الحفيظ، لكي يعلن الجهاد، للحفاظ على "أعراض المسلمين وأبنائهم وأملاكهم وبلادهم"(2). كما طلبوا منه أن يسرع بالعمل، لأن "السيل يحطم الحواجز والعدو يهاجم أسوارنا" كما جاء في الرسالة، ولأن من "يعتذر سيخطئ، ومن يعلم لا يتردد وما راء كمن سمع"(3). وقد ذكر "مارتان" أن الذي حمل رسالة الشاوية لمراكش هو الحاج مامون الزيراوي والجيلالي بن عروب العفيفي. وقد صادف وفد الشاوية تطورات جديدة بمراكش، ففي يوم 16 غشت، اجتمع الأعيان والشرفاء والقواد، وأعلنوا بيعتهم لعبد الحفيظ بمساجد المدينة(3 مكرر).

2- بيعة مراكش والحركة الحفيظة

ترجع الحركة الحفيظة(4) في أصولها، إلى عجز المخزن العزيزي عن مواجهة التدخل الأجنبي. ويمكن اعتبارها، آخر مرحلة في تطور ردود الفعل الشعبية إزاء التسرب الفرنسي. فلما اتضح هذا التسرب عقب قرارات الجزيرة، اتضحت السبيل أمام الحركة الشعبية، التي بحثت عن بديل للسلطة الشرعية القائمة، في سلطة أخرى، لم تعوزها التبريرات الشرعية كذلك. والأمر الذي لا ينبغي إغفاله في هذا الصدد، هو أن للحركة الحفيظة وجها آخر، يرتبط كذلك بعجز المخزن المركزي تجاه بعض القيادات الطموحة، وبهذا يكون العون الذي قدمه بعض قواد الجنوب، أحد عناصر المعادلة في الحركة الحفيظة(5).

ويرى صاحب "الدرر اللفظية في المملكة الحفيظية"، أن الخلاف كان يشمل سكان البوادي عامة مع المخزن مولاي عبد العزيز، الذي كان يعتبرهم "كخشاش الأرض" لا "عبرة بهم" ولما حملت البوادي مولاي عبد الحفيظ إلى كرسي الملك، تبين لدائرة السلطان عبد العزيز سوء تدبيرها(6).

إذن لقد عرف مولاي عبد الحفيظ، كيف يساير موقف الأغلبية الشعبية، المعارضة للتدخل الأجنبي. كما عرف كيف يستفيد من تنافس بعض القواد الكبار، وطموحاتهم كالمدني الگلاوي، الذي كان في خلاف مع قواد آخرين كانت كلمتهم مسموعة بفاس، كالطيب الكنتافي وعبد المالك المتوكي.

والواقع أن الشائعات بدأت "تظهر سكان حوز مراكش وكأنهم متفقون على بيعة" مولاي عبد الحفيظ منذ 1906(7). وهذا يؤكد ما سبق أن المحنا إليه من تحرك شعبي عام بعد إعلان مقررات الجزيرة، وظهور دعوات للجهاد ارتبطت بزيارة ماء العينين لمراكش وفاس، وزيارة البوعزاوي لمراكش في غشت 1906. لقد تعمق الخلاف بين الشعب، ومخزن مولاي عبد العزيز، بمناسبة حادث "موشان" بمراكش في مارس 1907. إذ رفضت قبائل حوز مراكش عزل باشا المدينة وسجنه. وشاعت أخبار استعداد مولاي (م) عبد الحفيظ لإعلان بيعته لكن يبدو أنه هذا الأخير لم يجد المبرر الكافي لإعلانها في ذلك الوقت(8).

وباحتلال مدينة وجدة، وخاصة بعد قنبلة الدار البيضاء واحتلالها أصبح بإمكان مولاي عبد الحفيظ، أن يبرهن على عجزالأمير الحاكم، ويستدل على شرعية عزله، ما دام لم يقم بما تفرضه الشريعة من مدافعة العدو عن بلاد المسلمين.

كان احتلال الدار البيضاء السبب المباشر لإعلان بيعة مولاي عبد الحفيظ بمراكش بعد أحد عشر يوما من قنبلة المدينة(9). وخلال مراسم البيعة، أكد المبايعون على ضرورة اختيار أمير للجهاد لتحرير الشاوية. كما أكد مولاي عبد الحفيظ بعد بيعته - في رسائله للقبائل ولأهل الحل والعقد على أمر الجهاد لإخراج العدو من ثغور المسلمين(10). ولقد نتج عن دعوات مولاي عبد الحفيظ، انتشار حماس الجهاد، وبدأت الاستعدادات للجهاد في تادلا والأطلس المتوسط وزعير(11). وأخذت بيعات القبائل تتوارد على مولاي عبد الحفيظ بمراكش(12)، وسارع عامل تافيلالت مولاي رشيد، إلى جمع المتطوعين للجهاد، ووجههم مع ابنه (محمد بن مولاي رشيد) الذي سبق أن أشرنا إلى أنه قاد أول محلة حفيظية وجهت للشاوية(13).

3. قوات مولاي عبد الحفيظ تتدخل في الشاوية

كتب مولاي عبد الحفيظ إلى الشاوية، يعلمهم بأنه يستعد، للمجيء عندهم مع جيوشه، وأنه نهض ليصغي "لآلام المسلمين" وليحفظ مصالحهم "حتى يتمكنوا من البقاء في بلادهم مستقلين استقلالا كاملا عن الكفار، ويبقى كل واحد داخل حدوده"(14). ثم أخبرهم بالإجراءات التي اتخذها قائلا "لقد قررنا أن يسبقنا جيش مبارك، يضم جنودا عديدين وفرسان الجيش وفرسان عدد من القبائل. وسيقوده أحد أفراد أسرتنا الشريفة وسيحل وسطكم. لقد أمرنا قائده بالتشاور مع من عيناه له، حتى يحصل جلاء الجنود الفرنسية عن الدار البيضاء، بكيفية تشرف المسلمين، والله نسأل أن يتمم ذلك بخير، وعندما تحل هذه المسألة كما نرغب بعون الله، فعلى ممثلنا أن يستأنف سيره على رأس جيشه، فأظيفوا إليه 200 فارس منتخبين وأصحبوه إلى الرباط وانتظروا هناك حتى نصل إليكم"(15).

وقد شرع مولاي عبد الحفيظ في الاستعداد بمراكش، لكن استعداداته استغرقت وقتا أطول، نظرا لعدم توفر الأموال الكافية لتجهيز قواته بالسلاح والمؤن. ونظرا لانقسام المغاربة إلى فريقين متنافسين، الفريق الحفيظي والفريق العزيزي. وهكذا، فإذا كانت جل القبائل قد أيدت سلطان الجهاد(16)، وبعض المدن الحوزية كالجديدة وآسفي، فإن معظم المدن بالشمال، ظلت عزيزية وكذلك مدينة الصويرة.

وفي 16 شتنبر، خرجت أول محلة حفيظية من مراكش، واتجهت للشاوية بقيادة ولد مولاي رشيد المذكور(17)، وكانت هذه المحلة مكونة من حوالي 1000

رجل، بين جنود نظاميين ومتطوعين من تافيلالت وقبائل أخرى، وخيمت بسيدي عيسى قرب مديونة(18). وقد سبق أن أشرنا إلى أن هذه القوات الحفيظية أثارت القلق في صفوف جيش الاحتلال. لأن هذا التدخل جذب الكثير من القواد، الذين سبق أن اتصلوا بالفرنسيين كقائد زناتة. وأبرق الأميرال "فيلبيير" لوزير البحرية في 12 أكتوبر 1907، يعرض عليه ما استجد بالشاوية، وما اتخذته القيادة الفرنسية بالدار البيضاء من إجراءات. فقد أخبره بأنه اجتمع مع الجنرال درود ومع قنصل فرنسا، واتفقوا على إبلاغ رينيو، الذي حل بالرباط عند السلطان مولاي عبد العزيز، بأن الأمر يقتضي أن يرسل السلطان على عجل محلة للشاوية لمواجهة محلة ولد مولاي رشيد. "وبدون هذا التدخل فإن القبائل المؤيدة لنا - يقول الأميرال- ستضطر بالقوة إلى الانفصال عنا"(19).

كما أخبره بأن مرابط أبي الجعد، محمد بن داوود الشرقاوي، الذي يعمل بالاتفاق مع الفرنسيين، جاء على رأس محلة يبلغ عدد أفرادها 1500 رجل، وخيم جنوب مديونة، قرب محلة مولاي احفيظ و"ثوار الشاوية"، وأن القنصل نصح المرابط، باحتلال مديونة، والقدوم للدار البيضاء للاجتماع بالجنرال درود والقنصل. وختم الأميرال برقيته بقوله " لقد توسلنا إلى وزير فرنسا أن يتدخل لدى السلطان، لمساعدة زناتة وأتباع المرابط بمحلة شريفة"(20). إن تدخل مولاي احفيظ بالشاوية، حمل تأييدا معنويا كبيرا للقبائل التي نشطت بها الدعوة لمقاتلة الفرنسيين. ونظرا لعجز قوات الجنرال درود عن التوصل "لتهدئة" الشاوية، فإن الأوساط الفرنسية، سواء بالدار البيضاء أو بطنجة أو بباريز، بدأت تبحث عن وسيلة أخرى لمواجهة تأثير الدعوة للجهاد وتدخل مجاهدين من خارج الشاوية.

وهكذا تدخل رينيو لدى مولاي عبد العزيز، وحثه على القيام بأي تحرك، لموازاة دعاية أخيه التي زادت وضعية السلطان تدهورا. وقبل أن نتعرف على موقف مولاي عبد العزيز، تجدر الإشارة إلى أن الفرنسيين، سعوا منذ وقت مبكر من تدخلهم في الشاوية. إلى كسب تأييد بعض الشخصيات ذات النفوذ الديني، مثل مرابط أبي الجعد محمد بن داوود الشرقاوي.

درد محمد بن داوود الشرقاوي

قدم المرابط محمد بن داوود الشرقاوي، خدمة كبيرة للاحتلال الفرنسي بالشاوية. فمنذ أن تبين للجنرال درود تزايد حدة المقاومة بين القبائل ومنذ أن أعلن مولاي عبد الحفيظ الجهاد، وأرسل محلة للشاوية، تدخل لدى القنصل الفرنسي بالدار البيضاء ليحث المرابط المذكور على استخدام نفوذه وهيبته لإقناع الناس بعدم جدوى قتال الفرنسيين.

ونفهم من التقارير التي كان قائد جيش الاحتلال، يبعثها إلى وزارة الحربية، أن محمد بن داوود الشرقاوي، قد كسبه الفرنسيون إلى جانبهم منذ مدة سابقة للتدخل الفرنسي بالشاوية. ويظهر أن الفرنسيين، الذين عرفوا اتساع العلاقات بين شرقاوة وقبائل الشاوية، حيث كان للأولين عزائب بالمنطقة وأتباع للطريقة(21)، يظهر أن ذلك، دفع قنصل فرنسا إلى كسب مرابط أبي الجعد، بهدف استخدامه في الوقت المناسب، كما استخدم الفرنسيون شرفاء وزان بنجاح من قبل(22). ولقد حان هذا الوقت، بعد التطورات المذكورة التي عرفتها الشاوية، ولذلك دفع قنصل فرنسا المرابط المذكور، ليبدأ عمله. لم يتردد الشيخ المذكور في المجيء للشاوية على رأس عدد كبير من أتباعه، وخيم بهم قرب مديونة، بجانب محلة مولاي عبد الحفيظ

" في تقريري السياسي الأخير المؤرخ بـ 12 أكتوبر بينت - يقول الجنرال درود - بأن مرابط أبي الجعد الحاج محمد بن العربي بن داوود [...] قد أظهر لنا علامات ولائه، أولا بعدم التردد في قطع حوالي 200 كلمتر، في بلاد معادية ليزور السلطات الفرنسية بالدار البيضاء. وثانيا عن طريق استخدام هيبته الدينية لينشر الفوضى وسط الجماعات التي تتجمع منذ بعض الوقت حول قصبة مديونة، والتي جاءت لتضع نفسها تحت قيادة ولد مولاي رشيد"(23).

وفي التقرير المشار إليه، تعرض درود للخطة التي رسمها المرابط والتي تهدف إلى إبعاد مجاهدي القبائل الذين جاءوا من خارج الشاوية مع مولاي رشيد، من تافيلالت والرحامنة والسراغنة، وكذلك من مجاهدي الأطلس، الذين كان يقودهم موحا وسعيد الويراوي وموحا وحمو الزياني. ويبدو أن خطة الشيخ كان مصيرها الفشل، وسعاياته كانت لها نتيجة عكسية إذ بد ل أن يفرق الجماعات المرابطة على قتال الفرنسيين تعرض للّوم العنيف والنقد الشديد. "لقد دخل مرابط تادلة - يقول درود - إلى مخيمه قرب قصبة مديونة يوم 14 [أكتوبر] مساء. وفي صباح الغد، لامه رجال ولد مولاي رشيد والبرابر، الذين جاءوا من الأطلس ليعززوا المحلة الحفيظية، لوما عنيفا على تعامله المشبوه مع الفرنسيين"(24).

وبدل أن يكون أتباع الشيخ، سندا للفرنسيين، أصبحوا مصدر تهديد لهم "إن البرابر - يضيف درود - يبدون أكثر تهديدا، فنظرا لمجيئهم من بعيد، ولوجودهم بدون تموينات، فإنهم يريدون إنهاء الوضع، والهجوم على المعسكر الفرنسي في أقرب وقت ممكن. وإذا ظلوا على عزمهم، فسيكون علينا مواجهة البرابر (400 رجل)، ومحلة مولاي رشيد (1000 رجل)، وعصاة الشاوية (2000)، وأتباع مرابط

تادلا الذين يحتمل أن ينظموا [للمجاهدين] 1000 رجل، والمجموع بين 4000 و 5000 رجل"(25).

وبالجملة فإن مرابط أبي الجعد، اضطر للعودة لبلاده، دون أن تنجح مساعيه في جعل قبائل الشاوية تهادن الفرنسيين. لكنه بقي معاديا لعبد الحفيظ، ومتعاملا مع الاحتلال الفرنسي بالشاوية، التي تدهورت فيها هيبته بشكل كبير، لصالح الطريقة البوعزاوية(26). وهذا ما دفعه إلى بذل جهوده، واستخدام نفوذه الديني في قبائل أخرى لتأييد جانب مولاي عبد العزيز.

4. موقف مولاي عبد العزيز

عندما أعلنت بيعة مولاي عبد الحفيظ، كان مولاي عبد العزيز بفاس في وضعية لا يحسد عليها. فقد أربك التدخل المسلح بالدار البيضاء كل المحاولات التي كان يبذلها للحفاظ على استقلال البلاد، وسيادة السلطان تجاه الأجانب، وزاد ذلك الأزمة المالية حدة، فأصبح مخزن مولاي عبد العزيز عاجزا عن مواجهة الأحداث. أما إعلان بيعة مولاي عبد الحفيظ ودعوته للجهاد، وتنديده بعجز أخيه واتهامه بمسايره المحتلين، فمثل ضربة خطيرة لنفوذ مولاي عبد العزيز وهيبته. وعند هذا الحد، قرر السلطان التحرك، خاصة وأن الفرنسيين تدخلوا لديه وشجعوه على الانتقال للرباط، وكان الفرنسيون يرون في وجوده على الحدود الشمالية للشاوية، عاملا موازيا لتأثير مولاي عبد الحفيظ. وقد اضطر مولاي عبد العزيز لمسايرة وجهة النظر الفرنسية، لأنه كان في حاجة ماسة للعون المالي، كما كان في حاجة لتذليل المصاعب التي أثارها التدخل الفرنسي المسلح.

والجدير بالذكر أن مولاي عبد العزيز، قبل أن ينتقل للرباط أوفد، بعض موظفيه للشاوية بهدف مواجهة دعاية أخيه، ولمحاولة دفع القبائل إلى الكف عن مقاتلة الفرنسيين، وإعطائه مهلة ليتفاوض مع فرنسا على تسوية سلمية، تحفظ هيبته وتخدم نفوذه. والملاحظ، أن مساعي السلطان نجحت في جعل بعض القبائل المجاورة للداربيضاء تعقد الصلح مع الفرنسيين، وهذا الصلح هو الذي ادعت التقارير العسكرية أنه استسلام لبعض القبائل(27).

أ - مفاوضات الرباط بين السلطان والفرنسيين

قبل مولاي عبد العزيز، الانتقال للرباط، كما قبل الفرنسيون مبدأ تقديم العون المالي له، مقابل تعهده بالتعاون معهم في الشاوية. وإذا خدم هذا التعاون، السياسة الفرنسية بالمغرب، وساعد الفرنسيين على تحقيق مخططهم الرامي

لاحتلال الشاوية. فإنه لم يزد على أن أربك سياسة مخزن مولاي عبد العزيز وأسقط هيبته إلى الحضيض.

وصل مولاي عبد العزيز للرباط في 22 شتنبر 1907، وبالرباط كان على موعد لاستقبال سفارة فرنسية هامة. وكان الوفد الفرنسي مكونا من "رينيو Regnault" والجنرال "ليوطي" والأميرال "فليبير" وشخصيات أخرى. وقد استقبل السلطان السفير الفرنسي يوم 7 أكتوبر. وأكد السفير في خطابه، على أهمية "استتباب النظام" وضمان المعاملات التجارية "بتوفير الأمن" لها، ودعا السلطان التعاون مع الحكومة الفرنسية، والشروع في تنفيذ قرارات الجزيرة التي بقيت معلقة.

ورد السلطان ملاحظا أن أهمية السفارة تدل على "المصلحة التي توليها فرنسا للمغرب"، وشكر الحكومة الفرنسية على "تعهدها بتقديم العون المالي للمخزن"، كما أكد على أنه مهتم بعودة الأمن والنظام، "ومحو آثار الحوادث السابقة"، وأنه مقتنع بأن الحكومة الفرنسية ستعينه على تحقيق هذه الغاية(28).

وتجدر الإشارة، إلى أن إسبانيا أرسلت سفارة بدورها للرباط، واستقبل السلطان السفير الإسباني يوم 5 نوفمبر. وقد نسق السفيران جهودهما لإقناع مولاي عبد العزيز بقبول تطبيق مقررات الجزيرة.

لقد أسفرت مفاوضات الرباط عن قبول مولاي عبد العزيز للمقترحات الفرنسية الخاصة بتنظيم البوليس بالموانئ تحت الإشراف الفرنسي، الأمر الذي نفذ حالا بالرباط وسط معارضة شعبية عامة. وبتطبيق مبدأ حق الملكية للأجانب حالا بطنجة، وبمنع "التهريب" و"مراقبة الديوانات"، كما قبل مولاي عبد العزيز مشروع تكوين لجنة دولية للنظر في تعويض خسائر الدار البيضاء، ومنح المجلس الصحي بطنجة سلطات بلدية حقيقية(29).

هذه هي التنازلات العلنية التي حصلت عليها فرنسا، من سلطان كان في ضيق شديد. وهناك تنازلات أخرى، تتلخص في قبول المخزن أن تكون شؤون الجيش المغربي تحت سلطة قائد فرنسي باسم مراقب، لمدة 5 سنوات، وخلق وظيفة مراقب عام للمالية لمدة 20 سنة حسبما جاء في رسالتين من عبد الكريم بن سليمان إلى رينيو الأولى مؤرخة بـ 14 شوال 1325 / 11 نوفمبر 1907، الثانية في 18 شوال 1325 / 15 نوفمبر 1907(30).

وهكذا حصلت فرنسا على ما ظل المخزن يعارض في منحه للفرنسيين، أي السيطرة على الجيش والمالية والبوليس، وواضح أن وضعية عبد العزيز هي التي دفعته لتلك التنازلات. بالرغم من ذلك، فإن تردد فرنسا في منح العون المالي للسلطان زاد من ارتباك أحواله(31).

ومن الأمور التي حرص السفير الفرنسي على تنفيذها، هو حثه للسلطان على توجيه محلة للشاوية. بهدف مواجهة محلة مولاي عبد الحفيظ.

ب ـ محلة ابن البغدادي بالشاوية

في أواخر أكتوبر، نظم مولاي عبد العزيز، محلة قوامها 3900 رجل من المشاة و 625 من الفرسان، وزودت بثلاثة مدافع ورشاشتين(32). وقد ألحق بهذه المحلة ضابطان من البعثة العسكرية الفرنسية، وهما ابن سديرة والماحي. وكانا مكلفين بالمدفعية، كما كانا يعملان ـ في الواقع ـ كضابطي ارتباط، بين قائد المحلة وقائد قوات الاحتلال بالدار البيضاء. وتطلعنا على هذا الأمر رسالة من ابن سديرة إلى الجنرال درود يطلعه فيها على أن ابن البغدادي سلمه رسالة وصلته من الجنرال وتذاكر معه حول ما جاء فيها، فعلق القائد المغربي على رسالة درود إليه قائلا "إن المسألة ليست هي التقدم إلى هذه النقطة أو تلك، ولكنها هي أنني جئت هنا لتهدئة الشاوية، وكلما توغلت في البلاد، ابتعدت عن الهدف نهائيا. إذن، لا ينبغي أن أغادر دائرة إلا بعد التأكد من عودة الطمأنينة للمناطق المجاورة لها"(33).

وهكذا يظهر أن الجنرال الفرنسي، كان يريد من المحلة السلطانية أن تتوغل بسرعة في الشاوية، لتصطدم بمحلة مولاي عبد الحفيظ. أما قائد المحلة محمد بن بوشتى البغدادي، فيريد نشر نفوذ السلطان وتمهيد المناطق التي يمر بها. ولذلك لاحظ ابن سديرة في رسالته "أن تقدم المحلة إلى الأمام يخضع إذن للأحداث والصعوبات التي يمكن أن تعترضها في طريقها، ولكن من المفروض أنها لن تصل إلى فضالة إلا في نهاية رمضان"(34).

جـ انهزام محلة ابن البغدادي بسيدي ابن سليمان 24-25 نوفمبر 1907

توغلت القوات العزيزية، في بلاد الزيايدة، حتى وصلت إلى منطقة سيدي ابن سليمان، حيث خيمت هناك، ويبدو أن مجاهدي الشاوية وخاصة قبيلة المذاكرة وأولاد علي، كانوا على علم بأهداف المحلة. ولا زال المسنون يتذكرون أن محلة

"بوشتى البغدادي" كانت آتية "لتطويع" المذاكرة، الذين يقاتلون الفرنسيين. ولذلك استعد المذاكرة لمواجهة المحلة العزيزية وأمدهم محمد ولد مولاي رشيد قائد المحلة الحفيظية ببعض الجنود وبمدفع واحد(35).

وفي ليلة 24 نوفمبر، قام المذاكرة بهجوم عنيف، أدى بقائد المحلة العزيزية إلى تأخير المدفعية إلى الوراء، وتبع هذه الحركة، تراجع تحول إلى فزع وفرار شامل لمحلة ابن البغدادي، الذي لم يتمكن من لمّ شعث قواته إلا في الصخيرات(36).

أسباب الهزيمة تدعي الرواية الفرنسية، أن الهزيمة جاءت نتيجة لخيانة قواد "الرحى"، الذين لم يكونوا راضين عن رئاسة محمد بن بوشتى البغدادي(37). وفي الواقع فإن عنف الهجوم، وتصميم مقاتلي الشاوية على طرد العزيزيين، كان هو العامل الحاسم في الهزيمة. فالرواية الفرنسية تؤكد "على الشجاعة التي أبداها أهل الشاوية خلال المعركة" فقد كان هؤلاء - يهاجمون الجنود النظاميين المغاربة وهم يصيحون، "أقتلوهم مثلما تقتلون الفرنسيين" كما تشير الرواية المذكورة إلى أن المذاكرة برهنوا على احتقار للخطر وصل إلى حد التهور"(38).

وهكذا فهزيمة المحلة العزيزية، ترجع بالتأكيد، إلى تصميم وصدق مقاتلي الشاوية في المعركة، وحرص المجاهدين على طرد العزيزيين الذين جاءوا - في نظرهم - لمساعدة النصارى. ولقد كانت هذه الحقيقة شائعة آنذاك وعبر عنها الشاعر الشعبي بقوله مشيرا إلى فشل القوات الفرنسية في التغلب على مقاومة الشاوية

نَوْض السُّلْطَانْ يْعِينُو وْ شَاعْ لَخْبَارْ غَلَّبْ اللّهْ الشَّاوْيَا عْلَى النْصَارَا (39)

وبعث قائد المحلة الحفيظية برسالة غداة المعركة يهنئ فيها المذاكرة بالنصر، ويعبر لهم فيها عن أمله في استمرار الجهاد حتى يطرد "النصارى"، جاء فيها

"أحباءنا الأوفياء الأرضين، إخواننا في الله، المجاهدين في سبيل الدين وفي سبيل مجد رب العالمين. قبائل المذاكرة كافة، صغيرا وكبيرا أعيانا وعامة... وبعد فقد أثلج الله صدورنا، وصدوركم بجاه رسوله، بمحق من ساعد النصارى دمرهم الله [...] فأثبتوا على عملكم، وبواسطة أعمالكم الباهرة سيطرد النصارى من بلاد الشاوية [...] أنتم المسلمون حقا والمؤمنون حقا بحيث لا تؤثر فيكم، لا وعود النصارى ولا عطاياهم [...] يجب عليكم أن ترسلوا المساجين بدون أي مكروه.

وأقطعوا رؤوس شركاء النصارى لإرسالها إلى سيدنا [...] لكي يولد هذا العقاب الخوف في قلوب المنافقين..."(40).

د ـ نتائج هزيمة المحلة العزيزية

لقد غنم المذاكرة عددا كثيرا من السلاح والذخيرة والخيل والبغال والأثاث. وتذكر الأخبار أن كل "مجاهد رجع ببندقية ساسبو" أو أكثر. كما فقدت قوات مولاي عبد العزيز، 22 قتيلا و 11 مفقودا و 31 أسيرا. وقتل لها حوالي 40 حصانا (41).

كان من أهم نتائج انهزام المحلة العزيزية، هي تعزيز هيبة "سلطان الجهاد"، في حين شكل ذلك الانهزام ضربة أخرى خطيرة لسلطة مولاي عبد العزيز، فلم يعد للتدخل في الشاوية مرة ثانية. وقد اشتدت حركة الجهاد ضد الفرنسيين بالشاوية وفي غيرها أثر هذا الحدث فقد أعلن بنويزناسن الجهاد ضد الفرنسيين بالحدود الشرقية الأمر الذي أدى إلى تدخل قوات الجنرال ليوطي الذي احتل المنطقة بعد معارك مع القبائل استخدم فيها قوات كبيرة(42). كما انتهز الشيخ البوعزاوي هذا الفشل، ليلتحق بالشاوية، ثم بعبد الحفيظ، حيث أصبح من أنشط مساعديه، في حث قبائل الشاوية على الجهاد ضد المحتلين(43).

وقد شجعت هذه الهزيمة، مولاي عبد الحفيظ على مغادرة مراكش بعد تردد طويل، والتوجه إلى الشاوية وكتب لقبيلة المذاكرة وأولاد علي يخبرهم بعزمه على القدوم للشاوية "بقصد الرباط في سبيل الله لإعلاء كلمة الله، وعليه ـ يضيف مولاي عبد الحفيظ ـ فنأمركم بالرباط بخيلكم وأقوياء رجالكم على حد الصائم مع ابن عمنا سيدي محمد بن رشيد، حيث نجدكم هناك بصدد ذلك إذا حل ركابنا الشريف بأرضكم"(44). وسنرى في فصول تالية بقية مواقف مولاي عبد الحفيظ. ونتيجة لهذه التطورات، اشتد الحصار حول الدار البيضاء، وعقد قائد المحلة الحفيظية اجتماعا عاما مع أعيان قبائل الشاوية، أثار مخاوف الجنرال درود من تهييء هجوم عام على الدار البيضاء، وخاصة إذا تدخل عبد الحفيظ وشارك في هذا الهجوم (45).

وقد سرت حمية الجهاد في جميع قبائل المنطقة، وأشار "رينيو" إلى أثر انتصار الشاوية على المحلة العزيزية في رفع معنويات المقاومين. وأخبر الجنرال درود بأنه أرسل إلى القنصل بالدار البيضاء، "تعليمات تؤكد عليه في حث مرابط أبي الجعد ليتدخل من جديد. لقد وضعت تحت تصرف قنصلنا ـ يضيف رينيو ـ

الأموال الضرورية، لتكون عند المرابط الوسائل لتجنيد محلة، وليتدخل بين الطرفين في الظاهر، وعند الحاجة يساعد بواسطة القوة جانب النظام وقوات مولاي عبد العزيز..."(46) ولمح رينيو في رسالته للجنرال إلى فشل القوات الفرنسية وإلى الدعاية المنتشرة حول انتصارات قبائل الشاوية.

أما الجنرال درود، فلم يبد عليه أي حماس لمهاجمة قوات المجاهدين ومحلة مولاي احفيظ. لكن استخباراته نشطت لأحداث الفرقة بين القبائل، ولدفعها إلى الكف عن قتال الفرنسيين، وذلك بشراء العملاء. فقد كتب الجنرال إلى وزير الحربية يطلعه على وضعية الأموال السرية، ونشاط الإستخبارات بتاريخ 15 دجنبر 1907. وأرسل له لائحة بعدد الأشخاص الذين منحت لهم الأموال(47).

ويظهر أن موقف الجنرال أثار حفيظة المفوض الفرنسي بطنجة ـ الذي كان يرغب في رؤية القوات الفرنسية وقد طردت محلة مولاي عبد الحفيظ ـ ولذلك كتب لوزير الخارجية، يلح عليه في أن يظهر الفرنسيون قوتهم باحتلال قصبة مديونة، وتفريق المجاهدين الملتفين حول محلة ولد مولاي رشيد، "إنني ـ يقول رينيو ـ ألح على هذا العمل منذ شهر شتنبر، وهذه العملية تظهر الآن ضرورية"(48). وطالب رينيو ـ زيادة على هذا باستدعاء الجنرال درود لباريز قائلا "وأهيب بالوزارة، ضاما إلحاحي لما صدر من الأميرال، أن تستدعي الجنرال درود لباريز لكي يعرض الوضعية على الحكومة"(49).

لكن الجنرال درود، كان يحسب الحساب لأي مغامرة فاشلة داخل الشاوية، ورد على منتقديه بأنه هو الذي يتحمل المسؤولية عن أي فشل وليس هم. ولكنه توصل في 19 دجنبر برسالة من وزير الحربية تأمره بتفريق محلة ولد مولاي رشيد وباحتلال مديونة(50).

أما درود فكان يرى أنه قبل الإقدام على عملية مماثلة، لا بد من تعزيز جيش الاحتلال، بإمدادات قدرها في برقية مؤرخة بـ 25 دجنبر، بأربع (4) سريات خيالة وثلاث (3) كتائب مشاة و 50 عربة للنقل، وبطارية مدفعية، وبين أن القوات التي يتوفر عليها غير كافية لعملية عسكرية داخل الشاوية(51).

وهكذا، يظهر أن الحكومة الفرنسية قررت البدء في مرحلة جديدة من تدخلها في المغرب، تقتضي توسيع عمليات الإحتلال لتشمل داخل الشاوية، لكن الجنرال درود، كان مقتنعا بأن ذلك الهدف يلزمه قوات كافية لم تكن متوفرة، وأدى هذا الخلاف إلى عزله واستبداله بضابط آخر.

5. عزل درود Drude :

عزل الجنرال درود في آخر دجنبر 1907 وعوض بالجنرال D'amade داماد، وبررت الحكومة قرار العزل، بأنه جاء نتيجة لمرض الجنرال. ولكن يظهر واضحا، أن هذه الذريعة لم تنطل على أحد في حينها. كما لا يمكن لأي متتبع لتصرفات قوات الإحتلال أن يقبل بها.

وفي الواقع لقد أثار عزل درود، عدة مناقشات وتعليقات، حول من يتحمل مسؤولية فشل مهمته، هل الحكومة أم الجنرال. "إن الجنرال - يقول تارديو Tardieu - يذكر أنه خضع لتعليمات الحكومة، في حين صرحت هذه بالعكس، إذ قالت إن التعليمات صدرت له مرات عديدة بالتقدم للأمام. ومهما كانت الحقيقة مع هذا الجانب أو ذاك فإن تعبئة القائد العام كانت في كل الأحوال محل انتقاد" (52).

وجاء في افتتاحية جريدة "الطان" Le temps بتاريخ 28 دجنبر 1907، ما يوضح الحقيقة من وراء عزل درود، قالت الجريدة "في يوم الثلاثاء ظهر السيد كليمنصو، (في جلسة البرلمان يوم 24 دجنبر) أكثر نرفزة في تقييماته، فقد بين بتدقيق، بأن الجنرال درود لم ينفذ الأوامر التي توصل بها "إنك تقول - مجيبا أحد النواب - بأننا منعنا الجنرال درود من تجاوز حد العشرين كلمتر، إن هذا غير صحيح. بل توجد على العكس ثلاثون برقية تأمره بالتقدم إلى الأمام" (53)!

ويظهر لنا، أن الحكومة الفرنسية ضحت بالجنرال درود قربانا لتبرير فشل خطتها الأولى بالشاوية، وهي خطة كانت تعرض على الرأي العام وكأنها عملية بوليس بسيطة. أما الآن وأمام صمود المغاربة، فقد أصبح لا مفر لها من تدشين خطة جديدة مع قائد آخر مزود بتعليمات جديدة، وإمدادات جديدة بهدف احتلال الشاوية كلها.

كما يظهر أن الجنرال درود غضب مما حصل له، فقام بهجوم على قصبة مديونة على رأس قواته مجتمعة، وتمكن من احتلال القصبة في 1 يناير 1908، في الوقت الذي كانت الإمدادات التي طلبها قد وصلت إلى الدار البيضاء منذ نهاية دجنبر، وفي الوقت الذي كان القائد الجديد لقوات الإحتلال يستعد للحلول محله..

هوامش الفصل الثالث عشر

1)- الرسالة بدون تاريخ أنظرها في "مارتان"، أربعة قرون، م.س.، ص 444.

2)- نفسها.

3)- نفسها.

3 مكرر)- أنظر نص البيعة المراكشية في مارتان.

4)- قارن ما كتبه إدموند بورك وعبد الله العروي عن الحركة المذكورة

A. Laroui, "Les origines Sociales et culturelles du Nationalisme marocain (1830 - 1912)" 1977 P; 371 et suite.

5) - ابن الأعرج السليماني، "اللسان المعرب عن تهافت الأجنبي حول المغرب"، 1971، ص 148 149

أنظر كذلك مخطوط "اللسان المعرب عن تهافت المعمرين حول المغرب"، الجزء الأول، ص 337-338، م.خ.ح.، رقم 297

6)- مجهول، "الدرر اللفظية في المملكة الحفيظية"، م خ ح ، 3640، ص 3.

7)- A.G.V. 3 H 15 doss 100, Fariau à guerre, 8 Aout 1906.

8)- Brives, "Voyages au Maroc 1901-1908", Alger 1909, P. 395.
L'Illustration, mai 1907, P; 320. Cf. aussi P Pascon, "Le Haouz" 2. 242.

9)-
Niddam (J), "Un Correspondant de Révolution", (Journal d'un Israïlite de Fès) 1908-1909-1910, in b.s.g.A.A.N. 1er trimestre, p. 17.

- من عبد الحفيظ إلى القائد المدني الاخصاصي وكافة إخوانه، 10 رجب 1325 الموافق 19 غشت 1907، أوردها المختار السوسي في ترجمة القائد المذكور المعسول، 20، ص261 263

- قارن رسالة مشابهة من مولاي عبد الحفيظ إلى الشيخ محمد بن عبد الكبير الكتاني نقلها، عبد الحي الكتاني في مؤلفه
"ما وقع للشيخ الشريف سيدي محمد بن عبد الكبير الكتاني"، م.خ.ع.ك. 3211، ص 7

11)- أنظر كتاب مولاي عبد العزيز إلى قواد وأعيان وكبراء الشياظمة، يعلمهم بما بلغه عن "بعض المتهورين من البرابر وأهل تادلا وزعير بأنهم يجتمعون ويتشوفون للجهاد بزعمهم لجهلهم بحقيقته وأصوله وشروطه وعدم حدوث موجباته... "الرسالة مؤرخة بـ 17 رجب 1325 / 26 غشت 1907، نهليل لوحة CXXII.

12) - يذكر "مارتان" أن عقد البيعة المراكشية لم يحرر إلا في 26 رجب موافق 4 شتنبر، "أربعة قرون" ص 451-455. لكن نسخة أصيلة وجدت بقبيلة هشتوكة توضح أن عقد بيعة مراكش حرر في 6 رجب.

13) - أعلاه ص 362.

14) - عن رسالة مؤرخة بـ 16 رجب 1325 / 25 غشت 1907، نقلها "مارتان" ص 448-449.

15) - نفسها.

16) - محمد التهامي المكناسي "غنية الإنجاد في مسائل الجهاد"، م.خ.ح.، ر 14013، ص 4.

17) - مارتان، المرجع المذكور، ص 455.

18) Li, Huot, "La situation Politique en chaouia 1907 - Janvier 1908. b.s.g.M. T3 Fasc. 2-3. 1922 P. 114-116.

19) - A.G.V., 3 H 24, Amiral à Marine 12 Octobre 1907.

20) - نفس المصدر.

21) - يشير إيكلمان إلى اتصال مبكر لشرقاوة بالفرنسيين عن طريق الإتصالات التي ربطها "نوفوكو" بشيخ الزاوية الشرقاوية في 1882 كما أشار الكاتب إلى أن أحد زعماء شرقاوة أصبح سنة 1907 عميلا للجيش الفرنسي.

Dalef. Eickelman, "quelques aspects de l'organisation politique et économique d'une Zaouia marocaine au 19ème Siècle - Un brouillon sociologique. bul. de la société d'histoire du Maroc, Vol 4-5 1972-1973.

22) Berradi Lhachemi, "Les chorfa d'Ouezzane, Le Makhzen et la France (1850-1912", thèse, Aix en provence, 1971. TL I).

23) - A.G.V. 3 H 65, doss 121, Drude à Guerre, 24 octobre 1907.

24) - Ibid, 3 H 24, 16 octobre 1907.

25) - Ibid.

26) - Mege, Les M'zab et les Achache, op, cit.

27) - قارن ما ذكره مارتان، م.س.، ص 456-460.

28) - A.F. 1907, pp. 370-371.

29) - Ibid. p. 454.

30) - نشرت هذه الرسالة جريدة المؤيد المصرية، ونقلتها عنها الجريدة الألمانية "Deutch Marokko Zeitung" بتاريخ 20 نوفمبر 1908، تحت عنوان "لماذا فقد عبد العزيز عرشه؟"
أنظر وثائق الخارجية الفرنسية، مجلد 196، ص 191-200.
السلسلة الجديدة A.E.P. MNS, 196, pp. 191-200.

31) - Tardieu, "La conférence d'Algésiras", op. cit. p. 553-4.

32) - A.G.V. 3 H 65, Ben Sedira à Drude, 27 Octobre 1907.

33) - نفسها.

34) - الرسالة المذكورة.

35) - مرجع هامش 20، ص 232.

36) - "مدن وقبائل المغرب، الدار البيضاء والشاوية". 1، 174-175

A.G.V. 3 H 65, Regnault à Drude 28-11-1907.

37) - رسالة رينيو أعلاه.

38) - نفسها.

39) - عبد الهادي بناني، "الدرر البهية في مدح رجال الشاوية"

40) - من محمد بن رشيد إلى قبيلة المذاكرة، 17 شوال 1325 / 25 نوفمبر 1907، أوردها مارتان، ص 466.

41) - مرجع هامش 20، ص 232.

42) - مارتان، 467-470.

43) - نفس المرجع، 466-467.

44) - مولاي عبد الحفيظ إلى قبيلة المذاكرة وأولاد علي، 19 شوال 1325 / 25 نوفمبر 1907. عن أصلها المحفوظ بوثائق الخارجية الفرنسية.
A.E.P. NS, 192, p. 61-62.

45) - A.G.V. 3 H 24, Drude à Guerre, I - 12 - 1907.

46) - مرجع هامش 39.

47) - سجل في اللائحة حوالي 27 شخص من أولاد حريز، والصخيرات ومن سيدي عيسى

قرب مديونة وجاء فيها أن أولائك الأشخاص منحت لهم 70570 فرنك من أصل 325140 فرنك. وبقي بالصندوق السري 254390 فرنك.

48) - A.G.V. 3 H 76, 15-12-1907.
Ibid, 3 H 78, Regnault à Pichon, 15-12-1907.

49) ـ الرسالة نفسها.

50) - A.G.V., 3 H 78, Brun à Drude, 19-12-1907.

51) - Ibid, Drude à guerre, 25-12-1907.

52) - Tardieu, La Conférence l'Algérisas", P. 548.

53) Cité par Guiral, "Quelques lettres sur les débuts de l'intervention Française au Maroc", Annales de la Faculté des lettres d'AIX T. 31, P. 40.

الفصل الرابع عشر

معارك الشاوية (يناير - ماي 1908)

تولى الجنرال "داماد" قيادة جيش الإحتلال في 6 يناير 1908. وكانت مهمة القائد الجديد العاجلة هي، رفع معنويات جنود الإحتلال التي انحطت كثيرا بفعل الظروف التي كانوا يعيشونها طيلة 5 أشهر، وهم محاصرون في خنادقهم بالدار البيضاء(1).

وكانت الخطة الجديدة التي كلف "داماد" بتنفيذها، تقتضي العمل على احتلال الشاوية كلها، بواسطة عمليات عسكرية سريعة، تهاجم القبائل خلالها في أرضها(2). وتفرض عليها الهزيمة عن طريق التفوق الساحق لأسلحة الجيش الفرنسي.

وقد استفاد الجنرال داماد، من مضاعفة عدد قوات جيش الإحتلال، الذي أصبح يتكون من أكثر من 12000 رجل، ويضم حوالي 9 كتائب مشاة و 6 سريات خيالة وسرية من الكوم الجزائريين. بالإضافة إلى أربع بطاريات مدفعية 75 مم و 80 مم الجبلية، و 6 فصائل رشاشات، وحوالي 1500 بغل، لمختلف المهام و 600 عربة. يضاف إلى هذا، مصالح الصحة والإدارة والتموين وغيرها. كما استولى الجنرال "داماد" على حوالي 2000 جمل، واستخدمها في عمليات النقل والتموين لإبقاء قواته بعيدا عن الدار البيضاء بعض الوقت(3). وتجدر الإشارة إلى استخدام الجنرال في بداية هجوماته منطادا في عمليات الإستطلاع، بحيث كان المنطاد يتحرك بتحرك القوات ويستطلع أمامها الميدان.

بهذه الإمكانيات المتفوقة، كان على الجنرال داماد أن يواجه مقاتلي الشاوية، ومن انضم إليهم من المجاهدين من قبائل مغربية أخرى. كما تجدر الإشارة إلى أن مولاي عبد الحفيظ الذي غادر مراكش في 26 نوفمبر، قد خيم بمشرع الشعير، في حدود الشاوية مع الرحامنة، على الضفة اليسرى لوادي أم الربيع أواسط يناير 1908، ومن مخيمه بمشرع الشعير، عزز قواته بالشاوية بإمدادات جديدة. وحل القائد عمر السكتاني، محل ولد مولاي رشيد، في قيادة المحلة الحفيظية، التي ستساهم في جل المعارك ضد الفرنسيين(4).

1. معركة سطات الأولى 15 يناير 1908 :

منذ وصوله للشاوية، نفذ "داماد" التعليمات القاضية بوضع قوات هامة في مراكز متقدمة من الشاوية. والهدف من تلك المراكز هو إسناد عمليات الهجوم على القبائل في العمق. ولهذا احتلت مدينة فضالة، في 10 يناير، وبوزنيقة وبرشيد في 13 منه. والجدير بالملاحظة، أن قوات الجنرال، عندما وصلت لبرشيد، لم تجد أمامها سوى الفراغ، حيث كان السكان قد غادروا المنطقة قبل وصول الجيش الفرنسي. ومن برشيد، هاجم داماد سطات في صباح يوم 15 يناير، ودامت المعركة من الساعة الثامنة إلى الساعة الثانية عشرة(5). وقد انسحب المغاربة تحت ضغط هجوم العدو. وعندما دخلت طلائع القوات الفرنسية للمدينة، وتبعها الجنرال على رأس قواته الإحتياطية، "تعرضت لهجوم عنيف قام به المذاكرة الذين هبوا للمعركة على صوت المدافع"(6). وقد حكى المخبرون، أن المذاكرة أسرعوا لقتال الفرنسيين، فرسانا ومشاة، حيث حمل كل فارس راجلا وراءه إلى أرض المعركة. خسر المغاربة في هذه المعركة العديد من رجالهم المشهورين، وعلى رأسهم القرشي بن الرغاي أحد زعماء انتفاضة الشاوية. لكن خسائر الفرنسيين كانت أفدح، إذ خسروا حوالي 30 رجلا، بين قتيل وجريح، من بينهم "الليوتنان" كروتيل Crotel (7).

2. معركة عين مكون 24 يناير 1908 :

ويبدو أن "داماد"، أراد معاقبة المذاكرة في بلادهم، فقرر توجيه عملياته ضدهم. وقد وزع قواته إلى طابورين "طابور تيرس"، مركزه برشيد، يقوده العقيد (الكلونيل) بوتكور Boulgourd. و"طابور الساحل"، يقوده الجنرال نفسه. كان هدف الطابورين هو الزحف على المذاكرة من اتجاهين مختلفين :

"طابور الساحل"، يسير نحو فضالة وبوزنيقة، ثم ينحرف جنوبا إلى المذاكرة.

"طابور تيرس"، يتجه من مديونة إلى بلاد المذاكرة.

لكن هذه العملية واجهت فشلا ذريعا، فقد اصطدم المغاربة مع "طابور التيرس" قبل وصول "طابور الساحل"، ولما كان هذا الأخير، يستخدم منطادا لمراقبة تحركات المغاربة، ولما كان المنطاد يتحرك بتحرك القوات، فقد كان المغاربة يتتبعون مرحلة مرحلة سير قوات داماد، ويخلون طريق سيرها حتى وصلت عين مكُونْ. وهناك نشب قتال عنيف، اضطر الجنرال للانسحاب، دون أن يصل بلاد المذاكرة. فتراجع بوتكور نحو مديونة، والجنرال نحو الدار البيضاء(8).

وقد أدى فشل هذه العملية إلى تخلي "داماد" عن استعمال المنطاد.

3. معركة "دار قصيبات" أو "القصابي" 2 فبراير 1908 :

عاد داماد للدار البيضاء ليهيء التموينات اللازمة لعملياته ضد قبائل الشاوية. كما كان هدفه منح قواته قسطا من الراحة. لكن في هذه الأثناء أراد قائد "طابور تيرس"، أن يعاقب بعض دواوير أولاد حريز، والمزامزة وأولاد سعيد بدعوى انضمامهم للمجاهدين الذين عادوا لاحتلال سطات مع محلة مولاي عبد الحفيظ.

تقدمت القوات الفرنسية من برشيد إلى زاوية سيدي المكي جنوبا، وعلى الساعة السادسة صباحا، استولت على قطعان الماشية التي كان يحرسها بعض الرعاة قرب الزاوية قدرت بـ 2000 رأس.

ويبدو أن هذه الغنيمة السهلة لم تكف الضابط الفرنسي، فاتجه جنوبا نحو دوار لقصابي أو "دار قصيبات"، حيث قنبل الخيام والمساكن التي كان أهلها قد غادروها قبيل وصول القوة الفرنسية. وحينما حاول الكلونيل "بوتكور"، التراجع نحو زاوية المكي، حيث بقي جانب من قواته مع المدفعية في حراسة القطيع، تعرضت القوات الفرنسية لهجوم شامل. ونشبت معركة طاحنة، استرد خلالها المغاربة قطيع الماشية. وتمكنت قوات جاءت من برشيد بقيادة الكلونيل Brulard من فك حصار المغاربة، وإنجاد قوة بوتكور التي تراجعت نحو برشيد، مخلفة ذخائرها وبعض سلاحها(9).

نتائج المعركة

قال داماد عن هذه المعركة "كانت خسائرنا قتل ضابط واثني عشر رجلا. وجرح 4 ضباط و40 رجلا، دون حساب قتل حوالي 50 حصانا. فخلال ساعتين

أصيب حوالي 5٪ من مجموع القوات الفرنسية. إن هذه النسبة المعتبرة أعطت ـ لأول مرة ـ لقتال بالشاوية، مظهر وخطورة عملية حربية أوربية"(10).

وجاء في جريدة البرق L'Eclair، في عدد 4 فبراير 1908 كانت خسائر قواتنا أعلى بكثير من كل الخسائر التي أصابتها في المعارك السابقة لقد أصبح 58 رجلا خارج المعركة، منهم خمسة ضباط، بينهم الليوتنان كلونيل "بسار" Passard الذي جرح والليوتنان Ricard الذي قتل"

وقد سجل الشاعر الشعبي، عبد الهادي بناني، انتصار المغاربة في هذه المعركة الشديدة فقال(11):

أَوْصَلْ لوْعَارْ بـين لَخْنـادَقْ فَالفَـجْ دَارْتْ بِهْ لَبْطَالْ وتْفَافَا ودْهَـشْ
وبْقَى بِينَتْهُمْ تَالفْ كِيفْ الوَحْشْ
سَارَتْ القَوْمْ تَكَزَرْ فَالكْلابْ تَكْزِيـرْ مَا نْفَعْهُمْ لَعْدَا عُدَّا وْلاَ مْدَافَـعْ
نَزَّلُوا لَمْكَاحَلْ ذَاكْ النْهَارْ لَكْبِـيرْ والْمْوَلِّي عَنْهُمْ عْيَـا ومَا يْدَافَـعْ
زَادْ عُمر السُّكْتَانِي(12) سْرِيعْ غَيَّـارْ حَوْزْ البَنْدِيرَا بَالمِيزْ والشْطَـارَا
يَا اهْلَ الشَّاوِيَا صوْلُوا بْعَزْ وسْرَارْ بَالجْهَادْ فَلَجْدُودْ خْنَازَرْ النْصَارَا
اخْوَا يَا مَنْ تْسَـالْ لَقْصَابِي ودْجَـعْ لَهْلا يَلْقِيهْ خَيْرْ لَحْقِيرْ الكَاشَـفْ
والْبَسْ ثَوْبْ لَحْزَانْ عَاجَلْ والتَّقْمَـعْ مَا تَفْعْتُو قْبِيحْ لَفْعَـالْ مْنَاصَفْ

4. معركة سطات الثانية أو معركة سيدي الجبلي 6 فبراير

أراد الجنرال داماد أن يثأر لمعركة يوم 2 فبراير، لذلك توجه من الدار البيضاء نحو برشيد بدل العودة للمذاكرة. وتقدم بقواته، التي انضمت للقوات المتمركزة ببرشيد، نحو زاوية المكي يوم 4 فبراير، حيث أحرق الدواوير التي وجدها قرب الزاوية. وخلال الليل تعرضت قوات داماد للهجوم، ولقذائف المدفعية، لكن مدفعية الجبال أبعدت المغاربة الذين تراجعوا نحو سطات يوم 5 فبراير (13).

وبُعد منتصف ليلة 5-6 فبراير، هاجم الفرنسيون سطات، وخلال تقدمهم تعرضوا لهجمات المغاربة. وقد امتدت جبهة القتال على طول أكثر من 7 كلمترات. وتمكنت القوات الفرنسية من دخول سطات، بعد تخريب القصبة بالقذائف، وإحراق الأحياء الشعبية. هكذا لم يتمكن داماد من دخول سطات مرة أخرى إلا بعد أن خرب في زحفه كل شيء، لكنه لم يصب المحلة الحفيظية ولا مجاهدي الشاوية بالرغم من أنه زحف بقوات معتبرة في هجوم ليلي سريع(14).

أهم معارك قبائل الشاوية ضد الإحتلال الفرنسي

1908-1907

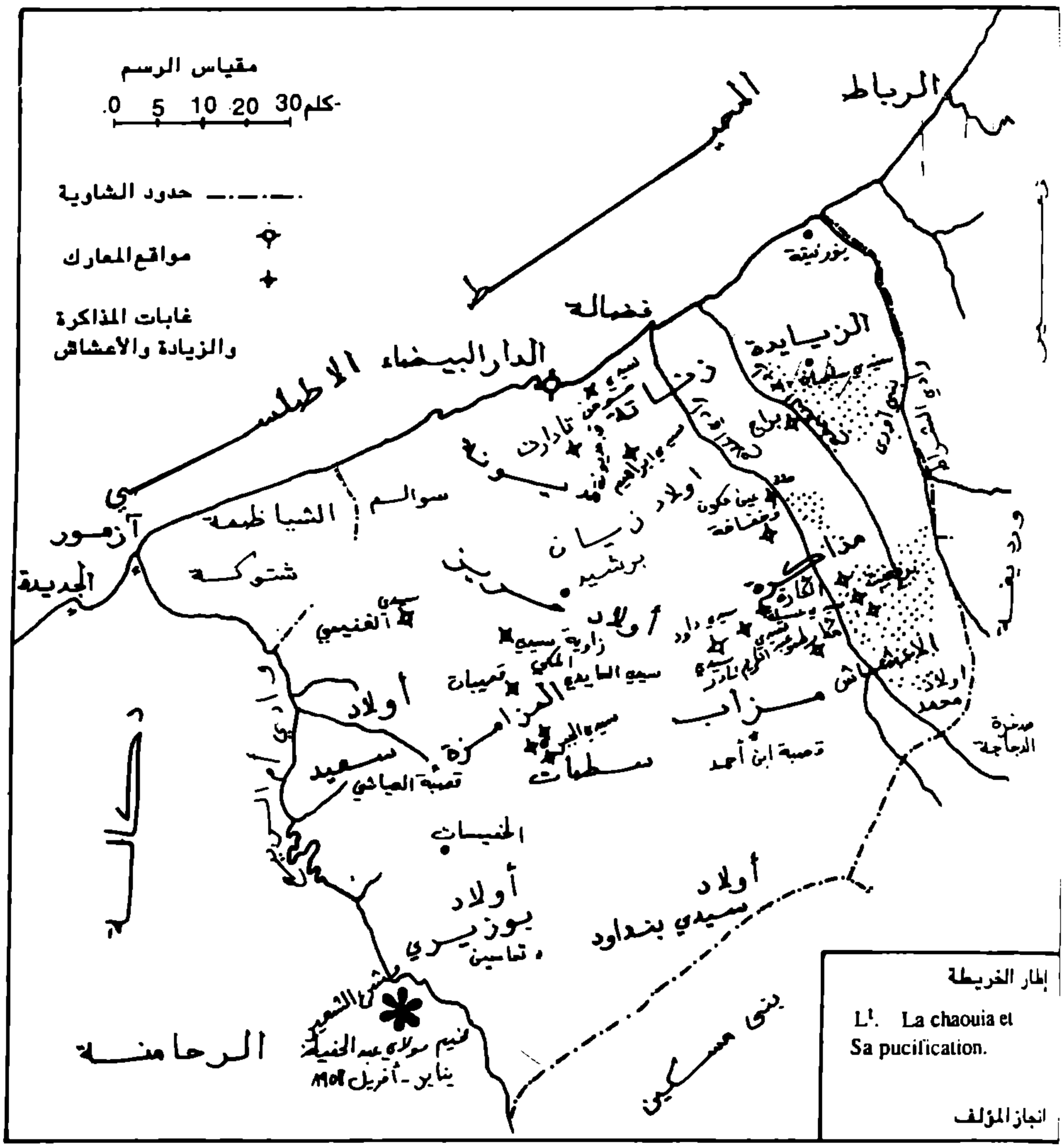

وقد خرج داماد من سطات، التي فقد فيها 3 قتلى و16 جريحا. وعوض فشله بغزوة على ماشية أولاد سعيد، حيث جمع قطيعا كبيرا، ساقه أمامه إلى برشيد(15).

وبما أن المناطق الشرقية للشاوية، كانت تقطنها قبائل محاربة وشديدة المراس كالمذاكرة، فقد قرر الجنرال داماد أن ينقل الحرب إليها، لينزل بهذه القبيلة "المعاندة"، هزيمة ساحقة.

5. معركتي "برابح" وسيدي عبد الكريم (السدرة)، 16-17-18 فبراير 1908

ولكي تكون العملية ناجحة ضد المذاكرة، فقد عبأ الجنرال قواته في ثلاثة طوابير، تسير للهدف من ثلاث جهات مختلفة للإلتفاف حول القبيلة

طابور الكلونيل "طوبان" Taupin يذهب عبر فضالة وبوزنيقة طابور الكلونيل Brulard، يتجه من برشيد ومديونة شرقا. "طابور الساحل وتيرس"، بقيادة الجنرال نفسه، يتخذ اتجاها تمويهيا نحو الجنوب في اتجاه سطات، ثم ينحرف نحو الشرق ويتجه لبلاد المذاكرة.

كانت نقطة تلاقي هذه القوات هي ضريح سيدي عبد الكريم ببلاد المذاكرة. لكن المغاربة فرضوا المعركة على العدو، في أماكن أختاروها. فقد هاجموا قوات Taupin في "برابح" على وادي النفيفيخ، يوم 16 فبراير وظلت المعركة مستمرة خلال يوم 17، وإثر هذا القتال اضطر Taupin للعودة من حيث أتى، فانسحب نحو فضالة(16).

وبينما كان المغاربة يقاتلون قوات Taupin، في برابح، فرضوا معركة متشابهة على قوات الكلونيل Brulard بدوره، قبل أن يلتحق به الجنرال داماد. فقد هوجم Brulard قرب ضريح سيدي عبد الكريم، في صباح يوم 18 فبراير. ويعرف هذا اليوم عند المغاربة ؛ بيوم "السدرة" أو يوم "سيدي عبد الكريم" تمكن المغاربة من إيقاف تحرك قوات "برولار"، وحاصروها وفي الساعة الثامنة صباحا، أصبحت وضعية الكلونيل حرجة جدا فشكل مربعا دفاعيا وتوقف عن الحركة، انتظارا للنجدة.

لكن داماد، لم يستطع إنجاد برولار إلا في الساعة الثانية عشرة، لأن قواته كانت في مناوشات مستمرة مع فريق من المغاربة قرب ضريح سيدي داوود، على

طريق برشيد ابن أحمد. (أنظر خريطة المعارك). ويحكي المخبرون، أن القوات الفرنسية أشرفت على الهزيمة يوم "السدرة"، وأن "النصارى رفعوا الراية البيضاء"، بعد قتال مرير مات فيه كثير من أبطال المغاربة وعدد أكثر من الفرنسيين(17).

نتائج معارك 16-17-18 فبراير

بعد قتال يوم 18 فبراير، اضطر الجنرال داماد، الذي التحق "ببرولار" إلى الانسحاب والتراجع عن هدفه. فوجه القتلى والجرحى أمامه في جنح الظلام نحو برشيد. وقد مثلت هذه المعارك فشلا خطيرا لخطة الجنرال، التي كانت تهدف إلى الانقضاض على قبيلة المذاكرة. وبدل أن تنجح طوابيره في تطويق القبيلة، فقد فرض المجاهدون المعركة على العدو في أوقات مختارة وأماكن معلومة فبينما ناوشت قوات مغربية طابور الجنرال، وأبطأت سيره في سيدي داوود، دخلوا في معركة مفتوحة وشرسة، مع قوات الكلونيل Taupin بالزيايدة، وقوات Brulard بين أولاد زيان والمذاكرة. وحسب الرواية الفرنسية فقد بلغت خسائر الفرنسيين، 69 رجلا بين قتيل وجريح. وقد سقط بين القتلى ضابطان هما "بول بولهو" P. Boulhaut وأحمد بن محمد، في معركة "برابح"(18).

لقد بينت المعارك المذكورة، فشل تكتيك الجنرال داماد، بالرغم من أن الفرنسيين، كانوا يستفيدون من شبكة استعلامات فعالة، حيث كان لهم مخبرون في جميع القبائل، وكان في صفوفهم قواد وأعيان يساعدونهم في عمليات الاستخبار، مثل القائد العربي بن الشرقي المزابي وعمر دْوِدو الحريزي. ومن النتائج الهامة التي ترتبت على فشل قوات الاحتلال في معارك فبراير السابقة أن الشكوك بدأت تساور الحكومة الفرنسية في كفاءة القائد الثاني لقوات الاحتلال. ودفعها ذلك، لتتخذ قرارات هامة، كان لها أثر على سير المعارك، وعلى مستقبل الحضور الفرنسي بالشاوية.

فقد قررت الحكومة الفرنسية، إمداد جيش الاحتلال بقوات هامة تبلغ 5000 رجل، مع المدفعية والفرسان. كما قررت إرسال بعثة برئاسة الجنرال "ليوطي" و"رينيو"، بهدف معلن، وهو دراسة قضية الشاوية، من وجهتي النظر العسكرية والدبلوماسية(19). في حين أن الهدف الحقيقي، من إرسال "ليوطي"، كان هو التأكد من كفاءة وصلاحية الجنرال داماد(20).

ويبدو أن الجنرال داماد، قد شعر بالانتقاد لخططه الفاشلة، التي استوحاها من حرب جنوب إفريقيا عندما كان ملحقا بالقيادة الإنجليزية. كما يبدو أنه أحس بضجر الحكومة من عدم فعالية القوات الفرنسية المتفوقة التسليح، أمام مقاتلي القبائل المغربية. ولذلك كله فقد قرر تغيير خططه، ليحصل على نتائج إيجابية، قبل وصول البعثة المقررة للدار البيضاء.

6. معركة فخفاخة 29 فبراير 1908 :

قرر الجنرال داماد محو آثار فشله في المعارك السابقة، بهجوم عام على المذاكرة. ولذلك تخلى عن خطته السابقة، وجمع كل قواته في جبهة واحدة تضم 7 كتائب مشاة، و 5 سريات خيالة، و 4 بطاريات مدفعية، وفرقة للرشاشات. وتسند هذه القوات، ذخيرة وتموين كافيين لأكثر من يومين من العمليات، ويقودها أربع كلونيلات.

تحركت القوات الفرنسية في الساعة الثالثة صباحا، وعندما وصلت إلى عين مكون، أي عند إلتقاء وادي عسيلة بوادي الفكاك لتكوين وادي الملاح عبأ الجنرال قواته للقتال على شكل جبهة عريضة في مقدمتها الخيالة والمدفعية. وقد كلف القسم الأعظم من الخيالة بحراسة الجناح الأيمن والتقدم للأمام لمرتفعات "فخفاخة"، لمراقبة تحركات المغاربة، واحتلال الهضبة. أما المغاربة، فيبدوا أنهم استعدوا للمعركة، وقرروا الخطة التي يواجهون بها قوات العدو المتفوقة، قبل أن تتوغل في دواويرهم.

و هكذا شرعوا في التحرك على ميسرة القوات الفرنسية، أي شرق سوق الإثنين (أنظر الخريطة) فرسانا ومشاة. وكان الهدف من هذه المناورات، جذب انتباه العدو. وهذا ما يفسر الإصرار على المناورة بالرغم من خطر القذائف. قال "أزان" Azan

«ومن جهتي، لقد اندهشت من شجاعة هؤلاء الفرسان، فعلى شمال الهضبة، وبالرغم من نيران مدفعية الجبال، ونيران رشاشات "الزواوي"، ومدافع 37 مم البحرية، فإنهم ينزلون المنحدر [المواجه لنا] ليقتربوا من رجالنا، ثم يطلقون رصاصهم. إنهم يبدون عدم اهتمام كامل أمام القذائف التي تغلفهم أحيانا بالتراب والدخان»(21).

أما على ميمنة القوات الفرنسية، وأمامها فحدث شيء آخر لقد اتمت سريات الخيالة الصعود للهضبة. وكانت هذه الهضبة التي يطلق عليها

الفرنسيون "الرفاخة"، ويسميها السكان فخفاخة، عارية من الأشجار، لكنها تتميز بتموجات خفيفة تكسوها الأعشاب، ويوجد بها سور لقصبة يطلق عليها قصبة الحاج المكي بن البهلول. وقد اتخذ القائد الحفيظي عمر السكتاني هذا السور، مركزا لقيادته، ولتحصين بعض المدافع التي كانت بحوزته.

وقد كمن فرسان المغاربة، في إحدى تموجات الهضبة، وتركوا خيالة داماد حتى اقتربت منهم، "ثم أطلقوا نيران بنادقهم وهربوا عدوا. نتساءل - يقول أزان - كيف لم يقتلوا؟ إن الحقيقة - يضيف - هي، بدون شك، أن خيالتنا لا يعرفون مثلهم إطلاق النار فوق الخيول" (22).

والواقع أن تراجع فرسان المغاربة، كان إجراء قتاليا طالما استعملوه. فقد انسحبوا ليجروا وراءهم خيالة العدو، لتحصدها نيران المشاة المختبئين في الحشائش. وبالفعل، فلما تقدمت خيالة الفرنسيين للأمام، واجهتها نيران المشاة، وعلى الرغم من نيران الفرنسيين الشديدة "كان المشاة المغاربة - يقول أزان - يزحفون إلى الأمام، خاصة نحو الغرب، مهددين بالإلتفاف حول الخيالة. وكان دخان نيرانهم يخرج من بين الحشائش ويقترب شيئا فشيئا"، نحو صفوف خيالة الفرنسيين. أما الفرسان المغاربة الذين تراجعوا، فبعد أن تحركوا هنا وهناك على خطوطهم الأمامية، عادوا في هجوم قاتل، مصحوبين بالمشاة بين الفرسان. وأصبحوا "أكثر جرأة وأكثر احتقارا للبنادق الفرنسية. إنهم أحسوا بنفاذ الذخائر" (23).

وقد حمي وطيس المعركة إلى درجة فقد معها الضباط الفرنسيون التحكم في تسيير القتال. بل أدت شدة القتال إلى خسائر فادحة، وفوضى في صفوف الفرنسيين. حتى كان بعضهم يتجه ليحارب، والآخرون يهربون للوراء (24). وقد أدت شدة المعركة إلى أن الفرنسيين في تراجعهم، لم يتمكنوا من نجدة بعض إخوانهم الذين تركوهم بين أيدي المغاربة (25). ولم ينقذ خيالة الفرنسيين إلا وصول نجدات كبيرة من المشاة على جناح السرعة، وتدخل فرق المدفعية بفعالية كبيرة.

استمر المغاربة في القتال، وذهبت فرق منهم شمالا لمهاجمة ميسرة الفرنسيين، الأمر الذي أربك هؤلاء وجعل مدفعيتهم تقتل جنديين وتجرح خمسة في ميمنتهم (26).

ويظهر أن قائد قوات الإحتلال، قد فقد السيطرة على أعصابه وهو يرى خطته الجديدة ضد المذاكرة تفشل في بدايتها. ويفرض عليه المغاربة معركة لم

معـــركـــة فـــخـــفـاخـــة

(29 فبراير 1908)

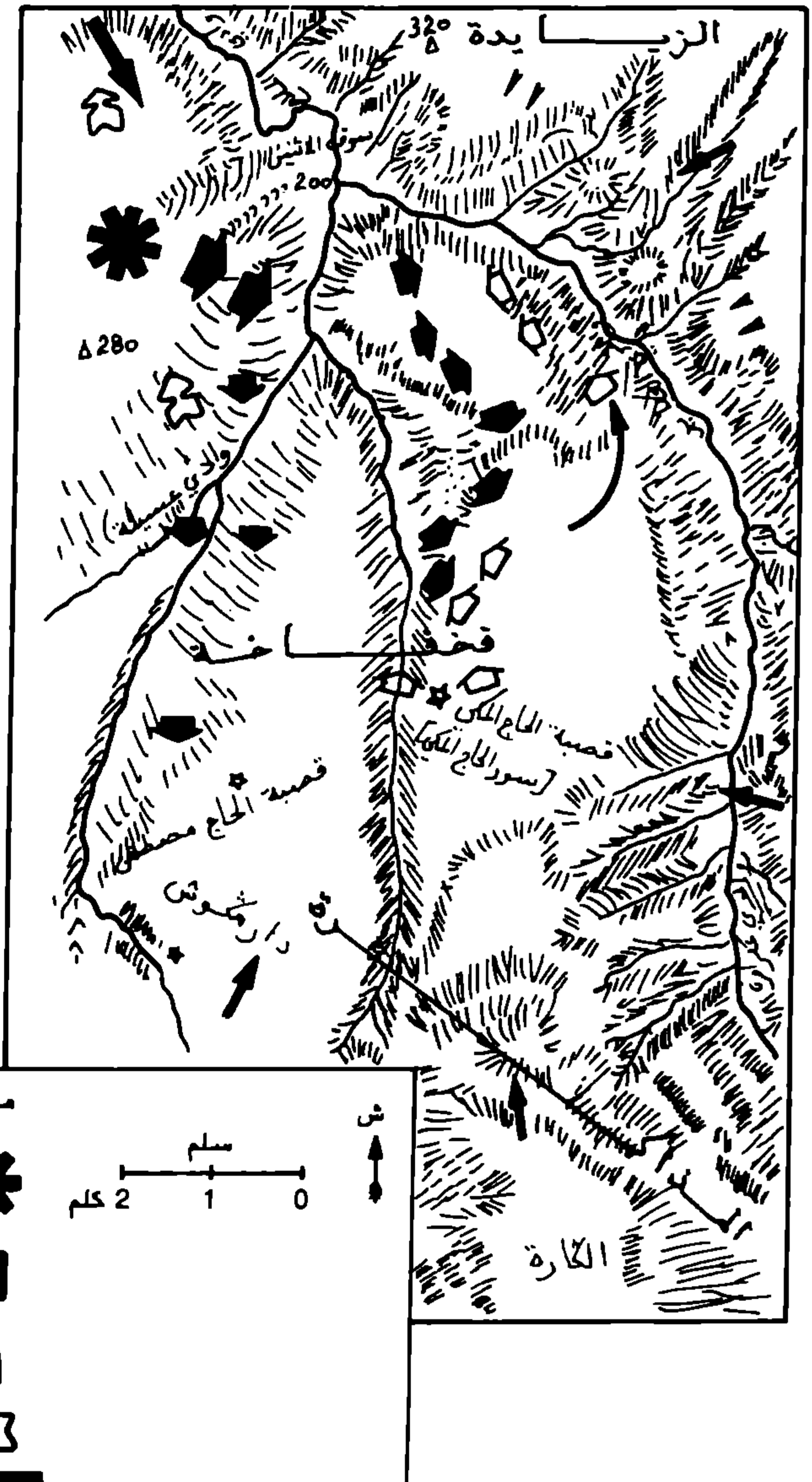

المصدر P. AZAN, Souvenirs de CASABLANCA

إنجاز المؤلف.

يتوقع ضراوتها. ولهذا حاول داماد أن يتحرك للأمام. لكن رصاص المغاربة تساقط وسط القيادة الفرنسية. وقد لاحظ "أزان" أنه لو أصيب الجنرال في ذلك اليوم، لأعطى الشاوية للحدث أبعادا أخرى. وهكذا اضطر الجنرال داماد إلى التراجع، خاصة بعد عودة المغاربة إلى الهجوم، ومغامرة بعض فرسانهم بين طوابير العدو.

و بحلول الظلام انسحبت القوات الفرنسية من ثنايا فخفاخة القاتلة. ولم تصل إلى محل تخييمها بعين مكون، إلا في الحادية عشرة ليلا. ومن هناك، انسحب داماد نحو الدار البيضاء.

نتائج معركة فخفاخة تكبد الفرنسيون خلال هذه المعركة الشديدة خسائر هامة، خاصة في صفوف الخيالة. وحسب الرواية الفرنسية فإن الخسائر بلغت حوالي 60 رجلا بين قتيل وجريح من بينهم ضابطين. كما فقد المحتلون عددا كبيرا من الخيول(27).

أما خسائر المغاربة، فقدرت بحوالي 12 رجلا من المذاكرة وحوالي 30 رجلا من مشاة محلة عمر السكتاني(28).

والواقع أن سكان قبيلة المذاكرة، لازالوا يتذكرون اليوم، معركة "السور" أو معركة "فخفاخة"، ويتذكرون كيف أبيد للفرنسيين "بلوتون بكامله"، أي كيف قضى المغاربة على كوكبة "Peloton" من فرسان العدو. ولقد رأينا أن خيالة الفرنسيين التي اشتبكت مع المغاربة كانت تضم أكثر من ثلاث سريات، وأن القتال كان ضاريا بحيث اشتبك فيه الطرفان بالسلاح الأبيض، ولذلك فالخسائر في صفوف الجنود الفرنسيين كانت أكبر من التقديرات السابقة.

وقد حكى بعض المخبرين، أنه لو لم يجرح بعض زعماء المذاكرة، مثل الأحمر بن منصور، الذي كان يقود الهجومات، وكان هو الذي يحمل علم القبيلة، لو لم يجرح ذلك البطل بأكثر من ثلاثة جراح، لكانت خسائر الفرنسيين أفدح. كما حكى المخبرون أن المجاهدين غنموا الخيول والسيوف والبنادق، ومنهم من عاد يحمل رأسا مقطوعا. وهكذا تتفق الرواية الشفاهية مع ما سجله "أزان"، الذي أشار إلى أن عنف هجوم فرسان ومشاة المغاربة كسر هجوم خيالة الفرنسيين، وجعلهم يتراجعون في غير نظام، تاركين أصدقاءهم بين أيدي المغاربة، الذين شوهدوا وهم يقطعون رؤوس بعض الفرسان(29).

إن يوم "فخفاخة"، بين للجنرال داماد، مدى صلابة المقاومة المغربية، وجعله يفكر في تغيير تكتيكه من جديد. وقبل أن نقول كلمة ختامية عن "تكتيك" الجنرال داماد، و"تكتيك" المغاربة خلال معارك الشاوية، يظهر من الضروري، أن نتعرض باختصار كبير لباقي العمليات والمعارك التي خاضتها المقاومة الشعبية بالشاوية، ضد قوات الجنرال داماد، والطرق التي اتبعها جيش الإحتلال لإنهاء تلك المقاومة.

7. عمليات مارس 1908 :

بعد معارك فبراير، التي تكبد خلالها المحتلون خسائر فادحة، غير داماد خططه القتالية، وبدأ يتبع خططا أكثر وحشية. فلكي يحصل على نتائج سريعة نجده يتبع خطة الأرض المحروقة، وهذا ما حدث بالفعل خلال عمليتي 8 مارس و 15 مارس.

- **مذبحة مكارطو 8 مارس** نفذت القوات الفرنسية عملية سريعة في بلاد المذاكرية يوم 8 مارس، بحيث أحرقت في تقدمها كل ما وجدته أمامها وهدمت الدور التي غادرها أصحابها، كما قنبلت مخيمات السكان، وأشعلت النيران في الخيام، وتشير الرواية الفرنسية إلى أن المدفعية والرشاشات ونيران المشاة، قامت بمذبحة فضيعة في شعب من شعاب جبل مكارطو بين المذاكرة وأولاد محمد.

فقد فاجأ تقدم الفرنسيين الدواوير الآمنة، فحدثت هجرة سريعة للمخيمات، ولما كانت قوافل النساء والأطفال والماشية تسرع في الفرار على مرمى من المدفعية والرشاشات، فقد مثلت هدفا ملائما للأسلحة المذكورة(30)، مما أدى إلى مذبحة فضيعة في صفوف السكان الهاربين من نيران العدو.

- **مذبحة سيدي الغنيمي 15 مارس 1908** ويبدو أن الجنرال داماد، الذي نفذ عملية 8 مارس بشرق الشاوية، أراد أن ينفذ عملية مشابهة في غربها، يكون لها دوي في كل الشاوية، خاصة لما تأكد لاستخبارات الجيش الفرنسي تجمع مآت الخيام بعيدا عن أرض المعارك، إلى الغرب من برشيد حول ضريح يقال له سيدي الغنيمي (الوريمي في الروايات). وتدعي الرواية الفرنسية أن مرابطا يقال له "بونوالة"، جمع حوله العديد من الرافضين للاحتلال، ولذلك قرر داماد تفريق المخيم الذي تجمع حول بونوالة(31).

وهكذا فاجأ الجنرال عدة دواوير، يوم 15 مارس على الساعة الثالثة مساء. وفتح عليها نيران مدفعية الميدان (75 مم) والمدفعية الجبلية (80 مم)،

على بعد 3000 إلى 4000 متر. ولما أنهت المدفعية عملها كما أراد الجنرال، أعطى أوامره، للمشاة باقتحام الدواوير للإجهاز على ما تبقى من الأحياء، ولمصلحة الهندسة بإشعال النار في الخيام، «وبسرعة احترق كل شيء في السهل الواسع - يقول كراسي - وحدث تجمع القوات على الأضواء الكئيبة لمآت الخيام المحترقة، لكن مطرا طوفانيا، دام من الثامنة إلى العاشرة مساء، حال دون الإحتراق الكلي للخيام...»(32).

كانت نتيجة هذه العملية الوحشية قتل حوالي 2000 من المغاربة، أغلبيتهم من النساء والأطفال والشيوخ(33). وبالرغم مما أثارته من احتجاجات، فإنها لم تؤثر على خطط الفرنسيين بالشاوية. فبعد تنفيذ العملية، ذهب داماد مباشرة للدار البيضاء، لاستقبال الجنرال ليوطي ودينيو اللذين وصلا يوم 17 مارس للمدينة، في إطار مهمتهما المشار إليها سابقا.

ردود فعل الرأي العام على مذابح الجيش الفرنسي بالشاوية

لقد أثارت أعمال الجنرال داماد ردود فعل غاضبة داخل فرنسا وخارجها. وقد اهتمت الصحافة بتصرفات جيش الإحتلال ونددت بالفضائع المرتكبة ضد السكان المسالمين. فقد جاء في جريدة "Autorité"، عدد 22 مارس 1908، تحت عنوان "معركة أم مذبحة" مايلي "لقد أكدت جريدة شبه رسمية. أن المدفعية الفرنسية. اكتشفت دوارا يتكون من مآت الخيام فاستهدفته بقذائفها، وعند ذاك، حدثت مشاهد مرعبة فقد كانت الجثث تتكومُ فوق بعضها البعض، مكونة مجموعات من 10 و20 و30 جثة. وباختصار، فإن قذائف "المليت" لم تنفجر في صفوف مقاتلين ولكن في صفوف سكان مسالمين...

وتحت عنوان "وحوش مطلوقة"، نقلت جريدة "L'humanitè" في عددها ليوم 22 مارس مايلي "إن عملية الذبح التي حدثت اليوم، تفوق في الرعب كل ما يمكن تخيله. إن 1500 جثة، قد بقرت بالقذائف وخرقت بالحراب، تتمدد فوق البقايا المحترقة لدواوير زاوية سيدي الغنيمي. وبين هذه الجثث توجد جثث لنساء وأطفال لم تتمكن قذائفنا من تمييزها على بعد 3000 متر..."

وقد ظل "جان جوريس"، الزعيم الإشتراكي، يندد بمذبحة 15 مارس، في تدخلاته بالبرلمان، وفي مقالاته بجريدة "L'humanitè"، وأصفا إياها بأنها وصمة عار في جبين الفرنسيين وداعيا إلى الحيلولة دون تكرارها(34).

ونددت الصحافة الألمانية بدورها، بفضائع جيش الإحتلال بالشاوية، ونقلت Vossische Zeitung (35)، شهادات لألمان فروا من جيش الإحتلال بالشاوية عقب حوادث مارس، ويفهم من هذه الشهادات أن جنديين كانا شاهدي عيان على "الفضائع التي ارتكبت ضد النساء والأطفال والعجزة يوم 15 مارس، خلال قنبلة المخيم المغربي ومهاجمته" قد أكدا بأن الجنرال داماد والضباط العاملين معه، أصدروا أوامرهم عدة مرات للجنود مباشرة بإطلاق النار على الجرحى والنساء والأطفال. كما أمروا بإحراق الخيام، التي كان يختفي فيها الأطفال الصغار والنساء وصغار الحيوانات. "وإلى مشاهد الذبح هذه - تقول الجريدة أضيفت أعمال النهب التي تساهل فيها الضباط وساعدوا عليها"(36).

هذه أمثلة قليلة، أردنا بها إثبات حقيقة المذابح التي ارتكبها الجنرال داماد، بعد الفشل الذريع الذي لقيته قواته خلال معارك فبراير. وقد نبهنا إلى أن الجنرال لجأ لتلك التصرفات، أملا منه في إنهاء مقاومة المغاربة بالشاوية. كما يظهر، أنه لجأ لها ليظهر جدارته بقيادة قوات فرنسا العاملة في المغرب، قبيل وصول بعثة ليوطي التفتيشية إلى الشاوية.

ولقد وصل ليوطي كما رأينا يوم 17 مارس، واستقبله الجنرال داماد، بالدار البيضاء. ويبدو أن متزعم احتلال بني يزناسن، وصاحب طريقة "التسرب البطيء" عبر الحدود المغربية الشرقية(37)، قد نصح زميله بأن أحسن وسيلة لإنهاء مقاومة الشاوية، هي أحداث "ملحقات" عسكرية محلية، تكون بمثابة قواعد متقدمة ضد المجاهدين، ومراكز للإستخبار والمراقبة في عين المكان(38). وقد أنجز ليوطي تقريرا شاملا عن مسألة إنهاء المقاومة بالشاوية، قدمه لوزير الحربية بتاريخ 21 أبريل 1908(39). وفيه دافع عن أحداث مراكز عسكرية محلية متقدمة لمراقبة المناطق التي لم تخضع بعد، كالمذاكرة والأعشاش، حتى يكون الوجود العسكري الفرنسي قريبا من المجموعات الرافضة للاحتلال. كما دافع عن طريقة داماد في العمل وأيد موقفه، مما أدى إلى إبقائه قائدا لقوات الإحتلال بالشاوية، ومكلفا بالتنظيم السياسي والعسكري للمنطقة. ولذلك كله، تابع داماد مهمته لإخضاع قبائل الشاوية بالحديد والنار.

معركة سيدي عسيلة 29 مارس

حاول داماد البدء بتكوين ملحقة عسكرية بالمذاكرة لمراقبة هذه القبيلة الصامدة. فاتجه على رأس قوات كبيرة، عززت خلال شهر مارس بحوالي 5000

رجل، بينهم كتيبتين سنغاليتين. وعندما وصلت قوات الجنرال للمذاكرة وحاولت احتلال "الكارة" تعرضت لهجوم عنيف استخدم فيه المغاربة المدفعية. وبالرغم من أن الأسلحة الفرنسية تمكنت من إجلاء المغاربة، فقد كانت نتائج معركة يوم 29 مارس وخيمة، على الخطة الجديدة لقد خسر الفرنسيون 24 رجلا بين قتيل وجريح، وكان بين القتلى ضابطان هما سلفستر "Sylvestre" وبوشرون "Boucheron". وقد أطلق إسم هذا الأخير على الملحقة الإقليمية للمذاكرة التي أحدثت بالكارة وسط القبيلة. كما أسس داماد 6 حصون تحيط بهذه الملحقة لتراقب المنطقة مثل مركز دار بوعزة بن سليمان، وحصن Sylvestre إلخ...(40)

وهكذا تمكن داماد من تثبيت احتلال مركز المذاكرة بالرغم من الخسائر التي تكبدها جيش الإحتلال.

8. معركة سطات الثالثة

وللمرة الثالثة توجه داماد إلى سطات، بهدف تأسيس مركز عسكري بها، وبهدف إبعاد نفوذ مولاي احفيظ، الذي عادت محلته بقيادة البوعزاوي إلى المدينة وإلى تحريض القبائل المجاورة على الجهاد. وقد احتلت القوات الفرنسية سطات يوم 6 أبريل بدون قتال. لكن في ليلة 7-8 أبريل، تعرضت قوات الإحتلال لهجوم عنيف وطويل أبدى فيه المغاربة "شجاعة رائعة"

وبالرغم من خطورة هذا الهجوم الليلي، فقد تمكنت قوات الإحتلال من رد هجمات المغاربة، بفعل كثافة نيرانها، وأسفر هذا القتال عن تراجع المحلة التي كان يقودها البوعزاوي نحو مشرع الشعير. وقد خسر الفرنسيون في معركة سطات الثالثة، 9 رجال بين قتيل وجريح حسب الرواية الفرنسية. وكان بين القتلى القبطان "لوبي" Loubet (41).

وبعد هذه المعركة نظم بسطات، "الطابور المتحرك للمزامزة" وأسست بها حصون للدفاع عن المدينة كحصن "لوبي" Fort Loubet. ويمكن القول إن معركة سطات الثالثة كانت آخر المعارك التي خاضتها قبائل الشاوية الجنوبية بمساعدة المحلة الحفيظية. وبعد مناوشات 12 أبريل إلى الجنوب من سطات انتهت عمليات الجهاد بالمنطقة نظرا لتحرك مولاي عبد الحفيظ نحو فاس بعد أن قرر التخلي عن قتال الفرنسيين بالشاوية والبحث عن حل سياسي للقضية.

ومن الجدير بالذكر في هذا الباب، أنه بالرغم من انتقال مولاي عبد الحفيظ إلى الشمال وسحب قواته القليلة من الشاوية التي كان يقودها البوعزاوي وعمر السكتاني، فإن القتال استمر ضد المحتلين بالمذاكرة والأعشاش خاصة أولاد محمد منهم.

و. معارك الغابة

ظلت قبيلة المذاكرة مستعصية على الفرنسيين. فقد تعرض مركز بوشرون لعدة هجمات، واستولى مجاهدوا القبيلة على عدة قوافل تموينية للعدو بين 7 و 21 أبريل، وقد أدت هذه الحوادث - التي أظهرت أن "النكسات المتكررة لم تؤثر في مقاومة هذه القبيلة التي لا تقهر بالجنرال داماد إلى الإنتقال بمجموع قواته لبلاد المذاكرة من جديد. ولما حددت الإستخبارات مواقع مخيمات القبيلة داخل الغابة، قامت القوات الفرنسية بهجوم شامل على هذه المخيمات يوم 11 ماي. فجرت عدة معارك "بسيدي كامل" وصخرة عبو" و"بريغيث" و"وادي العطش"، اضطر الفرنسيون إلى التراجع بعدها بدون نتيجة، متكبدين بعض الخسائر في الأرواح. (تسعة رجال بين قتيل وجريح).

وفي يوم 15 ماي استأنف الجنرال داماد الهجوم، بعد أن تم التعرف على مسالك الغابة وحددت مواقع دواوير القبيلة. وحسب ما أخبرنا به بعض سكان المنطقة، أن بعض رجال القبيلة أقنعوا الآخرين بإخراج الخيام إلى ساحات عارية بالغابة، فكان ذلك رأيا غير صائب.

فقد تمكنت طوابير الجنرال داماد من التوغل في الغابة يوم 16 ماي واصطدمت بعسات المغاربة مما أدى إلى "قتال عنيف مع مجموعات عديدة كانت تحتل القمم" ثم حاول المغاربة تكوين حاجز يحمي الدواوير التي أصبحت هدفا للمدفعية، و"نظرا لوعورة المكان امتدت جبهة القتال على طول 7 كلمترات" وبالرغم من صمود المقاومين، تمكنت القوات الغازية، من نهب الدواوير وإحراق الخيام التي لم يتمكن أصحابها من إبعادها عن أرض المعركة(42).

وقد انتهت معارك الغابة، التي سجل فيها المذاكرة وأولاد محمد ومجاهدون من زعير وبني خيران ملاحم بطولية، بتراجع القوات الفرنسية بعد أن خسرت حوالي 30 رجلا بين قتيل وجريح. لكن المغاربة بدورهم أصيبوا بخسائر فادحة في الرجال والمال. فقد قتل العديد من زعمائهم، وأشهرهم محمد بن العربي المذكوري(43). كما خسروا قطعانهم من الماشية، واستولى الغزاة على أثاث

خيامهم. ويبدو أن هذه المعارك التي جرت بغابة المذاكرة، وأشهرها معركة "بير الورد"، قد جعلت مجاهدي المذاكرة وأولاد امحمد، يعيدون التفكير في نتائج الإستمرار في قتال عدو استولى على أراضيهم، وحقولهم وماشيتهم وخرب مساكنهم. ماذا يفعل إذن مجاهدون قل زادهم، وعتادهم وحماتهم وتخلى عنهم زملاؤهم في الجهاد؟

وقد أشار الشاعر أحمد كنوني، لهذه الحالة التي وصلت إليها المقاومة بالمذاكرة فقال

ويئر ورد كان شؤما وبلا　　كأنه في الهول يوم كربـلا
تناقص الحماة والعـتاد　　وهزل القوم وقل الـــزاد
وشددت وطأتـها الأيـــام　　وكثر الأيامـى والأيتـــام

إن خطة الأرض المحروقة، أفادت الجنرال داماد في تسكين المقاومة "وتهديئ" الشاوية، ولكنها لم تفد في إقناع المغاربة بالمنطقة بقبول الاحتلال. لقد كان من اللازم لقوات الجنرال، أن تظل مستنفرة طيلة شهور يونيو ويوليوز وغشت، لتقوم بعمليات استطلاع، في جنوب الشاوية وغربها وشرقها، ولتحول دون تنظيم عمليات جهاد جديدة بالمنطقة، وخاصة إثر الهياج الذي أثارته هزيمة قوات مولاي عبد العزيز في شهر غشت بنواحي مراكش ـ كما سنرى ـ فإثر هذه الهزيمة تقدمت القوات الفرنسية إلى جنوب سطات لتقوم بعمليات بوليس في قبائل أولاد سيدي بنداوود وأولاد بوزيري التي لم تخمد فيها الدعوة للجهاد.

وهكذا كان على القوات الغازية، المتفوقة تسليحا وتنظيما وإمكانيات، أن تخوض معارك ضارية، مع مجاهدي الشاوية خاصة، ومجاهدي القبائل الأخرى طيلة ما يقرب من سنة كاملة (غشت 1907 ـ غشت 1908).

وعلينا الآن أن نختم الحديث عن هذه المعارك الجهادية، بحديث مختصر عن تعبئة قوات الجنرال داماد وتعبئة المجاهدين المغاربة خلال المعارك المذكورة

تكتيك الجنرال داماد جاء الجنرال داماد كما رأينا مزودا بتعليمات شفاهية من الحكومة الفرنسية تقضي بشن غارات خاطفة على قبائل الشاوية في عمق البلاد، لفرض الهزيمة عليها، وإخضاع المنطقة للإحتلال الفرنسي(44). ولما كانت طريقة الجنرال درود في القتال، التي تعتمد على استخدام "المربع"، قد أظهرت عجزها في التأثير على عدو سريع الحركة، فقد اتبع داماد منذ البداية خطة الهجوم، ووزع قواته إلى طابورين كان يدفع بالأول ويعززه بالثاني.

ولكن هذه الخطة فشلت لأن المغاربة كانوا يتراجعون أمام كل هجوم تقوم به قوات كبيرة، و يعودون للقتال كلما توقف هجوم العدو. وهكذا، عادوا في 15 يناير لمهاجمة قوات داماد التي دخلت سطات وكبدوها خسائر فادحة واضطروها للخروج.

كما فشلت خطة استخدام البالون والهجوم عبر محورين في 24 يناير، إذ فرض المغاربة المعركة على قوات العدو المتفرقة قبل أن تتصل وتتعاون فيما بينها.

وفي شهر فبراير تخلى داماد عن استعمال البالون. وحاول أحد مساعديه مهاجمة بعض الدواوير على غفلة، بهدف مصادرة قطيع من الماشية يبلغ 2000 رأس، لكنه اضطر حالا للدخول في معركة مفتوحة مع المغاربة الذين اقتحموا خطوط العدو وجعلوه يقاتل متراجعا، الأمر الذي كبد الفرنسيين خسائر فادحة، وجعل قائد قوات الإحتلال يطور تكتيكه الحربي لمواجهة سرعة حركة المغاربة، ودقة استخباراتهم. واتبع داماد خطة الهجوم على الهدف الواحد باستخدام طوابير عديدة تتخذ اتجاهات مختلفة تمويهية قبل أن تتلاقى عند الهدف المعني، ولكن هذه الخطة فشلت في معارك 16-17-18 فبراير.

واتبع داماد خطة الزحف بقوات معتبرة في جبهة عريضة تتعاون خلالها أسلحة المشاة والخيالة والمدفعية بشكل كثيف لسحق العدو ودفعه إلى الوراء، والوصول إلى مصادره الحيوية وتخريبها.

لكن هذه الخطة فشلت في بدايتها (20 فبراير)، لأن المغاربة كانوا أسرع في المناورة والهجوم.

وبعد فشل تكتيك الجنرال خلال معارك يناير فبراير، عمل على اتباع تكتيك الأرض المحروقة ابتداء من مارس. ويتلخص هذا التكتيك في إظهار تفوق أسلحة الفرنسيين وتأكيد هذا التفوق وتثبيته.

وهكذا بدأ الجنرال داماد يقوم بهجومات خاطفة على الدواوير التي تأوي النساء والأطفال والماشية فيكتسح الجميع، يقتل بالمدفعية من بعيد، ويتمم العملية بهجوم يقوم به المشاة. الذين يجهزون على الاحياء، ويحرقون المساكن، ويستولون على الأثاث(45) ويصادرون البهائم (15 مارس).

كما عمد الجنرال إلى إحراق المزارع ونبش المطامير وهدم دور زعماء المقاومة. وقد أعطت هذه الخطة نتائج إيجابية لجيش الإحتلال، وبدأ الكثيرون يتراجعون عن المقاومة بهدف الحفاظ على ما تبقى من أملاكهم وأولادهم. وخاصة بالشاوية الجنوبية والغربية. أما بمنطقة المذاكرة والأعشاش، فلم يخضع المقاومون إلا بعد أن أخرجوا من بلادهم إلى الجوار، واضطروا للعودة بعد فقدان العتاد والزّاد والأرض.

تعبئة الشاوية خلال معارك 1908 :

كان معظم أهل الشاوية والمغاربة الذين قاتلوا جيش الإحتلال من الفرسان، ولذلك تميزت هجوماتهم بالسرعة والمفاجأة. وكانت طريقتهم في القتال، هي مراقبة تحرك العدو باستمرار وإحصاء حركاته وتحديد اتجاهاته في الليل والنهار، وكلما لاحظت العسّات الأمامية تحرك العدو، تذهب بسرعة لإخبار المجاهدين الذين يهيئون خطة الهجوم، ولذلك كان المغاربة دائما هم الذين يفرضون مكان المعركة وزمانها إلى حدود مارس 1908.

كانت خطة القتال عند أهل الشاوية، هي تثبيت العدو المهاجم وحصره، في الوقت الذي يقوم فيه الفرسان بمهاجمة أجنحته، وكان فرسان الشاوية يبحثون باستمرار عن الالتفاف حول قوات العدو ونجحوا في هذا خلال معركة 2 فبراير.

كما كانوا يستغلون أضعف نقطة في خط الهجوم ويقومون باقتحامها مكبدين العدو وخسائر فادحة كما حدث خلال معارك 16-17-18، 29 فبراير.

ولقد كانت استعلامات المغاربة تتم بدقة متناهية، فكانوا يعلمون بالمسالك التي يسير فيها العدو وتكوين قواته، ولذلك كانوا يهاجمون فرسانا ومشاة القوات الأقل في العمق، ويبحثون عن الالتحام بها، في حين يقاتلون متراجعين عندما تصل التعزيزات المعادية. كما كان فرسان المغاربة يبحثون دائما عن إثارة فرسان العدو، ويتحدونهم للقتال وجها لوجه. ولما كان فرسان الفرنسيين لا يجيدون إطلاق النار فوق الخيول، فإنهم كانوا يحجمون عن الهجوم إلا إذا كانوا مسندين بالمشاة.

وعندما كان فرسان العدو يحسون بالقدرة على الهجوم، كان المغاربة يتبعون تعبئة ماهرة، إذ يتراجعون بسرعة جارين وراءهم العدو الذي يصطدم بكمائن من الفرسان أو المشاة، تحدث في صفوفه خسائر فادحة. وهذا ما حصل خلال معركة فخفاخة (29 فبراير).

ومن المناورات التي كان يتبعها المغاربة هي القيام بمعارك وهمية على المرتفعات أمام العدو لإثارة انتباهه لجهة معينة وإشغاله عن هدف الهجوم الحقيقي (29 فبراير)، كما كانوا يستنفرون المقاتلين بسرعة عن طريق إشعال النيران فوق القمم. فيأمُّها المقاتلون من كل جهة.

لم يكن المغاربة يخضعون لقائد واحد خلال القتال، ولكنهم كانوا يتبعون زعماءهم وحاملي ألويتهم.

فالمذاكرة مثلا كانوا يتبعون الأحمر بن منصور "مول لعلام" أو "مول الطرادة"(46). كما كان لهم زعماء آخرون كالحاج العربي ولد المذكورية من أولاد علي وغيرهم كثير في مختلف قبائل الشاوية.

وكان زعماء الجهاد يتقدمون الصفوف. ويتبعهم المقاتلون، وكان المقاتلون من مختلف الأعمار، من حدّ الصيام إلى حد الشيخوخة، (بين سن 15 إلى 65 سنة).

كما شاركت المرأة الشاوية أخاها الرجل في الجهاد وأبانت عن شجاعة، وصبر وثبات أثار إعجاب العدو.

ويحكي "أزان"، أن القوات الغازية لما كانت تفاجيء بعض الدواوير، كانت لا تجد بها إلا العجائز والفتيات وقد عَفَّرْنَ وجوههن بالتراب، ولما سئلت إحداهن مرة عن السبب، أجابت بأن ذلك علامة على الحزن من مجيء النصارى.

وخلال مذبحة 15 مارس، شاهد الفرنسيون نساء يتجهن نحو المهاجمين بخطوات ثابتة، وهن يشجعن الرجال ويشيِّعْن القتلى بزغاريد حادة، غير آبهات بحراب العدو ونيرانه(47).

وقد حكى لنا المخبرون أن النساء كن يخلطن الحناء ويتجهن إلى أرض المعركة وراء الرجال تشجيعا لهم. وكل من حاول الفرار يرش بذلك الخليط الملون. وقد تحملت المرأة كذلك عبء الجهاد وعواقبه تحملته وهي تسوق القطيع وتحمل الأثاث هاربة بعيدا عن أرض المعركة. وتحملته صابرة وهي أرملة، أو أما تدفع أولادها للقتال مع الجماعة. وتحملته وهي تسهر الليل لتهيئ المئونة للمقاتلين.

وتجدر الإشارة، إلى أن المجاهدين كانوا يستعملون الموسيقى الحماسية الخاصة بهم، إذ كان كثير من الأبطال يحملون "الطارة" و"المقص"، ويحمِّسون الرجال للقتال بأغانيهم، وحينما يجد الجد، ويحمي وطيس المعركة، تعلق أدوات الموسيقى على السروج، وتحمل بدلها البنادق(48).

وقد كان أهل الشارية يقاتلون، وهم لا يحملون إلا لباسا خفيفا ليسهل عليهم التحرك. وقد أشار لهذا الأمر "آزان" خلال معركة فخفاخة. كما أشار لذلك الشاعر عبد الهادي بناني بقوله وهو يتغنى ببطولة مجاهدي الشاوية

آشْ رَامَنْ لاَرَا لَبْطَالْ وَقْتْ لَقْتَـالْ
مْجَرْدَا مَنْ لَكْسَاوي غيرْ فَالسْرَاولْ
على الخْيُولْ المَعْتَبْرَايَا لْقَاهَمْ رْجَـالْ بَالزْرَايَمْ وسْيُوفْ حْدَادْ والسْبَايَلْ (49)

نور المذاكرة قام المذاكرة منذ اليوم الأول للتدخل الفرنسي المسلح بدور كبير في مقاومة هذا التدخل. فقد ساهموا في معارك الدارالبيضاء، وشاركوا بفعالية في حصار الفرنسيين بها وفي المعارك التي دارت حولها.

وكان للمذاكرة أثر تشجيعي في كل معركة يحضرونها، مثل ما حدث في معركة سطات الأولى (15 يناير 1908). وقد أظهروا صمودا كبيرا في قتال الجنرال داماد، بحيث أوقفوا تقدمه نحو بلادهم في 24 يناير، وأفشلوا هجوماته، بل اضطروه للإنسحاب بعد تكبيد قواته خسائر فادحة في معارك برابح بمشاركة الزيايدة 16-17 فبراير، وبسيدي عبد الكريم (السدرة) 18 فبراير وفخفاخة 29 فبراير.

ولقد أثارت شجاعة المذاكرة وأباؤهم اندهاش العدو، كما أثار صمودهم في الجهاد حماس المغاربة في الشمال والجنوب والشرق. ومن باب الإنصاف أن نشير، إلى أنه، إذا كان المذاكرة قد برزوا في قتال الفرنسيين، فإن قبائل الشاوية كلها وبدون استثناء قد بذلت فوق ما تستطيع في قتال العدو والدفاع عن بلادها. وقد اعترف الجميع لقبائل الشاوية، بمزية المرابطة والجهاد والصبر على قتال المحتلين شهورا عديدة. قال الشيخ محمد بن عبد الكبير الكتاني في رسالة يهنئ فيها الشاوية على جهادهم ومرابطتهم.

"ولو لم يكن في فعلكم، إلا أنكم أحييتم فريضة الرباط، في سبيل الله، لكان لكم الثناء الحسن والذكر الجميل والمحمدة والعز ولسان صدق في الآخرين، فكيف وقد أحييتم فريضة الجهاد [...] وقد تعجب الخلائق من صبركم وثباتكم وقالوا إنما كان هذا الصبر على عهد الصحابة الكرام" (50).

وقال الشاعر عبد الهادي بناني في معرض دعوته لقبائل الحدود الشرقية إلى الجهاد لإخراج الفرنسيين من وجدة (51):

نَهْضُو يَا هْلَ الشَّرْقْ تَغْزُو فْلَعــدُ　　قومـوا للّـهْ كُلْكُـمْ فْسـاقْ الجَـدْ
شُفْ لَفْضَالْ الشَّاوِيَا هَلْ النْجادَا　　اشْحَالْ هَذَا مَنْ شَهْرْ مْقَابْلِينْ لَرُّومْ
شُفْ لَفْضَالْ الشاويا فْخَرْقْ عَادَا　　كُلْ هَزْبَرْ مَنْهُمْ يَوْمْ اللْطَـامْ مَحْـزُومْ

كما تجدر الإشارة إلى مساهمة مجاهدين، من قبائل دكالة والرحامنة والسراغنة وبني مسكين وزعير وزيان وتافيلالت وغيرها من البلاد المغربية في قتال الفرنسيين بالشاوية.

إلا أن المذاكرة وأولاد محمد (فرقة من الأعشاش) هم الذين استمروا في قتال العدو بإباء وشجاعة وصمود، وقد نعتهم الشيخ محمد الكتاني بقوله "السادات الأبطال السعداء الأحباء المرضيين أولياء الله تعالى المذاكرة وأولاد محمد" (52).

ومدحهم الحاج أحمد كنوني بقوله (53):

وصـمـدت قبيلــة المذاكـــرة　　معلمة مثل النجوم الزاهـرة
يقودها الليث الهصور الأحمر　　مؤيــد فـي حربــه مـظـفـــر (54)

ومما ينبغي التنبيه عليه، هو أن صمود هؤلاء المجاهدين، كانت تسنده طبيعة بلادهم الجبلية. وقد أشرنا سابقا إلى أن القسم الجبلي من الشاوية كون ملاجئ آمنة طالما استغلها المقاومون لإعادة تنظيم صفوفهم.

ونظرا لطبيعة أرض المذاكرة وأولاد محمد، ونظرا لصمودهم في وجه حملات العدو، فقد توافد عليهم المجاهدون من كل جهة، وكان على رأس هؤلاء، القائد الحفيظي عمر السكتاني، والقائد موحا وسعيد الويراوي، والقائد موحا وحمو الزياني، والقائد التريعي الدكالي وغيرهم من المجاهدين.

ولكن هؤلاء القواد المجاهدين، كانوا يعتمدون في تموينهم على المذاكرة وأولاد محمد، كما كانوا يعتمدون على الذخائر التي يرسلها لهم مولاي احفيظ أو التي توفرها قبيلة المذاكرة، ولذلك عندما قرر هذا الأخير، التخلي عن قتال الفرنسيين بالشاوية والبحث عن حل سياسي للقضية استدعى إليه عمر السكتاني وموحا وحمو الزياني (55).

ولقد بذل بطل المذاكرة، الأحمر بن منصور، جهودا جبارة لإبقاء القواد المذكورين بالمذاكرة، لمساعدتهم ضد الفرنسيين. كما بذلت وفود قبائل الأعشاش والمذاكرة، محاولات كثيرة لينتقل مولاي احفيظ لبلادهم، ويتعاون معهم على مقاتلة الفرنسيين. لكنه نصحهم بمهادنة العدو لأنهم أضعف منه، ولأنه أقوى منهم (56).

خاتمة استنتاجات ودروس من معارك الشاوية

هكذا تعرفنا من خلال الفصول الأخيرة، على العمليات التي نفذها جيش الإحتلال الفرنسي داخل الشاوية. وتبين لنا أن هذا الإحتلال ميزته مرحلتان

مرحلة أولى لم تتمكن فيها القوات الفرنسية من الإبتعاد عن الدار البيضاء، وعجزت خلالها عن مطاردة مجاهدي القبائل في عمق بلادهم، بل كانت هذه القوات معرضة في الواقع، لهجومات مستمرة، كثيرا ما كانت شديدة الوقع على نفسية جنود الاحتلال. وخلال هذه المرحلة، قام مجاهدوا القبائل بهجومات مستمرة وقوية مكنتهم من حصر القوات الفرنسية في معسكراتها وراء الخنادق. وعندما كانت تلك القوات تحاول الخروج من الخنادق كانت تجد نفسها وقد فرضت عليها معارك مريرة. وقد انتهت هذه المرحلة الأولى إلى حالة من الركود، تأكد من خلالها فشل الخطة التي هيأتها الحكومة الفرنسية لإحتلال الدار البيضاء والشاوية.

وتسمح هذه الحالة التي انتهت إليها معارك الدار البيضاء باستنتاج على جانب من الدلالة هو إذا بينت تلك المعارك عجز القوات الغازية عن تحقيق ما كان مخططا لها تحقيقه، فإنها بالتالي، أظهرت عجز المقاومة المغربية على التأثير كثيرا في جيش عصري منظم ومجهز بأحدث سلاح وأقواه.

والواقع أن أهل الشاوية، بعد تكرار الصدمات التي وجهوها للعدو، وبعد الخسائر التي أصيبوا بها، اقتنعوا بأن عدوهم، الذي تحميه مدافعه الميدانية وتسنده قذائف الأسطول الراسي في البحر، لا يمكن الطمع في طرده من المدينة. ومع هذا الإقتناع ظلوا على اعتقادهم الراسخ بمزاياهم الحربية، وعلى استعدادهم الفائق لمصادمة العدو متى تجرأ على الابتعاد عن البحر.

أما الحكومة الفرنسية، فقد تأكد لديها، أن تقارير الدبلوماسيين ورؤساء البعثات العسكرية، حول استعداد المغاربة للقتال، تحتاج إلى مراجعة وتدقيق، وأن اقتراحاتهم لعدد القوات الكافية لاحتلال مدينة مغربية فيها شيء كثير من التفاؤل والتقصير. ونتيجة لذلك فقد أصبح من الضروري تغيير خطة الإحتلال، والدفع بقوات جديدة للمغرب والعمل على احتلال كل الشاوية. وقد أملى هذا التغيير الخوف من أن تصبح الدار البيضاء محتلة محصورة على الشاطئ الأطلسي تعيش على ما يأتيها من البحر، مثلما هي حالة المحتلتين الإسبانيتين على الشاطئ المتوسطي للمغرب. كما كان التغيير ضروريا، لإعطاء بعض

المصداقية لما ظلت الحكومة الفرنسية تردده، من أن هدف الإنزال بالدار البيضاء هو حماية الجالية الأجنبية وخدمة التجارة الأوربية بالدار البيضاء. وأصبح من الضروري الشروع في خطة جديدة لما اشتد الحصار المضروب على الدار البيضاء، بإعلان بيعة مولاي عبد الحفيظ والمناداة بالجهاد لطرد المحتلين بالشاوية.

أما المرحلة الثانية فتميزت بتدشين خطة جديدة للاحتلال، مع قائد عسكري سبق له أن جرب الحروب الإستعمارية في جنوب إفريقيا، هو الجنرال داماد. وقد أجهد القائد الجديد قواته، التي تضاعفت أعدادها في عمليات كان يحرص ما أمكنه الحرص، على أن تكون مفاجئة للقبائل، حتى يتمكن من ضربها في العمق وإصابة مصادرها الحيوية ودفعها بذلك إلى الاستسلام. وكم كانت دهشة الجنرال داماد كبيرة عندما وجد نفسه، أمام عدو خفيف الحركة سريعها، يعرف الميدان ويستغله بمهارة فائقة، ويعرف كيف يستفيد من سرعة حركته ودقة استخباراته ليعوض نقصه في السلاح والرجال.

وقد تبين من المعارك التي خاضتها قوات الاحتلال، أن مجاهدي القبائل كانوا في نهاية المطاف، هم الذين يفرضون زمن المعركة التي يخطط لها الضباط الفرنسيون ومكانها. وبذلك كان المغاربة يفوتون على الجنرال داماد مزية المفاجأة وصدمة الضربة الأولى.

ويمكن للمرء أن يتساءل بعد هذا، كيف استطاعت قبائل الشاوية، التي يغلب على أرضها الطابع المنبسط، أن تصمد هذا الصمود العجيب، وأن تطاول العدو مدة غير قصيرة، علما بأنها كانت تواجه قوات متفوقة تنظيما وتسليحا؟

إن جواب هذا السؤال يتضح من خلال التعرف على حقيقتين

أولا هما هي أن صمود الشاوية كانت تسنده إرادة قوية في الدفاع عن الأرض والدين والوطن، وقد كانت حمية الدفاع عن تلك الحرمات من القوة بحيث كان الناس يقبلون على الجهاد طواعية ويبذلون الطاقة والجهد في سبيل دفع العدو المهاجم.

الثانية أن قبائل الشاوية منذ بدأت المعارك في بلادها، اتصلت بخليفة السلطان مولاي عبد الحفيظ الذي أعلن بيعته بمراكش كما أعلن الجهاد ودعا إلى مساعدة أهل الشاوية. وقد كان هذا الإعلان في حد ذاته تأييدا معنويا كبيرا، مكن القبائل من مضاعفة الجهود، لمحاولة طرد العدو من بلادها. وقد مكنت المساعدة

الفعلية التي قدمها مولاي عبد الحفيظ، بالرغم من احتشامها ـ لأن الرجل لم يعلن الحرب رسميا على فرنسا، و"لم يعقد معهم حربا بقاعدته المعلومة ولا استنفر أحدا للجهاد بمراسمه المرسومة" كما لمح لذلك صاحب "الدرر اللفظية في المملكة الحفيظية"، الذي لم يمنعه مديحه الكثير لمولاي عبد الحفيظ من ذلك التلميح ـ مكنت مساعدة مولاي عبد الحفيظ قبائل الشاوية ومجاهدي القبائل الأخرى، من مواجهة الجنرال داماد مواجهة عنيفة لا هوادة فيها، وجعلته يذوق الفشل تلو الفشل مثل سابقة لجنرال درود.

وتجدر الإشارة إلى أنه لو كانت للمغاربة مدفعية، ولو توفر لهم السلاح الكافي، لما تمكنت قوات الجنرال داماد من السيطرة على الشاوية. وقد رأينا أن تلك السيطرة لم تتم إلا بعد تطورات عسكرية وسياسية

ففيما يخص الأولى، لا حظنا أن قوات الإحتلال عمدت إلى سلاح الإرهاب، وبدأت تشن الغارات، على الدواوير، التي تأوي النساء، والأطفال، والعجزة والحيوانات. وبعد أن تؤدي القذائف وحراب اللفيف مهمتها، كانت الأوامر تصدر بإتلاف الزاد والمأوى وإحراق ما لا يتمكن المرتزقة من الإستحواذ عليه.

إن طريقة الأرض المحروقة، قد مكنت جيش الإحتلال من استنزاف قوة المقاومة، ولكن الذي فت في عضدها أكثر، هو تخلي سلطان الجهاد عن خوض المعركة وتفضيله للحل السياسي على الحل العسكري، بعد أن أيقن باستحالة الحل الثاني نظرا لضعف المغاربة وتشتت كلمتهم.

لقد ظل مولاي عبد الحفيظ بمشرع الشعير جنوب الشاوية يراقب المعارك، ويرسل السلاح ويشجع المجاهدين. وخلال ذلك بذل محاولات، لدفع الجانب الفرنسي إلى التفاوض على الصلح والكف عن الاحتلال. لكن فشل مبعوثيه الذين كانوا من الفرنسيين، (مثل هويل و Berrino وغيرهما)، أقنعه بالذهاب إلى فاس ومنها يمكنه فتح باب التفاوض مع الدول بعد تثبيت سلطته على البلاد.

ونختم هذه الملاحظات، بالإشارة إلى استنتاج، يمكن للمتأمل في الفصول السابقة أن يخرج به وهو إن إرادة القتال، وحمية الجهاد والدفاع عن النفس والأرض، لا يمكن أن تكون لها نتيجة إيجابية نهائية، إلا إذا صاحبها التنظيم، والتخطيط، والتوجيه الواعي، وإلا إذا وفر لها كذلك الرِّفْد، وأُمِّن مصدر الإمداد. ولا جدال في أن الزعامة ـ وفي ضمنها السلطة المنظمة الواعية ـ هي التي بإمكانها أن توفر عنصر التنظيم والتوجيه. وهذا ما قام به السلطان مولاي عبد الحفيظ مدة من الزمن ولكنه لم يستمر.

هوامش الفصل الرابع عشر

1) - C. Grasset, A travers la Chaouia, op. cit. PP. 81-82.

2) - R. Rankin, Au Maroc avec le Général D'Amade", p. 30.
A.G.V., 3 H 57, D'Amade à guerre, 20-1-1908.

3)- مرجع هامش (1) ص 79-83.

4) - Martin, quatre siècles, op. cit. P. 472.

5) - A.G.V. 3 H 78, D'amade à guerre, 15-1-1908.

6)- مرجع هامش(1)، ص 87-88.

7) - نفسه، ص 89.
مدن وقبائل المغرب، الدار البيضاء والشاوية، ج 1، 275-276.

8)- مرجع هامش (1)، ص 92-94. ومرجع هامش(2)، ص 83-86.

9) - عينه، ص 98-99.

H. Cambon, Histoire du Maroc, 1952, PP. 193-195.

10) - G. D'amade, La Campagne de 1908 - 1909 en Chaouia, op cit pp. 56-57.

11) - عبد الهادي بناني، "الدرر البهية في مدح رجال الشاوية" قصيدة ضمن مجموعة قصائد ملحونة، خزانة كلية الآداب بالرباط.

12)- قائد حفيظي، تولى قيادة المحلة الحفيظية العاملة بالمذاكرة.

13) - G. D'Amade, La Campagne.., pp. 59-60.

14) - مرجع هامش (1)، ص 102.

15) - Conjeand, Histoire militaire, op. cit P. 99.

16) - عينه، ص 102. مرجع هامش (1)، ص 111. ومرجع هامش (13)، ص 82.

17) - مارتان، "أربعة قرون"، ص 476.

18) - قتل يوم "السدرة" أحد رجال المذاكرة المشهورين، وهو الصغير أخو الحاج بالحاج أحد أغنياء القبيلة. ولازالت الحكاية الشعبية تردد ذكرى القتيل هكذا :
"الصغير، الشكارة والخيط حرير".

19)- مرجع هامش (1)، ص 113.

20) - Dupuys, comment nous avons conquis le Maroc, pp. 119-120.

21) - P. Azan, "Souvenirs de Casablanca", p. 146.

22) - نفس المرجع، 147.

23) - عينه، ص 158.

24) - P. Azan, "Souvenirs de Casablanc", pp. 162-163.

25) - ibid., pp. 168-169. et P. 175.

26)- مصدر هامش (1)، ص 114-116.

27) - عينه، ص 117.

28)- مارتان، "أربعة قرون"، ص 476-477.

29)- مصدر هامش (24)، ص 168-169.

30)- مرجع هامش (15)، ص 111-112.

- مرجع هامش (1)، ص 123.

31) - إن حقيقة وجود المرابط المذكور تحتاج إلى إثبات، فبالرغم من أن رواية الإحتلال تدعي بتحريض بونوالة وتسميه أحيانا "محمد بن عبد الله" فإننا نشك في وجود ذلك المرابط حقيقة. فبعد مذبحة 15 مارس لم يعد هناك حديث عن بونوالة الذي تدعي الرواية الفرنسية بأنه هرب لزعير" ومن الجدير بالملاحظة كذلك، أن نشير إلى أن "بونوالة" إذا وجد حقيقة فإنه ربما كان صنيعة لجيش الإحتلال وعميلا استعمل لتجميع الناس حتى فتكت بهم قوات الجنرال داماد. وقد دفعنا لإثارة هذه الملاحظة أحد المخبرين الذي حدثنا بأن أحد أقربائه حمل رسالة من قائد الجيش الفرنسي للمرابط المذكور، وأنه سلمها له دون أن يرى وجهه لكنه لاحظ أن يد "المرابط" التي امتدت من تحت ستار كان شعرها أشقر. أنظر مذكرات آزان حيث توجد رسالة من المرابط المذكور.

32) - مرجع هامش (1)، ص 134-135.

- راجع ما ذكره "آزان" مرجع سابق، ص 355-356.

33)- المصادر المذكورة أعلاه.

34) - راجع عدد 6 أبريل، مقال "الإعتراف" الذي علق فيه جوريس على تقرير داماد حول العملية، واستخرج منه الأدلة على حدوث المذبحة وهاجم فيه سياسة الكذب المتبعة في المغرب.

راجع كذلك تدخلات الزعيم الإشتراكي المذكور في

J. Jaures, "Textes choisi, contre la guerre et la politique coloniale", éd, sociales. Paris 1959.

35) - "Vossische Zeitung", 6 Juni, 1908

36) - راجع كذلك ما كتبته Weserzeitung بتاريخ 1 ماي 1908 خاصة حيث أشارت إلى أن جيش المتلقطة الذي تستعمله فرنسا بالشاوية، يخرب وينهب ويعود أفراده إلى بلدانهم بالجزائر وتونس والسنغال وغيرها، بالأكياس والصناديق والأثاث المنهوب من قبائل الشاوية.

37) - Germain Ayache "Les origines de la guerre du Rif", SMER, 1981-55, pp. 59-60.

38) - لقد صادفت مهمة ليوطي صعوبات جمة، نظرا لرفض أعيان الشاوية الخضوع لقواد تابعين لمولاي عبد العزيز. وانتهت مهمته في شهر أبريل بعد أن أتم دراسة الوضع بالشاوية. وكتب تقريرا قدمه للحكومة بالمشاركة مع رينيو في 30 مارس 1908. أما التقرير الشامل عن كيفية مواجهة الوضع بالشاوية والوسائل الكفيلة بإنهاء المقاومة فقد أنهاه بتاريخ 21 أبريل.

39) - A.G.V. 3 H 70. Lyauty à guerre 21 Avril 1908.

40) - مصدر هامش (1)، ص 139-141.
- راجع ما كتبه كونجو عن معركة 29 مارس، التي انهزم فيها فرسان جيش الإحتلال وبعد أن فقدوا قوادهم تراجعوا للوراء تحت جنح الظلام.

41) - المصدر المذكور ص 144-145. وكونجو ص.

Marthe et Gouvion, Ayane El Maghrib Alaqça, p; 560.

Dupuy, op. cit, P. 120.

A.G.V. 3 H. 78, doss. 133.

42) - راجع ما كتبه "كراسي" ، وكونجو عن هذه المعارك.

43) - محمد بن العربي بن المكي المذكوري كان من الأغنياء وكانت داره مليئة بالسلاح والذخيرة التي كان يمد بها المجاهدين ويحكي أن الجنود الفرنسيين لما كانوا يخربون داره ويقلعون نوافذها ثارت خلية من النحل فطردتهم عنها.
وقد رثى الحاج أحمد كنوني المذكوري المزداد سنة 1906، البطل المذكور فقال

"وبئر ورد كان شؤما ويـــلا كأنه فـي الهـول يوم كربـــلا
يسقط فيها البطل الزيدانـي محمد كالـذكـر اليمـانـــي
جاهد بالنفس والمال معـا وأسلم الروح شهيـدا طيعـا
فلم تر العين في يوم أســود كبطـل فوق الثـرى تمـــددا
والإخـوة الغربنـو أبيـــه فما لـهم فـي القوم من شبيـه
تركوا في الله النعيم والثرى واشتاقوا للخلود في بطن الثرى
وحولهم صرعى من الأحباب وأمـجـاد تعمر أرض الغـــاب

عن مسودة "شعر ونضال" للشاعر المذكور الذي تفضل مشكورا وأطلعنا عليها (توفي رحمه الله سنة 1987).

ـ أنظر عن دوره في المقاومة مذكرة وزير الخارجية لسفير فرنسا بباريز 17 غشت 1908 "وثائق دبلوماسية فرنسية" 1906-1908

44) - A.G.V. 3 H. 571, D'Amade à Guerre, 20-1-1908.

45) - Ibid, 3 h 77, coupure du N° I mai 1908 du "Weserzeitung"

46) - "الأحمر بن منصور اعْلاَمُو كَاسِي عَوْنُو
الأحمر بن منصور صَابْغْ دُخَّانْ التَّلْتِي"

47) - A.G.V. 3 H 86, "Journal Politique de l'armée, M. SS.

48) ـ حدثني المختار الإسماعيلي (الكارة 1983) عن ذلك ذاكرا أن أشهر من كان يفعل ذلك بالمذاكرة رجلان يسمي أحدهما "الرداد" والآخر يسمى "الزموري"، وكانا من أبطال الجهاد كذلك.

49) ـ عبد الهادي بناني "الدرر البهية في مدح رجال الشاوية" م.س.

50) ـ محمد الباقر الكتاني، "ترجمة الشيخ محمد الكتاني الشهيد"، الرباط 1962، ص 189.

51) ـ عبد الهادي بناني، م.س.

52) ـ محمد الباقر، م.س.

53) ـ الحاج أحمد كنوني المذكوري "شعر ونضال"، م. س.

54) ـ أشاره إلى الأحمر بن منصور المذكوري،

55) - P. AZAN, op. cit. p. 356.

56) ـ مارتان أربعة قرون، ص 482.

الفصل الخامس عشر

قضية احتلال الشاوية بين فرنسا ومولاي عبد الحفيظ.

1. نهاية مولاي عبد العزيز

في آخر ذي القعدة عام 1325، الموافق 4 يناير 1908، أعلن سكان فاس عزلهم لمولاي عبد العزيز، وبيعتهم لأخيه مولاي عبد الحفيظ. وقد اتهموا السلطان بـ "العجز عن القيام بالمصالح" مما أدى إلى انحلال "عرى الدين وتفرقة جموع المسلمين" ونتج عن ذلك استيلاء الأجانب على "توات ونواحيها وفجيج وعيون بني مطهر ووجدة والدار البيضاء"(1).

وقد حاول مولاي عبد العزيز استرداد طاعة سكان فاس ومكناس، لكن محاولته فشلت(2) كما نظم حملة ذهب على رأسها لاسترجاع طاعة قبائل الحوز ومدينة مراكش. لكن هزيمة بوعجيبة في 19 غشت 1908(3) ،كانت ضربة قاضية للحزب العزيزي، الذي تخلى نهائيا عن كل محاولة لمقاومة سلطان الجهاد. وانتهى مولاي عبد العزيز إلى أن أصبح رهينة بيد المحتلين، بعد أن أخذوا منه كل شيء، ولم يقدموا له في المقابل أي شيء سوى الآمال الخادعة، في الوقت الذي كان في أمس الحاجة إلى العون المالي والعسكري.

2. المفاوضات بين مولاي عبد الحفيظ وفرنسا

مسألة الإعتراف بعد انهزام مولاي عبد العزيز، توالت بيعات المدن والقبائل لمولاي عبد الحفيظ. كما رفضت قبائل الريف السلطان المدعي بوحمارة وانضمت إلى سلطان الجهاد.

وإذا كان الشعب المغربي كله قد التف حول مولاي عبد الحفيظ، وأبدى بذلك رغبته في العيش حرا مستقلا، فإن فرنسا وإسبانيا أصرتا على فرض شروطهما وتنفيذ مخططهما الإستعماري في المغرب. فقد اشترطت الحكومة الفرنسية بالإتفاق مع الحكومة الإسبانية للإعتراف بمولاي عبد الحفيظ، الشروط الآتية

- التخلي عن الجهاد وإعلان ذلك في المساجد.
- قبول جميع الإتفاقيات التي عقدها المخزن السابق، بما فيها ميثاق الجزيرة الخضراء.
- أداء ديون المخزن السابق.
- قبول أداء التعويضات الحربية، وتعويضات حادثة الدار البيضاء.
- ضمان أجر ثابت لمولاي عبد العزيز، وعدم مؤاخذة أعضاء مخزنه(4).

وبالرغم من تدخل ألمانيا لصالح الإعتراف بمولاي عبد الحفيظ، فقد ظل الفرنسيون يعاملون مولاي عبد العزيز بصفته سلطانا شرعيا، ويستصدرون منه الرسائل والظهائر للقواد والموظفين المغاربة بالدار البيضاء والشاوية. كما تدخلوا لدى الدول الأخرى لتمتنع عن الإعتراف بالسلطان الجديد، حتى يقبل الشروط السابقة.

ومن الضغوط التي لجأ إليها الفرنسيون، لدفع مولاي عبد الحفيظ ليقبل شروطهم ما فعلوه مع أخيه مولاي امحمد، الذي دفعته الأوساط الإستعمارية بالمغرب إلى إعلان بيعته بنواحي الرباط. وقد تزعم الدكتور ڤاير VEYRE الدعاية لهذه المحاولة التي ولدت ميتة. إذ سرعان ما تمكن الباشا بنعيسى بن حمو، من إقناع مولاي امحمد بالتخلي عن مغامرته، وأخذه لفاس، حيث وضع تحت المراقبة من جديد(5).

وفي آخر سنة 1908، قبل مولاي عبد الحفيظ التخلي عن الجهاد، فاعترفت به جميع الدول الممثلة بطنجة سلطانا شرعيا للمغرب، في 5 يناير 1909 (6).

ويجب أن نلاحظ، أن قبول مولاي عبد الحفيظ للشروط الفرنسية، إذا فتح بينه وبين المحتلين والدول الأخرى، قنوات التفاوض والتعامل لحل المشاكل التي

كان المغرب يتخبط فيها، فإنه نال كثيرا من هيبة سلطان الجهاد، وأصبح الكثيرون يرون المخزن الحفيظي وقد عاد لنقطة النهاية التي انتهى إليها المخزن العزيزي، التي كانت سببا في انتفاضة الشعب ضده. ولا جدال في أن هذا التطور، ستكون له عواقبه على علاقة مولاي عبد الحفيظ بمؤيديه في الأوساط الشعبية وبين العلماء(7). ولكن الذي يعنينا في هذا المجال، هو موقف السلطان عبد الحفيظ من احتلال الشاوية. ولذلك يجب تتبع مفاوضاته مع الفرنسيين حول المسائل التي طرحتها قضية هذا الاحتلال.

مسألة تعويضات الدار البيضاء بعد حادثة قنبلة الدار البيضاء، بدأت الدول الأجنبية تبحث في كيفية تعويض رعاياها الذين تضرروا من القنبلة والنهب واحتلال الجيش الفرنسي لبعض الدور والأماكن بالمدينة.

وفكر الفرنسيون في حل مسألة التعويضات بتحميل المغرب مسؤولية أدائها. ويبدو أن المسؤولين الفرنسيين وجدوا سابقة في هذا الباب، اتخذوها مثالا، وهي تحميل ابريطانيا لمصر مسؤولية أداء التعويضات الناتجة عن قنبلة الإسكندرية سنة 1882 (8). ولهذا اقترح إنشاء لجنة دولية تكلف بدراسة الشكاوي وتقدير التعويضات.

وفي 9 شتنبر 1907، قررت الحكومة الفرنسية تحميل المغرب مسؤولية الحادثة، وبالتالي أداء التعويضات للمتضررين. كما قررت بحث تحديد تلك التعويضات من جانب لجنة دولية (9). وأبلغت الدول الأخرى بما قررته.

ولما رأى المغاربة المتضررون من الحادثة، أن الأجانب سيعوضون، تدخلوا لدى النائب السلطاني الذي كتب للسلطان يقول "ولما رأت الرعية الشريفة ذلك رفع من كان باقيا منهم هناك (بالدار البيضاء) شرح قضيتهم، وما أصابهم لعم مولانا مولاي الأمين. وطلبوا منه الكتابة إلينا لنباشر القضية [...] وقد اقتضى الحال إطلاع العلم الشريف بذلك ليظهر لسيدنا أيده الله ما يكون عليه العمل في ذلك، بحيث أن السكوت عن حقوق أولئك الضعاف لا يليق لا [illegible] قد استبشرت وجوههم واطمأنت قلوبهم بنيل ما ضاع لهم على التمام..."(10).

وخلال سفارة رينيو للرباط أواخر 1907 - كما مر بنا - اقترح هو ن سحير الإسباني، على مولاي عبد العزيز، تأسيس اللجنة المذكورة، فقبل السلطان المبدأ. وبعد ذلك اتفق مع الفرنسيين والإسبان على كيفية تأسيس تلك اللجنة حسب الشروط الآتية(11) :

أولا تأسيس "لجنة دولية مختصة بتلقي وتحقيق مادة الدعاوي الصادرة من رعية المخزن والأجانب"، المتعلقة بالإضرار التي أصابت "أمتعتهم وأملاكهم" خلال حادثة الدار البيضاء.

ثانيا تتألف اللجنة المذكورة كالآتي

يعين المخزن ثلاثة أعضاء من بينهم رئيس اللجنة. تعين كل واحدة من الدول الآتية ألمانيا وإسبانيا وفرنسا وإبريطانيا وإيطاليا والبرتغال، عضوا ينوب عنها في اللجنة. و"أما الدول الأخرى، فيسوغ لكل واحدة منها إذا دعت إليه الحاجة، أن تعين نائبا من نواب سفارتها بطنجة... يشارك اللجنة فيما يقع من مقابلة وفصال الدعاوي الصادرة" من رعايا تلك الدول.

ثالثا "يكون للجنة المذكورة التفويض التام، للبحث عن الدعاوي التي ستعرض عليها. وأن تلك اللجنة تحكم في كل دعوى أما بردها وأما بقبول أصلها وجعل معاوضة لها. فيكون حكمها في ذلك على وجه قاطع من غير إعادة. وعلى كل حال، فلا يثبت استحقاق المعارضة، إلا بسبب ضرر ناشيء عن عين الحوادث هنالك. وكل ما تحكم به تلك اللجنة، يكون باتفاق غالب الآراء، وإذا وقعت مساواة الآراء فيكون رأي مقدم اللجنة الأرجح"

رابعا "يسوغ للجنة المذكورة أن تعين نائبا للرئيس، أو عددا من النواب له وكاتبا أو كتابا، غير أنه يكون أحد منهم بالأقل من رعية المخزن الشريف [...] والمخزن الشريف يقيد لتلك اللجنة مالا كافيا بالبنك المخزني عند طلبها منه"

وهكذا تكونت اللجنة حسب الشرط الثاني، من 9 أعضاء 3 منهم مغاربة و6 يمثلون الدول الأوربية، التي كانت لها علاقات واسعة مع المغرب. وكان رئيس اللجنة في البداية هو مولاي الأمين، خليفة مولاي عبد العزيز على الدار البيضاء والشاوية. ثم عين مولاي عبد الحفيظ محمد الأمراني خليفة عنه ورئيسا للجنة بدل مولاي الأمين. وقد عين القنصل الفرنسي بفاس كايار Gaillard، كاتبا للجنة. ومن مراجعة الأجور التي قدمها المغرب لمندوبي الدول الأجنبية في اللجنة نلاحظ، أن مندوبين من أمريكا وبلجيكا وهولندا والنمسا هنغاريا، قد شاركوا في مداولاتها وتقاضوا أجورهم(12).

أشغال اللجنة

بدأت اللجنة المذكورة أشغالها في بداية سنة 1908، وتوقفت بعد انهزام مولاي عبد العزيز، انتظارا لمصادقة مولاي عبد الحفيظ على أشغالها وتعيين

موظفين يمثلون المخزن الجديد. ويظهر أن مولاي عبد الحفيظ لم يكن راضيا عن تأسيس تلك اللجنة، لذلك نجده يتأخر عن تعيين الأعضاء المغاربة الجدد ويتردد في المصادقة على استئناف أعمال اللجنة(13). كما يبدو أنه ربط استئناف أعمال اللجنة بالإعتراف به رسميا. ولذلك استؤنف عمل اللجنة بعد الإعتراف الدولي بمولاي عبد الحفيظ.

درست اللجنة حوالي 3605 مطلب بالتعويض، قدمها الأجانب والمغاربة. وكان نصيب المغاربة من هذه المطالب 2519 مطلب أي 70٪ من المجموع. وقدمت الدول المعنية أكثر، وهي فرنسا وانجلترا وألمانيا وإسبانيا، حوالي 752 مطلب أي 21٪ من المجموع(14). وقد لاحظ "ألان" ALLAIN، أن هذا التوزيع في المطالب يدل على أن اضطرابات سنة 1907 قد ضربت المغاربة أكثر من الأجانب، و"أن تلك الإضطرابات إذا وجهت في البداية ضد الأوربيين، فإنها قد تسببت في خسائر مادية للأهالي بشكل مضاعف بالنسبة للأوربيين..."(15).

ويبدو تبعا لذلك، أن ألان ALLAIN، فاته أن يدرك حقيقة المطالب، وحقيقة الخسائر، كما فاته أن يدرك معنى تقديم 2519 مطلب مغربي، وحوالي 1000 مطلب للأجانب ومحمييهم، وفيما يلي توضيح ذلك

أولا إن الخسائر المعنية نتجت عن قنبلة الأسطول الفرنسي لمدينة الدار البيضاء وعن احتلال القوات الفرنسية والإسبانية للمدينة وليس عن اضطرابات الأهالي.

ثانيا أن الخسائر التي أصابت المغاربة لا يمكن مقارنتها بالخسائر التي أصابت الجالية الأجنبية، لأن مساكن ومتاجر الأولين، هي التي أحرقت وخربت، في حين أن مساكن ومتاجر الآخرين لم تصب بأذى، باستثناء النهب الذي تعرض له بعضها.

ثالثا أن عدد المغاربة كان أكثر من 20 ألف، في حين أن عدد الجالية الأجنبية لم يكن يتعدى 1000 نسمة. وكانت بينهم نسبة كبيرة من العمال. ثم إذا قارنا 2519 مطلب بعدد المغاربة الذين تضرروا، وجدنا أن تلك المطالب قليلة جدا. في حين أن تقديم الأجانب لألف مطلب يظهر فيه مبالغة في العدد. زيادة على المبالغة في الإدعاء، الأمر الذي اتضح من حكم اللجنة الدولية لتعويضات الدار البيضاء. كما يجب إدخال قيمة ما حكمت به اللجنة لكلا الطرفين في الاعتبار.

حكم اللجنة أو نتائج المداولات عقدت اللجنة أكثر من جلسة، تداولت خلالها حول الملفات المقدمة. وقد وجدت أن المطالب مبالغ فيها بشكل صارخ. ولما كان كل تاجر أو محمي لا تعوزه الحجج، فقد رأت اللجنة أن المطالب مبالغ فيها، ولذلك حكمت في النهاية بنصف التعويضات المطالب بها، أي أنها عدلت من التقديرات لتلافي الغش والاحتيال الذين لم تخل منهما تلك المطالب. وهكذا حكمت اللجنة بأداء 13.069.642 فرنك من أصل 26.473.366 فرنك. فالتخفيض إذن وصل إلى حوالي 50٪. إلا أن هناك اختلافات كبيرة بين المستفيدين فبالرغم من أن نسبة مطالب المغاربة كانت تمثل 70٪، فقد حكم لهم بـ 28٪ أي ما مقداره 3.700.000 فرنك. في حين حكم للأجانب بـ 72٪، منها 57٪ أي 7.400.000 فرنك لفرنسا وانجلترا وإسبانيا وألمانيا(16)

وفيما يخص التخفيضات التي أصابت مطالب الدول الأجنبية نجد بعض الإختلافات. حيث كانت نسبة التخفيض كالآتي

إنجلترا	18٪
فرنسا	59٪
أمريكا	62٪
السويد	7٪
الدنمرك	0٪ (17)

ماذا تعني هذه الأرقام ؟

لقد لاحظ ألان Allain، مرة أخرى، أن إنجلترا كانت محظوظة أكثر من فرنسا، التي كانت تستفيد من نفوذها السياسي، وبالرغم من ذلك، نقصت مطالب رعاياها ومحمييها بـ 59٪.

وإذا كان الإهتمام بهذه العموميات يبعد المرء كثيرا عن حقيقة الأشياء، فإن الذي ينبغي الإهتمام به هو معرفة الأسباب الحقيقية للتخفيض والزيادة. أي أنه، بدل أن نصف الأشياء وصفا جامدا، كان ينبغي أن نتساءل عن سبب التخفيض الأقل أو الأكثر الذي نال مطالب هذه الدولة أو تلك. أي كشف العلاقة بين التخفيض وعدالة المطالب. لذلك نلاحظ، أن التخفيض الذي أصاب المطالب الفرنسية (59٪) يدل بشكل لا جدال فيه، على أن معظم تلك المطالب كان مبنيا على تجاوزات عديدة وتحامل مبالغ فيه، الأمر الذي يثبت تعسف الرعايا والمحميين الفرنسيين. ودرجة الكذب والتحايل التي اعتمدت عليها مطالبهم. وما قلناه عن

المطالب الفرنسية ينسحب كذلك على المطالب الأمريكية. كما يجب الإهتمام كذلك بدرجة ابتعاد مطالب الأجانب عامة عن الإتفاقيات السابقة، وخاصة اتفاق مدريد 1880. فكم من تاجر أو مؤسسة قدمت مطالب أكثر من 20 محميا، في حين أن الشروط لا تسمح إلا بحماية سمسارين لكل تاجر كبير(18).

وبالجملة فإن كل الملاحظات السابقة، لا تمنع من التأكيد على تحامل الأجانب، فيما يخص المطالب التي قدمت للجنة الدولية لتعويضات الدارالبيضاء بصفة عامة. فبصرف النظر عن عدالة تأسيس تلك اللجنة نفسها، وتحميل المغرب مسؤولية أداء التعويض عن حادثة الدار البيضاء، فإن تكوين اللجنة، التي كان أغلبية أعضائها من الأجانب، والتي كان المغاربة لا يمثلون فيها إلا ثلث الأصوات أو أقل، يبرز للوهلة الأولى أن مداولاتها لن تكون في صالح المغاربة. إن منح الأغلبية للأجانب معناه فتح باب التحامل أمام التجار، وباب التحايل والغش أماء الأفاقين منهم، ما دام الذين اعتدوا هم الذين نصبُوا نفسهم حاكمين.

وتؤكد رسالة بعثها رئيس اللجنة وخليفة السلطان مولاي عبد الحفيظ محمد الأمراني، بتاريخ 19 جمادى الثانية 1327 الموافق 8 يوليوز 1909، ما ذهبنا إليه، إذ جاء فيها قوله "إنه غير خاف [...] ما كنت قدمته من الإعلام بم يقع في دعاوي الأجانب وحمایاتهم من التحامل، وبينت السبب في عدم إفاد المعارضة وهو وجود الأغلبية معهم..."(19).

والحاصل أن اللجنة أنهت أشغالها في 7 يناير 1910، وحكمت بالقد المذكور من التعويضات وهو 13.069.642 فرنك. لكن ما دفعه المغرب في الحقيق من تعويضات وما صرفه على اللجنة تعدى الرقم المذكور، ليصل إلى 4.596.636 فرنك، وهو القدر الذي حكم به للمغاربة، وما أخذته 10 دول أوربية وأمريكا.

والجدول أسفله يوضح المقادير التي تسلمتها الدول الأجنبية المذكورة ونو التعويض ومجموع تعويضات كل نوع

جدول 5 :

تعويضات حادثة الدارالبيضاء

ما دفعه المغرب من تعويضات للأجانب والمحميين بالفرنك

الدولة	تعويضات الرعايا والمحميين	تعويضات الأماكن التي احتلها الجيش	أجور المندوبين في اللجنة الدولية للتعويضات	تعويض القتلى	تعويض القنصليات	المجموع الخاص
إسبانيا	2556900		028406	500000	03880	3089186
فرنسا	1846673	99314	072221	300000		2318208
إنجلترا	1748937		144481			1893418
ألمانيا	1297502	53177	016171		44093	1410943
إيطاليا	0419633	06233	052500	300000		0778366
البرتغال	0503451	03525	052125	150000		0709101
السويد	0210314	02844				0213158
أمريكا	0140525		005791			0146316
النمسا						
هنغاريا	0151571		004058			0155629
هولندا	0045410		000600	050000		0096010
بلجيكا	0084101		002200			0086301
المجموع العام	9005017	165093	378553	1300000	047973	10896636

المصدر ك خ. ح. 568

ملاحظات حول الجدول أعلاه

أولا فيما يخص تعويضات الرعايا والمحميين، هناك دول أخرى تسلمت تعويضات لرعاياها ومحمييها ولم تذكر في الجدول، لأن القدر الذي دفع لها غير معروف وهي البرازيل والأرجنتين والدنمرك.

ثانيا فيما يخص تعويضات الأماكن المحتلة (165.093)، جاء في رسالة لمندوب فرنسا في اللجنة، يطلع فيها وزير الخارجية على مبالغة الأجانب في مطلب التعويض عن الأراضي التي احتلها الجيش الفرنسي، أن اللجنة حكمت بـ 195.716 فرنك (20).

ثالثا فيما يخص أجور المندوبين، يلاحظ أن المغرب دفع تعويضات لعشرة مندوبين في حين أن عدد المندوبين الذين نص عليهم ظهير تأسيس اللجنة لا يزيد على 6 أجانب.

رابعا فيما يخص تعويضات القتلى، يلاحظ من الجدول أن فرنسا أخذت 300.000 فرنك لقتلاها الثلاثة ليوم 30 يوليوز 1907، وكذلك إيطاليا، أما إسبانيا فتسلمت 500.000 فرنك.

وهذا يعني أن عدد قتلى الإسبان بلغ خمسة أشخاص. وبالفعل فزيادة على الثلاثة الذين قتلوا من بين العمال، وجد أحد الخبازين الإسبان مقتولا في فرنه خلال الأحداث ولا نعلم هوية القتيل الخامس ولا كيف قتل.

أما بالنسبة للبرتغال وهولندا، فيظهر أن تعويض المحمي القتيل، كان نصف تعويض القتيل الأجنبي أي 50.000 فرنك بدل 100.000 فرنك.

والجدير بالذكر، أن التعويضات التي فرض على المغرب أداؤها، لم تقف عند حد تعويضات الدار البيضاء، بل فرض عليه كذلك أداء مصاريف التدخل العسكري الفرنسي والإسباني. ومصاريف عمليات الإحتلال ببلاد الشاوية. وقد حصر الفرنسيون تلك المصاريف في 70 مليون فرنك (21). وهو قدر بولغ في تحديده لعرقلة عملية الجلاء التي طالب بها مولاي عبد الحفيظ(22).

مسألة الجلاء عن الشاوية

- مشروع الجلاء المتفق عليه بفاس 14 مارس 1909

بعد الإعتراف الدولي بمولاي عبد الحفيظ، ذهب رينيو في سفارة لفاس بهدف الحصول على موافقة السلطان على صيغة للتعاون مع فرنسا، تحافظ على

الامتيازات الفرنسية وعلى استمرار الاحتلال الفرنسي للشاوية ووجدة وبني يزناسن. وصلت السفارة لفاس في 31 يناير 1909، واستمرت المحادثات إلى 25 مارس 1909. وقد نوقشت المشاكل المختلف عليها، وهي قضية احتلال الشاوية والحدود وما يتعلق بها من مسائل مالية. وسنقتصر على توضيح ما تعلق بالموضوع الأول

لقد طالب مولاي عبد الحفيظ بالجلاء التام والشامل لقوات الإحتلال عن الشاوية ووجدة والحدود، كشرط مسبق لكل تعاون مع فرنسا. أما رينيو فقد اقترح أن يحدث جلاء مرحلي عن الشاوية، بحيث تجلو القوات الفرنسية عن المراكز المتقدمة بالقبائل، وتحل محلها قوات المخزن، وفي مرحلة ثانية تجلو القوات الفرنسية عن الشاوية وتخيم بالدار البيضاء. كما اشترط استخدام قوات "الگوم"، التي نظمها الفرنسيون بالشاوية، وكان عددها يبلغ 1200 رجل، من طرف المخزن مع إبقائها تحت أمر ضباط فرنسيين.

رفض مولاي عبد الحفيظ هذا الاقتراح، وطالب بالجلاء التام، عن الشاوية والدار البيضاء معا، لأنهما كل لا يتجزأ، وتعهد بضمان الأمن بوسائله الخاصة متى جلت القوات المحتلة. كما طرحت قضية القواد العاملين في ظل الإحتلال حيث تعهد السلطان بإبقائهم في وظائفهم ما دامت سيرتهم محمودة.

ونوقشت مسألة التعويضات، حيث قبل السلطان مبدأ أدائها. كما قبل مبدأ جباية الذعيرة التي فرضها المحتلون على قبائل الشاوية، وقدرها 2.500.000 فرنك، وتخصيصها لإصلاح ميناء الدار البيضاء. لكنه طالب في الوقت نفسه بضرورة أداء المحميين والمخالطين للفرنسيين ما يجب عليهم في الذعيرة المذكورة، وأن تكون الجباية على يد أمناء المخزن(23).

وخلال هذه المباحثات، ألح السلطان على ضرورة تعيين خليفة عنه بالدار البيضاء بدلا من مولاي الأمين الذي طالب رينيو بمعاملته معاملة حسنة. وبالفعل، عين محمد الأمراني، خليفة مولاي عبد الحفيظ ـ كما أشرنا سابقا ـ وعين محمد الشاوي البخاري عاملا على المدينة(24).

ومن المطالب التي ألح عليها السلطان، طلب حيازة المخزن للمنشآت التي أحدثها جيش الإحتلال، مع إدخال تعويضاتها ضمن التعويضات الحربية التي حددت في 70 م فرنك حسبما أشرنا لذلك.

وقد حصل اتفاق بين الطرفين على مشروع للجلاء في 14 مارس 1909، يتكون من 9 فصول، تتناول المسائل السابقة (25). لكنه لم ينص على الجلاء عن الدار البيضاء، الأمر الذي أصر عليه السلطان، وأدى إلى فشل سفارة رينيو لفاس سنة 1909. كما اختلفت وجهات نظر الطرفين حول المسألة المالية فقد أثار الجانب الفرنسي مسألة ديون المخزن السابق التي تصل إلى حوالي 80 م فرنك ثم مسألة تعويضات الدار البيضاء، والتعويضات الحربية المتعلقة بمصاريف الإحتلال الفرنسي والإسباني. وقد اتفقت وجهات نظر الجانبين على ضرورة حصول المغرب على قرض هام لتصفية تلك الديون. وصرح رينيو للسلطان بأن فرنسا لن تطالب بتوثيقات فيما يخص الديون الحربية.

والملاحظ، أنه إذا كان مولاي عبد الحفيظ ينتظر من ذلك القرض أن يكون وسيلة لحل مشاكل الديون الخارجية، ويحرره من قبضة الدائنين ومراقبة الفرنسيين. فإن هؤلاء كانوا يخططون ليكون الإقتراض الجديد سبيلا لفرض المراقبة الشاملة على المخزن، عن طريق الإستيلاء على ما تبقى من مصادر دخله، أي مداخيل المستفادات بالمواني و 40٪ الفاضلة من مداخيل الجمارك بها، عن طريق توثيقها في الدين المنتظر، وفرض المراقبة الفرنسية عليها. وكان الفرنسيون يخططون كذلك، لإدامة احتلالهم للشاوية باستخدام الورقة المالية، مادام المغرب لن يقدر بمفرده على أداء تعويضات التدخل الفرنسي.

إن هذا الإختلاف في وجهات النظر، نتيجة لإختلاف الأهداف، هو الذي أدى إلى فشل سفارة رينيو لفاس في 1909

فقد ألح السلطان على ضرورة الجلاء عن الشاوية وعن المناطق المحتلة الأخرى، أما السفير الفرنسي فقد شدد بدوره على ضرورة أن يأخذ المخزن بعين الإعتبار أداء التعويضات الحربية قبل الجلاء(26). أي أن الفرنسيين وضعوا السلطان أمام الأمر الواقع فلكي يطالب بالجلاء التام، عليه أن يؤدي فاتورة التدخل الفرنسي. وبما أنه لا يستطيع، فعليه أن يتساهل ويقبل نصائح الحكومة الفرنسية ومساعدتها أي شروط المحتلين.

أمام هذا المنطق، الذي بانت من خلاله النوايا الحقيقية للطرف الفرنسي، شدد السلطان من مطالبه، فأكد على ضرورة تحديد وقت للجلاء قبل حصول أي اتفاق بين الجانبين. كما أكد على ضرورة الإعتراف بأن الشاوية والدارالبيضاء يكونان شيئا واحدا (27). ولذلك فتطبيق مشروع الإتفاق المذكور حول الشاوية،

يخضع للجلاء عن الدار البيضاء. ونظرا لهذا الموقف الواضح ورغبة في إبقاء حبل الإتصال بين الجانبين، لتسوية الخلافات، اتفق الطرفان على إضافة فصل وحيد، وهو الفصل العاشر وهذا نصه

"إن الإتفاق أعلاه، الذي حصل في موضوع الجلاء عن الشاوية يتكون من 9 فصول، لن يكون نهائيا ويصبح قابلا للتنفيذ إلا إذا عقد اتفاق بباريز في موضوع الجلاء عن الدار البيضاء. وسيتفاوض على هذا الإتفاق الأخير بباريز، بين السفارة المغربية والحكومة الفرنسية. في هذه الشروط إذا لم تحصل تسوية حول مسألة الجلاء عن الدار البيضاء فإن الإتفاق أعلاه الذي عقد حول موضوع الشاوية يكون لاغيا" (28).

هكذا فشلت مهمة رينيو بفاس، أمام أصرار مولاي عبد الحفيظ على الجلاء التام عن الشاوية كلها بما فيها الدار البيضاء، وعلى الجلاء عن المناطق المحتلة بالحدود كوجدة وبني يزناسن.

ويجب علينا أن نلاحظ، أن الفصل العاشر المذكور، إذا كان قد أكد إصرار السلطان على جلاء القوات المحتلة فإن قبوله، مثل - في نظرنا - انتصارا للجانب الفرنسي على المدى البعيد إن تأخير الإتفاق حول الجلاء عن الشاوية، وربطه بذهاب سفارة مغربية لباريز، معناه نقل المفاوضات إلى أيدي الحكومة الفرنسية وإبعادها عن فاس، وآنذاك يستطيع أقطاب السياسة الإستعمارية، أن يوجهوا المفاوضات ويماطلوا إلى ما لا نهاية له، ويفرضوا الشروط التي توافق مطامعهم. وهذا ما حصل للسفارة المغربية التي ترأسها المقري إلى باريز في صيف 1909 (29).

مفاوضات المقري بباريز يونيو 1909-1911

ليس في نيتنا أن نتتبع بالتحليل، كل أطوار المفاوضات التي دارت بين السفارة المغربية وبين الحكومة الفرنسية. لأن ذلك موضوع يهم العلاقات المغربية الفرنسية بصفة عامة. لكننا رأينا من المفيد، أن نشير إلى أن قضية الشاوية كانت إحدى المسائل الشائكة في تلك المفاوضات. وأدى الإصرار المبدئي للمغاربة على تحرير الدار البيضاء والشاوية إلى وصول تلك المفاوضات أحيانا إلى حد القطيعة، لولا حرص الفرنسيين على احتواء الأزمة حتى هيأت الظروف الداخلية للمغرب الفرصة المناسبة لفرض الشروط الفرنسية. لقد شغل الفرنسيون السفارة المغربية مدة طويلة. وتراجعوا بباريز حتى عن مشروع اتفاق 14 مارس 1909، وعدلوا بعض نقطه لصالحهم.

والحاصل أن الجانب المغربي الذي حاول الحصول على تعهد بالجلاء عن الشاوية والدار البيضاء، وجد نفسه في مواجهة رفض تام من الجانب الفرنسي، بحجة أن الجلاء غير ممكن إلا إذا حلت المسائل المالية أولا.

ولما لم يتمكن الفرنسيون من إقناع المفاوضين المغاربة، التجأ الفرنسيون إلى الضغط، حيث قدموا للسفارة المغربية، مذكرة 14 غشت 1909، التي تضمنت شروطا مسبقة على أساسها ينبغي أن تسير المفاوضات. ومن هذه الشروط(30)

1. ربط الجلاء عن الشاوية بتكوين قوة مغربية، تستطيع المحافظة على الأمن، زيادة على قوة الگوم، التي ينبغي أن تظل مؤطرة بضباط فرنسيين.
2. ربط الجلاء عن الدار البيضاء، بأداء المغرب للتعويضات الحربية.
3. تنفيذ الفصل (60) من ميثاق الجزيرة.
4. إيقاف أعمال المقاومة بشنقيط والصحراء والتخلي عن مساعدة ماء العينين.
5. رد ديون المخزن بشروط تهدف إلى بسط الهيمنة الفرنسية على المغرب ومنها توثيق جميع أملاك المخزن بالموانئ زيادة على 40٪ الباقية من الجمارك في القرض المقترح.

تحفظ المقري من هذه المذكرة، أما السلطان فلم يقبل الشروط المقدمة، لكنه اقترح تخصيص مداخيل الدارالبيضاء لأداء التعويضات الحربية، وتوثيق 30٪ فقط من مداخيل الجمارك، وإبقاء 10٪ منها لحاجيات المخزن.

لم يرض جواب السلطان الفرنسيين، فقدموا له مذكرة جديدة يصرون فيها على شروطهم، ويبدون بعض التساهل حيث اقترحوا تأجيل بداية دفع التعويضات الحربية لمدة خمس سنوات (31). وقد مارس الفرنسيون ضغوطا دبلوماسية، على السلطان، كما شنت الصحافة الباريزية الموالية للحزب الإستعماري حملة مسعورة ضد شخص السلطان. فأشاعت الإشاعات حول مزاجه، وتعاطيه للمخدرات، وقساوة العقاب الذي نال بوحمارة وأتباعه. وقد أصابت هذه الحملة أهدافها إذ أحدثت حول مولاي عبد الحفيظ فراغا دبلوماسيا، برز في رفض الحكومة البريطانية استقبال سفير مغربي بلندن(32).

إتفاق 15 يناير 1910 حول الشاوية

ووسط هذه الضغوط، والتهديدات الفرنسية، وافق المقري على اتفاق 15 يناير حول الشاوية. والملاحظ أن هذا الإتفاق أعاد فصول مشروع اتفاق فاس 14

مارس 1909، الذي أشرنا إليه. إلا أن تعديلات قد لحقت بعض الفصول لصالح الإحتلال الفرنسي، الأمر الذي يعتبر تراجعا، عما حصل عليه المغاربة أثناء محادثات فاس(33). إلا أن الإتفاق الجديد حول جلاء الفرنسيين عن الشاوية، تضمن فصلا عاشرا، تعترف فيه فرنسا بأن الدار البيضاء جزء لا يتجزأ من المملكة المغربية، وأنها لا تنوي احتلالها احتلالا مؤبدا. وستسحب جيشها منها متى حكمت بأن المخزن قادر على حفظ الأمن، ولما تتوصل بالترضيات الكافية فيما يتعلق

- بالخسائر الحربية.
- بتعويض خسائر حادثة الدار البيضاء.
- أن يمنع المخزن الصحراويين من محاربة فرنسا في شنقيط ويمنع تهريب الأسلحة لماء العينين.
- تنفيذ الفصل (60) من ميثاق الجزيرة.

وإذا كان هذا الإتفاق، الذي قبلته السفارة المغربية بباريز لا ينص على جلاء القوات الفرنسية حالا من الشاوية والدار البيضاء فإنه مع ذلك. لم يعجب الأوساط الإستعمارية التي هددت السلطان باستعمال القوة، وأنذرته في 18 فبراير 1910(34). بضرورة المصادقة على الإتفاق، وإعطاء التفويض التام لسفيره المقري بباريز، ليقبل شروط الإتفاق المالي المقترح، ويسرح "جميع الأتراك الذين هم مستخدمون" بصفة مدربين لأن وجودهم لا يناسب ما للبعثة العسكرية الفرنسية "من الإعتبار"(35).

لقد كان الهدف من هذا الإنذار، هو إخضاع مولاي عبد الحفيظ نهائيا للشروط الفرنسية، في وقت اشتدت فيه مشاكل السلطان الداخلية وازدادت أزمته المالية حدة(36). وأمام هذا الضغط قبل السلطان جميع الشروط التي وردت في الإنذار حسبما يفهم من رسالة لوزير الخارجية، عيسى بن عمر، بعثها للمفوض الفرنسي(37).

وفي 4 مارس 1910 تم التصديق على الإتفاق الخاص بالشاوية وعلى الاتفاق الملحق به المتعلق بالحدود الشرقية. كما توصل الطرفان، الفرنسي والمغربي، في 21 مارس، إلى عقد اتفاقية مالية لحل مسألة الديون، ومسألة التعويضات الحربية(38).

هوامش الفصل الخامس عشر

1)- عبد الهادي المكناسي، غنية الإنجاد في مسائل الجهاد، م خ ح، ص 79-82.

2)- ابن الأعرج السليماني، زبدة التاريخ، م س، جـ 2، ص 371.

Martin, quatre siècle d'histoire marocaine, PP. 485 - 487.

3)- أنظر تقرير فاريو Fariau قائد البعثة العسكرية، الذي شارك في المعركة

A.E.P. Maroc NS, 195, PP. 172 _ 207 cf. d'Amade, op. cit, p; 182.

4) - A.E.D. Maroc Ns, 196, P. 207, 28-11-1908.

Martin, op. cit., P. 497.

5)- عن هذه المحاولة الفاشلة تراجع وثائق الخزانة الحسنية لسنة 1908 وكذلك وثائق الخارجية الفرنسية

A.E.P. Maroc NS, 198. p. 135 et 196.

حيث توجد صور لرسائل وجهت من بعض القواد إلى مولاي امحمد. ورسائل من الدكتور المشرف على المحاولة إلى وزارة الخارجية.

6) - Revue des questions diplomatiques et coloniales, 1909, P. 148 et PP. 270 - 271.

Martin, op. cit. P. 500.

7)- بهذا الصدد ننبه إلى علاقة مولاي عبد الحفيظ، بالشيخ محمد بن عبد الكبير الكتاني، ثم مع القبائل المجاورة لفاس. راجع و خ ح لسنوات 1909-1911. ومحمد الباقر الكتاني.

8)- عن حادثة الأسكندرية سنة 1882 ونتائجها يراجع عبد الرحمان الرافعي، تاريخ الثورة العرابية والإحتلال الإنجليزي، القاهرة 1966.

9) -

A.F., 1907, pp. 319 - 320.

D.D.F. Aff. M. III, P. 402, N 529 et p. 403, N° 532.

10) - محمد الطريس إلى مولاي عبد العزيز، 23 شعبان 1325 / 1 أكتوبر 1907. ك.خ.ع 2720.

11)- أنظر الظهير المؤسس في وثائق تطوان، 21 / 72 بدون تاريخ، الذي ورد في مقدمته، أنه اقترح من طرف نائبي فرنسا وإسبانيا بتاريخ 15 أبريل 1908.

12)- ك خ ح 568. قارن كذلك الجدول رقم 5.

13)-
D.D.F. Aff. M. 1901910, Pichon à Saint-Aulaire, Janvier 1909.

14)-
J.C. Allain, "Joseph Caillaux et la Seconde crise marocaine", op. cit. T. 2, P. 887.

15)- Ibid, P. 885.

16)- Ibid. P. 887.

17)- Ibid. P. 885.

18)- عن أسماء الأشخاص والمؤسسات التي قدمت لوائح اللجنة

A.E.P. NS Maroc, 316, pp. 106 - 109.

وعن المطالب التي قدمت للجنة والجلسات التي عقدتها

F.O. 881/9793, pp. 55-80.

وعن مقادير التعويضات التي سلمت للدول المعنية: ك خ ح، 568.

J.C. Allain ; op. cit. P. 885-887.

19) - محمد الأمراني لمولاي عبد الحفيظ، 19 جمادى الثانية 1327 / 8 يوليوز 1909 و.خ.ح.

20)- A.G.V. 3 H 87, Doss 89.

21)- A.E.P. NS M., T. 314, P. 82, 5 Mars 1909.

راجع كذلك كناش خ ح، 606.

22)- Revue des questions diplomatiques et coloniales, 1909, pp. 45-46.

23)- عن محادثات رينيو بفاس أنظر

F. Ch. Roux et J. Caille, Missions Diplomatiques Françaises à Fès, pp. 200-209.

24)- رسالة من محمد الشاوي البخاري إلى الحاجب أحمد بن امبارك يخبره بوصوله للدار البيضاء، 19 صفر 1327 موافق 12 مارس 1909، و خ ح

25)- أنظر أسفله، ص (430) وكذلك وثائق العهد الحفيظي

26)- F. ch. Roux, op. cit. P. 203.

27)- Ibid, PP. 203-206. Martin, op. cit. pp. 501-502.

28)- A.G.V., 3 H 63. dossier 139.

29) - عن سفارة المقري ومفاوضاته بباريز تراجع، و خ ح سنوات 1909-1911. وكذلك

A.E.P. NS Maroc, T. 200-207 et T. 374 et suite

30) - Dupuys, op. cit. pp. 164 - 166.

J.C. Allain, Joseph Caillaux, pp. 763 - 764.

31) - id. pp. 773 et suite.

32) - و خ ح، مراسلات المقري.

33) - عن اتفاق باريز 15 يناير 1910، أنظر كناش خ ح رقم 606 وكذلك و خ ح.

34) - رينيو لعيسى بن عمر العبدي، 18 فبراير 1910، و خ ح.

35) - في إطار جهوده لمواجهة مشاكل الإحتلال الفرنسي، استقدم مولاي عبد الحفيظ بعض المدربين الأتراك. لكن الفرنسيين لم يعجبهم ذلك. فساءت علاقات السلطان بالبعثة العسكرية الفرنسية، التي كان قائدها يريد أن تكون كلمته هي المسموعة في تنظيم وتدريب الجيش المغربي، ولمحاصرة السلطان فقد أنذره الفرنسيون بتسريح الضباط الأتراك والإقتصار على الإستعانة بالبعثة العسكرية الفرنسية.

36) - هذا هو دافع الإنذار، زيادة على حنق رينيو Regnault الدفين تجاه سلطان الجهاد، الذي تمكن من الحصول على الإعتراف الدولي، وكان رينيو من محبذي القيام بعمل عسكري ضد مولاي عبد الحفيظ منذ البداية.

37) - عيسى بن عمر العبدي إلى رينيو، 13 صفر 1328 / 24 فبراير 1910، و خ ح.

38) - أنظر هذه الإتفاقيات في ك خ ح. 606.

إن الإستنفار الذي عم المغاربة، في هذا الإبان، ضد الغزاة الذين داهموا بلاد المغرب، والفورة التي أصابت القلوب والنفوس، والغضب الذي نغر الصدور من المخزن العزيزي، إن ذلك الإستنفار، هو الذي وحد مواقف الشعب، بادية وحاضرة. وهذا الإتحاد، هو الذي حمل خليفة السلطان بمراكش، مولاي عبد الحفيظ، إلى أريكة الملك، ليتزعم الجهاد من أجل طرد المحتلين والنهوض بالبلاد.

وقد كان لإعلان مولاي عبد الحفيظ للجهاد، ودعوته إلى مساعدة قبائل الشاوية، أثر معنوي فعال في دفع عملية المقاومة ضد الفرنسيين. كما أن مساعدته العملية مكنت أهل الشاوية من توجيه طعنات شديدة لقوات تفوقهم تسليحا وتنظيما.

كان من المنتظر، أن يستغل سلطان الجهاد صمود الشاوية العجيب في وجه الإحتلال، ليسير في التعاون مع الإرادة الشعبية إلى نهاية المطاف، لكن مولاي عبد الحفيظ، كان مقتنعا منذ البداية بالسير وفق الشروط الدولية، وهذا ما دفعه إلى البحث عن حل سياسي للأزمة فانتهى به الأمر إلى الدخول في دوامة الإتفاقيات الدبلوماسية التي انتهت به إلى السقوط في قبضة الفرنسيين.

إن طريق استنفار الشعب للدفاع عن بلاده، الذي سلكه مولاي عبد الحفيظ في البداية كان يعني قطيعة واضحة، مع محاولات مولاي عبد العزيز لردع العدو بالتخلي له شيئا فشيئا عن الأرض. أما وقد انتهى سلطان الجهاد إلى اعتناق ما كان قد عابه على سلفه، فيحق لأتباعه وللقبائل أن تختار السبيل الذي يمكنها من مواجهة تجدد زحف العدو على عدة واجهات

فلقد أخذ جيش الإحتلال الفرنسي بالشاوية يتأهب منذ 1910 لغزو زعير. وبشروع قوات الجنرال Moinicr في الزحف نحو فاس سنة 1911، تقرر مصير احتلال المغرب وضمنه احتلال الشاوية.

خاتمة واستنتاجات

إن الملاحظ المتتبع لتطور ردود فعل المجتمع المغربي تجاه التدخل الأوربي، خلال القرن التاسع عشر، وخاصة منذ بداية القرن العشرين، سيجد من التنكر للحقيقة إذا لم يشر إلى الروح الجماعية التي كانت تحرك المغاربة. وتحفزهم للدفاع عن الأرض والدين أي عن الوطن.

ومن خلال تتبع أحداث الضغط الأوربي، وبالخصوص الحوادث التي ارتبطت بالأطماع الإستعمارية الفرنسية يمكن للمرء أن يستشف القلق العام، من تدهور الأوضاع الداخلية بالمغرب، ومن تزايد الضغط الأجنبي واتساع حجم الإستغلال الرأسمالي.

والجدير بالذكر أن موت أحمد بن موسى، كان علامة بارزة في مسار التطور الذي أشرنا إليه. إذ تسارعت عجلة التدخل الفرنسي في البلاد، كما تسارعت عجلة الأزمة الإجتماعية الداخلية التي لا يمكن قياس حركتها بدون معرفة الدفع الخارجي.

إن استمرار انتفاضة الجيلالي الزرهوني، إذا أبانت عن عجز المخزن عن قمعها، فإنه نبه المغاربة، على المستويين الرسمي والشعبي، إلى خطر الأطماع الأجنبية، الذي بدأ يتربص بالبلاد ودفعهم إلى مضاعفة الجهود، للحفاظ على التماسك، ومقاومة عوامل التفكيك، وأطماع التوسع الإستعماري، التي تأكدت بعد إعلان ميثاق الجزيرة.

وقد تأكد لنا، كيف أن الصراع بين المقاومة الشعبية والأطماع الرأسمالية، قد اتضح في المناطق المجاورة للموانئ منذ وقت مبكر. كما تأكد لنا بأن قبائل

الشاوية كانت في مقدمة الأقاليم المغربية التي تعرضت لاستغلال الرأسمال الأجنبي. وإذا كان التجار الأجانب قد استفادوا من وسائط ناجعة، كالحماية والمخالطة، لينهبوا خيرات المنطقة ويزاحموا سكان الشاوية، في تملك الأرض وقطعان البهائم، فإن ردود الفعل الشعبية كانت في مستوى التحدي لقد تحركت الجموع وراء زعماء شعبيين، ظلوا مرتبطين بالجماعة ومحافظين على مثل التضامن والتعاضد. وبدأت بتصفية حساباتها مع سلطة القواد المستبدين، وبتصفية تلك السلطة، فقد التجار والسماسرة الحماية لعملياتهم الإستغلالية وتعرضوا بدورهم للقصاص.

لقد كان إذن، لانتفاضة الشاوية في المرحلة الأولى دوافع مادية واجتماعية بالدرجة الأولى، وكانت لها أهداف "سياسية" تتلخص في التحرر من قبضة المستغلين. ومعنى هذا أن تلك الإنتفاضة لم تكن "سيبة كبرى" كما توهم البعض، ولا فوضى عمياء كما ظن المؤلفون الأجانب. لأن القبائل المنتفضة لم تفقد صلتها أبدا بالمخزن المركزي، ولأن الجموع المنتفضة هي التي تحركت لإيقاف الأطماع الفرنسية لما تجسمت في مشاريع استغلالية بالدار البيضاء.

كما تبين، أن انتفاضة الشاوية كانت انتفاضة شعبية، ولصالح الجماعة، ولم تكن صراعا نخبويا على السلطة والنفوذ. ذلك أن النخبة إذا لم تتحرك وسط التيار، فإنها تطرح على الهامش.

ويجدر التنبيه إلى التطور الذي حدث في ردود الفعل الشعبية بالشاوية بعد مؤتمر 1906، واحتلال وجدة 1907. فإذا عرف المغرب كله هياجا شعبيا واستنكارا للاحتلال الأجنبي، فإن الشاوية بدأت تتحفز للانقضاض على مركز الشر بالمدينة، وتعالت الدعوات إلى الجهاد، لإبعاد الطامعين عن مدينة الدار البيضاء.

وواضح أن التطورات التي أشرنا إليها، هي التي ينبغي أن يبحث فيها عن دوافع ما حدث في 30 يوليوز 1907 بالدار البيضاء. أما اختلاق الأساطير المرتبطة "بتعصب" المغاربة أو "كراهيتهم" للأجانب، فلم تعد سوى ادعاءات لا أساس لها ولا سند من الواقع.

إن احتلال وجدة إذا أثر كثيرا في المغاربة، فإنه مع ذلك لم يدفع المخزن المغربي إلى الإرتماء في أحضان المحتلين. لقد حاول السلطان مولاي عبد العزيز أن يبحث عن صيغة سياسية لحصر التوغل الفرنسي والحصول على الجلاء. لكن

الجانب المحتل بدّل شروط المواجهة بهدف تليين مواقف المخزن وإخضاعه نهائيا. إن هذا التفكير هو الذي جعل أقطاب الإستعمار يرتبون "السناريو" الذي أخرج وقائع القنبلة والنزول الفرنسي بالدارالبيضاء في غشت 1907.

كان من اللازم إزالة ستار التحريف السميك الذي ضرب حول حادثة الدار البيضاء. وأصبحنا على علم تام بأن حادثة القنبلة والإنزال التي تعرضت لها المدينة بين 5 و 7 غشت 1907 ليست هي حادث 30 يوليوز، الذي قتل فيه ثلاثة عمال إيطاليين وثلاثة إسبانيين وثلاثة فرنسيين. وقد بات مؤكدا كذلك، أن حملة الشاوية التي هيأتها الحكومة الفرنسية، إثر الحادث المذكور، كانت عملية استعمارية اقتبست كل ما تميزت به مثيلاتها من وحشية وعنف، وتوسل أبطالها لتمريرها وتبريرها أمام الرأي العام بكثير من الكذب والخداع والمكر.

وإذا وضعت الكارثة المخزن أمام الأمر الواقع، فلم يجد مهربا من الإستمرار في "سياسة الدفاع"، أو الدفاع السياسي في الواقع، فإن الشعب بالشاوية رفض الخضوع لمنطق القوة واندفع لمواجهة الغزاة.

لقد أظهرت عمليات المقاومة الأولى، والمعارك التي خاضتها قبائل الشاوية ومن انضم إليها من المجاهدين، الطاقة الهائلة التي ولدتها حمية الجهاد وحماس الدفاع عن الوطن. وأمكن للمرء أن يكشف السر من وراء ذلك الصمود العجيب، الذي أفشلت بواسطته المقاومة الشعبية بالشاوية، سياسة الخداع الإستعمارية، وجعلت المحتلين يدفعون بمزيد من القوات للميدان، الأمر الذي كشف اللعبة وجعل من حملة الشاوية حربا احتلالية كريهة، استنكرها الرأي العام على نطاق واسع.

كان لجهاد الشاوية الذي خرج من الإهمال، أصداء تجاوبت معها سهول المغرب وجباله وصحراؤه. فجاء مجاهدون للمرابطة على أبواب الدار البيضاء، من تافيلالت ومن الجنوب ومن الأطلس المتوسط، زيادة على مساهمة القبائل المجاورة. وهكذا كانت مقاومة الشاوية، مقاومة وطنية عامة للتدخل الأجنبي في بلاد المغرب، ولم تكن مدفوعة برغبات فردية أو مرتبطة بمصالح معينة.

ولقد بارك جهاد الشاوية وزاده حماسا، تشجيعات النخبة الوطنية المتعلمة، من علماء وسياسيين ورجال دين. وفي هذا التجاوب الوطني ينبغي للمرء أن يلتمس بعض الدوافع والحوافز الأولى للتيار الوطني الدستوري الحديث بالمغرب.

إن الإستنفار الذي عم المغاربة، في هذا الإبان، ضد الغزاة الذين داهموا بلاد المغرب، والفورة التي أصابت القلوب والنفوس، والغضب الذي نغر الصدور من المخزن العزيزي، إن ذلك الإستنفار، هو الذي وحد مواقف الشعب، بادية وحاضرة. وهذا الإتحاد، هو الذي حمل خليفة السلطان بمراكش، مولاي عبد الحفيظ، إلى أريكة الملك، ليتزعم الجهاد من أجل طرد المحتلين والنهوض بالبلاد.

وقد كان لإعلان مولاي عبد الحفيظ للجهاد، ودعوته إلى مساعدة قبائل الشاوية، أثر معنوي فعال في دفع عملية المقاومة ضد الفرنسيين. كما أن مساعدته العملية مكنت أهل الشاوية من توجيه طعنات شديدة لقوات تفوقهم تسليحا وتنظيما.

كان من المنتظر، أن يستغل سلطان الجهاد صمود الشاوية العجيب في وجه الإحتلال، ليسير في التعاون مع الإرادة الشعبية إلى نهاية المطاف، لكن مولاي عبد الحفيظ، كان مقتنعا منذ البداية بالسير وفق الشروط الدولية، وهذا ما دفعه إلى البحث عن حل سياسي للأزمة فانتهى به الأمر إلى الدخول في دوامة الإتفاقيات الدبلوماسية التي انتهت به إلى السقوط في قبضة الفرنسيين.

إن طريق استنفار الشعب للدفاع عن بلاده، الذي سلكه مولاي عبد الحفيظ في البداية كان يعني قطيعة واضحة، مع محاولات مولاي عبد العزيز لردع العدو بالتخلي له شيئا فشيئا عن الأرض. أما وقد انتهى سلطان الجهاد إلى اعتناق ما كان قد عابه على سلفه، فيحق لأتباعه وللقبائل أن تختار السبيل الذي يمكنها من مواجهة تجدد زحف العدو على عدة واجهات

فلقد أخذ جيش الإحتلال الفرنسي بالشاوية يتأهب منذ 1910 لغزو زعير. وبشروع قوات الجنرال Moinicr في الزحف نحو فاس سنة 1911، تقرر مصير احتلال المغرب وضمنه احتلال الشاوية.

المصادر

أولا الوثائق المغربية

1. **وثائق الخزانة الحسنية بالرباط** تحتوي هذه الخزانة على رصيد هام من الوثائق المخزنية، وقد تمكنا من البحث في الوثائق التي تهم عهد مولاي الحسن، حيث عثرنا على مآت الرسائل المتبادلة بين قواد الشاوية والمخزن. كما استفدنا جزئيا من الوثائق التي تهم العهدين العزيزي والحفيظي، والتي تتعلق بالتطور الإقتصادي لميناء الدار البيضاء والشاوية. وعلاقة ذلك التطور بالتدخل الأجنبي من جهة وبالمخزن من جهة أخرى.

2. **كنانيش الخزانة الحسنية** راجعنا كل الكنانيش التي تهم الشاوية ومرسى الدار البيضاء، وعلاقات المغرب مع فرنسا، وتحتوي الكنانيش المشار إليها، على نصوص الرسائل المتبادلة مع المخزن، أو قوائم المستفادات والخرص والترتيب، أو نصوص المعاهدات، والرسائل المتبادلة مع سفراء الدول الأجنبية. وأهم الكنانيش التي راجعنا

رقم الكناش	موضوعه	السنة
22	"أملاك المخزن بالدار البيضاء ومدن أخرى"	1296 هـ
151	"أمناء وأشياخ قبائل عديدة كالشاوية"	1306
160	"الحركة في قبيلة الشاوية والغرب"	1306-1310
178	"مستفادات مرسى الدار البيضاء"	1308 - 9
180	"خرص أولاد حريز والمذاكرة وأولاد علي"	1908 - 9

رقم	الكناش	موضوعه	السنة
234		"شؤون الحركة السعيدة من مراكش إلى فاس"	5 - 1314
246		"بلادات أحمد بن البهلول المراحي" بالشاوية	1319
258		"مستفادات مرسى الدار البيضاء"	1319
365		"خرص إيالة الحمدوي ـ الخزاري ـ العريفي"	1302
397		"مستفادات مرسى الدار البيضاء"	8 - 1307
400		"مستفادات مرسى الدار البيضاء"	1308 - 1310
635		"المكاتيب الصادرة عن السلطان إلى جهات مختلفة"	1314
404		"ضوابط وتقاييد مختلفة (الشياظمة، دكالة، الشاوية)	1309 - 1314
405		"خدمة مرسى الدار البيضاء"	1309
412 - 416		"مستفادات مرسى الدار البيضاء"	1311 - 1314
418 - 421			
433		"مستفادات مرسى الدار البيضاء"	6 - 1315
568		"ما دفعه المغرب من ديون وتعويضات، مع تقييد للدعاوي الفرنسية ضد المغاربة"	8 - 1325
606		"تقييد بعض الإتفاقيات المبرمة بين المغرب وفرنسا"	1319 - 1328
684		"مستفادات مرسى الدار البيضاء"	9 - 1318
710		"مستفادات مرسى الدار البيضاء"	1316 - 1326
773		"اتفاقيات مغربية فرنسية"	1319 - 1322
777		"ملخص الجلسات التي انعقدت مع سفير فرنسا 1323 - 1905"	1323/ 1905
820		"مقبوض مستفاد الدار البيضاء	1313 - 1317

3. **وثائق الخزانة العامة بتطوان** يتعلق الأمر بوثائق دار النيابة بطنجة، وخاصة الوثائق التي خلفها النائب الحاج محمد الطريس. وقد بحثنا في المحافظ التي تتعلق بالعهد العزيزي، واستفدنا منها في تتبع علاقة الشاوية بالتدخل الأوربي.

4. **وثائق الخزانة العامة بالرباط** يحتفظ قسم الوثائق بعدة كنانيش وميكروفيلمات تضم مراسلات المخزن، وقد استفدنا من الكنانيش الآتية

"كناش مكاتيب الطابع الشريف" ، د 1695.
"كناش المكاتيب الموجهة للحضرة الشريفة"، ك 2720.
"كناش المكاتيب الموجهة للحضرة الشريفة"، ك 2721.
"ظهائر عزيزية وعلوية"، ميكروفيلم 23.

5. **محفوظات الحاج العربي بن سعيد بسلا** كان والده عبد الله بن سعيد عاملا على سلا، وتولى في الوقت نفسه العمل بدار النيابة كمساعد للنائب الحاج محمد الطريس وقد اشتهر عبد الله بن سعيد بمقاومته للتدخل الفرنسي، ولذلك تحتوي وثائقه على العديد من المراسلات التي تهم العلاقات المغربية الفرنسية خاصة.

6. **وثائق منشورة**

أ "رسائل شريفة" نشرها محمد نهليل سنة 1915، توجد بها عدة رسائل تهم التدخل الفرنسي في المغرب.

ب "اتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس"، 5 أجزاء، نشره عبد الرحمان بن زيدان، 1929-1933، يحتوي هذا الكتاب على عدة رسائل تتعلق خاصة بحادثة الدار البيضاء وهي مثبتة في الجزء الأول منه.

جـ . "الوثائق" وهي مجموعات دورية تصدرها مديرية الوثائق الملكية بإشراف عبد الوهاب بنمنصور مؤرخ المملكة، صدر منها 5 أعداد.

ثانيا الوثائق الفرنسية

1. وثائق المصلحة التاريخية للجيش بقصر "ڤانسين" Vincennes بباريز.

وتنقسم هذه الوثائق إلى قسمين

أ . القسم الأول يهم "وثائق جيش البر"

Archives dc l'armée dc tcrrc. (A.G.V.)

ويحتوي هذا القسم على الجزء الأعظم من المراسلات، والتقارير العسكرية السرية، والبرقيات المتبادلة بين الضباط ووزارة الحربية.

وقد استفدنا من الوثائق التي تهم الفترة الزمنية بين 1908-1911، المرتبة ضمن سلسلة 3II. حيث بحثنا في حوالي 40 صندوقا فالصناديق من 3 H 15 إلى 3 H 22، تحتوي على تقارير ودراسات حول أحوال المغرب في أواخر القرن XIX و بداية القرن XX، ومشاريع احتلال، وحوادث عسكرية.

- 3 H 23 - 3 H 25، برقيات الدار البيضاء، 1907.

- 3 H 58 - 3 H 59، برقيات من وزير الحربية لقائد قوات الإحتلال.

- 3 H 63 3 H 88، تقارير ومراسلات، وبرقيات، حول عمليات الإنزال والإحتلال بالدار البيضاء والشاوية.

- 3 H 314 - 3 H 568 3 H 571، العمليات العسكرية بالشاوية.

ب القسم الثاني "المصلحة التاريخية للبحرية"

"Service Historique de la marine" (A.M.V.)

يحتوي هذا القسم على مراسلات وتقارير ضباط الأسطول الفرنسي، الذي كلف بمراقبة الشواطئ المغربية، ونقل الحملة العسكرية من وهران إلى الدار البيضاء سنة 1907، بقيادة الأميرال فليبير Philibert، كما يحتوي على تقارير قواد السفن التي كانت مكلفة منذ 1906 خاصة، بمراقبة الشواطئ المغربية.

وقد أطلعنا في هذا القسم على معظم التقارير، التي تتعلق بقنبلة الدار البيضاء، والإنزال الفرنسي بها، ومقاومة المغاربة للإنزال، ولقوات الإحتلال والأوضاع الداخلية في المغرب. والملاحظ أن معظم المراسلات كان أصحابها ممن شاركوا في الأحداث المذكورة وتوجد المراسلات المذكورة في المجلدات الآتية

BB4 2502 - 2503 - 2504 - 2505 - 2506 - 2507.
BB4 2602 - 2603 - 2604 - 2605 - 2606 - 2607.

2. محفوظات وزارة الخارجية الفرنسية بباريز

Affaires Etrangères, Paris (A.E.P).

وتحتوي على المراسلات السياسية والتجارية والمالية التي تهم المغرب كما توجد بها رسائل متبادلة مع وزارة الحربية، ولذلك قد نعثر على رسائل وتقارير توجد أصولها بالوثائق العسكرية المذكورة أعلاه.

كما تتوفر المحفوظات المذكورة على مقتطفات وملصقات لمقالات الصحف حول أحداث المغرب ولذلك فهي تفيد في التعرف على مواقف الرأي العام الدولي حول قضايا المغرب.

وقد بحثنا في حوالي 30 مجلدا ضمن السلسلة الجديدة Nouvelle Sèric (N.S) Maroc المتعلقة بالمغرب. والتي تهم الفترة الزمنية بين 1905-1910 وتتناول المواضيع الآتية

العلاقات المغربية الفرنسية (1907)، (11 مجلدا)، العلاقات مع ألمانيا (1908-1904) (مجلدين)، شؤون مالية (7 مجلدات 1905-1910)...

ثالثا وثائق وزارة الخارجية البريطانية : Forcign Office (F.O) وهي محفوظة بـ Publik Rccord Office (P.R.O) (Richmond England)

وقد استفدنا من التقارير القنصلية التي كان يبعثها القنصل عن أحداث الدار البيضاء والشاوية سنة 1907 وخاصة عن حادث 30 يوليوز، وقنبلة المدينة والإنزال الفرنسي، وتوجد التقارير ضمن سلسلة 174/253.

رابعا الرواية الشفاهية

نظرا لمرور أكثر من 7 عقود على احتلال الشاوية، فإننا لم نتمكن من الإستفادة من بعض الروايات المباشرة عن الأحداث. إلا أن أحداث قنبلة الدار البيضاء، وجهاد الشاوية، وتصرفات جنود الإحتلال. ومواقف بعض القواد والأعيان، وعلاقات القبائل فيما بينها، لازالت محفوظة في ذاكرة أبناء الشاوية. وإذا استعنا بالروايات الشفاهية لتصحيح بعض الروايات المكتوبة، فإن ما هو مكتوب هو الذي وجه أحاديثنا مع الناس، وأطلعنا على مدى الخلل الذي يصيب الروايات الشفاهية نتيجة لتقادم الزمن وتداولها بين الرواة وتلوينها بكثير من الخيال.

وقد ترددنا بين 1980-1983 على بعض المراكز بالشاوية، كسطات ويرشيد، ومديونة، والكارة ثم مدينة الدار البيضاء حيث تمكنا من التحدث إلى هؤلاء الرجال:

- الحاج الجيلالي المذكوري، من نوار البليديين، قرب الكارة، ازداد حوالي 1900، وقد حدثنا عن بعض المعارك، وعن أحوال الشاوية قبيل الاحتلال.

- الشيخ محمد ولد بنصالح، ازداد حوالي 1875، يسكن بالكارة، التحق بالشاوية بعد الإحتلال الفرنسي، لذلك فإن ذكرياته عن الأحداث قليلة، لكنه يعرف بعض زعماء الجهاد كالأحمر بن منصور، الذي كان يعمل معه في الزراعة، ويتذكر

أشياء كثيرة عن العملة المغربية وعن أنواع المزروعات التي كانت تنتجها الشاوية في بداية القرن.

ـ بابا علي شيخي، ازداد حوالي 1900، يسكن بالكارة، كان مجندا ضمن كوم الشاوية، يستطيع أن يتحدث عن أحداث تاريخ المغرب وأصول قبائله، ويعرف كثيرا من التفاصيل عن قواد العهد العزيزي، والحفيظي. وإذا كانت ذكرياته غير دقيقة فيما يخص العهود السابقة، فإنه يتذكر تفاصيل كثيرة عن الإحتلال الفرنسي ومقاومة الشاوية وأحداث عهد الحماية.

ـ سيدي المختار الإسماعيلي ازداد حوالي 1915.

يسكن بالكارة، يتذكر تفاصيل كثيرة ودقيقة عن أحداث الإحتلال ومعارك الشاوية، وجهاد قبائلها.

ـ الإدريسي محمد بن زروال، مزداد سنة 1925، يقطن بالكارة له اهتمام بأحداث مقاومة الشاوية، وخاصة المقاومة في الخمسينات إذ كان من بين أعضائها بالمذاكرة.

ـ أحمد أديب البهلولي، ازداد حوالي 1909، يسكن بمدينة سطات، يهتم بأخبار قبائل الشاوية.

ـ الجيلالي السلماني، ازداد حوالي 1900، يقطن بسطات، له اهتمام بالتاريخ، يتذكر أحداث الشاوية زمن الإحتلال ويرويها بكثير من الإنتقاد.

ـ خليفة بن الحاج عيسى، عدل، يسكن ببرشيد، له اهتمام بأخبار قبائل الشاوية ورجالها، ازداد حوالي 1902.

ـ الشيخ الهاشمي المعروفي البيضاوي، ازداد حوالي 1902، يسكن بالدار البيضاء، عدل، يكتب مذكراته عن تاريخ الدار البيضاء.

الحاج أحمد كنوني المذكوري، يسكن بالدار البيضاء له اهتمام كبير بمقاومة الشاوية. وبالمقاومة الوطنية. وهو شاعر كتب العديد من القصائد عن المقاومة وقد قرأ علينا بعضا من شعره، وأطلعنا على مسودة ديوانه "شعر ونضال"

البيبليوغرافيا

أولا المصادر والمراجع المطبوعة والمخطوطة باللغة العربية، وقد اعتمدنا الترتيب الأبجدي المشرقي في ترتيبها وأثبتنا أرقام المخطوطات.

ابن إبراهيم العباس،

"الأعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام"، تحقيق عبد الوهاب ابن منصور، 8 أجزاء، المطبعة الملكية، الرباط، 1977، جـ 3 و 8.

- الحملة الفرنسية على مراكش حين دخلها أحمد الهبة، م خ ع، كـ 320.

ابن أبي زرع، علي "الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبرا ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، الرباط 1972.

ابن الحاج، محمد بن أحمد بن حمدون،

- "الدرر الجوهرية، في مدح الخلافة الحسنية"، م خ ح، جزءان.

"الدرر الأبريزية في المناقب العزيزية"، م خ ح، 4107.

ابن الخطيب، لسان الدين،

"معيار الإختيار في ذكر المعاهد والديار"، تحقيق د. محمد كمال شبانة، مطبعة فضالة، دون تاريخ.

- "أعمال الأعلام فيمن تولى من الملوك قبل الإحتلام"، تحقيق د. محمد المختار العبادي، الدار البيضاء. 1964، جـ 3.

ابن خلدون، عبد الرحمن،

"العبر وديوان المبتدأ والخبر، في أيام العرب والعجم والبربر" 7 أجزاء، دار الكتاب اللبناني، بيروت 1958-1959. جـ 6.

"المقدمة"، دار البيان، بيروت د.ت.

ابن زيدان عبد الرحمان،

- "اتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس"، الرباط، 1929-1932.

"العز والصولة في معالم نظم الدولة"، جزءان المطبعة الملكية، الرباط، 1961-1962.

"الدرر الفاخرة، بمآثر الملوك العلويين بفاس الزاهرة"، المطبعة الإقتصادية، الرباط 1937.

ابن زيدان، عبد الرحمان،
"العلائق السياسية للدولة العلوية"، م خ ح، رقم ز 11774
"ملحق للاتحاف" م خ ح.
ابن سعيد المغربي،
"كتاب بسط الأرض في الطول والعرض"، تحقيق د. خوان خينيس، تطوان 1958.
ابن سودة، عبد السلام بن عبد القادر،
"دليل مؤرخ المغرب الأقصى"، دار الكتاب الدار البيضاء، ط. الثانية، 1965، جزءان.
ابن سودة، العابد،
"سنان القلم لتنبيه وديع كرم"، طبعة حجرية فاس، 1908.
ابن عبود، محمد أحمد،
"مركز الأجانب في المغرب"، الطبعة الثانية، تطوان 1980.
ابن عذارى، محمد،
"البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب"، بيروت 1947.
الأزموري، محمد بن عبد العظيم،
"كتاب الانساب" م خ ع، د 1595.
أعفيف، محمد،
"مساهمة في دراسة التاريخ الإجتماعي والسياسي لواحات الجنوب المغربي، توات في القرن 19" رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ 1982 كلية الآداب بالرباط.
برونصال ليفي،
"مؤرخو الشرفاء" تعريب عبد القادر الخلادي، الرباط، 1977.
البزاز، محمد الأمين،
"المجلس الصحي الدولي بالمغرب، 1792-1927"، رسالة في دبلوم الدراسات العليا، كلية الآداب بالرباط، 25 أبريل 1980 جزءان، (هـ 1).
البزيوي،
"تاريخ دول المغرب الأقصى" م خ ح، كتب 1934.
البكري، عبد الله بن عبد العزيز،
"المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب"، ط. الجزائر 1857.

بلنث الفريد سكاون،
"التاريخ السري لإحتلال إنجلترا مصر"، المركز العربي للبحث والنشر، القاهرة، 1981.
بناني، عبد القادر ،
"تلخيص ما عليه المعول في أخبار من بالمغرب من الدول"، م خ ح ، ز 3 1027.
بناني، عبد الهادي ،
-"الدرر البهية في مدح رجال الشاوية"، قصيدة، ط. حجرية، د.ت. (1328هـ)
بنجلون عبد المجيد ،
-"جولات في مغرب أمس (1901)" مطبعة النجاح، الدار البيضاء، د.ت.
بنمنصور عبد الوهاب،
"قبائل المغرب"، المطبعة الملكية، الرباط 1968.
"مشكلة الحماية القنصلية"
"حفريات صحراوية مغربية"، الرباط، 1975.
التازي، عبد الهادي،
"رسائل مخزنية"، القسم الأول، الرباط دون تاريخ.
"الرموز السرية في المراسلات المغربية عبر التاريخ"، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط 1983.
التقي العلوي،
"أصول المغاربة"، البحث العلمي عدد 33، ص 117-124.
التوزاني، نعيمة،
- "الأمناء بالمغرب في عهد السلطان مولاي الحسن 1290-1311 / 1873-1894" مطبعة فضالة 1979.
التوفيق، أحمد،
"المجتمع المغربي في القرن التاسع عشر، إينولتان 1850-1912" منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الطبعة الأولى، جزءان 1978-1980.
الحجوي، محمد بن الحسن،
"الرحلة الوجدية أو انتحار المغرب على يد ثواره"، م خ ع، حـ 123.
- "تقاييد تاريخية"، م خ ع، حـ 128.
- "اختصار الإبتسام"، م خ ع. حـ 114. ضمن مجموع، ص 355-447.

"الصورة الجمالية في خلاصة تاريخ إفريقيا الشمالية"، م خ ع، ح 257.
"رسالة إلى الجباص"، (شهادة عن انتفاضة الجيش المغربي سنة 1912) خ ع، ح 204.
"الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي"، 4 أجزاء ط. 1921.

الخديمي علال،

"أثر استقرار الأجانب بالدار البيضاء خلال القرن التاسع عشر"، أعمال ندوة الدار البيضاء، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالدار البيضاء، 1982. ص 29-52.
"مجلس الأعيان ومشروع "الإصلاحات" الفرنسية بالمغرب في 1905"، مساهمة في ندوة الإصلاح والمجتمع المغربي في القرن التاسع عشر، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط 1982.
"جوانب من التاريخ الدبلوماسي المغربي
تطور وظيفة النائب السلطاني بطنجة، 1851-1924 (مخطوط)

اخير فارس، محمد،

"المسألة المغربية (1900-1912)"، جامعة الدول العربية معهد الدراسات العربية.

داود، محمد،

"تاريخ تطوان"، تطوان، الرباط 1959-1979. 8 أجزاء.
"مختصر تاريخ تطوان"، الطبعة الثانية، تطوان 1955.

الدكالي سعيد بن عبد الله ،

"التحفة الدكالية إلى الحضرة العلية"، (حول أحوال الدول الأوربية وأحوال المغرب، وتدهور نقده وثغوره وجنده).
ذكره محمد المنوني، يقضة المغرب الحديث ص 280.

الدكالي محمد بن علي،

"الإتحاف الوجيز في أخبار العدوتين لمولاي عبد العزيز"، م خ ع، د. 1320.

دنية محمد ،

"مجالس الإنبساط بشرح تراجم علماء وصلحاء الرباط"، م خ ح 779، الجزء الأول.

الرافعي، عبد الرحمان ،
"تاريخ الثورة العرابية والإحتلال الإنجليزي"، الطبعة الثالثة، القاهرة 1966.
روجرز ب.ح،
"العلاقات الإنجليزية المغربية حتى عام 1900"، ترجمة يونان لبيب رزق، دار الثقافة الدار البيضاء، 1981.
الزياني، أبوالقاسم بن أحمد،
"الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برا وبحرا"، تحقيق عبد الكريم الفيلالي، المحمدية، 1967.
"الترجمان المعرب عن دول المشرق والمغرب"، م خ ع، د 658.
"الروضة السليمانية في ملوك الدولة الإسماعيلية ومن سبقها من الدول الإسلامية"، د 1275. م خ ع.
السباعي، محمد بن إبراهيم ،
"البستان الجامع لكل فن حسن ونوع مستحسن في عد بعض مآثر مولانا الحسن"، م خ ع، د 1346 ص 157-159.
السعداني، هاشم بن أبي بكر،
"قصيدة في مدح المولى عبد الحفيظ" (1326 هـ)، ط. حجرية. ضمن مجموع يضم قصائد عن انتفاضة فاس بداية 1908.
سعيد أمين ،
"ثورات العرب في القرن العشرين"، القاهرة د.ت.
السليماني، محمد بن الأعرج ،
"زبدة التاريخ وزهرة الشماريخ"، انتهى من تأليفه في 1925، مصور الخزانة العامة بالرباط، د 3657، 4 أجزاء جـ 2.
"اللسان المعرب عن تهافت المعمرين حول المغرب"، م خ ح، 297، جزءان.
"اللسان المعرب عن تهافت الأجنبي حول المغرب"، الرباط 1971.
السوسي، عبد السلام ،
"مكشف الأغيار في ذكر فجأة الكفار" أرجوزة ألفت سنة 1911.
السوسي، محمد المختار ،
"المسول"، دون تاريخ، 20 جزء.
"اليغ قديما وحديثا"، إعداد وتحقيق محمد بن عبد الله الروداني، المطبعة الملكية 1966.

الشاذلي، عبد اللطيف ،
"الحركة العياشية"، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط.
الصديقي، محمد بن سعيد ،
"إيقاظ السريرة لتاريخ الصويرة"، الجزء الأول، دار الكتاب الدار البيضاء د.ت.
الصقلي، محمد بن يحيى ،
تنبيه المستبد حيث على جهله يعتمد" ط. حجرية 1910.
الضعيف محمد بن عبد السلام الرباطي ،
"تاريخ" (الدولة العلوية)، م خ ع 758. مخطوط خزانة تطوان رقم د 1706.
عبد الحفيظ (السلطان) ،
- "كتاب في التاريخ" مجموع م خ ح، ز 12160.
"داء العطب قديم"، بدايته موافقة للمجموع المذكور، م خ ح، ز 11400.
"كشف القناع عن اعتقاد طرائف البدع"، م خ ح، 2617.
عبد الرزاق محمود إسماعيل ،
"الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجري"، البيضاء 1976.
"مغربيات"، فاس 1977.
العروي، عبد الله ،
"مجمل تاريخ المغرب"، 1984،.
العزوزي العربي،
"شرح المحاسن والمآثر لرجال الشاوية المشاهير"، مخطوط بحوزة السيد أبي بكر البوخصيبي.
العماري أحمد،
"مشكلة الحدود الشرقية بين المغرب والجزائر، واستغلالها في المخطط الفرنسي للسيطرة على المغرب من حوالي 1830 إلى حوالي 1902، من خلال رحلة على السوسي (منتهى النقول)"، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا، كلية الآداب، الرباط، 1981.
العماري، الحاج الطاهر المراكشي
"نشاط الأذهان وتحفة الإخوان في استنباطات ومناقب مولانا الحسن" م خ ح، رقم 1707.

عمور عمر،
"فهارس الخزانة الحسنية"، فهرس الكنانيش 1983.
الغربي محمد،
"الساقية الحمراء ووادي الذهب"، الجزء الأول، الدار البيضاء د.ت.
غريط محمد،
"فواصل الجمان في أنباء وكتاب الزمان"، الطبعة الأولى، فاس 1346/ 1929.
غلاب عبد الكريم،
"التطور الدستوري والنيابي في المغرب من سنة 1908-1976"، الطبعة الأولى 1978.
عياش جرمان،
"جوانب من الأزمة المالية بالمغرب بعد الغزو الإسباني سنة 1860" معهد الدروس العليا 1959.
الفاسي عبد الحفيظ،
"معجم الشيوخ المسمى رياض الجنة أو المدهش المطرب"، جزءان المطبعة الجديدة فاس 1340/1931.
الفاسي علال،
"حفريات عن الحركة الدستورية في المغرب قبل الحماية(1)"، مطبعة الرسالة، الرباط، دون تاريخ.
"الحركات الإستقلالية في المغرب العربي"، تطوان، دون تاريخ.
القاضي، محمد محمد عمر،
"أسد الريف، محمد عبد الكريم الخطابي"، مذكرات عن حرب الريف، تطوان 1979.
الكتاني، محمد الباقر،
"ترجمة الشيخ محمد الكتاني الشهيد"، ط الأولى 1962.
الكتاني، جعفر بن إدريس،
- "سؤال وجوابه في حكم الإحتماء بالكفار"، م خ ح، ز 12458.
الكتاني، محمد عبد الحي،
"ما وقع للشيخ محمد بن عبد الكبير الكتاني"، م خ ع، ك 3211.
"مفاكهة نوي النبل والإجادة مدير جريدة السعادة"، ط. حجرية فاس 1908.

الكردودي، أحمد بن محمد،
"التحفة السنية للحضرة الحسنية بالمملكة الأصبنيولية"، الرباط 1963
كنوني أحمد المذكوري،
"شعر ونضال" مخطوط المؤلف.
اللجائي عبد السلام،
"المفاخر العلية والدرر السنية في الدولة الحسنية العلوية"، م خ ح، رقم 416، فرغ من كتابته في 1305.
اللحية محمد،
"الحياة الإقتصادية بمدينة مكناس في القرن التاسع عشر"، رسالة في دبلوم الدراسات العليا، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، 1984.
مجهول،
"مراحل رحلات السلطان مولاي الحسن" م خ ح ، ز 12059.
مجهول،
"حركات مولاي الحسن" (نقلا عن الخلطي محمد بن عبد السلام الميقاتي)، مخطوط.
مجهول،
"الدرر اللفظية في المملكة الحفيظية"، م خ ح، 3640.
المشرفي محمد بن المصطفى،
"الحلل البهية في تاريخ ملوك الدولة العلوية" م خ ع، د 1463.
مكروفيلم الخزانة العامة بالرباط رقم 23.
مكروفيلم الخزانة العامة بالرباط رقم 54.
المكناسي محمد التهامي،
- "غنية الإنجاد في مسائل الجهاد"، م خ ح، ز 12313.
المنصوري أحمد بن قاسم،
"من كباء العنبر من عظماء زيان وأطلس البربر"، مكروفيلم في جزئين، خ ع، 946.
المنوني، محمد،
"مظاهر يقضة المغرب الحديث، مطبعة الأمنية 1973.
"مقاومة الدار البيضاء والشاوية ضد التدخل الفرنسي في مطلع القرن العشرين"، أعمال ندوة الدار البيضاء 1982.

المؤذن عبد الرحمان،
"قبائل إيناون والمخزن" 1290 / 1873-1902/1320 بحث لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ. كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط، 1984.
المؤقت، محمد بن محمد المراكشي،
"السعادة الأبدية في التعريف بمشاهير الحضرة المراكشية"، ط. حجرية فاس 1336، جزءان.
الناصري، أحمد بن خالد،
"الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى"، 9 أجزاء، دار الكتاب الدار البيضاء 1956.
الوديي، الطاهر بن محمد،
"الإستبصار في عجائب الامصار..."، مخطوط محمد المنوني.
الوزان محمد بن الحسن، (ليون الإفريقي)،
"وصف إفريقيا" تعريب محمد حجي ومحمد الأخضر، جزءان الرباط 1980-1982.
"مجلة تاريخ المغرب" عدد 2، ص 119-145.

ثانيا دراسات وتقارير وروايات باللغة الأجنبية

* ADAM André, "Essai sur la transformation de la société marocaine au contact de l'occident", Paris 1968.
"Histoire de Casablanca des origines à 1914", F. des lettres d'Aix, 1968.
"Bibliographie critique de sociologie d'ethnologie et de géographie humaine du Maroc", Alger 1972.

* ALBIN Paul, "Le coup d'Agadir", Paris, 1912.

* ALLAIN J. Claude,"Joseph Caillaux et la seconde crise marocaine" 3T. Université de Lille III, 1975.
"Agadir, 1911, Paris. 1976.

* ALLOUCHE I.S., "Document relatifs à Raisuni, "in Hesperis" 1951, 3e-4e, tr., pp. 327-353.

* ARNAUD Louis, "Au temps des Mehailas ou le Maroc de 1860 à 1912", Casablanca 1952.

* AUBIN Eugene, "Le Maroc d'Aujourd'hui" , Paris, 1904.

* AYACHE Germain "Etudes d'histoire Marocaine", SMER Rabat, 1979.
"Les origines de la guerre du Rif", SMER, publication de la Sorbonne, Rabat - Paris, 1981.

* AZAN Paul, " La Frontière Algéro-Marocaine au début de 1907", Paris, 1907.
"Souvenirs de Casablanca", Paris Hachette, 1911.
"L'Expedition de Féz", Paris, 1924.
"Le Combat des Rfakha près de Casablanca - 29 février 1908, Paris 1909.

* BABIN Gustave, Au Maroc par les Camps et par les villes", Paris, 1912.

* BARROUQUERE Claret C., "SETTAT, centre historique de la Chaouia", Paris, 1919.

* BERARD Victor, "L'Affaire marocaine", Paris 1906.

* BERNARD Augustin, "Une mission au Maroc, rapport à Mr. le gr. gl. de l'Algérie" Paris, 1904.
"Histoire du Maroc", Paris 1918.

* BERRADY Lhachmi, "Les chorfas d'Ouezzane, le Makhzen et la France, 1850-1912", thèse de 3e cycle, Aix en provence, 1971.

* BERTI Victor, "Les évènements de Casablanca (5 Aout 1907) "in France outre Mer, (Aout - Septembre 1953 - pp. 16-18)

* BONJEAN Jacques, "L'unité de l'empire cherifien, thèse, Paris 1952.

* BOURDON Georges, "Ce que j'ai vu au Maroc, les journées de Casablanca", Paris 1908.

* BRIGNON J. , BOUTALEB Brahim, "Histoire du Maroc, Hatier Casablanca, 1967.

* BRIVES A., " Les Beni Snassen", Alger, 1908.

"Voyages au Maroc" (1901-1908), Alger, 1909.
* BRUNET (DR.F), "A Casablanca 1er - 7 Aout, 1907, Extrait de la Revue de Paris N° des 15 Mars, 1er et 15 Avril, 1909.
* BURK III Edmund, "Prelude to protectorate in Morocco, precolonial protest and resistance (1860-1912)". Chicago-London, 1976.
"Mouvements sociaux et mouvements de résistance au Maroc. La grande siba de la Chaouia Hesp. Tamuda, 1976-77, pp. 149-163.
* CAILLAUX Joseph, "Agadir, ma politique éxterieur, A.Michel, Paris 1919.
* CAILLE Jacques, "La petite Histoire du Maroc", Paris 1956.
"La représentation diplomatique de la France au Maroc", Paris 1951.
* CAILLE Jacques et François Charles Roux, "Missions diplomatiques françaises à Fes, Paris 1955.
* CAMBON Henri, "Histoire du Maroc", Paris 1952.
* CAMPOU (LUDVIC de), "Un empire qui croule, le Maroc contemporain", Paris, plon 1886.
* CAMPREDON, (Dr. Louis de), "Quarante cinq ans de souvenirs marocaines, (1904-1945)", Casa 1949.
* CAPPERON Louis "Au secours de Fés", Paris 1912.
* CHAPI Mustapha "Quelques grandes familles du Makhzen Marocain au XIX siècle d'après Ben Zidam", thèse du 3ème cycle (T.L. 31).
* CELERIER J., Le Maroc, Paris 1948.
* CHEMIER (M. de), "Recherches historiques sur les Maures et Histoire de l'empire du Maroc", 3 T. Paris, 1787.
* CICARD, "L'organisation des Zaer", R.M.M. T. 10, Juin 1910, 232-257.
* COLIN, G.S., "Shawiya", ENC. de Lislam, 1er ed. IV.
* Comité des douanes, "Statistiques de Mouvement maritime et Commercial du Maroc. année 1909 ; ed. L'indicateur marocain.
* CONJEAUD M.H.G., "Histoire militaire de la Chaouia depuis 1894", ed. du Maghreb; Casablanca S.D. .
* CRUCHET Dr. René, "La conquéte pacifique du Maroc et du Tafilalet"Berger - Levrault, Paris 1930.
* D'AMADE (GL), "Campagne de 1908-1909", Paris.
* DEFOUCAULD (Vicomte Charles), "Reconnaissance au Maroc 1884-1885", Paris1888.
* DELHOMME LT, "Notice sur Settat, "in bulletin de la société de geographie et d'Archeologie de la province d'Oran, T XXX III, 1913 P. 293-339.
* DE PERIGNY ; cte Maurice, "Au Maroc, Marrakech et les portes du Sud", Paris, S.D.
* DEVERDIN Gaston, "Marrakech des origines à 1912", Rabat, 1959.
* Documents diplomatiques Français, Affaires du Maroc, T III, 1907 - 8.
* DOUTTE Edmond, "Marrakech", ed. Comité du Maroc, Paris 1905.

" La situation politique du Haouz au 1er Janvier 1907", rapport au comité du Maroc, A.F.R.C. 1907, pp/ 241-148.
" A Rabat, chez Abd-El-Aziz, Notes prises en 1907, in bulletin de la société de geo. et d'Archeologie de la province d'Oran, 1910, T XXX, P. 21-68.
"En tribu", (Mission au Maroc), Paris, 1914.

* DRAGUE Georges, "Esquisse d'histoire religieuse du Maroc", (Confreries et zaouias) Paris, 1951.
* DURODIER Roger, "De l'évolution de la repression des fraudes dans l'empire cherifien". Paris, 1940.
* DUROZELLE (J.B), "Hitoire contemporain 1848-1914", coll, Monier, Paris 1974.
* DUPUY, E. "Comment nous avons conquis le Maroc", 1845-1912. ed. Roger, Paris; 1913.
* DYE A., "Les ports du Maroc", in bull de la Soc. de geo. Commerciale de Paris, Mars, Mai et Juin, 1908.
* EICKELMANN Dale F. "Quelques aspects de l'organisation politique et économique d'une zaouia marocaine du 19ème siècle un brouillon sociologique", bulletin de la société d'histoire du Maroc Vol IV-V, 1972-73; pp. 37-47.
* ERCKMANN Jules, "Le Maroc moderne" Paris, 1885.
* FLANDRIN et J. Gaulven, "Casablanca de 1889 à nos jours", Casablanca,1928.
* GAILLARD Henri, "La réorganisation du gouvernement marocain", publication du comité de l'Afrique FR, Paris 1916.
* GAIN Cdt, "La Chaouia et casablanca en 1908", bull. du groupement Français des vieux marocains, Mars 1939, P. 8-9, Avril P. 6-7.
* GALAND Lionel, "Baquates et Bargwata", Hesp. 1e - 2e, tr. 1948; pp.204-6.
* GOULVEN J., "L'établissement des premiers europeens à Mazagan au Cours du XIX Siècle", Paris 1918.
"L'histoire d'une ville. Esquisse de la Formation et du développement de Casablanca", in "le Maroc catholique", 1924.
* GOURDIN André, "La politique françaises au Maroc", Paris 1906.
* GOUVION (Voir Marthe).
* GRASSET (Capitaine), "A travers la chaouia avec le corps de débarquement de Casablanca", Paris 1911.
* GRIGUER Jules, "Au Maroc, notes sur le domaine Makhzen", in bull, trimest. de la société de geo. et d'Archéologie d'oran, 1913; pp. 481-498.
* GUENANE, Djamal, "Les relations franco-Allemandes et les affaires marocaines de 1901 à 1911", Alger 1975.
* GUILLEMIN (H), "Biographie du docteur Emile Manchamps", E. Bertrand, 1910.

* GUILLEN Pierre, "Les milieux d'affaires Français et le Maroc à l'aube du XX siècle, la fondation de la Compagnie Marocaine, "Revue Historique TCC XXIX, 1963.
"Les intérêts allemands au Maroc", à la veille de la conférence d'Algésiras", 1965.
"Les emprunts marocains 1902-1904", Paris ed. Richelieu, S.D.
"L'Allemagne et le Maroc de 1870 à 1905", P.U.F., Paris 1967.
"L'Allemagne et le marché marocain à la fin du XIXe siècle, Hesp. Tamuda, 19ème année.
* GUIRAL P., "Quelques lettres sur les débuts de l'intervention françaises au Maroc", Annales de la F. des lettres d'Aix T XXXI, 1957.
* HAJOUI Aomar, "Histoire diplomatique du Maroc, 1900-1912", (Paris) 1937. Maison neuve.
* HARRIS Walter, "Le Maroc disparu", Paris 1929.
* HOUEL Christian, "Mes aventures marocaines", Casablanca 1954.
* HUGUES E. et J.L. MIEGE (voir Miège).
* HUOT Lt-Cl, "La situation politique en chaouia, Aout-Décembre 1907, Décembre-Janvier 1908" in bull de la société de géographie du Maroc, FASC. 2-3 ; 1922.
* JACKSON J.G., "An account of the empire of Morocco, London, 1968, (2ème ed.).
* JAURES J., "Textes choisis"
"Contre la guerre et la politique coloniale", éd. Socials Paris, 1959.
* JOLY A., "Le Siège de Tetouan par les tribus des Djebala 1903-1904", in Archives marocaines, 1905, pp. 266-300.
* JOLY F., "Casablanca, élément pour une étude de geographie urbaine", cahiers d'outre mer, Av.Juin 1948.
* JULIEN Charles A., "Histoire de l'Afrique du Nord", Paris 1931.
"Le Maroc face aux impérialismes (1415-1956)", Paris 1978.
* KENBIB Mohamed, "Les protections étrangères au Maroc aux 19ème siècle - début XX siècle. thèse de 3ème cycle. Université de Paris VII 1980.
* KERDE K. de Chiny, "Un boulevard de l'Islam", Tanger 1895.
* LADREIT de Lacharrière, "L'œuvre française en Chaouia" Afr. FR. Rens, coloniaux, sept 1910, pp. 261-290, Novembre pp. 371-397.
* LAROUI Abdellah, "Les origines sociales et culturelles du nationalisme marocain (1830 -1912)" MASPERRO, Paris 1977.
* LAZAREV Grigori, "Aspects du capitalisme agraire au Maroc, avant le

protectorat". in Annuaire de l'Afrique du Nord, C.N.R.S. Paris 1975, pp. 57-90.

* LECLERC René, "Situation économique et commerciale du Maroc en 1907", Paris 1909, p. 31-32.

* LE COZ Jean, "Le Rharb Fellahs et Colons, 2 T. Rabat 1964.

* LEMOINE, "Mission dans le Maroc occidental, automne 1904, Paris 1905.

* LENINE, "L'impérialisme stade suprême du capitalisme". ed. Progrès, Moscou 1982.

"Illustration (Revue) Juillet-Aout 1907.

* LOUIS Maurice, "La politique marocaine de l'Allemagne", Plon ; Paris, 1916.

* MAIGRAIT (Consul), "La journée du 5 Aout 1907 à Casablanca" b.o., 6ème année, 3 sept 1917, supplément au N° 254. PP. 1-7.

* MARTHE et GOUVION, "Kitab Aayane El Maghrib El Aqca". Alger 1939.

* MARTIN A.G.P. "Le Maroc et l'Europe" E. Leroux, Paris 1928.

"Quatre siècles d'histoire marocaine(1504-1912)" Paris 1924.

* MARTIN L., "Le régime de la protection au Maroc", Archives marocaines, Vol XX. 1908, pp. 1-32.

* MAURA Gabriel, "La Question du Maroc au point de vue espagnol", Paris 1911. (1ere ed. espagnole en 1905).

* MAURAN Dr., "Le Maroc d'Aujourd'hui et de demain", Paris 1909.

* MEGE E., "Notes sur les Mzab et les Achache", A.B. Vol 3, Fasc 2-3 1918, pp. 187-257.

* MEZZINE Larbi, "Contribution à l'histoire du Tafilalt, Aspects d'histoires économiques et sociales du Sud-Est Marocain au XVII-XVIII siècle à travers l'analyse de quatre documents inedits", thèse de 3ème cycle, Sorbonne 1977.

* MICHEAUX BELLAIRE E., "Une tentative de restauration idrisside à Fes", R.M.M. Vol V, 1908, P 393-423.

"Un rouage du gouvernement marocain, La Beniqat ech chikaïat de Moulay Abd El Hafid", R.M.M. vol V, 1908, pp. 242-258.

" L'organisme marocain", R.M.M Vol. 9. Sept 1909. pp. 1-43.

"Le gharb" Arch-Marocaine, T.XX.

"Les impôts marocaines", A.M. 1904, Vol 1.

* MICHEL (Avocat),? "Extract From a private letter dated Tangier 15 th august 1907".

* MIEGE J.L., "Le commerce du sucre à Casablanca à la fin du XIXe siècle", bulletin économique et soc. du Maroc, 1952, N° 53; PP. 248-258.

"Le commerce marocain des laines au XIXème siècle", bull. eco. social Maroc, 1953 pp. 212-226.

"Les origines du developpement de Casablanca au XIXème siècle", Hesp. 1953, 199-225.
"Le Maroc et l'Europe (1830-1894)" 4 T, Paris 1961-1963.
"Documents d'histoire économique et sociale marocaine au XIXème siècle", C.N.R.S. Paris 1969.

* MIEGE J.L. et EUGENE Hugues, "Les europeens à Casablanca au XIXe siècle (1856-1906), Paris 1954.
* MONTAGNE Robert, "Les berbères et le Makhzen dans le sud du Maroc", Paris 1930.
* MONTALEMBERT (A.DE), "La protection et les associations agricoles au Maroc", rapport au comité du Maroc, A.F.R.C. 1907, pp. 109-115.
* MONTELLE, (A) "Les événements de Casablanca", Revue Française de l'étranger et des colonies ; 1907 pp. 536-40 et 591-97. 1908, pp. 281-288 et 354-362.
"Opérations dans la chaouia" Rev.fr. de l'étranger et des colonies 1908, pp. 103-108.
* MOULIN (H.A), "La question marocaine d'après les documents du livre jaune", Paris, A. Rousseaux, 1906.
* NEHLIL Mohamed (voir Sources).
* NIDDAM Jacob, "Journal, 1901-1910, Publié sous le titre "Un correspondant de révolution, par Maitrot de la motte capron et Trenga, dans le bull. de la société de geo. d'Alger et de l'Afrique du Nord, 1-2 trim., 1936.
* NOLY Emile Lt, "Gens de guerre au Maroc", 6ème édition Paris.
"Notice économique sur Casablanca et la région des Chaouia", Casa, 1915.
* ODINOT Paul, "Rôle politique des confreries religieuses et des Zaouias au Maroc". in bull. trim. de la société de geographie et d'Archeologie d'Oran, T 51, Mars 1930, pp. 37-71.
* PASCON Paul, "Le Haouz de Marrakech", 2 vol, Rabat 1977.
* PINON René, "Au Maroc, fin des temps heroïques" Paris 1935.
* POBQUIN E., "Sur la côte ouest du Maroc", Paris 1908.
* PORTALIER R., "Choses oubliées. Le port de Casablanca et la marche sur Fes, Avril-Mai 1911", dans le Maroc Maritime, 15 Juillet 1930, pp. 16-17.
* QUEDENFELDT M., "Division et répartition de la population bérbère au Maroc, traduit de l'Allemand par H. Simon, Alger, 1904.
* RABANIT Henri, "Les journées de Casablanca", dépêche colonial, 1-2-3-4 Aout 1932.
* RANKIN Reginald, "Au Maroc avec le général d'Amade", 3ème ed. Paris, 1909.
* RENOUVIN, "Histoire des relations internationale le XIXe siècle", 2 vol, presses universitaire, Paris.
* Résidence, Gle, "Liste des confédérations des tribus et des principales fractions

du Maroc" plus une carte générale", 1935.
* "Répertoire alphabétique des confédérations de tribus, des fractions des tribus et des agglomérations de la zone françaises de l'Empire chérifien, au 1er novembre 1939", Casablanca 1939.
* "Répertoire alphabétique des agglomérations de la zone française de l'Empire chérifien", Rabat 1941.
* RICARD R., "La côte Atlantique du Maroc d'après des instructions nautiques portugaises", Hesp. 1927.
* ROUARD DE CARD E., "Documents diplomatiques pour service à l'étude de la question marocaine", Paris, 1911.
"Les relations de l'espagne et du Maroc pendant le XVIIIe et le XIX siècle, Paris 1905.
* ROUX Charles (voir Caille J.).
* RULLIER, MARCEL et Dr. M. LADJIMI, "Berguent" Oran 1923.
* SABATIER Camille, "L'erreur d'Algésiras", Revue politique et parlementaire" 1er Novembre 1907.
* SAINT-AULAIRE (comte de), "Confessions d'un vieux diplomate", Paris, 1953.
* SAINT CHAPELLE (colonel), "La conquète du Maroc, Mai 1911, Mars 1913", Paris, 1913.
* SALMON G., "Le Tertib" Arch. Mar. T. II, 1905, pp. 254-158.
* SANS BARTHELENY, "Légende marocaine au sujet de Dar el Beida, nom arabe de Casablanca" in bull. trim. société de geo. et d'Archeo. d'Oran, T.XLV. 1925, P 306.
* SEGONDS (Lieutenant), "La Chaouia et sa pacification".Charles Lavauzelle, Paris S.D.
* SEGON-ZAC (Mis de), "Voyages au Maroc, (1899-1901) "Paris ed. A.Colin, Paris 1903).
* SICOT M., "Organisation et Fonctionnement des contrôles civils", Rabat 1921.
* SIMON Marcel, "Settat, ses caids, ses origines", in bull. trim. soc. geo. d'Archeo. d'Oran, 3ème trimestre 1912.
* SLOUCH Nahum, "L'empire des Berghouata et les origines des bled essiba, RMM, T.X N°3 1910.
* TAILLANDIER (Saint-René), "Les origines du Maroc français récit d'une mission (1901 -1906), "Paris Plon, 1930.
* TARDIEU A. " La conférence d'Algésiras 1906. Histoire diplomatique de la crise marocaine", Paris 1909.
* TARRIOT A., "Monographie de Casablanca de 1907-1914", Casablanca 1924.
* TERRASSE Henri, "Histoire du Maroc des origines à l'établissement du protectorat français", 2 vol, Casablanca 1950.
* TORCY (Gle), Les opérations du général Moinier, leurs conséquences" Paris 1911.
* TUBERT P. (Lt), "La Chaouia" in bull. soc. d'Alger et de l'Afrique du Nord,

1914, 1cr et 2ème trim. pp. 38-73 et 173-201.
* VAFFIER - POLLET E., "L'agriculture et l'élevage au Maroc", A.F.R.C. 1906, pp. 205-209.
"Les associations agricoles au Maroc", AFRC, 1906 pp. 234-239 et 263-265.
* VEYRE Dr. Gabriel, "Dans l'intimité du Sultan Moulay Abd-el-Aziz" Paris S.D. 1905.
* Villes et tribus du Maroc "Documents et renseignement publics sous les auspices de la résidence générale.
"Casablanca et les Chaouia" 2 T Paris 1915.
* VINCENT Ernest, "Notes d'un témoin A.F. 1907 p. 335.
* VOINOT L.colonel, "Les conséquences de la lutte du Makhzen et du Rogui à Proximité de la frontière Algérienne (1903-1905) Oran 1934.
"Sur les traces glorieuses des pacificateurs du Maroc, C. Lavauzelle, Paris 1939.
* WEISGERBER (F.DR), "Trois mois de campagne au Maroc", Paris 1904.
"Les Chaouia", Paris 1907.
"Casablanca et les Chaouia en 1900" imprimeries réunies, Casa 1939.
"Au seuil du Maroc moderne", Rabat 1947.
"Archives du Dr Weisgerber (2 cartons), archives général de Rabat.
* WOLFROM, Gustave, "Le Maroc ce qu'il faut en connaitre" challamel, 1906.
* XICLUNA, M., "Le Fetoua des Oulama de Fès, A.M.T. 3, 1905, pp. 141-143.
* YVES F. "Le Maroc d'Algésiras à la souveraineté économique", Paris 1957.
* ZIMMERMAN, Maurice, "Paysage et villes du Maroc", imprimerie expresse Lyon 1923.

ـ اعتمدنا في الموافقة بين التاريخين الهجري والميلادي على كتاب

* GATTENOZ (H.G.) "Tables de concordance des ères chrétienne et Hégirienne, 3ed. Rabat, 1961.

فـــهـــــرس المـــــــواد

المقدمـة :..... 5

مقدمة عامة..... 13

الباب الأول

المغرب والتدخل الأجنبي في بداية القرن العشرين 25

الفصل الأول : الوضعية الداخلية : التطورات السياسية والإجتماعية 27

مـدخـل..... 27

1 - التطورات السياسية..... 29

2 - ترتيب 1901 وعواقبه الإجتماعية..... 30

عواقب انتفاضة بوحمارة.....

الفصل الثانـي : سياسة التدخل الفرنسي وردود فعل المغاربة..... 45

1 - نتائج سفارتي 1901..... 45

2 - الإتفاق الودي وعواقبه..... 47

3 - اقتراض 1904 ونتائجه..... 49

4 - التهافت الفرنسي بعد اتفاق 8 أبريل واقتراض 5 % 1904... 50

5 - ضـغـط فرنسـي وصمـود مغربـي : فشـل مشـروع «اصلاحات» 1905 52

كيف واجه المخزن السفارة الفرنسية..... 53

استدعاء مجلس أعيان الأمة..... 54

6 -حقيقة الموقف الألماني..... 55

- نتائج زيارة الإمبرراطور الألماني لطنجة 1905..... 57

خلاصة..... 60

الفصل الثالث : مؤتمر الجزيرة 1906 :..... 73
1 - حقيقة قرارات مؤتمر الجزيرة..... 74
2 - نتائج ميثاق الجزيرة 77
الفصل الرابع : مابعد الجزيرة : مقاومة التغلغل الفرنسي..... 87
- حادث شربوني ، 27 ماي1906..... 89
- محاولة إنزال فرنسية إسبانية..... 91
- دوافع ونتائج قتل موشان 19 مارس 1907..... 92
- احتلال وجدة 29 مارس 1907..... 95

البـــاب الثـــانـــي

قبـائـل الشاويـة والتـدخـل الأوربـي

1907 - 1873 107
الفصل الخامس : البيئة والسكان..... 109
أولا : حدود إقليم الشاوية وأهمية موقعه 109
- تامسنا - أهمية الموقع.....
ثانيا : أصول قبائل الشاوية وتقسيماتها..... 111
1 - الأصول 111
- برغواطة..... 111
- القبائل العربية..... 112
- زناتة وهوارة..... 113
- معنى الشاوية..... 113
2 - تقسيمات قبائل الشاوية خلال القرن 19 114
3 - عدد قبائل الشاوية عند نهاية القرن 19..... 120

الفصل السادس : الأهمية الإقتصادية للشاوية خلال القرن 19 : 129

تقديـــم :

1 - خصوبة أرض الشاوية ووفرة إنتاجها..... 130

2 - التطور الإقتصادي للدار البيضاء خلال القرن 19..... 134

- تطور تجارة الدار البيضاء والاستقرار الأوربي بها..... 135

- المبادلات التجارية..... 138

- مستفادات الدار البيضاء..... 142

- الدار البيضاء والاطماع الفرنسية..... 145

- تطور سكان الدار البيضاء..... 147

- الجالية الأجنبية..... 147

- مجموع السكان..... 148

- عناصر ادارة الدار البيضاء سنة 1907..... 149

الفصل السابع : أثر التدخل الأوربي بالشاوية..... 157

1 - الحماية..... 157

2 - المخالطات..... 158

3 - عواقب الحماية والمخالطة..... 160

4 - عواقب التدخل الأجنبي بالمزامزة..... 165

5 - استنتاج عام..... 169

الفصل الثامن : انتفاضة الشاوية 1894 - 1907..... 179

أولا : الوضع السياسي والإجتماعي بالشاوية 1894 - 1903..... 179

ثانيا : انتفاضة الشاوية 1903 - 1907..... 182

ثالثا : دوافع الإنتفاض وزعماؤه..... 185

رابعا : تحول الإنتفاض إلى جهاد..... 191

خامسا : ماء العينين ومقاومة الأجانب بالشاوية..... 193

سادسا : محمد بن الطيب البوعزاوي وجهاد الشاوية..... 195

البـــــاب الثـــالـــث

حـــادثـــة الـــدار البيضاء 1907 205

الفصل التاسع : حادث 30 يوليوز 1907..... 207

تقديـــــم 207

أولا : ردود فعل سكان الشاوية بعد احتلال وجدة..... 208

ثانيا : الدوافع الحقيقية وراء الحادث..... 212

- اشغال ميناء الدار البيضاء..... 215

- مسألة المراقبة المالية 1904 - 1907..... 219

ثالثا : مقتل عمال الشركة الفرنسية التسعة 30 يوليوز1907..... 223

رابعا : الحالة بالدار البيضاء بعد حادث 30 يوليوز..... 228

خامسا : موقف القبائل بعد حادث30 يوليوز..... 230

سادسا : كيف استغلت الحكومة الفرنسية الحادث..... 232

سابعا : موقف المخزن..... 236

الفصل العاشر : قنبلة الدار البيضاء 5 - 7 غشت 1907..... 245

1 - التهييء للقنبلة..... 245

2 - انزال بحارة كاليلي فجر يوم 5 غشت ونتائجه..... 251

3 - الشروع في القنبلة..... 254

4 - مقاومة الإنزال..... 256

5 - وصول الأسطول وجيش الحملة الفرنسية للدار البيضاء..... 259

أ - مذبحة السور الجديد..... 260

ب - فظائع جيش اللإحتلال..... 262

حـ - من هم المسؤولون عن النهب..... 263

الفصل الحادي عشر : نتائج الحادثة 271
أولا : حجم التخريب 271
ثانيا : تقدير عددالقتلى 272
ثالثا : النتائج السياسية للحادثة 276
- محاكمات تعسفية 277
- من هو أبو بكر بن بوزيد 277
- سجنه .....
- محاكمة زعماء االحركة الشعبية بالدار البيضاء..... 278
- الحاج محمد بن الحاج حمو الحريزي..... 278

البـــاب الـرابـــــع

جهاد الشاوية ضد الاحتلال الفرنسي

أو عمليات الاحتلال والمقاومة 287
الفصل الثاني عشر : معارك الدار البيضاء :..... 289
1 - قتال يوم 10 غشت 1907..... 290
2 - قتال يوم 18 غشت1907..... 291
3 - معركة دار بوعزة 28 غشت 1907..... 294
نتائج معركة 28 غشت..... 297
4 - معركة سيدي مومن 3 شتنبر1907..... 299
5 - تعبئة (تكتيك) المجاهدين في مواجهة جيش الاحتلال..... 303
6 - تعبئة (تكتيك) جيش الاحتلال..... 304
7 - تصرف جيش الاحتلال..... 306

الفصل الثالث عشر : موقف مولاي عبد الحفيظ والسلطان 315
مولاي عبد العزيز من الجهاد بالشاوية 316
1 - الشاوية يطلبون مساندة مولاي عبد الحفيظ..... 317
2 - بيعة مراكش والحركة الحفيظية..... 318
3 - قوات مولاي عبد الحفيظ تتدخل في الشاوية..... 320
- دور محمد بن داوود الشرقاوي..... 320
4 - موقف مولاي عبد العزيز..... 322
- مفاوضات الرباط بين السلطان والفرنسيين..... 322
- محلة ابن البغدادي بالشاوية..... 324
- انهزام المحلة العزيزية بسيدي ابن سليمان..... 326
- نتائج هزيمة المحلة العزيزية..... 331
5 - عزل الجنرال درود.....
الفصل الرابع عشر : معارك الشاوية يناير - ماي 1908 : 332
مهمة الجنرال داماد 332
1- معركة سطات الأولى 15 يناير..... 333
2 -معركة عين مكون 24 يناير..... 334
3 - معركة القصابي 2 فبراير..... 336
4 -معركة سطات الثانية 6 فبراير..... 338
5 - معركتي برابح وسيدي عبد الكريم 16 - 17 - 18 فبراير..... 342
6 - معركة فخفاخة 29 فبراير..... 342
7 - عمليات مارس 1908..... 342
- مذبحة مكارطو 8 مارس..... 344
- مذبحة سيدي الغنيمي 15 مارس..... 345

9 - معارك الغابة..... 346
- تكتيك الجنرال داماد..... 347
- تعبئة الشاوية خلال معارك سنة 1908..... 349
- دور المذاكرة..... 351
استنتاجات ودروس من معارك الشاوية..... 353
الفصل الخامس عشر : قضية احتلال الشاوية بين فرنسا ومولاي عبد الحفيظ
1 : نهاية مولاي عبد العزيز..... 361
2 :. المفاوضات بين مولاي عبد الحفيظ وفرنسا..... 362
- مسألة الإعتراف..... 362
- مسألة تعويضات الدار البيضاء.....363
- مسألة الجلاء عن الشاوية..... 369
خاتمة واستنتاجات 379
المصادر..... 383
البيبليوغرافيا..... 389

مهما يكن فرأيي في هذا العمل واضح . فأتمنى أن يقرأه لا المؤرخون فقط ، بل أكثر مايكون من القراء العاديين. ولا في المغرب فقط بل حتى في الخارج وبفرنسا خاصة. ولهذا وددت لو ترجم كله أو بعضه إلى الفرنسية. ذلك أن كثيرا من المغاربة مازالوا يتشبعون في هذا الموضوع من أمثال طيراس "Terrasse" بالفرنسية أما علال الخديمي فلن يقرأه فرنسي واحد بالعربية ، وهذا يعود ضرراً ، لاعليهم فقط بل حتى على المغاربة.

د.جرمان عياش

افريقيا الشرق

159 مكرر، شارع يعقوب المنصور

الدار البيضاء

25.95.04

25.98.13